بحوث

في

التاريخ والحضارة الإسلامية

الجزء الثاني



الأستاذ الدكتور

غيثان بن على بن جريس

استاذ ورئيس قسم التاريخ

بجامعة الملك سعود

كلية التربية - فرع أبها

دار السماح للطباعة

الإسكندرية

بحـــوث
في
التاريخ والحضارة الإسلامية

الجزء الثاني

الأستاذ الدكتور
غيثان بن علي بن جريس
استاذ ورئيس قسم التاريخ
بجامعة الملك سعود
كلية التربية - فرع أبها

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ/١٩٩٧م

دار السماح للطباعة
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـــرس

الفهـــرس

الصفحة

توطئـــة

بعد مرور أربع سنوات من إصدار كتابنا الموسوم بـ "بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية "الجزء الأول، والذى قدم له أستاذنا الكريم الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ، رئيس اتحاد المؤرخين العرب ، يأتى الآن ، بتوفيق من الله ، وقت إصدار الجزء الثانى بذات العنوان الذى صدر به الجزء الأول . وفى هذا الجزء نقوم بجمع ثم نشر خمس عشرة مقالة علمية ، مع العلم أنه سبق أن نشرناها جميعاً فى مجلات علمية وثقافية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها . وسيجد القارىء الكريم فى هذا الجزء العديد من الدراسات التاريخية التى تلقى الضوء على جوانب من التاريخ السياسى والحضارى المركزة على كثير من النواحى لمنطقة القرن الإفريقى ، أو ما عرف بـ "دول الطراز الإسلامى" فى شرق إفريقية ، هذا علاوة على مواضيع أخرى جديدة فى مبحثها : كالقدس الشريف خلال القرون الإسلامية المبكرة ، أو ظاهرة سمل العين فى العصور الوسطى ، أو مهنة الطب فى ضوء شريعة الإسلام ، أو البحر فى كتب التراث الإسلامى ، أو زى الطيلسان ، أو جدة فى مواجهة الخطر البرتغالى خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .... الخ .

أما عن الدوافع التى جعلتنى أجمع هذه البحوث فى كتاب متكامل ، فهى نفسها الدوافع التى جعلتنى أبدأ الجزء الأول منذ أربع سنوات ، ومن أعظم تلك الدوافع إلحاحا على نفسى لاستكمال هذا الجزء أمران هما :

١- تباعد الزمان والمكان الذى اتصف به صدور هذه الدراسات ،ولهذا أصبح من الصعب أو المتعذر على الباحثين الرجوع إليها والإفادة منها ، وبخاصة مانشر منها فى مؤتمرات أو ندوات أو مجلات علمية محصورة فى المؤسسات أو الجامعات التى تتولى الإشراف عليها .

٢- إلحاح الكثير من زملائى فى التخصص وتلاميذى فى الحصول على نسخ من بعض تلك البحوث ، وهذا ماجعلنى أيضاً أواصل جمعها فى كتاب

واحد ، وعلى النهج الذي سلكنا من قبل في الجزء الأول ، أي أن نشرنا لهذه الدراسات سيكون فقط إعادة لنشرها في مكان واحد ، بعد أن كانت متناثرة في أماكن متفرقة ، مع الإشارة في مقدمة كل بحث إلى المكان أو المجلة التي سبق أن نشرت به كل دراسة .

ولايسعني هنا إلا أن أقدم جزيل شكري لأستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور / سعيد بن عبد الفتاح عاشور ، رئيس اتحاد المؤرخين العرب ، الذي شرفني بمراجعة الجزء الأول والتقديم له ، كما أشكره أيضاً على مساعدتي في قراءة أغلب هذه البحوث التي نشرت في هذا الجزء ، وذلك قبل نشرها في العديد من المجلات العلمية المختلفة ، فله - إن شاء الله - الأجر والمثوبة من رب العالمين ، وله مني الثناء والتقدير .

كما أشكر أيضاً إخواني وأصدقائي وزملائي في كلية التربية بأبها ، وهم : - الأستاذ الدكتور / السر سيد أحمد العراقي ، والدكتور / وديع فتحي عبد الله ، والدكتور / إبراهيم راشد على ما قدموا لي من عون ومساعدة في قراءة وإضافة الكثير من المعلومات والنصائح في أثناء دراسة وتأليف العديد من المقالات التي نشرت في هذا الجزء . فلهم - إن شاء الله - التوفيق والنجاح في جميع أمورهم ولهم مني الشكر والتقدير والعرفان .

وفي الختام ، أرجو الله العلي القدير أن يوفق الجميع لما فيه خير الإسلام والمسلمين ، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

والله ولي التوفيق........

كتبه

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

بمدينة أبها في العشر الأخير من شهر الله

المحرم عام ثمانية عشر وأربعمائة

وألف من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة

وأتم التسليم

المبحث الأول

رأى حول تدريس التاريخ فى الجامعة(*)

(*) هذا البحث نشر فى مجلة المنهل العدد (٥٠٧) مج (٥٥) (صفر ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م . ص١٢-١٧ . ثم أجريت عليه بعض التعديلات ونشر مرة أخرى فى مجلة القافلة العدد (١١) مج (٤٢) (ذو القعدة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) ص ٤٤-٤٧.

رأى حول تدريس التاريخ فى الجامعة

صاحب التطور الحضارى الحديث تطور مماثل فى مفهوم التاريخ واسلوبه ومنهجه ، فالتاريخ يحتل مكانة مرموقة فى عصر يتميز بتقدم العلوم ، ولقد بذل المؤرخون جهدا شاقا فى نقل التاريخ من مفهومه القديم المتمثل فى الخطابات والأساطير إلى مفهومه الحديث المتمثل فى دراسة التجربة الإنسانية بمعناها الشامل والبحث عن أسبابها الحقيقية فى ثنايا التطور الحضارى للإنسان ، والتاريخ لم يعد مملوكا للشعوب الحضارية القديمة فى الشرق الأدنى القديم والصين والهند ، وإنما دخلت فيه جميع الشعوب واستعان منهجه بالعديد من العلوم ، كما اتسعت مجالات دراسته وبحثه فأخذ من الشعوب والبيئة معا .

وقبل الإستطراد فى حديثنا ، حول التاريخ وكيفية تدريسه ، رأينا طرح ثلاث نقاط ، وبالإجابة عليها قد نخلص إلى بعض الآراء والحلول حول تدريس التاريخ ، وهذه النقاط المقترحة نوردها فى صيغة أسئلة ، الأول : ماهى أهداف تدريس التاريخ ؟ الثانى : ماهى الإتجاهات المعاصرة فى تدريس التاريخ ؟ الثالث : كيف ندرس التاريخ فى جامعاتنا ؟

اهداف تدريس التاريخ :

لم تهتم أغلب جامعاتنا العربية والإسلامية اهتماما كبيرا بتحديد أهداف تدريس التاريخ بها ، ولذلك بقى تركيزها على الجانب المعرفى وحده دون الجوانب الأخرى ، وهذا لايحقق الفائدة من دراسته ، ويمكن إيجاز أهم أهداف تدريس التاريخ فى الجامعة فيما يلى :

* تزويد الدارسين بالحقائق والمعلومات والنظريات والقوانين التاريخية بصورة تحقق أهداف التاريخ .

* تدريب الدارسين على الأسلوب العلمى فى دراسة التاريخ واجراء البحوث المتصلة به ، خاصة أن الدارسين في الجامعات يكونون أكثر نضجاً ، ويترتب علي ذلك ازدياد قدرتهم على الفهم والإستيعاب والتحليل وإدراك العلاقات والربط واستنباط النتائج والقدرة على الإنتفاع بدراسة الظواهر التاريخية دراسة تساعدهم على تفهم حاضرهم والتخطيط لمستقبلهم والإستفادة من خبرات الأجيال السابقة .

* ترسيخ وغرس القيم الروحية والمفاهيم الدينية والأخلاقية والسياسية التي يحتاج إليها الطالب في اثناء دراسته .

* يشارك المواطن الصالح الفاعل في مجتمعه بالرأي والفكر السديد وبتكوين رؤية تاريخية عند الطلاب ، مستمدة من استقراء التجارب والخبرات والمواعظ والعبر ، فيستطيع الطالب انطلاقاً من هذه الرؤية التاريخية أن يحلل، وأن يربط الأحداث ، ويستطيع بذلك أن يكون له موقف ورؤية لما يحدث من حوله سواء كان في المجتمع ، فيساعد ذلك على حل مشاكله ،أو في المجتمعات من حوله ، فيستطيع من خلال سير الأحداث واتجاهاتها أن يكون ملماً بما حدث ويحدث من حوله . ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تزويد الطالب بالمهارات والقدرات والخبرات والمنهج العلمي . إن رقي المجتمع وتقدمه رهن بنجاحنا في غرس صفات الخلق والإبتكار والتحليل والمبادرة ، والإعتماد على النفس ، فالعقلية العملية تتغلب على المشاكل وتقهر الصعوبات ، وتبني المجتمع بناء سليماً ، وتختصر الزمن فتقطع المسافات بأقل قدر من الجهد والوقت وبذلك تنفك من أسر التخلف وتلحق بركاب الدول المتقدمة .

* مد الشباب بالزاد المعرفي ، والقدرة على الوقوف امام التفسيرات

الخاطئة والمضللة التي تحاول أن تشكك أبناء الأمة في ذاتهم وماضيهم الحضاري .

* ترسيخ وعي الطلاب بقضايا الوطن والعروبة والإسلام .

الإتجاهات المعاصرة في تدريس التاريخ :

يمكن ايجاز أهم تلك الإتجاهات فيما يلي :

* مسايرة التطور في مفهوم التاريخ ، فقد تطور مفهوم التاريخ من تاريخ الأفراد والقادة والبطولات إلى تاريخ الشعوب والأمم والظواهر الإجتماعية المهمة ، وهذه القضية يطول شرحها ، والحقيقة أن الأكثر شيوعاً ومما درسناه وندرسه أن التاريخ مرتبط بالشخصيات السياسية والقادة والعسكريين ، وهذا مفهوم يجب علينا أن نتجاوزه لنصل إلى أننا لا ننكر دور الفرد وأثره في التاريخ ، لكننا نقول أن الفرد أو البطل من صنع مجتمعه وانه نتيجة حتمية للقوى الفاعلة في المجتمع وظهوره يأتي استجابة لحاجات إجتماعية ، سواء كانت دينية أو سياسية أو إقتصادية أو عسكرية ، اذن يجب دراسة القوى الإجتماعية والتحديات التي واجهتها الأمة فانبثق عنها ظهور البطل وفعاليته ومجالات تأثيره . والخلاصة يجب أن يدرس التاريخ على أساس الفلسفة أو الرؤية الحديثة التي تسلم بأهمية الشعوب التي تنسب إليها احداث التاريخ ، فالشعوب هي التي صنعت التاريخ وتصنعه ، فالزعيم أو الفرد أو البطل أو القائد ، ليس إلا ظاهرة إجتماعية فلا خير في زعيم ولا أمل في نجاحه إلا إذا كان ممثلاً للأمة ، بل ومعبراً عن إرادرة شعبه .

* توسيع مجال دراسة التاريخ بحيث لا تقتصر على التاريخ السياسي فقط، بل ليشمل جميع النواحي الخاصة بالمجتمع والعوامل المؤثرة فيه ثقافية كانت أو إجتماعية أو إقتصادية أو روحية إلى غير ذلك . فالتاريخ ينقل

الوقائع والأحداث والحروب معتمداً على الأسلوب العلمي في تحديد المشكلات واستقراء الأحداث والظواهر ، والتحليل ومناقشة الظروف والملابسات التي أدت إلى نشوء الأحداث المختلفة .

* توكيد علاقة التاريخ بالبيئة ، وذلك لكي تكون دراسة التاريخ أكثر جدوى لأنها ينبغي أن تعطى إهتماماً مركزاً لدراسة الظواهر التاريخية في البيئة المحلية التي يعيش فيها الدارس ، ثم تتسع الدراسة إنطلاقاً من تاريخ البيئة المحلية إلى دوائر أوسع ممثلة في بلداننا العربية بالبيئة العربية والإسلامية ثم العالمية فتتضح العلاقات وتتقوى الصلات وتتحقق أهداف دراسة التاريخ .

* ارتباط دراسة التاريخ بغيرها من الدراسات ، ولهذا فدراسة التاريخ قديماً كانت تسير في طريق تخصص ضيق يفصل بين التاريخ والعوامل المؤثرة فيه، وهذا لم يكن أمراً طبيعياً ولا مقبولاً فتاريخ الإنسان لا ينفصل عن ظواهر البيئة وامكاناتها ، ولا عن جهود العلماء للإنتفاع بهذه البيئة ، ولا عن التقدم العلمي أو الإقتصادي أو الإجتماعي ، وقد أدى كل ذلك إلى توثيق الصلة بين دراسة التاريخ وغيره من الدراسات السياسية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها . ومما يلاحظ أن التخصص في التاريخ قد فهم عند بعض الدارسين خطأ بأنه التعمق في دراسة مجال معين قديم أو وسيط أو حديث ، دون توافر الخلفية التاريخية والثقافية اللازمة لوضع هذا المجال أو التخصص المعين في إطاره العلمي السليم وإدراك علاقاته بغيره من الدراسات والموضوعات التي يتضمنها التاريخ في تكامل وثيق . ويمكن القول عن العملية التربوية الآن بأنها علم وصناعة تزويد الجيل الصاعد بالقدرات والمهارات التي تمكنه من تطوير الجماعة إلى مستوى أعلى وحياة أفضل ، والتاريخ بمفهومه الحديث هو من أقوى وسائل التربية الحديثة في

تحقيق وظيفتها لتحقيق حركة الجماعة نحو ما هو أفضل . ويجب أن نضع في الإعتبار دائماً وابدا أن الحياة العملية والعلمية دائمة التغيير عصراً بعد عصر، ولابد أن يعطي التعليم قيماً لتلك الحياة ، فكلما تطورت ، تطور بمقدار ما تطورت ، وان لم نفعل ذلك نشأت فجوة بين أوضاع الحياة الواقعية أو المعاشية من جهة والشباب المتعلم من جهة أخرى ، وبالتالي سيعيش حينئذ واقعاً متخلفاً تجاوزته الأحداث فلا يستطيع التكيف معها ، ولا تستطيع المجتمعات الإفادة من علمه الذي سيتحول إلى قيمة سلبية لا تتفاعل مع الواقع .

تدريس التاريخ في جامعاتنا :

إن التدريس فن قائم بذاته ، مكوناته الموهبة والرغبة إلى جانب المادة ، ولهذا نختلف كلنا في طريقة تدريسنا للطلاب. والحقيقة أننا ندرس التاريخ لطلابنا لكن كيف ؟ هل سألنا أنفسنا هذا السؤال ، واعتقد أنه سؤال مهم لأن مناهجنا مختلفة ووجهات نظرنا مختلفة أيضاً ، ولكن يجب الإتفاق على الحد الأدنى في منهجية تدريس التاريخ ، وماهية التاريخ الذي ندرسه ، ثم بعد ذلك الإتفاق على الحد الأدنى للمنهج أو الطريقة التي ندرس بها ، والكثير من المشتغلين في تدريس التاريخ من ينهج المنهج السردي ، ويقضى جل محاضرته أو محاضراته يتحدث عن معركة كذا أو قائد كذا ، أو مؤامرة كذا ، وبالتالي يحشو ادمغة الطلاب أو الدارسين بكلام عندما نمعن النظر فيه ونقيمه لا نخرج نحن ولا الطلاب بثمرة تذكر . اذن ما الفائدة من تدريس التاريخ ، هذه الطريقة تنفر الطلاب من دراسة التاريخ باعتباره قصصاً . وللأسف هذا هو مفهوم التاريخ عند كثير من الطلاب ، وان عملنا بهذه الطريقة بقصد أو بغير قصد نحن نرسخ هذا المفهوم ، فيجب تحديد الهدف العام والهدف الخاص لكل محاضرة من المحاضرات قبل البدء فيها ، وهل نريد أن

نرسخ قيماً معينة ومعلومات تاريخية معينة ، وهل هذا يتم عن طريق السرد ؟ فنقول حدث كذا في عام كذا ، هذا ليس المطلوب، الذي يعطي التاريخ قيمته وثقله ووزنه وأبعاده ومعانيه ، تحليل الحدث وتعليل الظروف والملابسات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والفكرية والروحية التي حدثت الأحداث في اطارها هو الذي يعطي للحدث معنى وجوهراً.

وبهذا فالتركيز على تدريس التاريخ لا يكون للحدث التاريخي وحده ، وإنما الظروف التي صاغت الحدث ، وهي التي تجعل الحدث مفهوماً وتجعل له معنى ، لأن الحدث نفسه مجرد زمان ومكان والزمان قد يكون أزمنة والمكان أمكنة ، وصنع القرارات وإتخاذها قد تتعدد اماكنها وازمنتها بل وظروف اتخاذها ، فلابد من دراسة كل ذلك وربط بعضه حتى تخرج الصورة متكاملة ، والإنسان هو صانع الأحداث ودراسة الجوانب المختلفة في هذا الإنسان قد تلقي الضوء على ظروف الحدث وعلينا كأساتذة أن نقود الطلاب دائماً إلى طرح السؤال لماذا وكيف ؟ ونستنفر هممهم وطاقاتهم وجهدهم للإجابة على لماذا وكيف ، وبهذا نكون اتبعنا المدرسة التحليلية وهي بدون منافس الخيار الأول والأفضل في تدريس التاريخ . فمشكلة تدريس التاريخ ليست مسألة كم وإنما هي مسألة كيف ، ولهذا فعلاج المشكلة ليس القيام بزيادة عدد المحاضرات أو عدد المقررات ، ولا بتجديد المقررات باضافة موضوعات جديدة ، وإنما العلاج يجب أن يكون كيفياً أي متعلقاً بالكيفية التي نعالج بها نحن المقررات ، وكيف نشغل الوقت المخصص للمحاضرة أو المادة معاً . والواجب أن تدرس الموضوعات التاريخية على أساس النظر إلى الحاضر بمقوماته ودروب تجديده للحياة على ضوء العلم التاريخي الذي يفسر الحاضر بالماضي عن طريق المقابلة والربط والنقد وتفسير الحوادث والوصول من كل هذا إلى رؤية جديدة تعلم الطلاب بعض الحكمة ، وبعض المواقف في

أمر يخص مجتمعهم واتجاهاته وطرق رفع مستواه . ومعنى هذا أن التاريخ ليس درسا في الوطنية السلبية التي تقوم على الإعجاب بالماضي والفخر بصنع السلف ، ولكنه درس في الوطنية الإيجابية ، لا التغني بالأمجاد لنقف متحسرين على ضياع تلك الأمجاد ، بل يجب أن نعلم طلابنا لماذا وكيف حقق الأجداد تلك الأمجاد الماضية ، وما هي الأسباب التي جعلتها تاريخاً مشرفاً ، ثم ماذا يجب علينا أن نعمل كي نصل إلى ما وصلوا إليه بل وكيف نتفوق .ونتجنب أخطاءهم .

والقول الصحيح أن التاريخ درس في الوطنية الإيجابية التي تقوم على فهم الحاضر والمشاركة في خصائصه عن طريق المعرفة والإسهام في تطويره ورقيه، بل ودراسة تكسب القدرة على مواجهة المواقف الجديدة ، كالأثر الذي يحدث من تعلم مسألة حسابية ، فالمسألة التي يحلها الطالب لا تتكرر لكن القدرة المستفادة من حلها يمكن استخدامها في حل مسائل جديدة تصادفه في الحياة . ويجب أن نكون مربين في تدريسنا للتاريخ ، وأن لا يكون هم الواحد منا ملء فراغ في معلوماتنا التاريخية بوثيقة أو معلومة معينة مثلاً ، ولكن المربي والمؤرخ معاً يكون هدفه ايضاح حقيقة تاريخية غير معروفة ، أو تصحيح حقيقة تاريخية خاطئة ، إلى جانب وضع قصة تشتمل على تركيب تصوري لعناصر الموضوع الذي يراد تدريسه ، على أن تكون تلك القصة علمية في جوهرها ، فنية في التعبير عنها ، ويجب على المؤرخ اعطاء المعلومات التاريخية ، وأن لا يغفل عن الجانب الأخلاقي ، وزرع القيم والمثل الحميدة ، ونبذ الإتكالية ، والتدريب على الإعتماد على النفس ، وتكوين الشخصية المستقلة ، وتشجيع المبادأة والنقاش ، كما يجب عليه أن يعمل على هدم المفاهيم التربوية الخاطئة والسلبية التي ترسبت في الأذهان من مراحل سابقة ، بل ويسعى إلى استبدالها بقيم ومفاهيم تربوية جديدة تعطي

الطالب قدراً كبيراً من المشاركة التي تنمي شخصيته المستقلة، بل ويساعده ويعاونه كي يتعلم على مواجهة المشكلات وايجاد الحلول لها ، بل ويحسسه الشعور بالمسؤولية ، كما يجب على اساتذة التاريخ أن يحرصوا على تقديم الزاد المعرفي إلى طلابهم إلى جانب الإدراك بأن التعليم في جوهره ليس الحصول على الشهادات الجامعية أو الدرجات العليا فقط ، بل هو عملية إعداد الفرد إعداداً يمكنه من النمو والتفاعل مع المجتمع فيفيد ويستفيد ، وبقدر ما يكون نمو الأفراد صالحاً وسوياً يكون تقدم المجتمع وإزدهاره .

المبحث الثاني

الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى (*)

(*) هذا البحث نشر فـى مجلة المؤرخ العربي العدد (٣) مجلد رقم (١) (القاهرة : مارس١٩٩٥)
ص ٦٧ - ٨٥

الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى

اثبتت الكشوف والبحوث التاريخية والأثرية وجود صلات قديمة ومستمرة ذات صبغة إقتصادية أو دينية بين شعوب شرق أفريقية والعالم الخارجي ، وذلك منذ أقدم العصور التاريخية . ومن بين البلاد التي كانت لها صلات بشعوب الساحل الشرقي لأفريقية نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الصين والهند ومصر القديمة وبلاد الرافدين . على أن العرب كانوا أهم تلك الشعوب التي اتصلت ببلاد الساحل الأفريقي منذ القدم ، وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافي ، ونظام الرياح الموسمية الذي ساعد الملاحة في بحر العرب وتوجيه السفن بحذاء الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية في إتجاه الشاطئ الشرقي لأفريقية [١] ومن الثابت أن العرب تقدموا في فنون الملاحة منذ القدم على أيام دول معين وسبأ وحمير . وكان للمعينيين بصفة خاصة نشاط بحري واسع امتد إلى بلاد بعيدة في الشمال ، والخليج العربي في الشرق ، وسواحل شرق أفريقية .

وبعد معين تتابعت الدول في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، فحملت دولة سبأ ثم دولة حمير لواء النشاط البحري التجاري ، ونهضت هاتان

---

(١) للمزيد من التفصيلات أنظر ، جورج فاضلوحوراني . العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة . (القاهرة . ١٩٥٨م) ص ٣١ ، ٣٤ - ٣٥ .

R.Reusch , History of East Africa (New York 1961) PP. 11ff .

R. Coupland . East Africa and Its Invaders, (Oxford 1938) PP. 15 - 18 .

الدولتان بدور كبير في الوساطة التجارية بين شواطئ شرق أفريقية من جهة والعالم الخارجي من جهة أخرى (٢) وتشير المصادر إلى أنه في العصر الحميري الأول (١١٥ ق.م - ٣٠٠ م) ، نزحت جماعات من اليمن وحضرموت إلى الساحل الأفريقي ، ووضعوا أساس الحضارة التي لم تلبث أن إزدهرت في بلاد الحبشة ، وظلت تغذيها هجرات عربية متعددة . ويرجع تأسيس دولة أكسوم الحبشية في القرن الأول للميلاد إلى هذه الجماعات العربية المهاجرة، حتى غدت أكسوم نواة الدولة الحبشية فيما بعد . ولم يقتصر نفوذ العرب الجنوبيين على الحبشة ، بل توغلوا إلى جنوب وادي النيل الأوسط (٣) .

---

(٢) أرض الزنج ممتدة من رأس جوردافوي شمالاً جنوبي باب المندب بقليل على مقربة من الصومال الشمالي التي عرفها المؤرخون والجغرافيون في العصور الوسطى باسم بلاد بونت Paunt ،وتمتد أرض الزنج هذه إلى بلاد سوفالا في موزمبيق أو روديسيا .. وبونت Paunt أو بنت Punt ، مشتقة من أصول سامية تعني أرض الجنوب الأقصى ، ويعتقد أن سكان بونت كانوا ينتشرون حتى رأس حافون بالقرب من سوفالا في أقصى جنوب شرق أفريقية (روديسيا حالياً) . وقد أشار المسعودي إلى هذه المنطقة ببلاد جفوني . أنظر أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . (القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩١٤م) ج١، ص ١٠٧ : حمدي السيد . الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ٣٦ .
Reusch , Ibid, PP. 11 ff.

(٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي . معجم البلدان (بيروت . ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦م) ج٣ . ص ٣٤٣ وما بعدها : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب . (القاهرة ، ١٩٧٤م) ص ٢٤ ، أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ - ١٢٦ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد ، ١٩٧٧م) ج١، ص ص ٤٤ - ٤٦ ، غيثان علي جريس : « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العدد الثامن ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) ص ٤١٢ وما بعدها .

وبخصوص علاقة بلاد العرب ببلاد شرق أفريقية قبل الإسلام ، يمكن أن نجمل القول بأن هذه العلاقة اتخذت محورين ، الأول هو علاقة العرب ببلاد الحبشة ، والثاني هو اتصال العرب بشعوب أرض الزنج المطلة على المحيط الهندي (٤) أو بحر الهند .

أما عن اتصال العرب ببلاد الحبشة قبل الإسلام ، فتدل المعلومات التي اوردها الكتاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التي نعتوها بكلمة (أثيوبيا) تعني المساحات الشاسعة الممتدة جنوبي مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا ، وهي المنطقة التي تسكنها عناصر من ذوي البشرة المحترقة أو السمراء أو الزيتونية اللون . أما كلمة الحبشة ومنها الأحباش وهو اللفظ الذي صار في اللغات الأجنبية (Abyssinia) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هي «جشت» السامية التي عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب ، واستقرت في أفريقية (٥) . ويرجح أن ذلك تم في الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد . والغالب أن الموطن الأصلي لهذه القبيلة

٤ - حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية . (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦ - ٢٧
C.N. Stigand . The Land of Zing (London, 1913) PP. 29 ff. See also, Coupland, Op. Cit., PP. 18 ff & Reusch PP. 11-12, 13 - 14; A. Alwi Haji Hassan . "The Arabian Commercial Background in Pre Islamic time " Islamic Culture Vol. LXI-No-2(1987) PP. 78 ff.

(٥) ورد في بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان ابن حام بن نوح . انظر معلومات أكثر في ، جلال الدين السيوطي : أزهار العروس في أخبار الحبوش . مخطوط . ومصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٣٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ، عبد الرحمن بن الجوزي ، تنوير الغبش في فضل السودان والحبش . مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٢٩) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ، الشاطر بوصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ السودان ووادي النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٧ ، الحفني القناني : الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان (مخطوط بدارالكتب بالقاهرة) ، عبد الحميد العبادي : «أحابيش قريش هل كانوا عرباً أو حبشاً . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٣٣م) جـ ١ ، ص ١٠١-١٠٢ . غيثان علي جريس ، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) حـ ١ ، ص ١١ وما بعدها .

Patricia Crone , Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987) PP. 124 ff .

هو بلاد اليمن ، ولما كانت اليمن قد حققت قدراً كبيراً من التقدم والعمران في ظل ملوك سبأ ، فان هذه القبيلة لا شك كانت أرفع حضارة واسمي مدنية من أهل البلاد الأصليين على الساحل الأفريقي ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم، ولم تلبث قبيلة حبشت أن حققت لنفسها السيادة في موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التي تميزت بها ، غير أن أهل البلاد الأصليين لم ينظروا بعين الإرتياح أو الرضا إلى سيادة هؤلاء الأغراب ،ومع ذلك لم يكد يستهل القرن الرابع للميلاد حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التي استوطنتها ، وعلى أهل البلاد أنفسهم ، فغدا الجميع أحباشاً ، واصبحت كلمة الحبشة ترادف أثيوبيا [٦] . أما الحدود القديمة لهذه المنطقة فكانت تمتد من النيل غرباً إلى بحر القلزم شرقاً ، ومن النوبة شمالاً إلى ما وراء خط الإستواء جنوباً وبمعنى آخر فإن الحبشة أو أثيوبيا شملت في ذلك الدور ما هو معروف حالياً باسم بلاد السودان والحبشة وارتيريا والصومال [٧] .

أما المحور الثاني فيدور حول علاقة العرب بالزنج ، ومن المرجح أن بلاد

---

(٦) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨١ ، الشاطر بوصيلي ، المرجع السابق ، ص ٧ وما بعدها ، يوسف فضل حسن : دراسات في تاريخ السودان (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ ١ ، ص ٣ وما بعدها . السر أحمد العراقي،«الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال ». ندوة العلماء الأفارقةومساهمتهم في الحضارة الإسلامية ، الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو / تموز (١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ١٦٤ وما بعدها . عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق . ص ١٦٧ - ١٦٩

Sir E.A.W. Budge: A History of Ethiopia & Abyssinia Vol.1 PP 120

(٧) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا (١٩٠٢) بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربي وحدودها الشمالية الشرقية ارتيريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية .

See, Budge , Op. Cit, PP. 122 ff; J.S. Trimingham , Islam in Ethiopia (London , 1962) PP. 6 - 7

الزنج كانت في المصطلح العربي تشمل المنطقة الممتدة من رأس جوردافوي في شمال الصومال إلى رأس دلجادو في موزمبيق أو سوفالا في روديسيا ، وبعبارة أدق فإن هذه المنطقة تحتل مساحة كبيرة في شرق أفريقية ، وتمتد بين خطي عرض ٥ شمالاً و ١٠ جنوباً . وكان العرب من أهم الأمم التي اتصلت بالزنج منذ القدم وابقاهم أثراً في تلك البقعة ، وذلك في الفترة السابقة على ظهور الإسلام بقرون . ويبدو أن العامل الإقتصادي والسعي وراء الحاصلات والثروات الموسمية لنقلها إلى العالم الخارجي - كما سبق القول- كان من أهم العوامل التي شجعت العرب على ارتياد تلك البلاد . فلما ظهر الإسلام نشطت الدعوة الإسلامية في بلاد شرق أفريقية ، وتعاقبت بعد ذلك الهجرات العربية والإسلامية التي كان لها الفضل الكبير في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في تلك البلاد . وهكذا تعددت دوافع الهجرات العربية إلى الحبشة وأرض الزنج ما بين دينية وسياسية ، فضلاً عن العامل الإقتصادي الذي كان بارزاً في جميع الأحيان (٨) .

والواقع ان الدعوة للدين الإسلامي نشطت في أثيوبيا منذ ظهور الإسلام. ويمكن أن يؤرخ لدخول للإسلام في اثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى . وإظهار النجاشي أرماح (أصمحة) لإسلام . وبعد ذلك كثر توافد المسلمين لتحقيق مصالح تجارية بعد ان توحدت بلاد العرب ،وأضحي العرب المسلمون

(٨) حمدي السيد . المرجع السابق ، ص ٣٦ ، جورج حوراني ، المرجع السابق ص ٣١ وما بعدها ، مصطفي محمد مسعد ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٠) ص ٥ وما بعدها ، السر أحمد العراقي ،«أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى» ، مجلة كلية الأداب بجامعة أم درمان الإسلامية (العدد ٢) (مجلة المؤرخ العربي ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) ص ١٥٩ وما بعدها ، غيثان علي جريس : العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام ، مجلة المؤرخ العربي (القاهرة ، ١٩٩٣م) العدد الأول، ص ١٢٩ وما بعدها .

Stigand , Op. Cit, PP. 29 ff ; Reusch , Op. Cit, PP. 11 ff.

يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء . ولم يلبث أن اسهم المسلمون بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق بحر القلزم وكان ان عبرت جماعاتٍ من تجار العرب الي بلاد الساحل الغربي لبحر القلزم . بل أن بعضهم اجتاز الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج داخل بلاد الحبشة . كذلك استطاع العرب المسلمون بنشاطهم أن يتحكموا في ميناء عدوليس Adulis وهو ثغر الحبشة ، مما أدى إلى حرمان الحبشة من استخدامه ، وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجي إلا عن طريق العرب الذين فرضوا حصاراً على تجارة الحبشة الخارجية ، حتى انتهى الأمر بالقضاء على تجارة الحبشة الخارجية وتناقص عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أكسوم (٩) .

وفي الوقت الذي أخذت مملكة أكسوم تسير في طريق الإنحطاط ، كان الإسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل الي الداخل ، فاعتنقته القبائل التي تسكن شواطئ ارتيريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجري ، كما انتشر في جزء من قبيلة البلين وفي معظم قبائل البحر كالبني عامر والهدندوة ، كذلك انتشر الإسلام بين كل القبائل المتفرقة المسماة «الجبرتة» في ارتيريا ، وفي قبيلة الدناقل (الدناكل) في اثيوبيا والصومال . وتكونت على اثر ذلك مراكز استقرار عربية اسلامية على طول الساحل الشرقي لأفريقية، امتدت من سواكن على الساحل الغربي لبحر القلزم إلى مقديشو

---

(٩) الشاطر بوصيلي ، المرجع السابق ، ص ٩ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ ، مصطفى مسعد ، المرجع السابق ، ص ١٦ وما بعدها .
أنظر كذلك :
H. R . Hall . The Ancient History of the Near East (London , 1954) P. 246; encyc, of Islam Art, "Abyssinia" P.99.

ومركة وبراوه (في الصومال)، وممبسة ومالندي (في كينيا حالياً) ، وزنجبار وكلوه (تنزانيا حالياً) على المحيط الهندي [١٠] .

أما في داخل أثيوبيا فقد امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم، وأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً ، فاعتنقته عناصر الساهو والعفر في شرق بلاد الحبشة، كما أمتد إلـــــى مناطق السيدامو وشوا الشرقية في جنوب الحبشة [١١]. ولقد ساعد في سيطرة العرب المسلمين على تلك الجهات ، انهم تمكنوا من احتلال المناطق الإستراتيجية في بحر القلزم وبحر العرب ، ومن أهم تلك المناطق مجموعة جزر الدهلك التي استولى عليها المسلمون زمن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ٩٦- ٩٩هـ ٧١٥-٧١٨م) ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحرات وكياري ودركه ونوره ونقره وكمران ، والأخيرة كبرى جزر هذه المجموعة [١٢] . كذلك تمكن العرب من

---

(١٠) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال إلى الجنوب وآخرها سوفالا في أقصى الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفي جنوبي نهر زمبيري . وللمزيد من التفصيلات ، انظر : يوسف فضل ، انتشار الإسلام في سودان وادي النيل ، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية (الخرطوم ٢٨ - ٣٠يوليو / تموز ١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٢٥ وما بعدها ، السر العراقي، « الإسلام ومركز الثقافة » ص ١٥٩ .

Coupland , Op. Cit, PP. 22 - 25 .

(١١) انظر ،المسعودي ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥١ - ٥٢ ، السر العراقي ، أرض الزنج الإسلامية . ص ١٥٨ وما بعدها .

Stigand Op. Cit. P. 30 ff; Trimingham , OP. Cit. pp. 51-60 .

(١٢) وللمزيد من التفصيلات ،الحفني القنائي ، المصدر السابق ، ص ٩ وما بعدها ، المقريزي : الإلمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ٢٢-٢٣ . عبد الشافي غنيم عبد القادر ، «البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية». البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة أبحاث الأسبوع العلمي ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩م(القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها .

احتلال جزر مافيا وبمبا وزنجبار في المحيط الهندي (١٣) . ومن المناطق الهامة التي استقر فيها العرب ، ونشروا فيها الإسلام ، منطقة البجه على الساحل الغربي لبحر القلزم . ومن البجه الذين اعتنقوا الإسلام وتحمسوا له قبيلة بني عامرر وقبيلة الهدندوة والبشاريين والأمرار ، وقد كثر المسلمون في بلادهم بسبب غنى منطقة البجه بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد. وامتزج العرب بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجه في الإسلام . وهكذا تزايد عدد المسلمين المهاجرين والمقيمين في منطقة المعادن بالبجه ، وأشهر القبائل العربية التي استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر، حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين (١٤) .

---

(١٣) انظرمحمد حبيب : كتاب المنمق في أخبار قريش ، تحقيق خورشيد أحمد فاروق .(بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) ص ٣١ وما بعدها ، غيثان على جريس « العرب في مقديشو » ، ص ١٢٨ وما بعدها .

Reusch , Ibid , PP. 153 ff, J.S. Trimingham . Islam in East Africa (London , 1964) PP. 18 - 19 , Enricu Ceruli. Encyc. of Islam , Art. " Makadishu" Vol. III, P. 165 .

(١٤) للمزيد من التفصيلات أنظر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت) جـ ٣ ، ص ٥٩٨ وما بعدها ، عبد الرحمن بن عبد الحكم . « كتاب فترح مصر واخبارها » (ليدن ، ١٩٢٠م) ص ١٧٣-١٧٤، ١٨٨ ، أحمد البلاذري : فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ، د.ت) ٢٨٠-٢٨١ ، عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ بن خلدون (بيـــروت ، د.ت) جـ٣ ، ص ٨٤-٩٠ ، ١١٤ - ١١٥، الدسعودي . المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٨٩، أبو العباس أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (القاهرة ، ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وفي داخل الحبشة ، تأسست مملكة إسلامية ، عرفت باسم شوا ، نسبة إلى المنطقة التي سادت فيها وهي شوا الشرقية ، وقد أشارت المصادر إلى أن تلك المملكة قامت في نهاية القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ٢٨٢هـ / ٨٩٦م بزعامة أسرة عربية تنسب إلى قبيلة مخزوم القرشية ، وهي التي ينسب إليها خالد بن الوليد . ويقال أن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب برئاسة ود بن هشام لتستقر هناك في منطقة من أخصب مناطقها وهي منطقة شوا (١٥) . كذلك قامت في الحبشة مشيخات إسلامية أخرى في مناطق عدال (Adal) وموررا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) . غير أن هذه الوحدات جميعا لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلاً عن أن جهودها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، لذا سرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية في الوطن الحبشي وهي إمارة أوفات (١٦) .

وتقع الفترة البارزة في التوسع الإسلامي في أثيوبيا بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثاني عشر الميلاديين) وتمثل هذه الفترة عصر التوسع الهادىء المنظم للإسلام دينا ودولة ، سواء من ناحية نشر العقيدة الإسلامية ، أو دعم سلطان الممالك الإسلامية ، ولو على حساب

---

(١٥) حمدي السيد ،المرجع السابق ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في شرق أفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٧٧ ، أنظر كذلك :

Trimingham , Islam in Ethiopia PP. 50-51 .

(١٦) القلقشندي ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ ، السر أحمد العراقي ، « الإسلام ومراكز الثقافة ....» ، ص ١٥٨ وما بعدها . غبشان علي جريس - بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ١١ وما بعدها ، ٢٦٠ وما بعدها .

Trimingham , Ibid, PP. 62 -3.

بعضها البعض داخل الحبشة . وفي تلك الفترة دخلت منطقة نهر جوبا في الإسلام حوالي عام ١١٠٨ م ، وبذلك امتد نفوذ العرب حتى منطقة البحيرات العظمى [١٧] .

وهكذا امتدت الرقعة الإسلامية داخل الحبشة ، امتداداً واسعاً فأصبحت تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية في أفريقية ، وتواجه اليمن في الجزيرة العربية ، لذلك وصف المؤرخون تلك المنطقة بإقليم الطراز الإسلامي « لأنها على جانب البحر كالطراز له » [١٨] . واشتهرت في منطقة الطراز الإسلامي سبع ممالك هـي : أوفات ، دوارو ، أرابيني ، هديه ، شرخا ، بالي ، وداره [١٩] . وارتبطت هذه الممالك الإسلامية بالعالم الإسلامي الخارجي ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم والإتصال بالفقهاء في المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها من مراكز الحضارة الإسلامية . وتعتبر سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت في أثيوبيا بسبب تحكمها في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قريش من بني عبد الدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب . وسلطنة أوفات هي التي تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة المسيحية [٢٠] . ويمكن القول أن الرقعة الإسلامية في الحبشة فاقت في

---

(١٧) Trimingham , Ibid, PP. 62 - 3

(١٨) القلقشندي، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ، عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق، ص ٧٧ وما بعدها .

(١٩) انظر ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار (القاهرة . ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م) جـ ١ . ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢٠) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة . تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) جـ ٢ ، ص٧٣-٧٤ .

مساحتها أراضي مملكة الحبشة المسيحية ، الأمر الذي أدى إلى عزل مملكة الحبشة عزلاً تاماً عن العالم الخارجي ، ولا سيما بعد استيلاء العرب على ميناء عدل قرب مصوع (في ارتيريا حالياً) ، وهو مخرج أثيوبيا الوحيد إلى بحر القلزم أو البحر الأحمر ، مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة [٢١] ، كما سبق أن أوضحنا.

أما عن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام في أثيوبيا ، فالمعروف أن أثيوبيا تواجه جزيرة العرب ولا يفصل بينهما إلا البحر الأحمر . والملاحة في البحر الأحمر سهلة طول العام ، فلا تهب به زوابع وأعاصير إلا بضعة أيام في السنة ولا تستمر هذه الرياح طويلاً . يضاف إلى ذلك ظروف الحياة القاسية في جزيرة العرب ، فهي بلد صحراوي اعتمد أهلها على الرعي ونقل التجارة ، بينما كانت الحياة علي الساحل الغربي أنعم وأهدأ لخصب الأرض وكثرة المطر واشتغال عدد كبير من السكان بالزراعة [٢٢] . وكانت أثيوبيا منذ القدم المهجر الطبيعي لسكان الجزيرة العربية . يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر وهو كثرة الحروب في الجزيرة العربية مما دفع بالمغلوبين إلى الهجرة حيث الأمان والحرية . وكانت أثيوبيا أحد الأسواق الهامة التي يقصدها العرب لحمل التجارة منها واليها ، فإزدحم البحر الأحمر بالسفن التي تنقل تجارة أثيوبيا إلى المراكز العربية التجارية ، وكانت اليمن أهمها ، ومنها تنقل التجارة عبر الجزيرة العربية إلى الشام والعراق وفارس والهند . وبفضل

(٢١) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها ، أنظر أيضاً :

Budge, Op. Cit, PP. 273-4; Trimingham, Islam in Ethiopia, PP. 47 - 8.

(٢٢) Trimingham , Islam in Ethiopia, PP. 33-43; Budge, PP. 140 , 190-191.

هجرة المسلمين إلى الحبشة زمن الرسولﷺ ، استمرت العلاقات التجارية قائمة ومستمرة بين أثيوبيا وجزيرة العرب . اذ حمل المهاجرون والتجار الجدد اسلامهم معهم ، ومن ثم أخذ الإسلام ينتشر في أثيوبيا ويتغلغل صحبة هؤلاء التجار ، ثم تقدمت الحضارة وازدهرت في الدولة الإسلامية تحت حكم الأمويين فالعباسيين ، فنشطت الحركة التجارية ، ونشطت المراكز التجارية وازدحمت بالعرب النازلين فيها والذين توغلوا في الداخل في طلب الحاصلات الأفريقية ، فإزداد عدد العرب المسلمين . وثمة عامل هام ادى إلى انتشار الإسلام في أثيوبيا ، وظهور الإمارات الإسلامية فيها ، هو أن الأحداث المتتالية التي تعرضت لها الدولة ، سواء أكانت أحداثاً سياسية أو إقتصادية دعت كثيرين إلى الهجرة . وأول تلك الأحداث التي تعرضت لها الدولة الإسلامية في فجر تاريخها هي حركة الردة . وكان اليمنيون والحضارمة أول هؤلاء المهاجرين إلى أثيوبيا نتيجة لحروب الردة وقد حمل هؤلاء اسلامهم معهم ولم يرتدوا عنه . وفي أيام الأمويين هاجرت جماعات عربية كبيرة إلى ساحل شرق أفريقية ، أهمها جماعة الزيدية - التي سيرد تفصيلها - الأمر الذي جعل الأمويين يستولون على جزر الدهلك لمراقبة الجماعات العربية التي قصدت أثيوبيا وغيرها فراراً من بطش بني أمية (٢٣) . ولما حل العباسيون محل الأمويين في الخلافة والحكم ، هاجر الأخيرون واتباعهم إلى مناطق مختلفة ، بعضهم إلى شرق أفريقية ، فأستقرت جماعات منهم في بلاد النوبة ، وواصل بعضهم السير إلى أعالي النيل وذهب آخرون إلى مصوع ، واستقر اخوان لهم في أثيوبيا والصومال (٢٤) . وأدت الفتن التي انتشرت خلال

(٢٣) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥١ - ٥٢ ، المقريزي ، الألمام بمن بأرض الحبشة ، ص ٢٢ ، الحفني القنائي ، الجواهر الحسان ، ص ١٥ - ١٦ ,

Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. 51 - 60 .

(٢٤) الحفني القنائي ، الجواهر الحسان ، ص ١٥ وما بعدها ، أنظر كذلك ، المقريزي ، الخطط (طبعة القاهرة ، د.ت) ص ١٩٤-١٩٥ ، المسعودي ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٨٩ ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

حكم العباسيين كالصراع بين الأمين والمأمون والنزاع بين الشيعة والعباسيين من جهة ، والعباسيين والخوارج من جهة أخرى ، إلى هجرة بعض القبائل العربية إلى اثيوبيا حيث الأمن والإستقرار بالاضافة الى الخصب ووفرة الموارد.

وقد نمت العلاقات بين مسلمي الحبشة والعواصم الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت . وأخذ مسلمو الحبشة يبعثون أبناءهم إلى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها لطلب العلم على أيدى كبار الفقهاء المعاصرين . وساعد على إنتشار الإسلام في أثيوبيا في بعض المناطق عدة عوامل ، منها انسحاب الأثيوبيين المسيحيين إلى الداخل وتخليهم عن بعض المناطق الساحلية الصحراوية الجافة الحارة ليحتلها المسلمون . وهكذا انتشر الإسلام عن رضى وعقيدة واقتناع ، ولمس كثيرون في الإسلام المساواة والحرية ، فضلاً عن أن الإسلام شكل لهم خلاصاً من الرق ودرعاً يحميهم من الوقوع في أيدي تجار الرقيق . ويفسر ذلك وقوف كثيرين من أهالي البلاد بجانب العرب دعاة للدعوة الإسلامية وحملة للواء الثقافة الإسلامية [٢٥] .

أما الجزء المعروف بأرتيريا والصومال فالراجح انه عرف الإسلام في حياة الرسول ﷺ إذ أشارت بعض الروايات إلى أن جعفر بن أبي طالب حينما خرج مهاجراً أسس في طريقه مراكز للدعوة في ارتيريا والصومال ، بمساعدة القبائل العربية المستوطنة هناك . ولم يلبث أن صار الصوماليون من أكبر المتحمسين لنشر الدعوة الإسلامية بل أن الصومال غدا بلداً إسلامياً منذ فجر

---

(٢٥) وللمزيد من التفصيلات أنظر ، توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٨٧، عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٧ وما بعدها .

Encyc. of Islam, Art “ Makadishu “ PP. 165 - 166 .

الإسلام ، وبداية انتشاره [٢٦] ومنذ ذلك الحين ، ومع ازدياد قوة العرب المسلمين وتفوقهم البحري ، وسيطرتهم على الملاحة في بحري العرب والهند ، توافدت على ساحل الزنج الأفريقي مجموعات ضخمة من دعاة المسلمين العرب ، فأنشأوا المراكز العربية للتجارة ونشر الدعوة . ومن أهم هذه المراكز مقديشو وممبسة وبراوة ومركة ومالندي وكلوه وزنجبار . وكانت الهجرات العربية التي حدثت ايام الفتنة الكبرى وفي اعقاب مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان وخلافة على بن أبي طالب من أهم الهجرات العربية التي استقرت على ساحل شرق أفريقية . والراجح أن المهاجرين في تلك المرحلة كان معظمهم من الخوارج الذين هزمهم على بن أبي طالب في موقعة النهروان . وفي أيام دولة بني أمية هاجرت جماعات عربية من بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية ، وأسسوا لهم دولة صغيرة بالقرب من لامو (في الصومال). وكانت تلك الهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان . وهكذا يبدو أن معظم الهجرات العربية إلى أفريقية في تلك المرحلة جاءت نتيجة للإضطرابات التي سادت البلاد الإسلامية وخاصة بسبب خروج عبد الله بن الزبير ، وحركة الخوارج ، وحركة عبد الرحمن بن الأشعث الملقب بأسد الفرات . وقد ارسل عبد الملك بن مروان في أعقاب تلك الهجرات إلى شرق أفريقية فرقة عربية يقودها أخوه حمزه . وقد نجحت تلك الفرقة في تأسيس مدن تطورت واصبحت امارات عربية هامة مثل بيت ومالندي وممبسة وزنجبار ، وقامت بدور كبير في نشر الإسلام بين القبائل الأفريقية التي كان من أهمها البانتو والزولو

---

(٢٦) أنظر ، راشد البراوي : الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ١٠ ، ١٠-٢٠ توماس أرنولد ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ وما بعدها ، أنظر أيضا ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١- ٢٦٦ . غيثان علي جريس ، « العرب في مقديشو ... »، ص ١٢٨ وما بعدها.

والبوشمن (٢٧) .

كذلك نسمع في زمن عبد الملك بن مروان (٦٥هـ - ٨٥هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) عن هجرة سليمان وسعيد الجلندي ، وهما شيخان عربيان من عمان من العبادية من قبيلة الأزد وهما من شيوخ العرب الذين ثاروا في وجه الخليفة عبد الملك . وقد وصل هؤلاء المهاجرون إلى أرخبيل لامو (على الساحل الصومالي) الذي يتمتع بخصائص هامة ، منها خصوبة الأرض ، وصلاحية مينائه العظيم للرسو والإقلاع . بجانب الوفرة في منتجات تلك البلاد المتمثلة في العاج والذهب والصوف والجلد والتوابل والأخشاب ، بالاضافة إلى عنصر الرقيق (٢٨) . ولم تلبث أن اصبحت منطقة أرخبيل لامو من أهم مناطق الدعوة الإسلامية على طول الساحل الأفريقي ، ومن ثم إلى الداخل في كينيا وأوغنده وتنجانيقا (٢٩) .

ومن الهجرات العربية الهامة التي ساعدت على نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في أرض الزنج الإسلامية على الساحل الأفريقي الشرقي ، هجرة العرب الزيدية التي حدثت في أواخر أيام الدولة الأموية ، زمن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وهؤلاء الزيدية هم أتباع زيد بن على زين العابدين الذي

(٢٧) المصادر نفسها .

(٢٨) وللمزيد من التوضيحات أنظر :

Marsh & Kingsnorth : - An Introduction to the History of East Africa (London, 1966) PP. 7-8. M.L. Dames & Hakyut The Book of Daurte Barbosa (London, 1918) Vol.3(1) PP. 6-10 .

(٢٩) للوقوف على تفصيلات أكثر أبو عثمان الجاحظ : التبصر بالتجارة . تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٢٤ وما بعدها ، شمس الدين المقدسي . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لندن ، ١٨٧٧م) ، ص ٧٩ وما بعدها .
أنظر أيضاً : Reusch , Hist , of East Africa , PP. 153 ff .

تصدت له جيوش الأمويين زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م) ، حتى انتهي الأمر بمقتله عام (١٢٢هـ) وفرار اتباعه إلى جهات كثيرة من أهمها ساحل شرق أفريقية . وبوصول هذه الجماعة إلى مقديشو ، تمكنوا من بسط نفوذهم على منطقة بنادر ثم كونوا لهم دولة عاشت على الساحل أكثر من مائتي سنة ، وكانت لهم جهود كبيرة في نشر الإسلام وزراعة الأراضي بعد ان استفادوا فائدة كبيرة من مياه فهري جوبا وشبيلي . على أن الظروف اضطرتهم بعد ذلك إلى الإنسحاب من الساحل إلى الداخل بسبب مجيء هجرة عربية أخرى - هي هجرة الأخوة السبعة - من ساحل الإحساء ، فراراً من أعمال القرامطة الوحشية في الجزيرة العربية ، فجاء الأخوة السبعة إلى ساحل أفريقية الشرقي - وهم شافعية المذهب - فاصطدموا عام ٩١٣ م بجماعة الزيدية الشيعة الذين حلت بهم الهزيمة وانسحبوا إلى الداخل الأفريقي ، حيث رحبت بهم جماعات افريقية في داخل الصومال وكينيا ، وهي جماعات قبائل الجالا التي اعتنقت الإسلام على أيديهم (٣٠) .

وقد حدثت هجرة الأخوة السبعة في خلال العصر العباسي الثاني ، وهي من الهجرات العربية الهامة إلى ساحل شرق أفريقية . وكانت بداية حركتهم في مستهل القرن التاسع في حوالي عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) من الإحساء عاصمة دولة القرامطة ، الذين نشروا الرعب في أنحاء الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق . وتمكن الأخوة السبعة في فترة وجيزة من الإستيلاء على معظم اجزاء الساحل ، وعلى الأخص ساحل بنادر الذي يشمل معظم بلاد الصومال المطلة

---

(٣٠) قبائل الجالا من أكبر القبائل في الصومال في الوقت الحاضر ، انظر حمدي السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٠ ، كذلك انظر :
Trimingham , Islam in East Africa . PP. 4 - 5 .

على بحر الهند . وامتد نفوذ هذه الجماعة العربية إلى جنوبي ممبسة ، كما وصلوا إلى جزيرة مدغشقر .

ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح ساحل الصومال شافعياً على المذهب السني (٣١) . وهكذا تمكن الأخوة السبعة من تكوين دولة قوية عاصمتها مقديشو استمرت من عام ٩١٣ إلى عام ٩٧٥م ، عندما وصلت جماعة إسلامية أخرى قضت على تلك الدولة . وكانت الجماعة الجديدة فارسية ، كونت لها دولة استمرت منذ ذلك التاريخ حتى ظهور البرتغاليين على الساحل الأفريقي في عام ١٤٩٧م (٣٢) .

ومن خلال هذا العرض السريع لموجات الهجرات العربية المتلاحقة في أثيوبيا وأرض الزنج يمكن أن نقول أن الإسلام واللغة العربية ، قد حققا نجاحاً كبيراً في تلك البلاد ، الأمر الذي أدى إلى تقدمها وتطورها تحت مظلة الإسلام . هذا إلى أن الإسلام أدى إلى تهذيب عادات السكان وطور أحوالهم . وظلت المدن والمراكز والإمارات التي أمها أو أسسها المسلمون في شرق أفريقية طوال قرون عديدة مراكز نشاط ومدنية ، وقواعد لنشر الثقافة الإسلامية بين القبائل الأفريقية على الساحل وفي داخلية البلاد . وقد تطورت هذه المدن والمراكز الإسلامية بفضل نشاط العلماء والفقهاء الذين وفدوا إليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس وغيرها من مراكز الحضارة الإسلامية . وأدى هذا كله إلى تجاوز شهرة بعض

---

(٣١) سيد أمير علي . المرجع السابق ، ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

(٣٢) المقصود بتلك الدولة الإسلامية التي استمرت في الإزدهار حتى مجيء البرتغاليين للساحل عام (١٩٤٧م) هي امبراطورية الزنج الإسلامية التي تعرف في المصادر أيضا باسم سلطنة كلوة الإسلامية التي أسسها الشيرازيون بزعامة علي بن حسن الشيرازي عام (٩٧٥م) في كلوة (تنزانيا حالياً) .

هذه المدن الإسلامية الزاهرة حدود الساحل الأفريقي أمثال : زيلع ومقديشو وبراوه ومركه ولامو وممبسة ومالندي وكلوه وسوفالا . يضاف إلى ذلك جزر زنجبار وبمبا ومافيا ، التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، وغلبت عليها الصبغة العربية طوال فترة العصور الوسطى . ذلك أن العرب في تلك البلاد أسهموا بالآداب في اشاعة جو حضاري ظهرت آثاره في بقية المجتمعات التي تعيش على هذا الساحل الأفريقي فضلاً عن داخلية البلاد . وقد ظلت الحضارة الإسلامية قائمة حتى ولى نفوذ العرب السياسي بمجيء البرتغاليين إلى الساحل الأفريقي في ختام القرن الخامس عشر للميلاد (٣٣) .

ولابد من القول أن أعلام المسلمين في أثيوبيا وبلاد ساحل الزنج ، فكروا بالعقلية العربية الإسلامية ، وكتبوا باللغة العربية ، وهم في انتاجهم ونشاطهم انما يعبرون عن حضارة عربية وإسلامية . ولا غرابة في ذلك وهم الذين نبتوا في ظل الإسلام وتعاليمه (٣٤) .

وقد قامت المدن التي أسسها العرب المهاجرون على الساحل الأفريقي بجهود مضنية في نشر الإسلام بين قبائل الدناقل والجالا والبانتو الوثنية . ووجدت اللغة العربية في تلك البلاد تربة خصبة للإنتشار ، وظلت كذلك حتى عصر الإستعمار البرتغالي . وعندما وصل فاسكو داجاما إلى الساحل الأفريقي الشرقي عام ١٤٩٧م ، وجد معظم أهل هذه البلاد يتكلم اللغة العربية، كما وجد القرآن الكريم شريعتهم . ورأي البرتغاليون والأوروبيون

---

(٣٣) Freeman & Grenville. The East Africa Coast (Clarendon- Press, 1962) PP. 36 - 7.

(٣٤) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٣٩-٢٤٠، صلاح العقاد . زنجبار (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١-٢٢ . أنظر أيضاً :

Reusch , Op. Cit, PP. 219 - 220 .

عدداً كبيراً من المدارس التي تلقن القرآن الكريم واللغة العربية في مقديشو وممبسة وكلوه وزيلع . كذلك وجد البرتغاليون ومن أعقبهم من المستعمرين الأوروبيين، جماعات من القبائل الأفريقية تتقن اللغة العربية ، وتعني بانشاء المكاتب والمدارس الخاصة لتعليم القرآن الكريم ولغته . ورغم الجهود التي بذلها الأوروبيون للقضاء على اللغة العربية في تلك الجهات ، وتحويل أنظار الأفريقيين عن مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من عواصم العالم الإسلامي الكبرى ، فإنهم فشلوا فشلاً ذريعاً ، إذ كان المسلمون والمستعربون من الأفريقيين يعمدون إلى انشاء مدارسهم ومؤسساتهم الثقافية في المناطق الوثنية النائية وبخاصة في زنجبار وكينيا وتنزانيا . ولا تزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية تستعمل في بلاد شرق أفريقية في شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والإقتصادية ، وفي الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الإجتماعية ، حتى أسماء بعض النباتات والمدن والحيوان والأعلام (٣٥) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم الإسلامية في شرق أفريقية بعهود الإمارات الأفريقية الإسلامية ، فقد غدت اللغة العربية اللغة الرسمية السائده، التي استخدمت في شتى الأغراض ، كما استخدمت في مجال الحكم والإدارة والقضاء . ويكفي انها غدت لغة المكاتبات الرسمية المتبادلة مع العالم الإسلامي الخارجي . ووجدت في ديوان الإنشاء بمصر زمن سلاطين المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة حكام تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها .

(٣٥) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٤٩ . كذلك أنظر : -
Duffy James. Portuguese Africa (London , 1961) , PP. 31-34; M.L. Dames . The Voyage of Pedro al - Vares Cabral To Brazil and India . (London., 1938) . PP. 78 ff ; R. Sidney & P.D.J . P. Welch . Portuguese Rule and spanish Crown in South Africa 1581 - 1640. (Cape Town and Johannsburg , 1950) PP. 1681 ff.

كذلك كانت اللغة العربية هي السائدة في تسجيل شواهد القبور ، وقد عثر على عدد كبير منها في المقابر في مقديشو ولامو وبراوه[٣٦] . وهكذا غدا القلم العربي هو القلم المعروف في بلاد الساحل الأفريقي دون غيره وذلك قبل ظهور الإستعمار ، كما صار الدين الإسلامي أساس التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية[٣٧] .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الازدهار والرخاء التجاري كانا من العوامل الأساسية التي ساعدت على قيام نهضة علمية وثقافية إسلامية شامخة . وكان ن كثرت الخلاوي وانتشرت على طول الساحل ، وعقدت فيها حلقات الدرس. هذا ولم تقتصر العلوم الدينية على الرجال ،وإنما امتدت لتشمل النساء أيضاً، فقد نلن حظهن من تعلم القرآن الكريم والعلوم الدينية واللغة العربية[٣٨] .

وبعد ، فإنه يتضح من هذا العرض السريع أن دور العرب كان بارزاً في كافة أوجه الحياة العامة في بلاد شرق أفريقية حتى أصبحت هذه البلاد إسلامية خالصة .

---

(٣٦) حمدي السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣٧) حسن إبراهيم حسن ،المرجع السابق ، ص ٢٣٩، حمدي السيد ، المرجع نفسه ، ٣٤٦ .

(٣٨) شهاب الدين عرب فقيه : فتوح الحبشة (تحفة الزمان) ، مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية (رينيه باسيه ، حققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٧٥ وما بعدها . حمدي السيد ، المرجع السباق ، ص ٣٢٦ إلى ٣٥٣ .
انظر كذلك . شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة ، ١٣٥٣هـ) جـ ١ ، ص ، ٢٣٢ وانظر أيضاً : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق أحمد نجاتي (القاهرة ، ١٩٥٦م) جـ ١ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ . شهاب الدين بن فضل الله العمري . المصدر السابق ، ص ١٨٣- ، ١٨٥ المقريزي . الإلمام ، ص ٩ . محمد بن علي الشوكاني . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، ١٣٨٤هـ) جـ ٢ ، ص ٤٠٢ . عبد القادر شيخ عبد الله : تاريخ التعليم في الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ، ص ٢١ - ٢٢ .

المبحث الثالث

الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري (*)

(*) هذه الدراسة نشرت في هيئة كتيبمركز بحوث كلية التربية بأبها وقد تم تصويرها وتجليدها في مطابع جامعة الملك سعود بالرياض (عام ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م)ص ١ - ٥٢

الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري

تعتبر سواحل منطقة القرن الأفريقي بصفة خاصة ، وسواحل شرقي أفريقية بصفة عامة ، نقطة هامة للمواصلات ، ومنطقة لاستقبال الهجرات منذ أقدم العصور ، وهي الهجرات التي لعبت دوراً كبيراً في تشكيل تاريخ تلك المنطقة دينياً وثقافياً وإجتماعياً وسياسياً وإقتصادياً وحضارياً ، وغير ذلك من العوامل المرتبطة بالأصول التاريخية . وقد هاجر إليها المسلمون في العصور الوسطى وانتشروا فيها ، وأدى ذلك إلى قيام ممالك إسلامية ، بلغت درجة كبيرة من التقدم والرفاهية ، فضلاً عما أسدته لنشر الإسلام والحضارة الإسلامية ، كما تزعمت حركة جهاد إسلامي كبير ضد أباطرة الحبشة وبطارقتها وغيرهم من أعداء الإسلام المتربصين به الدوائر .

وتحتل سواحل شرقي أفريقية مساحة كبيرة ما بين رأس جور دافوي ورأس دلقادو Delegado في موزمبيق ، أي فيما بين ٩٠ شمالاً و ١٠ جنوباً ، من الصومال شمالاً مروراً بأفريقية الشرقية البريطانية (سابقاً) حتى « موزمبيق جنوباً » لكن مصطلح شرق أفريقية السياسي يشمل عدة دول داخلية منها « يوغنده ، بوروندي ، زامبيا ، أثيوبيا » ، وربما يشمل السودان أيضاً [١] .

أما أول نقطة على هذا الساحل شمالاً فهي منطقة رأس جوردافوي Gaurdafui عند مدخل باب المندب ، وتمتد جنوباً حتى

---

(١) انطوني سلري . « الجغرافية الإجتماعية لأفريقيا » ترجمة إبراهيم رزقانة، ومحمد جمال الدين رزقانة (اكسفورد ، ١٩٦١م) ص ٢٢١ ، حمدي السيد. الصومال قديماً وحديثاً (مقديشو، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٢٧ .

المنطقة التي عرفها المؤرخون والجغرافيون القدماء باسم بلاد بونت Paunt ، عرفت بهذا الاسم لدى اليونان والرومان وقدماء المصريين ، كما عرفت باسم «أوفير » عند الفينيقيين واليهود والبربر والعرب . أما تسمية هذا الرأس باسم « جوردافوي» فهو راجع إلى المكتشفين البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي (٢) .

أما سواحل « قرن أفريقية » فإنها تشغل مساحة ما بين ١٠° - ١٣° شمالاً فيما بين رأس « جوردافوي » وباب المندب ، وهي سواحل جمهورية الصومال الديمقراطية وجمهورية جيبوتي الآن ، ولكن يتوسع مصطلح « قرن أفريقية » السياسي ليشمل جمهورية الصومال كلها ، وجمهورية جيبوتي ، وكينيا وأثيوبيا والسودان ... ويعني هذا تداخلاً جغرافياً وسياسياً بين شرق أفريقية وقرن أفريقية ، ويحد قرن أفريقية شرقاً خليج عدن ، وشمالاً سهول الدناكل والبحر الأحمر ، وجنوباً المحيط الهندي ، وغرباً وادي الصدع العظيم Great Rift Velley الذي يعتبر من أشهر المظاهر الطبيعية في العالم . ويبدأ هذا الصدع عند نهر الزمبيزي ، ويجري شمالاً ليضم في مجراه وادي نهر « شير » Shire وبحيرة نياسا ، وفي شمالها يتفرع إلى الصدع الشرقي والصدع الغربي ، فيجتاز الشرقي تنجانيقا وكينيا ، ويجرى خلال أثيوبيا ليعزل الصومال عنها حتى يصل إلى ساحل البحر الأحمر . ويتسع هذا الوادي الأخدودي في طرفه الشمالي ، حيث ينتهي إلى سهول فسيحة مثلثة الشكل ، تعرف باسم « سهول الدناكل » ، وهي محصورة بين الحافة الشرقية للهضبة الحبشية الوسطى والحافة الشمالية للهضبة الصومالية وساحل البحر

(٢) جودة حسنين جودة ، جغرافية أفريقية الإقليمية (الإسكندرية ، ١٩٨١م) ص ٢٥٦ ، أنطوني سلري ، الجغرافية الإجتماعية ، ص ٧.

الأحمر وخليج عدن ، ويرجع اتساع هذا السهل الساحلي في ذلك الجزء إلى الإنكماش الملحوظ في اتساع البحر وانحراف ساحله نحو الجنوب الشرقي ، في حين تحتفظ المرتفعات بإتجاهها الشمالي الجنوبي (٣).

والخصائص الطبيعية لساحل شرقي أفريقية بسيطة ، رغم وجود بعض تفاصيل معقدة في الداخل ، والوحدات التضاريسية هي سهل ساحلي Coastal Plateau وهضبة : نكا The Niyka Plateau وهضبة الصومال التي تنحدر تدريجياً وبصفة عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . ولإنحدارها السريع نحو خليج عدن ، فلا تترك إلا سهلاً ضيقاً لا يزيد إتساعه على اثنى عشر ميلاً ، ويسمى هذا السهل الساحلي باسم «جوبان» Guban أي المحترق أو المحروق ، وذلك فيما بين إقليم العفر في جمهورية جيبوتي ورأس جوردافوي ، ويليه في الداخل سهل مرتفع وجبال أوجو Ogo وجوليس Golis حتى تنتهي إلى حافة المرتفعات حوالي ألفي متر. وتترك هضبة الصومال سهولاً ساحلية فسيحة في الوسط والجنوب (٤).

أما الأنهار في تلك المنطقة ، فليست كلها قليلة الأهمية ، فمعظم أنهار شرق أفريقية وقرن أفريقيا تجرى نحو الشرق لتصب في المحيط الهندي كأنهار تانا Tana ونانجاني Nangani وريفوجي Rufugi وريفوماRuvuma وجوبا Juba وشبيلي Shabelle ويفشل الأخير هذا في الوصول إلى المحيط . بينما يتجه نهر مالاقاشي Malagasi غرباً إلى بحيرة

---

(٣) وللمزيد من التفصيلات أنظر ، جمال الدين الدناصوري ، جغرافية العالم، أفريقيا واستراليا ، (القاهرة ، ١٩٧٧م) جـ ٢ ، ص ١٦١ ، محمد عبد الغني سعودي ، أفريقيا (دراسة شخصية الأقاليم) (القاهرة ، ١٩٦٦م) ص ٢٧٠ ، جودة حسنين جودة . جغرافية أفريقية ، ص ٢٥٦ .

(٤) جمال الدين الدناصوري ، جغرافية العالم ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها.

تنجانيقا ، كذلك يجرى نهر هواش Hawash في وادي الأخدود إلى الشمال من هضبة شوا الأثيوبية وينتهي في منخفض الرمال المالحة في ساحل الدناكل . ومن الأنهار الهامة جداً في بلاد شرق أفريقية بصفة عامة نهر الزمبيزي ونهر النيل ونهر الكونغو ، وهي أهم أنهار أفريقية عامة ، وأنهار شرقي أفريقية خاصة (٥) .

كان المدخل الشمالي للقرن الأفريقي حلقة من حلقات اتصال الأجناس البشرية بين أفريقية وجارتها ، ووفدت عبر بوغاز باب المندب عناصر آسيوية، وتوجد بقايا قديمة لأجناس بشرية في مناطق غير بعيدة عن ذلك المدخل ، ويعتبر البوشمين والأقزام أقدم العناصر البشرية في أفريقيا ، بل تعتبر أول العناصر الزنجية التي وفدت إلى شبه جزيرة الصومال ، ثم نزحت إلى الجنوب الغربي حتى هضبة أفريقيا الشرقية والجنوبية . وعرفت هذه العناصر الزنجية العريقة ببشرتها السوداء وشعرها المجعد وفكها البارز إلى حد كبير . وامتزجت هذه العناصر الزنجية بأخرى حامية قدمت من آسيا (وهي عناصر قوقازية) . ونشأ من هذا الإختلاط جيل جديد يحمل خصائص الجنسين يسميه علماء الأجناس باسم البانتو Bantu ، نزح أمام ضغوط هجرات حامية أخرى نحو جنوب القارة ، ومازالت تأثيرات حامية بادية على بانتو الشرق والجنوب (شرق وجنوب أفريقية) ، وهم من عناصر زراعية ورعوية أكبرها قبيلة كيكويوKikyu في كينيا والباغندا Baganda في يوغنده . وتتمثل القبائل الرعوية بصفة خاصة في قبائل الزولو Zolo والماساي Masai في كينيا . وتعيش الجماعات الزراعية تحت تهديد القبائل الرعوية المحاربة(٦) .

(٥) H.R. Jarnet . Africa (London, 1971) PP. 328 ff , Edward ULLendorff. The Ethiopians (Introductions to Country and People). 2nd. ed. (Oxford, 1965) PP. 26 - 27 .

(٦) حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ .

وهناك تقارب كبير بين العناصر الحامية القوقازية التي وفدت إلى أفريقية من آسيا ، وبين الجنس السامي ، ورغم أن الحاميين احتفظوا بصفاتهم الجسمانية عبر العصور حتى الأزمنة الحديثة ، إلا أنهم اختلطوا وتأثروا بالساميين . وإن التمييز بين الحامي والسامي لغوي بحت ، فيتكلم الحاميون بلغات يراها علماء اللغات من أسرة لغوية واحدة أصلها من جنوب آسيا ، وفدت في عصر متقدم ، بحيث لم يعد لها الآن أثر في تلك القارة ، بينما يتكلم الساميون بلغات مشتقة من لغات جزيرة العرب في وقت متأخر نسبياً ، وإن كان هناك من يقرر من العلماء قرابة اللغتين بحيث أطلقوا عليها الأفرو - آسيوية . وليس هناك فروقات جسمانية بينهما (٧) .

ويقسم العلماء الحاميين إلى قسمين :

١ - الحاميون الشرقيون Eastern Hamites

٢ - الحاميون الشماليون Northern Hamites

ويشمل الشرقيون : الكوشيين ، والمصريين ، والبجة ، والنوبيين والصوماليين والدناقل ، والجالا ، والأثيوبيين .

وأهم تلك العناصر : الجالا الذين يعتبرون أشد القبائل القاطنة في شرق وقرن أفريقية ، ويشكلون نصف سكان أثيوبيا ، أما الدناقل أو الدناكل ، فإنهم يسكنون بامتداد ساحل البحر الأحمر من خليج البحر الأحمر من خليج زولا إلى خليج تاجورا ، وحتى المرتفعات الحبشية إلى الغرب من السهل المعروف باسمهم ، وجنوباً إلى نهو هواش ،وتظهر وحدتهم في الإسلام واللغة

---

(٧) انطوني سلري ، الجغرافية الإجتماعية ، ص ١٥-١٦ . محمد عبد الغني. أفريقيا ، ص ٥٤ - ٥٥ ، حمدي السيد ، «الصومال »، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

العفرية « الدناكلية » . التي تشبه اللغة الصومالية إلى حد كبير ، والحرفة الرئيسية لهؤلاء هي الرعي والتجارة والزراعة . وهم موزعون حالياً بين جمهوريات : جيبوتي وأثيوبيا وأرتيريا ، وكلهم مسلمون سنيون (٨) .

أما الصوماليون ، فيعتبرون الشعب المسيطر على قرن أفريقيا الشرقي حتى وقت قريب ، ويتميزون عن جيرانهم بوحدة عرقية وثقافية ولغوية ، وهم مسلمون شافعيون ، واختلطوا بالعرب منذ القدم ، ومن ثم لم تختلف قسماتهم وصورهم عن العرب إختلافاً يذكر ، ويحترفون الرعي والزراعة والتجارة والصيد البحري .

ولشرقي أفريقية أهمية إقتصادية عظيمة ، فهو يعتبر منتجاً كبيراً لنباتات السيزال والشاي والبن والقطن، والحاصلات الزراعية الضرورية لإحتياجاتهم كالفول السوداني والسمسم والكوبرا والتبغ والذرة والدخن والقمح والشعير . وهناك بعض النباتات المدارية كالموز في أثيوبيا والصومال . وعلى الرغم من أن القرنفل يزرع في أماكن متعددة من شرقي أفريقية فان معظم محصوله يأتي من جزيرة زنجبار وبمبا . أما الذهب فهو يستخرج أحياناً من مجاري الأنهار والسيول ، ولكنه لم يظهر بكمية تجارية في المنطقة ، رغم وجوده في أرتيريا وجنوب أثيوبيا (٩) .

---

(٨) راشد البراوي ، الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٢٤-٢٥ ، حمدي الطاهر ، جيبوتي أمن البحر الأحمر (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ٣٧ ، مراد كامل ، الحبشة بين القديم والحديث . (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١

ULLendroff The Ethiopians , PP. 40 - 41

(٩) محمد عوض محمد ، الشعوب والسلالات الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) ص ٢٣٧ ، حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، فيليب رفله ، الجغرافية السياسية لأفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٦م) ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، أنطوني سلري . الجغرافيا الإجتماعية ، ص ٢٢٦ ، جمال الدين الدناصوري. جغرافية العالم ، ص ١٧٩ ،

ULLendroff Ibid , PP. 30-31

هذا ، ولا تشير المصادر والمراجع إلى أن السكان الأوائل لساحل قرن أفريقية ، قد عرفوا نوعاً من الكتابة الخاصة بهم ، أو إستعانوا بكتابة غيرهم لتسجيل أحوالهم وتطوراتهم ، ولكنهم من جهة أخرى استطاعوا أن يقيموا علاقات كانت في أغلبها علاقات تجارية مع مناطق الحضارات الكبرى في العالم القديم . وكان البحارة والربابنة القادمون من العالم القديم يجوبون بسفنهم التجارية الساحل الصومالي . ونتج عن هذا التعامل التجاري أو زاد عدد المهتمين بالكتابة عن الساحل الصومالي ، حيث سجلوا مشاهداتهم وقام الفنانون منهم بتخليد ذكرياتهم عن تلك الزيارات في الرسوم الأثرية للعالم القديم . ومن ثم فإن أنجح وسيلة لمعرفة التاريخ العام لسكان هذه السواحل في العصور القديمة هو الإعتماد على تلك العلاقات الصومالية بمواطن الحضارات القديمة في أفريقية وآسيا [١٠] .

وفي العصر الإسلامي « العصور الوسطى » ، كانت بلاد البربر ، وقرن أفريقيا ، وساحل الزنج في شرقي أفريقية من أهم المناطق الأفريقية التي إمتد إليها المد الإسلامي سلمياً ، وكانت حينئذ منطقة مشهورة لدى العرب بمحاصيلها التي كانت تمثل العمود الفقري لحياتهم التجارية ، ونجد وصف المنطقة في كتب الرحالة المسلمين الأوائل كالمسعودي الذي يصف المنطقة وسواحلها ومنتجاتها التجارية . وذكر البحر الهندي « الحبشي » حيث يقول: «وليس في المعمورة أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة

---

(١٠) إبراهيم أحمد رزقانة ومحمد صفي الدين ، الجغرافية الطبيعية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٥٠٢ - ٥٠٣ ، على أحمد نور ، سلسلة بونت (١) مقديشو (مكان النشر والتاريخ بدون) ، ص ٤٤ ، صلاح صبري ، أفريقيا وراء الصحراء (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ٢٩١ - ٢٩٢ ، حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ .

يمتد من ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربري (يقصد خليج عدن المطل على مدينة بربرة) طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل ، وليست هذه بربرى التي ينتسب إليها البرابرة الذين في بلاد المغرب من أرض أفريقيا » . كما أشار المسعودي إلى السفن التي كانت تجوب هذه البلاد ، وتلك المحيطات ، والربابنة الذين لهم الشهرة والمعرفة للمنطقة هم «العمانيون» وبقية أبناء الجنوب العربي . وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج المعروف بالبربرى (١١) .

لقد تردد المسلمون على سواحل شرقي وقرن أفريقية من أجل جلب مواد متوفرة فيه ، هذا إلى جانب رغبتهم الأكيدة لنشر الإسلام بين السكان ، وكان العرب المسلمون يقومون بدور الوسيط . لتجارة العالم الإسلامي وأوروبا ، ونقلوا من الشرق سلعاً أهمها الكافور والبخور والقرنفل والحرير والعود والصندل فضلاً عن جواهر (سيلان) ومسك (الملبار) والدر واللؤلؤ وأنواع الياقوت (١٢) . وكانت من ضمن السلع المتوفرة في قرن أفريقيا شجر الأبنوس والصندل والعاج والساج والقنا . ومن هذه السواحل يلتقط العنبر ،

---

(١١) وللمزيد من التوضيحات ، أنظر . أبو الحسن على المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، (القاهرة ، ١٩٥٨م) ، ص ١٠٧ .

(١٢) محمد بن حبيب ، كتاب المنمق في أخبار قريش ، تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) ص ٣٢، ٤٠٠-٤٠٢، أبو عثمان الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (بيروت، ١٩٦٦م) ص ٣٤ ، شمس الدين المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٨٧٧م) ص ٧٩ ، ٩٧ .
M.J. Kister. Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " Studies in Jahiliyya and Early Islam (London, 1980) PP. 61 - 62, Particia Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987).

ولا يوجد في سواحل أخرى غيرها (١٣) .

كما كان العاج من أهم المواد التي كانت لها جاذبية خاصة ، والمتوفرة في منطقة قرن أفريقية ، ومن تلك الأرض يجهز أنياب الفيلة ، ويجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين ، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً(١٤) .

وهكذا كان البحر الأحمر - ومازال - عامل وصل بين قارتي آسيا وأفريقية ، وعبره تنقل الأفكار والأديان والتجارة ، فضلاً عن أنه كان أهم معبر للسلالات البشرية من آسيا إلى أفريقية منذ عصور سحيقة . ونظراً لوقوع منطقة القرن الأفريقي والسواحل الشرقية في ملتقى القارتين الأفريقية والآسيوية ، فإن سكانه احتكوا بالحضارات القديمة : كالحضارة المصرية ، والعربية والهندية ، والفارسية ، والأغريقية وغيرها ، وترعرعت في ربوع بلادهم حضارة أعجب بها الرحالة والمكتشفون وأشاد بها الكتاب والمؤرخون.

---

(١٣) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ ، أحمد بن واضح اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) جـ ٢ ، ص ١٩١، أبو عبد الله البكري ، معجم ما استعجم من الأسماء والبلاد والمواضيع. تحقيق مصطفى السقا (بيروت ، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) ، جـ١ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ، معجم البلدان، (بيروت ، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) جـ ٣ ، ص ,٣٤٣.

Abdullah Alwi Haji Hassan , “ The Arabian Commercial Background in Pre-Islamic time “ Islamic Culture , Vol.LXI No.2 (1987)PP.78-79.

(١٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٧ .

العلاقات التاريخية بين السواحل العربية والأفريقية منذ القدم :

كان البحر الأحمر منذ أقدم العصور طريقاً للملاحة ، ووسيلة للتبادل التجاري بين الدول المحيطة به ، وبين دول الشرقين الأدنى والأقصى . وكلما تقدمت فنون الملاحة وبناء السفن ، ازدادت أهمية وقيمة السلع المتبادلة بين هذه الشعوب كماً وكيفاً . وكان لموقع البلاد العربية الجغرافي كبير الأثر في توجههم نحو الملاحة ، وتطورها ، وبالذات أهل جنوب الجزيرة العربية الذين يحدهم البحر الأحمر غرباً ،وخليج عدن والمحيط الهندي جنوباً ، والخليج العربي شرقاً .وتكون بلاد الحضارات القديمة قريبة منهم ، بينما تقابل سواحلهم سواحل القرن الأفريقي . وكانت هذه العوامل الطبيعية منها والبشرية حافزاً قوياً شجع العرب على التوجه صوب البحر ، وأن يصبحوا أول من احتل سواحل القرن الأفريقي ، وقد امتطى عرب الجنوب صهوة البحر في وقت مبكر من التاريخ ، وأصبحوا بحارة مهرة ، وتجاراً حاذقين ، وكانت موانىء الجنوب العربي مراكز تجارية مزدهرة . وبرزت دويلات عربية صغيرة الحجم ، ولكنها ثرية وقوية . ومن جهة ثانية فهم أول شعب أتقن طرق التعامل مع الرياح الموسمية ، واكتشفوا أنهم يستطيعون إقامة صرح تجارة قوية مع سواحل قرن أفريقية ، فنشطوا منذ دولة معين حوالي (١٣٠٠-٦٥٠ق.م) وسبأ حوالي (٩٥٠-١١٥ق.م) ، ثم دولة حمير (١١٥ق.م - ٥٢٥م) وقامت هذه الدول بنشاط تجاري كبير ، وساهمت بازدهار الحركة التجارية البحرية منها والبرية ، حتى تمكنت سبأ من السيطرة على تجارة المحيط الهندي وسواحل قرن وشرق أفريقية [١٥] .

---

(١٥) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة ، السيد يعقوب بكر (القاهرة ١٩٥٨م) ص ٥٣.

G.S.P. Freeman , & Grenville . The East African Coast (Select, Documents from the first to the earlier Nineteenth Century) Clarendon Press, 1962 PP. 33 - 34 .

ومنذئذ ارتبط تاريخ شرق وقرن أفريقية بالعرب ارتباطاً وثيقاً ومتواصلاً . وظلت للعرب خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة صلة وثيقة وأواصر متينة بالساحل الشرقي لأفريقية ، بصورةعامة ، والساحل الصومالي بصفة خاصة ، وربما أقاموا في تلك الفترة المبكرة بعض مستوطنات عربية في المناطق الساحلية ، سيما وأن للعرب جالية كبيرة في سواحل الهند قرب نهر الهندوس سماهم الهنود باسم « عربيته » أي العرب . ولما أرسل الإسكندر المقدوني قائد أسطوله « نيارك » لإكتشاف بحر الهند ، وجد بسواحل بلاد الهند آثاراً تدل على نفوذ العرب ، واحتكارهم للتجارة ، وأساطيل عربية . وكان الربان الذي أرشده في ذلك البحر عربياً ، وكان العرب أول من قام باستكشاف في البلاد الواقعة جنوبي بوغاز باب المندب حتى سفالة في أقصى ساحل شرقي أفريقيا جنوباً (موزمبيق حالياً) ، وبعدهم وصلت باقي الأمم وبواسطتهم ، فضلاً عن أن نزول هذه الأمم إلى تلك الأراضي كان مؤقتاً ، بينما تواصل وجود العرب بها (١٦) .

لقدل تعددت الروابط الأفريقية إلى روابط ثقافية وعرقية ، بعد أن تعددت الهجرات العربية عبر باب المندب وزيلع وبربره ، ومنذ (بلقيس) ملكة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد أو قبلها بكثير ، كما ساهم موقع قرن أفريقية ، ونمط حياة سكانه في تكوين علاقات تجارية مع بلدان أفريقية وآسيا ، مما جعل التجارة حرفتهم الرئيسية ، فقام ذلك العدد الهائل من الموانىء والمدن التجارية على طول ساحل المنطقة . فهاجر إليها العرب وذلك للتقارب

---

(١٦) المسيو جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية. نقله إلى العربية ملخصاً يوسف كمال (القاهرة ، ١٩٢٧م) ص ٢٥، ٢٦، ٤٤٩-٤٥٠) أحمد فخري . اليمن ماضيها وحاضرها (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٥٢ .

المناخي بين المنطقتين [(١٧)] .

وفي الفترة التي تلت نفوذ حمبر حتى ظهور الإسلام ، أسس العرب نقاطاً تجارية مهمة على الشاطئ الأفريقي الشرقي ، خاصة في المنطقة التي تلي خليج عدن ، ويعني هذا أن الهجرات العربية المتدفقة على المنطقة ، واستقرار بعضهم في المراكز التجارية المحلية لإعداد السلع التجارية ريثما يتم شحنها إلى بلادهم ، قد تحولت إلى استقرار دائم ، بل وتأسيس هيئات خاضعة لقوانين إدارية ثابتة . ونتيجة لهذا النفوذ العربي والسياسي والإقتصادي على قرن أفريقية تدفق الآلاف من سكان عبر الجزيرة العربية إليها للإستيطان بها ، مما أعطى سكان الساحل الأفريقي قوة ونشاطاً كبيرين لتحسين وتنويع منتجاتهم ، للحصول على أكبر كمية ممكنة من انتاج من تحضر من الأمم الشرقية ، كما قاموا بتسويق منتجاتهم في سفنهم التي حملتها إلى البلاد العربية ، حتى امتدت إلى الهند والصين ومصر [(١٨)] .

ويوافق هذا ما ذكره صاحب رحلة الطواف بأن البربر كانوا أحياناً ينقلون

---

(١٧) راشد البراوي ، الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة، ١٩٦٦م) ص ١٤-١٥، حمدي السيد . الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ .

(١٨) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . تحفة الزمان (أو) فتوح الحبشة ، مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية ، رينيه باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٩١ وما بعدها ، أحمد فخري . اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٥٣-٥٤، المسيو جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية . ص ٤٤، ٤٤٦، جرجي زيدان . العرب قبل الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ١٧٨ .

سلعهم إلى البلاد الواقعة على مدخل البحر الأحمر (١٩) .

وتمثل دولة حمير (١٥٥ق.م - ٥٢٥م) وريثة ملك سبأ ، وموحدة القبائل العربية ، العصر الذهبي في العلاقة بالبحر الأحمر عامة ، وشواطئ قرن أفريقية خاصة ، وهي نفس الفترة التي ازدهرت فيها العلاقة التجارية بصورة أكثر وضوحاً بين سكان قرن أفريقيا وبين دول اليمن . وفي القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، كانت الإمبراطورية الرومانية العظيمة تسير تدريجياً إلي الإضمحلال ، وفي القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، تجتاح الإمبراطورية المتداعية ، تلك القبائل المتبربرة القادمة من الشمال . ودخلت أوروبا إلى ما عرف بعهود الفوضى والظلام ، ونتج عن هذا الوضع أن توقفت علاقة الساحل الأفريقي بهذه الإمبراطورية تماماً (٢٠) .

وفي مطلع القرن الثاني الميلادي ، وحوالي عام ١٢٠ م ، انهار سد مأرب، وانهار معه اقتصاد بلاد العرب الجنوبية ، فتفرق سكانها على أيادي سبأ ، فسلك كل فريق منهم طريقاً ، فاتجه معظمهم إلى منطقة القرن الأفريقي حيث الأرض الفسيحة ، الصالحة للسكنى ، والتي رحبت بمقدمهم منذ أول وهلة ، فجدد المهاجرون الجدد حضارة وحياة السكان الأفارقة ، وطوروها مستنبطين

---

(١٩) على أحمد نور . سلسلة بونت ، ص ٦٩ - ٧٠

M.J.Kister. " Some Reports...." PP. 132, 201, A. Alwi Haji Hassan " The Arabian Commercial ..." Vol. LXI No. 2 PP. 81 ff.

وصاحب رحلة الطواف له كتاب باللغة الإنجليزية تحت عنوان :

" The Periplus of the Erythreaes Sea "

(كتاب الطواف حول البحر الأريتري) ويقصد بالبحر الأريتري البحر الأحمر أو المحيط الهندي . وصاحب هذا الكتاب تاجر أغريقي مجهول الإسم ، عاش في الإسكندرية في القرن الأول الميلادي .

(٢٠) على أحمد نور ،المرجع نفسه ، ص ٧٣

من حضارتهم اليمنية ، وخبرتهم المكتسبة ، ونظامهم الزراعي السبئي ، فنشروا المحراث في ربوع البلاد التي خلط سكانها النشاط الزراعي بالرعوي سابقاً .

وخلال فترات الحروب الدينية والمذهبية في بلاد العرب حتى ظهور الإسلام وانتشاره في بلاد العرب ، تزايدت حركة الهجرة والاستيطان العربي على سواحل قرن أفريقية ، وامتدت من الموانىء الشمالية حتى الموانيء الشرقية، فظهرت جاليات عربية كبيرة في تعدادها في مراكز زيلع وبربرة وجوردافوي وغيرها من مراكز تجارية لأسباب دينية أو شخصية أو تجارية . وبهذه الإستقرارات ، بدأ عهد جديد في تأفرق العرب ، وإنصهارهم خاصة الصوماليين منهم (٢١) .

وكان لهذه الجاليات العربية أكبر الأثر ، في حركة نشر الإسلام في بلاد الصومال وارتيريا والدناكل والحبشة ، منذ ظهوره ، بل ومنذ الهجرة الأولى إلى الحبشة ، حتى انتشر الإسلام انتشاراً منقطع النظير في منطقة القرن الأفريقي وفي داخله ، وبطريقة سلمية ، وهذا يمثل أرقى وأنقى تلك الصلات وأبقاها أثراً .

---

(٢١) وللمزيد من التفصيلات ، انظر . حسن ابراهيم حسن . إنتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦-٢٧ . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات . المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية (بغداد ، ١٩٨٢م) ص ٦١، غيثان بن علي بن جريس . « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة والحجاز في صدر الإسلام » . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العدد الثامن ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص ٤٢٠ وما بعدها .

منذ فجر الإسلام تمت هجرات عربية إلى بلاد الحبشة والصومال لأسباب دينية وسياسية ، فضلاً عن العامل الإقتصادي الذي كان بارزاً في جميع الهجرات .

ظهر الإسلام في مكة المكرمة ، ودعا النبيﷺ الناس إلى الدين الجديد ، بطريقة سرية لمدة ثلاث سنوات ، ثم جهر بالدعوة بأمر من الله « وأنذر عشيرتك الأقربين » فآمن به بعض ، وانصرف آخرون إلى إيذائه ، ومن اتبعه من المسلمين . وأشار النبي ﷺ إلى أصحابه أن يتفرقوا في الأرض ، فلما سألوه عن الجهة نصحهم بالجوء إلى الحبشة قائلاً لهم إن خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه . ومن المرجح أن اختيار بلاد الحبشة كملجأ للمسلمين الأوائل الذين عذبوا على يد كفار قريش لدليل قاطع على العلاقات السائدة بين عرب الحجاز وبلاد الحبشة عند ظهور الإسلام [٢٢] .

وفي السنة الخامسة للبعثة النبوية (٦١٥م) تمت أول هجرة في الإسلام إلى الحبشة ، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، وكان فيهم عثمان بن عفان

---

(٢٢) عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (مكان النشر والتاريخ بدون) ، جـ ١ ص ٣٢١-٣٢٢، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ ، محمد بن عبد الباقي .الطراز المنقوش في محاسن الجيوش . مخطوط رقم ٢٥٣، جامعة الملك عبد العزيز ، جده ، ورقة ١٥-١٦، على بن الشيخ إبراهيم الحلبي الشافعي ، أعلام الطراز المنقوش في محاسن الجيوش ، مخطوط ، تاريخ رقم ١٤١٢ ، ٥١٥٨١، جامعة الأزهر . ورقة ٥ ، جلال الدين السيوطي . أزهار العروش في أخبار الحبوش ، مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم ، رقم (٣٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) جـ ١ ، ص ١١-٣٧، ٢٥٩-٢٨٣ .

وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وتتابعت بعدئذ الهجرات ، وكان جعفر بن أبي طالب هو المقدم عليهم ، والمترجم عند النجاشي (٢٣) .

وبجانب هجرة المكيين فإن ثمة هجرة يمنية إلى الحبشة ، وكان اليمنيون بضعة وخمسين رجلاً في سفينة ، متجهين إلى مكة المكرمة ، وسبب رحلتهم البحرية من اليمن إلى مكة ، خوفهم من أن يقعوا في أيدي قبائل عربية حليفة لقريش ، إذا ما هاجروا بطريق البر فألقتهم سفينتهم بأرض الحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبي طالب وبقية الصحابة عند النجاشي ، فأقاموا عنده حتى قدموا على النبي ﷺ في المدينة المنورة ، وشهد أبو موسى الأشعري - قائد المهاجرين اليمنيين - الواقعة بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب وسفارة قريش (٢٤) .

وعلى الرغم من أن الحبشة قد استولت على اليمن ، وحاول ملكها «إبرهه» أن يهدم الكعبة ، فإنها بعد أقل من نصف قرن من الزمان استضاف ملكها «أرماح » أو «أصحمه » ، المهاجرين الأوائل ،وتوثقت بعدئذ الصلات ، وقويت عرى الصداقة بينه وبين النبي ﷺ، وتبادلا الرسائل . وكان آخرها تلك التي بعثها النبي صلوات الله عليه وسلامه في السنة السادسة من الهجرة إلى

(٢٣) ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٢٨، ٣٣٥ وما بعدها ، محمد بن جعفر بن جرير الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت) جـ ٢ ، ص ٣٢٨ وما بعدها ، عبد الشافي غنيم عبد القادر ، « البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية » البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمي ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ . الأمين عبد الكريم . « الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية القرن التاسع عشر » مجلة دراسات أفريقية ، المركز الإسلامي الأفريقي العدد الأول (رجب ١٤٠٥ هـ / ابريل ١٩٨٥م) ص ٤٦ .

(٢٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ وما بعدها ، عماد الدين محمد إبن كثير ، البداية والنهاية (بيروت ، ١٩٧٨م) جـ ٣ ، ص ٦٦، ٧١ .

النجاشي يطلب منه عودة المهاجرين ، بعد أن استقرت الأحوال في شبه الجزيرة العربية . وكون المسلمون دولة إسلامية قوية في المدينة المنورة . وخرج الصحابة من أرض الحبشة بعد أن مكثوا فيها حوالي ستة عشر عاماً ، نشروا فيها العقيدة الإسلامية ، وذكروا للنبي فضل النجاشي عليهم ، وحسن ضيافته لهم ، وما طلبه منهم من أن يستغفر له النبي ﷺ ، فقال صلوات الله وسلام عليه : « اللهم أغفر للنجاشي » ، فقال المسلمون « آمين » (٢٥) . وثبت في الصحيحين أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، وقال : « مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» . كما ثبت أنه استغفر له عند سماعه نبأ وفاته (٢٦) .

ويقال أن أربعين حبشياً قدموا من النجاشي « أصحمه » على النبي ﷺ وشهدوا معه غزوة أحد ، وعرضوا عليه أن يذهب معهم إلى الحبشة لأنها ارض مسرة ورخاء أكثر من شبه الجزيرة العربية ، وهم الذين نزلت عليهم الآية الكريمة « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » (٢٧) .

---

(٢٥) ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٤١ ، ابن سيد الناس . عيون الأثر في فنون المغازي وشمائل السير . تحقيق دار إحياء التراث العربي (بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) جـ ١ ، ص ١٤٩ ، ابن حجر العسقلاني . فتح الباري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب (مكان النشر والتاريخ بدون) ، جـ ٧ ص ١٨٨ ، ١٩١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٣ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٦) ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٤١ ، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، جـ ٧ ، ص ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢٧) سورة القصص ، الآية (٥٢) ، اسماعيل بن كثير . تفسير القرآن الكريم (بيروت : دار المعرفة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) جـ ٣ ، ص ٤٠٤-٤٠٥ جلال الدين السيوطي ، رفع شأن الحبشان ، مخطوط رقم (٢٣٤٢) مكتبة جامعة الأزهر ، ورقة ١٤ ، أنظر أيضاً محمد حميد الله . مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ١٠٦ - ١٠٧ .

أما في الصومال فمن المرجح أنها قد عرفت الإسلام في حياة الرسول ص حينما خرج جعفر بن أبي طالب من مكة إلى الحبشة لنشر الدعوة الإسلامية ، وفي طريقه أسس مراكز للدعوة في ارتيريا والصومال بمساعدة الجاليات العربية المستوطنة ، وكان ذلك قبل هجرة الرسول من مكة إلى المدينة بنحو ثماني سنوات . ومن هنا فلا غرابة إذا وجدنا أن الصوماليين قد صاروا فيما بعد من أكبر المتحمسين لنشر الإسلام ، وصارت البلاد إسلامية خالصة(٢٨).

ومع ازدهار الإسلام ديناً ودولة ونظاماً ، ازداد النشاط البحري ، وتوافدت على سواحل القرن الأفريقي مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وعجم ، لإنشاء مراكز ثابتة لنشر الدعوة ، وبث تعاليم دين الإسلام بين أهالي تلك البلاد (٢٩) .

ولم تدخل منطقة الحبشة - بما فيها الصومال والسودان وارتيريا - ضمن مناطق الفتوحات الإسلامية الأولى لأسباب متعددة ، لعل أبرزها ، ما كان للنجاشي « أصحمة » من مقام رفيع في نفوس المسلمين ، وما روى

(٢٨) أحمد حفني القنائي ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان (القاهرة ، ١٣٢١هـ) ص ج . محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ٣٣ ، إبراهيم علي طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى . المجلةالتاريخية المصرية (القاهرة ١٩٥٩م) المجلد الثامن ، ص ٥-٦، غيثان بن علي بن جريس « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة والنوبة وبين الحجاز » ص ١٢-١٥ .

(٢٩) وللمزيد من التفصيلات انظر السر أحمد العراقي . « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية . الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو / تموز ١٩٨٣م (بغداد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ١٦٤ وما بعدها ، عبد الشافي « البحر الأحمر .... » ص ٨٠-٨٥، غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » مجلة المؤرخ العربي (اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ١٩٩٣م) العدد الأول ، المجلد الأول ، ص ١٢٨ وما بعدها .

عن النبي ﷺ « اتركوا الحبشة ما تركوكم » .

ومن جهة ثانية فقد ركز الخلفاء الأولون جهودهم لكسر شوكة الإمبراطوريتين : الرومانية والفارسية فاتصف الإتجاه الإسلامي في الحبشة عامة بطابع سلمي بحت [٣٠] . وليس هذا الإتجاه - كما فسره البعض - نتيجة لضعف عرب شمال الجزيرة العربية في شئون الملاحة ،وركوب البحار ، وإلا اتجهوا بادىء ذي بدء نحو السودان والصومال [٣١] . فنحن لا نميل إلى هذا الرأي ، حيث كان للمسلمين قوة بحرية دافعت بل هاجمت القوة البحرية الرومانية ، لا سيما وقد انضمت إلى حظيرة الإسلام شعوب بحرية متمرسة في ركوب البحر كاليمن ومصر وسوريا .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وجهت حملة بحرية لتأديب قراصنة الحبشة الذين هاجموا متاجر المسلمين في البحر الأحمر ، ومن الواضح أن حملة الخليفة عمر بن الخطاب في سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) لم تكن تهدف غير

---

(٣٠) الشاطر بوصيلي عبد الجليل . معالم تاريخ السودان ووادي النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص٨. فتحي غيث - الإسلام والحبشة عبر التاريخ.(القاهرة ، د.ت) ص ٥٩ .

(٣١) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة ، ص ١٠٧ ، فتحي غيث ، الإسلام والحبشة ، ص ٥٩ ، الأمين عبد الكريم . (الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا) ، ص ٤٧-٤٨.

تأمين البحر الأحمر من خطر قراصنة الأحباش ، حيث إنها لم تسيطر على أية بقعة أفريقية (٣٢) .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب كذلك ، يسجل المؤرخون أول من هاجر إلى قرن أفريقية من المسلمين العرب ، وهو « ود بن هشام المخزومي » وجماعة من أسرته ، واستقروا في مكان ما بالساحل . ويذكرنا سبق المخزوميين إلى الهجرة نحو قرن أفريقية ، أمر سفارتي قريش إلى الحبشة أثناء هجرة المسلمين الأوائل حيث كان مع عمرو بن العاص مخزوميان ، مما يوحي أن لهذه الأسرة نفوذاً كبيراً ومعرفة وإلماماً أكثر من القبائل الأخرى ، ولم يكشف التاريخ نوع هذا النفوذ . ويرجع المؤرخون سبب هذه الهجرة إلى إختلاف وجهات النظر بين الخيفة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد المخزومي، وعزله عن قيادة الجيش الإسلامي في الشام حيث قال خالد يومئذ « رحم الله أبا بكر ! لو كان حياً ما عزلني (٣٣) » . ولكننا نرى أن عمر بن

---

(٣٢) محمد بن إسحاق الفاكهي ، كتاب المنتقى في أخبار أم القرى . نشرة وستنفلد (ليبزج ، ١٨٥٩م) ص ٤٤ ، يوسف فضل حسن . دراسات في تاريخ السودان (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ ١ ، ص ٣-٦ .

J. Spencer Trimingham . Islam in Ethiopia , 3rd. ed (London, 1976) PP. 46-47.

ومن يتتبع العلاقات بين الحبشة وشبه الجزيرة العربية ، وخاصة بلاد الحجاز، يجد أن الغارات من قبل قراصنة الأحباش تكررت خلال حكم الدولة الأموية والدولة العباسية ، ولكن خلفاء الإسلام في تلك العصور كانوا دائماً على أهبة الإستعداد لرد ومحاربة تلك الغارات ، انظر أمثلة من غارات الأحباش في تلك العهود . محمد بن ظهيره القرشي ، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف . (القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م) ص ٨١ ، عبد القدوس الأنصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة (القاهرة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص ٥٧ .

(٣٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٣٩، حمدي السيد . الصومال ،جـ ١ ص ٣٥٠ - ٣٥١ .
Trimingham , Islam in Ethiopia PP. 50 ff.

الخطاب قد عزل خالد بن الوليد عن القيادة لأسباب غير شخصية ، ولم يثبت أن قام بذلك لإساءته شخصياً أو إضطهاد أخواله ، إذ أن أم الخليفة «حنتمة بنت هشام بن المغيرة » ، بنت عم خالد بن الوليد ، ولم يكن عمر بن الخطاب قاطع رحم ، ولكنه كان عادلاً لا تأخذه في الله لومة لائم . والمسألة بشكلها هذا لا تؤدى إلى هجرة ود بن هشام وأفراد من أسرته نحو أفريقية ، في هذا الوقت المبكر ، وبسبب عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش الإسلامي .

ولإختلاف سادة العرب حول منصب الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان ، إنقسم المسلمون إلى شيع وأحزاب في عهد الخليفة « علي بن أبي طالب » ، فهاجر بعض المسلمين إبان فترة الإضطرابات التي سادت اثناء خلافة علي بن أبي طالب إلى ساحل شرق أفريقية ، ويرجح أنهم كانوا من الخوارج الذين حاربهم علي وهزمهم في موقعة النهروان عام (٣٩هـ) [٣٤] .

لقد قامت دولة بني أمية والخلافات على أشدها بين المسلمين ، منهم من يناصر شيعة علي ويرى أن الخلافة لأولاده من بعده ، ومنهم من ساند معاوية بن أبي سفيان كاهل الشام ، هذا فضلاً عن حزب الخوارج الذي له رأي آخر . واتفق الشيعة والخوارج - على الرغم من تباعدهم الفكري - على تقويض أركان دولة بني أمية . وحينئذ انتشرت الإضطرابات ، التي نتج عن اخمادها هجرات متعددة إلى سواحل شرقي أفريقية [٣٥] .

---

(٣٤) وللمزيد من التفصيلات انظر حمدي السيد. الصومال، جـ ١ ، ص. ٣٤٩

(٣٥) تقي الدين المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ٢٢ وما بعدها ، الحفني القنائي ، الجواهر الحسان ، ص ١٥-١٦. أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٨م) جـ ٦ ، ص ٦٦٣ .

ومن أهم الهجرات العربية إلى منطقة القرن الأفريقي وسواحل الصومال ، هجرة الجلنديين في أيام خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م) - ومن المرجح أنها أول حركة استيطان إسلامية على سواحل الصومال الجنوبية ، وسبب هذه الهجرة ثورة قام بها سليمان وسعيد إبنا عباد الجلندي في عمان . وكانت عمان الواقعة في أقصى جنوب شرقي الجزيرة العربية ، ملاذاً للفارين من حكم بني أمية . لتمتعها بنوع من الحكم الذاتي ، وثار الجلنديان حينما اتبع « عبد الملك بن مروان » سياسة قبلية في الحكم، وعين على عمان رجلاً من اتباعه المخلصين ، وأبعد العمانيين عن الحكم وابان ثورتهما ارسل عبد الملك إليهما أشهر ولاة بني أمية ، وهو « الحجاج بن يوسف الثقفي » ، لإعادة عمان إلى حظيرة الدولة الأموية ، وتمكن الحجاج من هزيمة ثوار عمان فتحرك الأخوان وأنصارهما خلال أعوام(٧٥-٨٥هـ)(٦٩٤-٧٠٤م) - بعد أن ذاقا مرارة الهزيمة - نحو الصومال . واختلف مكان نزولهما ، إلا أنه كان على الساحل الجنوبي الصومالي [(٣٦)] .

وكان لقبيلة الأزد التي ينسب إليها الأخوان - سليمان وسعيد - مكانة رفيعة في عمان منذ فجر الإسلام ، كما أن هجرتهما إلى شرقي أفريقية ، تشير إلى معرفة عمانية سابقة لهذا الساحل ، وبنجاح هذه الفئة في تكوين وطن جديد على ساحل الصومال ، ازداد عدد المهاجرين العمانيين إلى تلك المنطقة [(٣٧)] .

---

(٣٦) حمدي السيد . الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص ٤٧ .

R. Reusch. History of East Africa (London, 1995) PP. 73-77.

(٣٧) حمدي السيد ، الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ ، محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص٤٧ وما بعدها .

وفي سنة (٧٤هـ)(٦٩٣م) قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتجهيز حملة قوية إلى منطقة القرن الأفريقي ، بعد أن استفحل خطر قراصنة الأحباش ، وبات يهدد تجارة الحجاز ، وتمكنت الحملة من احتلال أرخبيل دهلك [٣٨] الواقع أمام خليج مصوع . كما قام عبد الملك بإرسال قائده « موسى بن خثعم الكندي » سنة (٧٥هـ) إلى الصومال ، ضمن الجيوش التي بعثها هنا وهناك، وذلك لمحاولة مد النفوذ الأموي إلى الصومال ، ونشر الإسلام فيه ، خصوصاً وقد ترامي إلى سمعه أخبار هجرة جماعات مناوئة للأمويين ولقى الجيش الأموي ترحيباً من السكان فانقلبت عملية الجيش إلى الدعوة الإسلامية التي نشطت نشاطاً ملحوظاً دونما إراقة دماء ، ونشروا الكتاتيب ، ودخل الأفارقة في دين الله أفواجاً ، واخضع السكان لحكم الأمويين حتى انقرضت دولتهم [٣٩] . ويقال إن عبد الملك بن مروان لم يكتف بهذا وإنما أرسل إلى المنطقة عام ٧٧هـ (٦٩٦م) جماعة من أهل الشام ، لتأسيس مراكز عربية إسلامية في بلاد الساحل ، ونجح هؤلاء في إنشاء مراكز ومدن إسلامية كان من أهمها : براوة وبات ومالندي وممبسة وزنجبار وأشار بعض المؤرخين إلى أن عبد الملك عين على هذه البلاد حكاماً من العرب . ويقال أيضاً أن عبد الملك بعث أخاه حمزه إلى هناك لنشر الإسلام ، وفي رواية أخرى : أنه أرسل ابنه جعفر بن عبد الملك ، وحكم هذا الأخير في منطقة كيوايو في أرخبيل

---

(٣٨) تتكون مجموعة جزر دهلك من : دهل ، حرات ، كيباري ، ردكه ، ويقارنج ، نوره ، نقره . أنظر ، ياقوت الحموي . معجم البلدان (طبعه بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ، الشاطر بوصيلي . معالم تاريخ السودان ، ص ٨ وما بعدها .

(٣٩) Enrico Cerulli. Storio della Somalia L'Islam in Somalia (Roma , 1957) PP. 238 ff .

لامو ، وتوفى فيها [٤٠] .

كان لليمن ظروفها الخاصة التي شجعت عدداً من أبنائها إلى التوجه نحو الساحل الشرقي لأفريقية ، فقد انحاز اليمنيون نحو التشيع منذ الوهلة الأولى، وظلت بلادهم مكاناً للثائرين ، والخارجين عن الطاعة ، واستغلت بعض الطوائف الدينية والسياسية ، موقع اليمن المتطرف من الحكومة المركزية الإسلامية ، فأصبحت بذلك بؤرة ومركزاً للنشاط المعادي للحكومة المركزية ، كما وقعت في اليمن ذاتها حروب ومنازعات لا نهاية لها [٤١] . وحاولت الحكومة المركزية إرغام اليمنيين على الخضوع لها ، فهاجر جل أبنائها إلى ساحل الصومال للإستقرار فيه .

كانت هجرة الزيدية الشيعة سنة ١٢٣هـ (٧٤٠م) في عهد هشام بن عبد الملك ، من أشهر الهجرات التي حدثت في أواخر زمن الدولة الأموية . وكانت هذه الهجرة بسبب ثورة قام بها زيد بن علي حفيد الحسين بن علي بن أبي طالب ، ضد هشام بن عبد الملك ، وانقسم الشيعة بها إلى رافضه

---

(٤٠) مالندي (Malindi) موقعها الآن في كينيا ، وكذلك بات (Pate) وممبسة ، أما زنجبار فهي في تنزانيا ، وبراوة في الصومال ، أنظر السرأحمد العراقي . « أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى » مجلة كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) العدد الثاني ، ص ١٥٩ وما بعدها .

S.N. Stigand . The Land of Zing(London, 1913) PP. 29-30, R.Reusch . History of East Africa, PP. 72-73 .

(٤١) أحمد عبد الله زيراش . كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبعة (مقديشو ، ١٩٧١م) ص ١٢ ، الحسين بن يحيي بن الحسين بن القاسم . غاية الأماني في أخبار القطر اليماني . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) جـ ٢ ، ص ٤ وما بعدها .

وزيديه [٤٢] . وتمكن هشام من إنزال الهزيمة بالزيدية والشيعة ، وقتل زيد بالكوفة، وحينئذ رحل بعض أنصاره إلى أماكن مختلفة ، منها الصومال ، ونزلوا في موقع مقديشو الحالي ، بل وعلى طول ساحل بنادر ونجح الزيدية في نشر الإسلام على طول ساحل بنادر ، وكونوا لهم دولة استمرت ردحاً من الزمن . ويقال إنهم أنشأوا مدينة مقديشو التي اصبحت بعدئذ أهم مركز سياسي وتجاري وديني لساحل شرق أفريقية في العصور الوسطى وحكم الزيدية في هذا الساحل مدة طويلة ، واصلحوا الأراضي القاحلة وزرعوها ، واستفادوا من مياه نهر شبيلي ، كما استطاعوا زراعة بعض النباتات التي أرفدتهم بأموال وثروات طائلة [٤٣] .

الهجرات الإسلامية في العصر العباسي

كانت موقعة الزاب سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) نذيراً بنهاية الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، وتتبع العباسيون أثر الأمويين لأخذ الثأر منهم ، واحكموا فيهم السيف والسجن منذ أول وهلة . وانضم الأمويون إلى صفوف المناوئين للحكم العباسي ، فهم وإن كانوا أعداء فهم أصدقاء اليوم ، واستقر بعض الأمويين الفارين في الأندلس كعبد الرحمن الداخل « صقر قريش » . كما زادت الهجرات العربية الإسلامية إلى الصومال كثافة وتنوعاً في عصر

---

(٤٢) أسعد بن علي بن سليمان اليافعي . مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان (بيروت ، ١٩٧٠م) ص ٢٥٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٩، ص ٣٣، حمدي السيد، الصومال ، جـ ١، ص ، ٣٥٠.

(٤٣) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا (القاهرة، ١٩٦٣م) ص ٤٣٦، جامع عمر عيسى . مقديشو ماضيها وحاضرها (مقديشو، ١٩٧٩م) ص ٣٣٣. المسيو جان . وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية ، ص ٧٢ ، ١٨٣، حمدي السيد . الصومال ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ .

بني العباس ، مما أعطاها وزناً كبيراً ، بمرور الزمن . لتتمتع منطقة الصومال بقدر كبير من الهدوء والإستقرار ، إبان فترة الإضطرابات الكثيرة في احشاء الدولة الإسلامية (٤٤) .

قامت الدولة العباسية بسواعد الفرس ، وظلوا أهم عنصر لها في الجيش وعماد الدولة نحو قرن من الزمان من عهد تأسيس الدولة إلى أيام الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ)(٨٣٣-٨٤٢م) وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب ، من مصر واليمن وربيعة ولكنهم كانوا أقل شأناً وحظوة، وأقل عدداً من الفرس . وكان العرب هم كل شيء في العهد الأموي ، وضعف سلطانهم في العصر العباسي (٤٥) .،وأغضب هذا الإتجاه العباسي بعض القبائل العربية ، فاتجهت إلى مناطق بعيدة ، وهذا ما يفسر حجم الهجرات الجماعية التي اشتركت فيها تسع وثلاثون قبيلة من مختلف الأمصار الإسلامية نحو الصومال ، وإن كان جلها من صنعاء ومن العراق ، ووصلت إلى مقديشو عام ١٤٩ هـ : منهم اثنتا عشرة قبيلة من القحطانيين (آل فقيه) من بلد المقري بصنعاء واثنتا عشرة قبيلة من الجدعني (الشاشيون)، وست من العقبي (الدرقية) ، وثلاث من العفيفي ، وست من الإسماعيلي ، وأشارت المصادر إلى أن القحطانيين من ذرية سليمان بن يعقوب بن قحطان بن وائل بن حجر الصحابي الوافد على النبي ص في السنة السابعة للهجرة ، وبشر النبي بقدومه قائلاً : « يأتيكم بقية أبناء الملوك » ودعا له بالبركة في أولاده، ومن أجل هذه الصبغة التاريخية ، اتفقت جميع قبائل الصومال والعرب

---

(٤٤) زاهر رياض . الإسلام في أثيوبيا في العصور الوسطى . (القاهرة ، ١٩٦٤م) ، ص ١١٥ .

(٤٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (طبعة بيروت ، ١٣٨٤هـ١٩٦٥/م) جـ ٧ ، ص ١١ وما بعدها ، أحمد أمين . ظهر الإسلام (بيروت ، ١٩٦٩م) جـ ١ ، ص ٣ ، ٥٧ .

في مقديشو بأن يتولى آل الفقيه القضاء وتوثيق النكاح (٤٦) .

أثبتت وثيقة لرجل يدعى إسماعيل بن عمر بن محمد ، عثر عليها ، أشارت إلى أنه من بني قحطان ، وهاجر إلى مقديشو عام ١٤٩ هـ ، كما تشير وثيقة أخرى للسيد / عقب بن محمد بن إبراهيم القرشي ، أنه من قبيلة كنانه من مدينة مكة ، واستوطن في مقديشو فترة طويلة (٤٧)، كما نزلت على مقديشو في عام ١٥٠ هـ قبيلة مخزومية ، وينتسب إليها الشيخ عبد العزيز بن محمد بن أبي بكر المخزومي ، صاحب المنارة الطويلة في مقديشو ، والتي تعتبر من أهم معالم حضارتها الإسلامية ، وبعد هذه الهجرة المخزومية تدفق على الصومال سيل من مهاجري الحضارمة واليمن كآل الأهل ،وآل جمال الليل وآل النضير (٤٨) .

والتفسير الوحيد لهذه الهجرات الجماعية في عهد بني العباس ، ما لاقاه العرب من هزيمة تجاه أبناء الفرس ، واضطهاد خلفاء العباسيين والتنكيل بالأحزاب العربية المناوئة لحكمهم . فصار لهم ساحل قرن أفريقيا وما جاوره من السواحل ، مأوى وملجأ . وكان اليمن مركز دعاة الشيعة موضع قدم للمهاجرين ، يلقن لهم مبادىء الشيعة وأساليب الدعوة الإسماعيلية ، ثم يرسلهم إلى الصومال وبقية بلاد شرق أفريقية بعيداً عن أنظار بني

---

(٤٦) عيدروس بن الشريف العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال . (مقديشو ، ١٩٥٤م) ص ، ٤٢ .

(٤٧) جامع عيسى . مقديشو ماضيها وحاضرها . ص ، ٢١ غيثان بن علي بن جريس « العرب في مقديشو ... » ص ١٣٠ وما بعدها .

(٤٨) عيدروس العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال . ص ٤٢، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ١٥ وما بعدها .

العباس[٤٩] .

إهتم العباسيون بقرن أفريقية منذ عهد الخليفة (أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ) الذي أرسل وفداً عباسياً برئاسة رسوله يحي بن عمر العنزي إلى مقديشو سنة ١٤٩ هـ ، وطاف هذا الوفد مدناً أخرى في شرقي أفريقية مثل مندا Munda ، وأوزي Ozi ، وكلفي Kalfi وبساسه Basasa وكلوه Kilwa ، حيث لقى ترحيباً من سلاطينها . وبعد عودته إلى بغداد بشر أبا جعفر المنصور ، بأن تلك البلاد تحت طاعته ، وأن السلاطين بعثوا إليه خراج بلادهم[٥٠] ، والراجح أن هؤلاء الحكام كانوا من العرب الفارين من بني أمية أو من خلفاء العباسيين ، وربما كانوا من الأمويين السابقين ، واتصلت بهم حكومة العباسيين لمد حكمها وسيطرتها إلى تلك المنطقة بغية تكوين إمبراطورية عباسية مترامية الأطراف ، بدليل ذكر الخراج في الرواية السالفة الذكر ، وانهم قطعوا الخراج في عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ ٧٨٦ - ٨٠٩م) وولي البلاد ولاة أعاجم[٥١] . ويقصد بالأعاجم الفرس الذين كانت لهم السيطرة على شئون الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد والبرامكة ، مما يدل على أن المنطقة تتأثر بما يجرى في الدولة الإسلامية حينذاك من تنافس عربي فارسي ، وبتأثير السكان الأصليين والعرب ، وانقلب هؤلاء الأعاجم على المأمون في سنة ٢٠٩ هـ ، ويعزي ذلك إلى ما قام في بغداد من فتنة خلق القرآن الكريم وما صاحبها من هروب كثير من العرب

---

(٤٩) عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب (القاهرة،د.ت) ، ص٢٤٦

(٥٠) عيدروس العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال ، ص ٤٥ .
Enrico Cerulli. Storio della Somalia PP. 238-239.

(٥١) عيدروس العيدروس ، بغية الآمال في تاريخ الصومال ، ص ٤٥ .

والمسلمين ، خصوصاً العلماء والفقهاء ، إلى مناطق عديدة ، وأثروا على سكان تلك المناطق ، ومن ضمنها منطقة قرن وشرقي أفريقية ،وحينئذ بعث المأمون إلى شرقي أفريقية جيشاً قوامه خمسون ألفاً من الجنود و دفع الحكام إليه خراج بلادهم ، دون مقاومة ، وامتد زحف هذا الجيش حتى مدينة مالندي Malindi في كينيا [٥٢] .

وفدت على الصومال في سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) هجرة الأخوة السبعة من قبيلة الحارث ،وعدد كبير من أتباعهم ، على ثلاث سفن ، وهاجروا من الأحساء أو من مدينة مجاورة لها على الخليج العربي ، بضواحي البحرين ، وفروا من جور سلطان تلك المدينة ، وهبطوا على شواطىء الصومال ، وانتشر هؤلاء الأحسائيون الشافعيون على طول ساحل بنادر دون مقاومة من الزيدية الذين كانوا يسيطرون على هذه المنطقة ردحاً من الزمن . وفي فترة وجيزة تحول سكان هذا الساحل إلى المذهب الشافعي ، كما امتد نفوذهم السياسي إلى كثير من البلاد جنوب مقديشو ، وصارت كل من جندرشا ومركه مراكز الحضارة أحسائية [٥٣] . وارتفعت مقديشو إلى مستوى عال من القوة والنشاط الثقافي والإجتماعي ، حتى أصبحت سيدة على كل عرب الساحل ، كما احتفظت بمركزها كأقوى مدينة على الساحل إلى أن قدم مهاجرون جدد من

---

(٥٢) المرجع نفسه .

(٥٣) J.S. Kirman, Men and monuments in East African Coast (London, 1964) PP. 48-49, R. Reusch History of East Africa PP.85-87

بنادر جمع بندر ، وهي كلمة فارسية تعني الميناء ، استعملها العرب مثل بر البنادر في شرقي أفريقية، ومازالت مستعملة حتى اليوم . ومنطقة بنادر تضم المنطقة الواقعة ما بين عدل شمالاً حتى براوة جنوباً وتتكون من مرافىء : عدل، رشيخ ، مقديشو ، جندرشا ، مركه ، براوه ، انظر جورج فاضلو حوراني. العرب والملاحة ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

الخليج العربي ، وأنشأوا موطناً آخر لهم في مدينة كلوة ، وكان يقود هذه الجماعة علي بن حسن الشيرازي ، وهو أحد أبناء (حسن) سلطان شيراز في فارس .وهذه الهجرة الأخيرة هي هجرة فارسية تركت بلادها وابحرت إلى ساحل شرق أفريقية فراراً من جيش السلاجقة الذين دخلوا فارس والعراق وطردوا بني بويه [(٥٤)] . واستمر الشيرازيون الفرس يحكمون ساحل شرقي أفريقية قرابة الأربعة قرون ، حتي جاء البرتغاليون عام ١٤٩٧ م بقيادة فاسكو داجاما وقضوا على هذه الإمبراطورية التي عرفت باسم إمبراطورية الزنج الإسلامية أو سلطنة كلوة الإسلامية نسبة إلى عاصمتها كلوة [(٥٥)] .

ولا شك أن هذه الهجرة قد سبقتها أو لحقتها هجرات فارسية أخرى ، خصوصا بعد أن نجح الفرس في تكوين تلك الإمبراطورية الشاسعة المترامية الأطراف والممتدة من (زيلع) شمالاً إلى (سوفالا) جنوباً .

كانت هجرة الشيخ (أبادر) أهم هجرة عربية إلى سواحل الصومال الشمالية ، ودخل هذا الشيخ مدينة هرر الداخلية في عام (١٠٠٠م) ونشر الإسلام فيها ، ومنذئذ اصبحت قاعدة لنشر الدعوة الإسلامية فيها [(٥٦)] . وتذكر الروايات الصومالية القديمة أن عربياً عريقاً دعا إلى الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية في تلك المنطقة [(٥٧)] .

(٥٤) غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو... » ص ١٢٩ وما بعدها . شيراز إحدى مدن الفرس المشهورة . المسيوجيان . المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .

(٥٥) سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين (القاهرة ، ١٩٧٠م) ص ٣٧٨-٣٧٩، حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرق القارة الأفريقية وغربها (القاهرة ١٩٥٧م ص ١٢) ، المسيوجيان ،وثائق تاريخية وجغرافية ، ص ٧٨، حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في افريقية في العصور الوسطى ، ص٤٩

(٥٦) حمدي السيد ، الصومال ، جـ ٩ ، ص ٣٥٢ ، المسح الشامل،ص٦٨

(٥٧) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، جـ ٦ ، ص ٦٦٥ . الشاطر بوصيلي. معالم تاريخ السودان ، ص ٩ .

الهجرات العربية واثرها على التطور الحضاري

في القرنين الثالث والرابع للهجرة :

- **تطور العلاقات التجارية ودورها في ازدهار المدن :**

أدى تطور العلاقات التجارية والإقتصادية إلى ازدهار الإسلام في منطقة القرن الأفريقي في القرنين الثالث والرابع للهجرة (القرن التاسع والعاشر الميلاديين) ، والثابت أن هذه العلاقات التجارية بين العرب ومناطق الساحل الأفريقي ترجع إلى ما قبل الإسلام ، كما سبق القول ، ومنذ القدم أسس العرب مدينتي « زيلع » وحمر (مقديشو حالياً) . ولما ظهر الإسلام حث أتباعه على السعي في طلب الرزق ، فخرج تجار العرب العرب ، وحملوا معهم الدين الإسلامي يتاجرون مع سواحل القرن الأفريقي ، بل وتغلغلوا إلى الداخل بتجارتهم ، فاستقروا هناك ، وظل الساحل مسرحاً لنشاط تجار العرب ودعاة الدين الإسلامي ، واستوطن منهم عدد كبير في المدن الساحلية ، وكان معظم هؤلاء العرب في البداية من اليمن وعمان وحضرموت ، وجلب العرب إلى المنطقة سلعاً جديدة كمواد تجارية تلعب دوراً كبيراً برواج التجارة في أسواق الإمبراطورية الإسلامية ، كالسمسم والقطن ، وبعض أشجار الفاكهة ، وعزل النشاط التجاري الإسلامي الكبير في بلاد الصومال وارتيريا والسودان عزلاً تاماً للحبشة المسيحية عن العالم الخارجي لا سيما وأن المسلمين قد مدوا نفوذهم على ميناء « زولا » الثغر الوحيد لتجارة الحبشة على البحر الأحمر وقوبل تجار العرب بالترحاب الشديد من السكان ، فاتخذوا ذلك وسيلة لبث الدعوة الإسلامية بينهم فانجذب كثير منهم إلى الإسلام ، خصوصاً وانهم قد لمسوا من العرب التجار والدعاة صفات حميدة ، وأخلاقاً فاضلة اتصفوا

بها[٥٨] .

كانت منطقة القرن الأفريقي تنتج سلعاً جذبت انظار تجار المسلمين كالأخشاب والتوابل والبن والعاج والجلود وغيرها نقلوها إلى أسواق استهلاكها في الدولة الإسلامية التي انتشرت في ربوعها مظاهر الترف والنعيم[٥٩] . وكان لعرب عمان المسلمين فضل السبق التجاري في منطقة القرن الأفريقي ، وذلك بحكم الموقع الجغرافي حيث تطل عمان على المحيط الهندي من جهتين . لذلك حققت نجاحاً كبيراً في الملاحة ، الأمر الذي مكنهم من انتزاع السيطرة البحرية فاستطاعوا أن يمزجوا التجارة بالدعوة إلى الإسلام وانشأوا مراكز تجارية لهم على الساحل ، كما دعموا المدن السابقة كزيلع وبربرة وبندر قاسم[٦٠] .

ونظام هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي من أكبر العوامل التي سهلت حركة التجارة ونشر الإسلام في الصومال حيث تمكث السفن الشراعية مدة لا بأس بها في سواحل أفريقية لانتظار تغيير الرياح اتجاهها . وهذه الفترة كان التجار ينتهزونها لنشر الإسلام بين سكان الساحل وقد يتبقي

---

(٥٨) زاهر رياض . الإسلام في أثيوبيا ، ص ٦٢، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب ، ص ٢١٧ .

(٥٩) ابن حبيب ، المنمق ، ص ٤١٧ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة ، د.ت) جـ ١ ، ص ١٨٨، ابن عبد ربه ، العقد الفريد . تحقيق أحمد أمين وآخرين (بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ ١ ، ص ٢٧٤، محمد حميد الله ، الوثائق ، ص ١٠٦، المسح الشامل ،ص ٩٣ .

M. Kister. Some Reports ..PP. 61 ff. P. Crone. Meccan, PP. 124 - 129

(٦٠) ترمنجهام ، الإسلام في شرق أفريقيا . ترجمة محمد عاطف النداوي (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص ٢٦ ، محمد المعتصم سيد . دول إسلامية في شرق أفريقيا (هرر والصومال) . (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٢٧ .

بعضهم في مراكز التجارة لتجهيز سلع الموسم القادم ، وعرض الإسلام على الأهالي كما ساعدهم على هذه المهمة أولئك الذين استقروا بصفة دائمة في هذه المستوطنات الإسلامية الجديدة وبمرور الزمن تحكم تجار اليمن وعمان ومسقط في تجارة الداخل وقوافلها بعد تجارة الساحل . واستقر الإسلام في كثير من المناطق الساحلية منها والداخلية ، منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وقامت - تبعاً لذلك - ممالك إسلامية في الداخل مثل مملكة أوفات الإسلامية وغيرها من ممالك الطراز الإسلامي ، وقد ظهرت مدن ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) في كتب الرحالة والجغرافيين منذ القرن الرابع الهجري وقد وصف ابن حوقل (ت٩٦٨) مدن (عيذاب) و (سواكن) و (باضع) في السودان [(٦١)] ، ومن الأخيرة يتجه البحر إلى دهلك التي بينها وبين زيلع ستة مجار أي أيام ، وأن جزيرة زيلع بين غلافقه وعدن ، وجزيرة نجه (من الممكن أن يقصد ميناء بلحار) وبربرة محاذية لأعمال عدن ومن هذه الجزر أكثر جلود الدباغ بعدن واليمن من البقرى والملمع والأدم الثقيل ، ثم يمتد البحر الأحمر على بحر الحبشة ... حتى ينتهي إلى بلدان الزنج ، وهي من أوسع تلك الممالك فيمضى السيف محاذياً بجميع بلدان الإسلام [(٦٢)] .

كذلك أشار الأصطخري إلى اهمية مدن هذا الساحل ، حيث يقول : « وما

---

(٦١) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض . تحقيق م. - دي غوي . (ليدن ، ١٩٣٩م) ، ص ٤٧ وما بعدها . أنظر أيضاً عماد الدين أبو الفداء . كتاب تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص ١٥٢-١٦٣ ، محمد بن محمد الإدريسي . كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق (بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) جـ ١ . ص ١٠٣ وما بعدها .

(٦٢) ويقصد بكلمة (مجار) أي مسيرة يوم واحد في السفر البحري ، وهي ٢٤ ساعة . أما المسافة التي تقطعها السفينة خلال أثنتي عشرة ساعة فهي يوم . أنظر المسيو جيان . وثائق تاريخية وجغرافية ، ص ١٠٤-١٠٥ .

كان من النمور والجلود الملمعة وأكثر جلود اليمن - التي تدبغ للنعال تقع منها إلى عدوة اليمن ، وهي أهل سلم ليسوا بدار حرب ، ولهم على الشط موضع يقال له زيلع ، فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن (٦٣) » .

أما المؤرخ والجغرافي المعروف بالمسعودي (ت٣٤٦هـ ٩٥٦م) فقد وصفها بصورة أكثر وضوحاً من السابقين لأنه جاب المنطقة ، ورأى متاجرها وسكانها رأى العين ، وذكر منتجاتها ، ومن يجوب خلال ديارهم من عرب عمان وسيراف في كل من البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأن سكان خليج البربري سودانيون وأن ديارهم متصلة إلى بلاد الدهلك والزيلع وباضع وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور وأحسنها للسروج ، كما تصدر المنطقة جلود السلحفاة التي تصنع منها الأمشاط وكل مظاهر الترف ، وكذلك جلود الزرافة واللبان (٦٤) .

وأشار المسعودي إلى أن الرحلة إلى بلاد شرقي أفريقية لا تستغرق أكثرمن ثلاثة أيام ، فضلاً عن استقرار كثير من العرب المسلمين في منطقة القرن الأفريقي ، وفي مدن زيلع وبربره و باضع ، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة (٦٥) .

طاف المسعودي البحر من عمان شرقي أفريقية ، ونقل أحاديث الملاحين في تلك الأرجاء ، والراجح أنه قد سافر أكثر من مرة مع نواخذه سيرافيين أرباب المراكب مثل محمد بن الريدوم السيرافي ، وجوهر بن أحمد المعروف

---

(٦٣) إبراهيم الأصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٣٢ .

(٦٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٠٧، جـ١ ، ص ٤، ٢٨ .

(٦٥) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٨ - ١٩ .

بأبن سيرة . وأشار المسعودي إلى الثروة البحرية التي تتمتع بها تلك المنطقة حيث يكثر العنبر في بلاد الزنج والشحر ، إلا أن أجوده من جزائر الزنج وساحله، ويصطاد سكان بلاد الزنج سمك الأوال ليستخرجوا منه العنبر (٦٦).

ومنذ القرن الرابع الهجري ازدهرت تجارة الرقيق في محيط الدولة الإسلامية ، وألح الخلفاء والأمراء والأغنياء ، في طلب ما ينقصهم من أدوات الترف والنعم وملذات الحياة ، فنشطت بهم حركة تجارة الرقيق لسد مطالبهم ، واستخدم الرقيق بصفة ازدواجية ، كجنود لقمع الثورات التي تقوم لمناهضة هذا الترف، وكخدم في بيوت الخلفاء والأمراء والأغنياء . وجذبت هذه التجارة اللاإنسانية عدداً كبيراً من المسلمين وفدوا على مختلف الأقاليم ، ومنها منطقة القرن الأفريقي ، كمغامرين ، ووسطاء وتجار ، فعجت بهم المدن الساحلية ، وهم يشتغلون بتجارة الرقيق وغيرها (٦٧) .

ويعزى توغل الإسلام وامتداده ، نحو الداخل بصورة مكثفة في منطقة القرن الأفريقي ، حينذاك إلى النشاط التجاري الهائل وما صاحبه من دعوة دينية واسعة النطاق في ذلك القرن وما يليه ،وتضافر جهود التجار والدعاة المتطوعين، وأخذ الإسلام يشق طريقه إلى داخل أراضي منطقة القرن الأفريقي نتيجة للتوسع التجاري الذي كان يسيطر عليه المسلمون من خلال الشبكة الواسعة من طرق القوافل التي كانت تربط بين الأجزاء الداخلية والموانىء البحرية الواقعة على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، وأحرز الإسلام تقدماً كبيراً ونجاحاً منقطع النظير حتى تحولت منطقة جوبا Juba أقصى منطقة جنوبية داخلية - إلى الإسلام حوالي (١١٠٨هـ)،

---

(٦٦) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٦٧) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٢٩

بل ومنها امتد الإسلام ، وتطرق حتى منطقة البحيرات الكبرى (٦٨) . وأظهر بعض الكتاب إعجابهم بسرعة تأثر الصوماليين بالدعوة الإسلامية ، فمن الواضح أن سرعة انتشار الإسلام في الصومال ، ترجع إلى أنه بلغة قريبة إليهم ، فقد عرفوا اللسان العربي وشعبه في المعاملات التجارية منذ فترة طويلة ، فضلاً عن تلك الأعمال العظيمة التي قام بها دعاة وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام ، واتخذوا من هدى الرسول ص مثلاً أعلى وقدوة صالحة (٦٩) .

كان اختلاف طبقات المهاجرين ، وإختلاف اتجاهاتهم باختلاف الأغراض ، من أهم أسباب انتشار الإسلام في الداخل ، فهناك علماء وفقهاء لا هم لهم إلا نشر الدين ، فاستقر التجار في مدن الساحل حيث يسهل الإتصال بين الساحل والداخل ، وتوجه الزراع إلى مناطق تتوفر فيها خصوبة الأرض وغزارة الأمطار، بينما توافد الرعاة على المناطق الصحراوية وشبهها . وكان معظم المهاجرين عزاباً ، أو أنهم لم يأخذوا معهم زوجاتهم ، فتصاهروا مع السكان ، واستقروا بصورة دائمة ، وتعلموا اللغة المحلية ، ورسخوا في نفوس السكان حب الإسلام وعقيدته (٧٠) .

---

(٦٨) طرخان ، « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... » ص ٣١، الأمين عبد الكريم « الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا » ص ٤٨ .
Trimingham , Islam in Ethiopia PP. 52-53; ULLendroff, The Ethiopians , PP. 60 - 61 .

(٦٩) سير توماس ارنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨٠ ، حمدي السيد. الصومال ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ .

(٧٠) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، جـ ٦ ، ص ١٨٣ .
R.Reusch . History of East Africa . PP. 71-72.

نمو المدن الإسلامية وإزدهارها في منطقة القرن الافريقي :

إن ازدهار الإسلام وانتشاره في منطقة القرن الأفريقي ، في القرن العاشر الميلادي وما تلاه ، نتيجة لحركة اتصالات تجارية مستمرة وغيرها ، أدى إلى قيام مدن إسلامية ، ساهمت بدورها في نشر الثقافة والفكر الإسلامي ، ولم يذكر أي اصطدام بين العرب والفرس ، بل نشروا الإسلام بصورة جماعية ، كما تعاونت الحركات والعصبيات المذهبية والطائفية من سنة وشيعة وخوارج،وحنابله وشافعية ،وأصبحت المنطقة بعيدة عن تنافر وتنافس العصبيات . وأدى هذا التفاعل إلى اختلاط عنصري بين المهاجرين والسكان الأصليين حيث تزوج المهاجرون بنات السكان الوطنيين ، فاختلطوا إختلاطاً صعب على المؤرخين أن يحققوا أصول الجيل الجديد الذي يحمل سمات الجانبين ، وتشملهم روح الدين والتقاليد والعادات والأهداف (٧١) . كما تحولت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة ، واتسعت شوارعها ، وأصبحت مساكنها مباني حجرية ، ولأبوابها ونوافذها الخشبية الطابع والطراز العربي والفارسي (٧٢) .

ومن أشهر هذه المدن التي امتدت على طول ساحل الصومال في البحر الأحمر والمحيط الهندي : مقديشو ومركة وبراوه وزيلع وبربرة وهرر . وقد ازدهرت هذه المدن نظراً لمركزها الجغرافي الممتاز وكثرة خيراتها ونشاط

(٧١) بازل دافدسون ، أفريقيا تحت أضواء جديدة . ترجمة جمال حسن أحمد. (بيروت ، ١٩٦١م) ص ٢٧٨

I.M.Lewis . The Modern History of Somolia & from Nation to State (London, 1965) PP. 20-21.

(٧٢) حمدي السيد . الصومال . جـ ١ ، ص ٣٥٤ ،

أهلها الرائع ، وتقع على طول الطريق البحري التقليدي بين زنجبار وبلاد العرب، وتتابعت عليها الهجرات الإسلامية ، لذلك ظلت من أهم المراكز الإسلامية على ساحل شرقي أفريقية ، وقامت هذه المدن بدور كبير في نشر العقيدة الإسلامية في الساحل والداخل ، فكانت هذه المدن المحور الأساسي لمستوطني شمال الصومال المسلمين ، وحجر وثبة لتوسع الإسلام نحو الداخل في غرب الصومال وأثيوبيا ، وازدهرت لقرب الساحل من الداخل ، ولنشاط سكانها التجاري الذين يتجرون في البن والفاكهة والخشب واللبان والبخور وشحنها على السفن حيث يشتد الطلب عليها واستبدالها بما يحتاج إليه سكانها ، وتحولت إلى هذه المدن كثير من الأنشطة ، وأشار ابن سعيد وياقوت الحموي والدمشقي إلى أهمية هذه المدن التجارية ، وكثرة تنقل سكانها إلى البلاد العربية لغرض التجارة وآداء فريضة الحج [(٧٣)] . وهكذا اكتمل لهذه المدن الساحلية والداخلية المذكورة وغيرها ، مقوماتها الإسلامية ولكل منها مسجدها أومساجدها الخاصة بها كمنارات للعبادة والثقافة الإسلامية . ومن أجل هذا أصبح تاريخ مدن الصومال الساحلية أكثر وضوحاً من تاريخ البلاد الداخلية [(٧٤)] . وكان أبرز البلاد الداخلية ، بل تعتبر أول الممالك الداخلية التي قامت في منطقة القرن الداخلية مملكة إسلامية عرفت باسم « مملكة شوا الإسلامية » وكان ذلك في عام ٢٨٣هـ / ٨٩٦م ،

---

(٧٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان (طبعة بيروت ، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ١٧٣، علي بن موسى بن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا . تحقيق إسماعيل العربي (بيروت ، ١٩٧٠م) ص ٨٢، شمس الدين الأنصاري الدمشقي . نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (انظر بطرسبرج، ١٨٦٥م)ص ٩٧ وما بعدها ، أبو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ١٥١-١٦٢ .

(٧٤) عبد الحميد عابدين . بين الحبشة والعرب . ص ٢٢٦ .
Lewis , The Modern History of Somalia. PP. 18-19.

وحكمت في منطقة الداخل لأثيوبيا والصومال لمدة أربعة قرون ، واضطلعت هذه المملكة بمسئولية نشر الإسلام في الحبشة والصومال ، ولكن من سوء الحظ أن معظم نشاطها وآثارها الإسلامية قد فقدت ، ما عدا وثيقة مختصرة، لا تعطي غير فترة احتضارها الأخير في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وفرقتها الخلافات الداخلية والصراع الخارجي حتى سقطت في عام ١٢٨٥م على أيدي « مملكة أوفات الإسلامية » التي توسعت نحو الداخل والساحل لنشر نفوذ الإسلام في هذه المنطقة (٧٥) . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تغلغل النفوذ الإسلامي وسيطرته السياسية حتى منطقة شوا والسيدامو . وأدت مملكة أوفات الإسلامية التي تأسست في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، واضطلعت بالدور الأكبر في نشر الفكر والثقافة الإسلامية

---

(٧٥) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٣٢-٤٣٣، محمد الأمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص ٣٩ .

مملكة شوا الإسلامية : يسجل المؤرخون أن أول من هاجر إلى قرن أفريقيا من المسلمين العرب ،هو ود بن هشام المخزومي وجماعة من أسرته ، واستقروا في مكان ما من الساحل ، ثم نزحوا إلى الداخل في منطقة شوا ، ونشروا فيها الإسلام ، فكان ذلك سبباً أدى إلى قيام مملكة شوا الإسلامية في نهاية القرن الثالث الهجري (نهاية القرن التاسع الميلادي)(٢٨٣هـ / ٨٩٦م) تكونت من ذراري هذه القبيلة المخزومية ، وهي القبيلة التي ينسب إليها خالد بن الوليد . وقد امتزجت هذه القبيلة العربية بالوطنيين وصاهروهم ، وأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً ، فأعتنقته عناصر الساهو والعفر في شرقي الحبشة ، كما أنه إمتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية في جنوبي الحبشة ، ولعل الفترة البارزة في التوسع الإسلامي في مملكة شوا تقع بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثاني عشر الميلاديين) وهي فترة التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية ... ومملكة شوا الإسلامية تزعمت حركة الجهاد الإسلامي مع مملكة أوفات الإسلامية ضد الحبشة المسيحية .

Trimingham , Islam in Ethiopia, PP. 55 ff.

والحفاظ على التراث الكبير الذي تركه المسلمون في منطقة القرن الأفريقي على مر الأجيال .

تطور الحياة الإجتماعية :

يتضح من التركيب الإجتماعي للمدن الإسلامية والممالك التي سادت في شرقي أفريقية خلال فترة العصور الوسطى ، أن تعايشت فيها جماعات مختلفة الأعراف ، من عرب وفرس وهنود وأفارقة وغيرهم ، ومنذ بزوغ فجر الإسلام ، وحركة نشر العقيدة الإسلامية ، يعيش هذا الخليط السكاني في تلك المدن الساحلية وفي الداخل ، حتى ظهرت في أوساطهم لهجات مختلفة : زيلعية من كلمات عربية ، وصومالية وعفرية وهندية وربما فارسية ، ثم اللغة السواحيلية. وكانت الأسر الحاكمة في تلك الممالك والمدن عربية الأصل وبجانبها التجار والزراع والجنود من العرب المهاجرين . ولم يكن للفوارق اللغوية أثر في المجتمع . وامتزجت جميع تلك العناصر امتزاجاً يكاد يكون تاماً ، فإنتفى ما يعرف بالنقاوة الجنسية التي قلما توجد في مجتمعات بدائية معزولة عن العالم. واختلطت الدماء العربية بالأفريقية بحيث لا يمكن التمييز بينها من حيث السمات ، وهذا ما يقوله العمري : « وألوان أهلها إلى الصفا ، وليست شعورهم في غاية التفلفل كأهالي مالي وما معها وما يليها من جنوب المغرب(٧٦) » .

أما زي سكان بلاد القرن الأفريقي وسواحله ، فقد جرت العادة ، أن يعصب الملك رأسه بعصائب من حرير تدور برأسه مع بقاء وسط الرأس مكشوفاً .

---

(٧٦) شهاب الدين بن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (جزءان) الأول تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة، ١٩٢٤م) ، الثاني (مخطوط رقم ٤٤١ / ٦٧٣٥) جامعة الأزهر ، ورقة ١٨٣ ، أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي ، جـ ٦ ، ص ٧١٠ .

وأما الأمراء والجنود فلهم عصائب من قطن ، يعتصبونها على هذا الوضع، ويلبس الفقهاء العمائم ، والعوام الكوافي البيضاء ، وقل من يلبس منهم قميصاً أو ثوباً مخيطاً ،وإنما يلبسون ثوبين ،وتلبس طائفة أرباب السراويل ، ومن الفقهاء وأرباب السيوف والنعم من يلبس القمصان ، ولكن الجمهور الغالب يلبس الأزارين أحدهما على كتفه متوشحاً به والآخر في وسطه(٧٧) ، وقد وصف ابن بطوطه زي أهل مقديشو في قوله : « وكسوتهم فوطه خز يشدها الإنسان في وسطه عوضاً عن السراويل فإنهم لا يعرفونها » (٧٨) .ولكن العمة والكوافي خاصة بالمسلمين ، حيث يروى عرب فقيه « أن قبيلة مسيحية في طريقها إلى معسكر الأحباش مالت خطأ إلى معسكر المسلمين ، فعند اقترابها إليهم عرفت أنهم مسلمون » لأنهم رأوا زيهم غير زي النصارى(٧٩) .

الحياة الدينية والثقافية :

لقد ساهمت المدن والممالك الإسلامية في ساحل شرق أفريقية إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى تلك المنطقة ، كما ساعدت على نشر التراث الإسلامي ، فضلاً عن الدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً ، فأستمر دفع الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة في الإزدهار والإنتشار حتى بلغ أقصى مداه في أيام إزدهار المدن الإسلامية مثل : ممالك شوا وأوفات الإسلامية ، وشجعت هذه الدول التعليم

---

(٧٧) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ورقة ١٨٣-١٨٤ .

(٧٨) محمد بن ابراهيم بن بطوطة . تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت ، ١٩٦٠م) ص ٢٥٥ ، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٩ .

(٧٩) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه ، تحفة الزمان ، ص ٣٢٥

الذي هو جزء لا يتجزأ من الدين . كما أن أهلها يحافظون على دينهم ، وعندهم المساجد والجوامع التي تقام فيها الجمع والجماعات . وقد ظهرت المدارس القرآنية بظهور الإسلام ويبدأ نظام التعليم من مرحلة الكتاتيب ثم مرحلة العلوم العقلية والنقلية . واهتم السلاطين والفقهاء والعلماء بأن يحل الدين الإسلامي وثقافته محل الوثنية والمسيحية ، ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً ، ولم يكن إهتمامهم منصباً على تعريف السكان لغوياً ،وإن تواكبت اللغة العربية وثقافتها بحركة المد الإسلامي وانتشاره في المنطقة ، واصبحت لغة التسجيل في دواوين الحكومة ، والمكاتبات الرسمية ، وفي القضاء حتى تركت بصماتها القوية في اللغات المحلية ، كما كان السكان يجيدون اللغة العربية ،وهذا ما يقوله العمري : وكلام أهلها « يقصد أوفات» باللغة الحبشية ، ويتكلمون أيضا اللغة العربية » (٨٠) .

وإزدهرت الحركة العلمية في مدن هرر وزيلع وأوفات وأصبحت هذه المراكز مدناً جامعية مشهورة ، وتنقل طلاب العلم بين هذه المدن التي اشتهرت باتقان علمائها علوماً معينة ، حيث إشتهرت هرر بدراسة علوم اللغة العربية والتفسير والحديث - واشتهرت زيلع بفقه الشافعية . وأعطى المجتمع الإسلامي العلم والعلماء منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجلس الفقهاء والعلماء للورود من مناهلهم العلمية ، وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة ودمشق (٨١) . ونزحت إليها جميع الطرق والمذاهب المعروفة -

---

(٨٠) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، أحمد القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ٣٢٤، عبد القادر شيخ عبد الله. تاريخ التعليم في الصومال (مقديشو، ١٩٧٨م) ، ص ١٣-١٤ .

(٨١) عبد القادرشيخ عبد الله . تاريخ التعليم في الصومال ، ص ٤٠، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٨٤، ٤٨٦ ، تقي الدين أحمد المقريزي . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٧، أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨٧، حمدي السيد . الصومال . جـ١ ، ص ٣٥٢ ، عرب فقيه ، تحفة الزمان ، ص ١٣ .

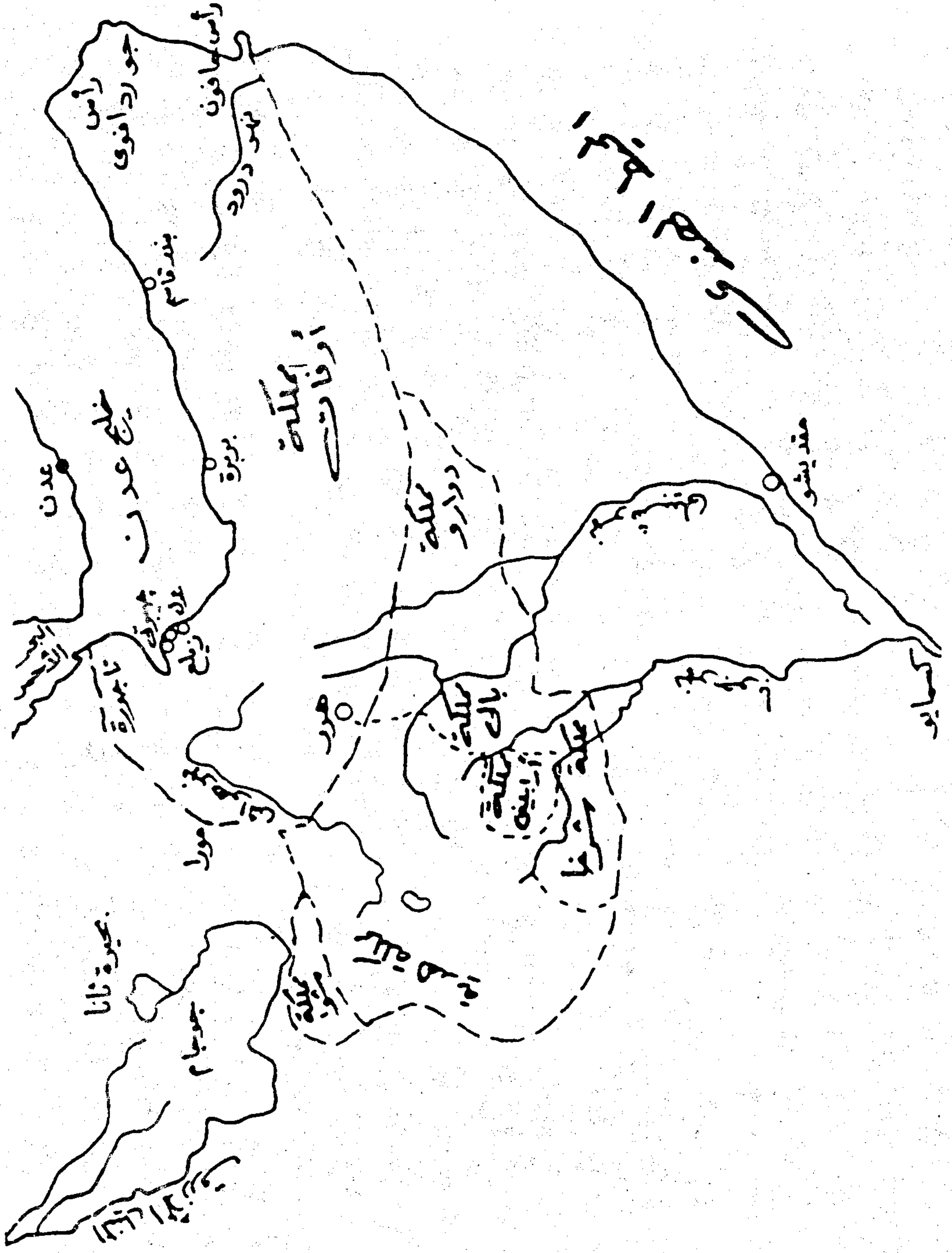
آنذاك - في العالم الإسلامي ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد فتنوعت الحياة الثقافية فيها .

وأيا ما كان الأمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التي تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية . كما أن لهذه البلاد قضاة ومحاكم شرعية ، وأئمة للمساجد ، وكتبة ، مما يستدعي وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية ، كما ساعد ازدهار مملكة أوفات والمدن الإسلامية الساحلية ،وعظمة حكامها وتفانيهم في خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على استمرار هجرة علماء المسلمين إليها من الأقطار المجاورة . وكانت اليمن من أهم الدول الإسلامية في شرق البحر الأحمر التي ارتبطت بها مدن الساحل بعلاقات إقتصادية وثقافية ، لأن معظم المستوطنين العرب فيها كانوا من أصل يمني (٨٢) . كما كان لتلك البلاد صلات ثقافية مع المشرق العربي ، وفي مراكزه الثقافية كالأزهر والجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين (٨٣) . وتنقل طلاب العلم على طول البلاد الإسلامية المختلفة و عرضها ، بحرية وأمان ، وظهر في هذا الجو العلمي الرائع ، علماء زيلعيون صاروا جهابذة العلم ، وحازوا شهرة في محيط الدولة الإسلامية ، حيث استقروا بصفة مستديمة في مصر والشام واليمن والحجاز والعراق .

---

(٨٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزي ، الإلمام ص٧، محي الدين بن عبد الظاهر . تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٣٦، المقريزي ، الخطط المقريزية ،المسماة بالمواعظ والإعتبار (بيروت، ١٩٥٩م) جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

(٨٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزي ، الإلمام ، ص ٧-٨، يوسف أحمد . الإسلام في الحبشة (القاهرة ، ١٩٣٥م) ص ٢٦، عبد القادر شيخ عبد القادر . تاريخ التعليم في الصومال ، ص ١٦-١٨ .



المحيط الهندي
عدن
خليج عدن
البحر الأحمر
رأس جردافوي
رأس حافون
بندر قاسم
بربرة
زيلع
هرر
مقديشو
مملكة أوفات
مملكة دوارو
مملكة بالي
مملكة هدية
بحيرة تانا

وعلى ذلك يمكن القول ، إن منطقة القرن الأفريقي ، ساحله ، وداخله ، تعتبر في الواقع ، أحد الأبواب الرئيسية التي وصلت القارة الأفريقية بالينبوع الأول للعروبة ومهد الحضارة الإسلامية وأهلها ، منذ فجر الإسلام ، بل ونظراً لأن معظم حكام الدول الإسلامية في بلاد أفريقية الشرقية من أصل عربي ، فقد ارتبطوا بعلاقات واسعة مع عدد من الدول الإسلامية في المشرق العربي خاصة، لنيل مساعدتهم المعنوية والمادية لمواصلة الجهاد ونشر العقيدة الإسلامية في المنطقة ، ومن أهم هذه المناطق والدول : اليمن والحجاز ومصر-.فساعد ذلك على حركة انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ، وإزدهار الحركة العلمية ، وأسهم ذلك بدور كبير في تطور نظم الحكم ، والتأثير الكبير على الثقافات المحلية فأضاف الإسلام ، وحركة انتشاره ، الملامح المؤثرة والمناخ الفكري الذي يعايش ويتلاءم مع البيئة .

المبحث الرابع

الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي خلال العصور الوسطى (*)

(*) هذا البحث نشر في مجلة المؤرخ العربي العدد (٥) مجلد رقم (١) (القاهرة ، مارس / ١٩٩٧م) ص ١٦٥ - ١٩١ .

الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي

خلال العصور الوسطى

لعبت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرقي أفريقية دوراً هاماً في تشكيل تاريخ تلك المنطقة إقتصادياً وسياسياً ودينياً ، ذلك أن الإمارات والمراكز التي أنشأها العرب المسلمون في كل من أثيوبيا والصومال أسهمت إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى الساحل الأفريقي وعلى الأخص أثيوبيا والصومال ، ومن ثم إلى الداخل [١] .

لم تكن سواحل أثيوبيا والصومال مجهولة لدى شعوب العالم الخارجي من أقدم العصور ، فقد كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن وجود صلات قديمة ومستمرة بين هذه السواحل وشعوب العالم الأخرى ، ليس فقط الشعوب القريبة جغرافياً ، ولكن أيضاً الشعوب البعيدة مثل الهنود والصينيين . وقد

---

(١) للحصول على تفصيلات أكثر عن وصول ثم انتشار الإسلام في كل من بلاد الحبشة والصومال ، انظر ، جلال الدين السيوطي . أزهار العروش في أخبار الحبوش ، مخطوط مصور عن نسخة بالأسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٢٧) تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ، عبد الرحمن بن الجوزي . تنوير الغبش في فضل السودان والحبش . مخطوط مصور عن نسخة بالأسكوريال، ميكروفيلم رقم (٢٩) تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ، أبو محمد عبد الملك ابن هشام . السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وآخرين (د.ت) ، جـ ١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ ، ابن حجر العسقلاني . فتح الباري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب،(د.ت)، جـ٧ ، ص ١٨٨ : غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية ، ١٩٩٤) جـ ١ ، ص ١١- ٣٧ ، للمؤلف نفسه « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد (٨) رجب (١٤١٣هـ) ص ٤١٢ - ٤٣٣ .

J. Spencer Trimingham . Islam in Ethiopia (London, 1976) PP. 46 ff .

اشتغل العرب كذلك بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية ، وأشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن الساحل الشرقي لأفريقية من الناحية العملية والنظرية هم : المسعودي وابن حوقل والإدريسي وياقوت الحموي وابن بطوطه والقلقشندي والمقريزي وأبو الفداء وغيرهم [٢] .

أظهر تقدم العرب في فنون الملاحة وما تقتضيه من معارف ، أهمها معرفة الطرق البحرية الآمنة ، ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع البلاد والجزر واختراع الآلات التي تساعدهم على الملاحة مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية فضلاً عن رسم الخرائط ،والعرب الذين اشتهروا بصناعة السفن هم عرب الجنوب في الجزيرة العربية ، ولا سيما عرب عمان ، وقد عرف عرب

(٢) للمزيد من التفصيلات ، أنظر : أبو الحسن على بن الحسن المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر . (القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) جـ ١ ، ص ١١٢وما بعدها ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي . معجم البلدان (بيروت ، ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) جـ ٣ ، ص ٣٤٣ وما بعدها ، جورج حوراني . العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى . ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٥٢ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » مجلة المؤرخ العربي . العدد الأول ، المجلد (١) (القاهرة ، ١٩٩٣م) ص ١٢٨-١٥٨، للمؤلف نفسه . الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري (كتيب نشر من مركز بحوث كلية التربية بفرع جامعة الملك سعود بأبها ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ٥ وما بعدها . G.S.P. Freeman & Grenville,The East African Coast (Select Doucuments from the first to the earlier Nineteenth Century (Clarendon Press, 1962) PP. 33 ff. R. Reusch . History of East Africa (New York , 1961) PP. 11 ff. R. Coupland . East Africa and its Invaders (Oxford, 1938) PP. 15 ff.

عمان بمهارتهم في صناعة السفن وتفوقهم في أعمال الملاحة ، وسارت سفنهم في المحيط الهندي حتى وصلت سواحل شرق أفريقية (٣) .

والثابت أن العرب هم أهم الشعوب التي اتصلت بأثيوبيا والصومال منذ القدم ، وأبقاهم أثراً في تلك البقعة من القارة ، وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافي ، وقد نشطوا في الإتصال بأثيوبيا والصومال منذ زمن دول معين وسبأ وحمير التي كان لها نشاط كبير في الحركة التجارية البرية والبحرية ، وتمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم في المحيط الهندي وسواحل أفريقية الشرقية . كما كان لعرب الحجاز دور كبير في الإتصال والتجارة ، وقد سيطروا سيطرة تامة على التجارة وطرق القوافل بعد تدهور دول الجنوب منذ القرن السادس الميلادي (٤) .

(٣) محمد بن حبيب . كتاب المنمق في أخبار قريش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) ص ٤٠١ وما بعدها ، أبو عثمان الجاحظ . التبصر بالتجارة . تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٣٤ ، إبراهيم رزقانه ، ومحمد صفي الدين . الجغرافية الطبيعية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٩٢ وما بعدها ،

M.J.Kister . “ Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam “ Studies in Jahiliyya and Early Islam (London, 1980) PP. 61 ff, Patricia Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam Oxford, 1987) PP. 23 ff; Coupland , East Africa and its Invaders, PP. 16 ff , Reusch , History of East Africa, PP. 12 ff.

(٤) للمزيد من التوضيحات انظر . ياقوت الحموي . معجم البلدان ، جـ ٣ ص ٣٤٢ وما بعدها ، جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد ، ١٩٧٧م) جـ ١ ، ص ٤٤ وما بعدها و أحمد فخري . دراسات في تاريخ الشرق القديم (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس ، الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية ، ص ٨ وما بعدها ، للمؤلف نفسه « العرب في مقديشو » ، ص ١٢٨-١٣١ ، جورج حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٢٤ وما بعدها .

Patricia Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam , PP. 20 ff, 124 ff.

وقد قامت الدعوة للدين الإسلامي في أثيوبيا منذ ظهوره ، ويمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام في أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ، وخاصة بعد أن أظهر النجاشي أرماح (أصحمة) اعتناقه للإسلام ، وتدفقت على أثر ذلك مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وغيرهم لإنشاء مراكز عربية ثابتة، ونشر الإسلام بين القبائل التي كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبجه والبانتو ، ومن بينهم الأريتريون وغيرهم . ثم كثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، واصبحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء . كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر ، وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر . كما اخترق عدد من هؤلاء الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج ، بل أن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا في ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة وميناؤها العظيم [(٥)] .

(٥) وللاطلاع على تفصيلات أكثر حول علاقة العرب بالجزء الشرقي من أفريقية ، وعن انتشار الإسلام في تلك الأجزاء ، انظر . محمد بن عمر الواقدي . كتاب المغازي . تحقيق مارسدن جونس (بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) جـ ٣ ، ص ٩٨٣ وما بعدها ، محمد بن إسحاق الفاكهي ، كتاب المنتقى في أخبار أم القرى (نشرة وستنفلد) جـ ٢ (ليبزج ، ١٨٥٩م) ص ٤٤ وما بعدها ، يوسف فضل حسن . دراسات في تاريخ السودان (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ ١، ص ٣ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ١١ - ٢٧ ، ٢٥٩-٢٧٣، للمؤلف نفسه ، « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز » ، ص ٤١٤وما بعدها ، السر سيد أحمد العراقي . « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية (الخرطوم ٢٨ - ٣٠يوليو / تموز ١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ١٦٤ وما بعدها .

Sir E.A.W. Budge. A History of Ethiopia & Abyssinia (London, 1928) Vol. 1 , PP. 120 ff , Trimingham , Islam in Ethiopia PP. 44 ff .

كانت مملكة أكسوم الحبشية المسيحية في ذلك الوقت في طريقها إلى الإنحطاط ، وفي الوقت نفسه كان الإسلام يسير بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل حيث بدأ المسلمون في الإمتزاج بالوطنيين وصاهروهم ،فأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً ، فأعتنقته عناصر الساهو والعفر في شرقي الحبشة ، كما أنه امتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية في جنوبي الحبشة (٦) .

وانتشر المسلمون شمالاً في ارتيريا ومنطقة البجة ، وشجعهم على ذلك غنى تلك المناطق بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وقد تزايد عدد المسلمين في الحبشة وارتيريا ومنطقة البجة ، وأشهر القبائل العربية التي استقرت في هذه المناطق قوم من ربيعة وقحطان إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر ، حتى سادت وغلبت على ما جاورها

---

(٦) ابن هشام . السيرة . جـ ١ ، ص ٣٢٨-٣٣٥، محمد بن جعفر بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت) جـ ٢ ، ص ٣٢٨ وما بعدها ، عماد الدين ابن كثير . البداية والنهاية (بيروت ، ١٩٧٨م) جـ ٣ ص ٦٦، ٧١ وما بعدها ، أحمد حفني القنائي . الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان (القاهرة ، ١٣٢١هـ) ص ، ج ، الشاطر بوصيلي عبد الجليل . معالم تاريخ السودان ووادي النيل . (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٩ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب (القاهرة ،١٩٤٧م) ص ١٦ وما بعدها . محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ٣٣ وما بعدها ، ابراهيم علي طرخان . « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى » . المجلة التاريخية المصرية (القاهرة ، ١٩٥٩م) المجلد الثامن ، ص ٥ وما بعدها . عبد الشافي غنيم عبد القادر . «البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية » البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة . أبحاث الأسبوع العلمي ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها .

من العرب القحطانيين (٧) .

لقد امتدت الرقعة الإسلامية على طول منطقة القرن الأفريقي وفي داخلها حتى منطقة وادي النيل الجنوبي والأوسط ، حيث قامت مشيخات إسلامية في فترة التوسع الإسلامي البارزة التي تقع ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثاني عشر الميلاديين) ، وهي فترة التوسع المنظمة للإسلام ديناً ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطان الممالك والمشيخات الإسلامية داخل بلاد الحبشة ، وعلى حساب مملكة أكسوم الحبشية المتداعية ، وقد تحولت كل منطقة نهر جوبا للإسلام ، وامتدت الرقعة الإسلامية حتى منطقة البحيرات العظمى وذلك في عام (٥٠٢هـ /

---

(٧) للمزيد من التفصيلات انظر ، المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ١ ،ص ٥١-٥٢، أحمد ابن علي المقريزي . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ٢٢ وما بعدها ، أحمد حفني القنائي ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ص ١٥-١٦ ، يوسف فضل « انتشار الإسلام في سودان وادي النيل » ، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة الإسلامية (الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو/تموز ١٩٨٣م) (بغداد ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٢٥ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . « الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى » . مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث ، المجلد (١) (القاهرة ، ١٩٩٥م) ص ٧٤-٧٧ ، للمؤلف نفسه . « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م) » مجلة المؤرخ المصري ، العدد (١٦) (يوليو / ١٩٩٦م) ص ١٥٧ - ١٦٠ .

Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. 5-7 C.N. Stigand . The Land of Zing (London , 1913) PP. 104 ff, R. Reusch . History of East Africa PP. 18-20, Yusuf Fadl Hassan . The Arabs and the Sudan (Khartoum , 1973) PP. 59-66.

١١٠٨م) [٨] .

لقد تلا قيام المشيخات الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها مثل عدال وهرر وهوبات ، التي لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات التي قامت فيما بينها ، فضلاً عن أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، تلا ذلك قيام ممالك إسلامية قوية ومزدهرة ، أصبحت تحيط بالحبشة المسيحية من كل جانب ، وأصبحت هذه الممالك الإسلامية تسيطر على كل الرقعة الإسلامية الممتدة من سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي واجزاء من أفريقية الشرقية الممتدة من الساحل إلى الداخل الأفريقي ، وأصبحت بذلك الوضع الجغرافي الممتاز تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية وتقابل اليمن في الجزيرة العربية ، ولأجل ذلك الوضع الجغرافي نعتها المؤرخون بمنطقة الطراز الإسلامي ، لأنها على جانب البحر كالطراز له [٩] .

(٨) أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (القاهرة ، ١٩٠٦م) ، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٤٣٥ وما بعدها ، جامع عمر عيسى . مقديشو ماضيها وحاضرها (مقديشو ، ١٩٧٩م) ص ٣٣٢ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . جـ ١ ، ص ١١ ، ٢٦٠، للمؤلف نفسه « العرب في مقديشو » ص ١٢٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه . « الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد وشرق أفريقية » ، ص ٧١-٧٢ .
Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. 5,7,32-ff Kamerer, Abyssinie et la Mer Rouge (Le Caire, 1929) PP. 57 ff.

(٩) للمزيد عن تلك الدول الإسلامية التي ظهرت في القرن الأفريقي خلال العصر الإسلامي الوسيط، انظر . المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٢١ وما بعدها ، إبراهيم طرخان « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة » ، ص ٣٠ وما بعدها ، محمد المعتصم سيد . دول إسلامية في شرق أفريقيا (هرر والصومال) (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٢٥ وما بعدها : ترمنجهام . الإسلام في شرق أفريقيا - ترجمة محمد عاطف النداوي (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص ٣٢ وما بعدها . غيثان بن علي بن جريس « سلطنة أوفاس الإسلامية في العصور الوسطى ...» ص ١٥٩، للمؤلف نفسه « سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقاتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط » بحث مقبول للنشر في الجزء الأول من العدد التاسع عشر بحولية كلية البنات بجامعة عين شمس والذي سوف يصدر في نهاية عام (١٩٩٦م) .

واشتهر في هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهي أوفات ، دوارو ، أرابين ، هدية ، شرخا ، بالي ، وداره [(١٠)] وهذه عدا مشيخات الساحل الصومالي التي امتدت على طول الساحل المعروف بساحل الزنج [(١١)] ، وقد أفردنا لمملكة أوفات الإسلامية حيزاً خاصاً في مقالين مختلفين [(١٢)] .

لقد اتسم تكوين هذه الممالك بالطابع السلمي التجاري أو الإقتصادي بصفة عامة ، ثم أن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامي ، وتوطدت صلتها به عن طرق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد النبوي بدمشق وكذلك أفرد رواق

---

(١٠) للمزيد انظر ، أحمد القنائي ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ص ١٥ وما بعدها ، المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٢٣ وما بعدها ، ابراهيم طرخان « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة » ، ص ٣٣ وما بعدها .

(١١) حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً (مقديشو ، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٢٧ وما بعدها ، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ، ص ٣٢ وما بعدها .

(١٢) لقد أفردنا بحثين مستقلين عن مملكة أوفات الإسلامية ، أحدهما بعنوان : - « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م) ، وتم نشره في مجلة المؤرخ المصري ، وقد أشرنا لهذا البحث في ملاحظة (٧) من هذه الدراسة . أما البحث الثاني فهو بعنوان : - « سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقاتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط » وسوف ينشر في حولية كلية البنات بجامعة عين شمس . وقد أشرنا لهذه المعلومات في ملاحظة (٩) من هذه الدراسة أيضا .

لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرتية [١٣] .

لقد ظلت هذه الممالك التي أمها المسلمون لقرون عديدة مراكز نشاط ومدنية وارتكزت شهرتها على أنها وسيطة بين عواصم العالم الإسلامي الكبرى وبقية أجزاء أفريقية المجاورة في نقل الفكر والثقافة الإسلامية .

وتطورت هذه الممالك الإسلامية بفضل تجمع العلماء والفقهاء الذين وفدوا إليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة . لذلك ظلت الصبغة العربية هي البارزة والمميزة في منطقة القرن الأفريقي خلال فترة العصور الوسطى فأسهم العرب في هذه البلاد بالآداب والعادات التي اتصفوا بها . وظلت الثقافة العربية تشع وتنتشر حتى بعد ذهاب النفوذ العربي الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) . وكان أعلام المسلمين في هذه البلاد يفكرون بالعقلية العربية الإسلامية ويكتبون باللغة العربية ، وهم في انتاجهم ونشاطهم إنما يعبرون عن حضارة عربية إسلامية سادت في منطقة الطراز الإسلامي ردحاً من الزمن [١٤] .

وعلى الرغم من أن المجتمع الإسلامي في بلاد القرن الأفريقي يتكون من

---

(١٣) للمزيد انظر . محمد بن حبيب . كتاب المنمق في أخبار قريش ، ص ٣٣ وما بعدها ، محمد ابن عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) . رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . (بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) جـ ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها ، حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس ، « العرب في مقديشو ... » ص ١٣١ وما بعدها ،

(١٤) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٣١ وما بعدها ، سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين (القاهرة ، ١٩٧٠م) ص ٣٧٢ وما بعدها ، عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم في الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص ١١ وما بعدها .

أجناس متعددة ، وأمم مختلفة في صفاتها وعاداتها وثقافاتها ، فإنها بعد إسلامها وبسببه أخذت تنصهر جميعاً في بوتقة الحضارة الإسلامية في ظل رعاية دول الطراز الإسلامي وكنفها ، لأن الدين الإسلامي عامل هام من عوامل الإنسجام بين الشعوب التي تدين به ، والدين الإسلامي فضلاً عن أنه عقيدة ، فإنه كذلك نظام إجتماعي كامل ، ومجموعة من الأخلاق والقواعد والأنظمة التي يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها (١٥) .

١ - سلطنة أوفات :

كانت سلطنة أوفات هي أقوى سلطنة إسلامية قامت في الحبشة بسبب تحكمها في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قريش من بني عبد الدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب، قدم أولهم من الحجاز واستوطنوا مدينة أوفات وقد اشتهر قوم منهم بالصلاح، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب « ولشمع » حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشي ، ولم يتضح تاريخ أوفات إلا في حوالي (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م) حين أورث عمر هذه المملكة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحداً بعد آخر ، وذلك بموافقة ملك الحبشة ، إلا أن سلطنة أوفات هي التي تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، وقامت مع غيرها من دول الطراز الإسلامي بدور كبير في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية (١٦) .

---

(١٥) للإطلاع على تفصيلات أكثر عن انتشار الدين الإسلامي بين الشعوب الأفريقية ، وذلك لما يتميز به الإسلام من محاسن ومناقب تختلف عن الأديان الأخرى ، سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٢٢ وما بعدها ، حسن ابراهيم . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤ وما بعدها .

(١٦) للمزيد من التفصيلات عن مملكة أوفات ، انظر . غيثان بن علي بن جريس « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ / ..) » ص ١٥٣-١٨٩، للمؤلف نفسه « سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقاتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط » بحث مقبول للنشر في الجزء الأول من العدد (١٩) حولية كلية البنات بجامعة عين شمس (أكتوبر / ١٩٩٦م) .

٢ - سلطنة بالي :

تقع جنوب سلطنة دارة ، ويحدها شمالاً نهر ويبي ، ومن الجنوب نهر حرانا إلى دوريا ، وبهذا الوضع تتحكم في وادي الصومال ، والعنصر الغالب في سكانها عنصر السيداما ، ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا ، وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة . وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية في أن الملك لم يظل كغيرها ، محفوظاً في أسرة معينة ، بل حدث في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة [١٧] . وفي بقية المظاهر تقترب هذه السلطنة من السلطنات الإسلامية وتسير المعاملة فيها بالتبادل، وأهلها على المذهب الحنفي [١٨] .

٣ - سلطنة هدية :

تقع إلى الغرب من دول الطراز الإسلامي وتجاور أرابيني ، وتشغل مساحة واسعة بين نهري هواش وجيبي ، وليست حدودها معروفة بدقة شأنها كشأن باقي الولايات الإسلامية وتتكون من (٨) مقاطعات [١٩] ، وبرغم أنها دون أوفات في المساحة والإمكانيات ، فإنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلاً ورجالاً ، ويقال إن عدد جنودها بلغ نحواً من (٤٠) ألف فارس سوى الرجالة الدين يبلغون ضعف هذا العدد تقريباً . ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ،

(١٧) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٢ وما بعدها .

(١٨) عماد الدين أبو الفداء . كتاب تقويم البلدان (باريس . ١٨٤٠م) ص ١٦٠-١٦١، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ص ١٣٠ .

(١٩) أبو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ١٦٠ ،الشاطر بوصيلي عبد الجليل ، معالم تاريخ سودان ووادي النيل ، ص ٦-٧ .

Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 58-9.

فإن أغلب رعاياها على الوثنية ، وهؤلاء الرعاية من السيداما والجوارجي والشابو ، وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين [٢٠] .

وتقترن شهرة هدية بتجارة الخصيان من الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون في مصر باسم الطواشية ، وقد حظر ملك الحبشة هذه العملية الوحشية ، غير أن اللصوص ما فتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية ، وسكان وشلو هذه همج متبربرون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصي وهذا هام لتجار النخاسة ، إذ إن الخصى أرفع ثمناً من غيره ، وبعد إتمام عملية الخصي يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا نظراً لأن مجرى البول يكون قد انسد بسبب القيح عند الخصي ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب ، ومع ذلك فإن العدد الذي يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذي تكتب له الحياة ليباع مصدراً من هدية [٢١] .

٤ - سلطنة دارة :

تقع في حدود أوفات الغربية وشمال شرقي هدية في منطقة السيداما ، وتعد أضعف أخواتها حالاً ، وأقلها خيلاً ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشاً يعادل في قوته جيش أوفات إذا عنيت بهذه الناحية ، ولا تختلف كثيراً عن غيرها من الإمارات الإسلامية فأهلها مسلمون على المذهب الحنفي ومعاملتها بالمبادلة [٢٢] .

(٢٠) لمزيد من التفصيلات عن مملكة هدية ، انظر : أبو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ١٦٠ وما بعدها ، زاهر رياض ، الإسلام في أثيوبيا في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٩٥- ٩٧ .

Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 60-2.

(٢١) للمزيد ، انظر ، إبراهيم طرخان « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة » ، ص ٣٤- ٣٧ .

(٢٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٤ وما بعدها ، إبراهيم طرخان « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... » ص ٣٣ وما بعدها .

٥ - الإمارات الإسلامية الأخرى :

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرابيني وشرخا ، فهي إمارات صغيرة قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوفات في الفارس والراجل وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجالة ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجالة (٢٣) .

والخلاصة ، فإنه لن تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك الدول التي عرفت بالطراز ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة في بعض الفترات ، تحققت عن طريق القوة أو الدبلوماسية أو المصاهرات ، وكانت في معظم الأحيان مستقلة داخلياً وتدفع الجزية أحياناً كثيرة وذلك عندما تنضوى تحت لواء سلطنة أوفات أكبر دول الطراز الإسلامي في منطقة القرن الأفريقي خلال فترة العصور الوسطى (٢٤) .

لقد اسهمت هذه الدول إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي والعربي في منطقة القرن الأفريقي وفي داخل بلاد أثيوبيا أو الحبشة ، هذا بالاضافة إلى الدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة إقتصادياً وسياسياً وإجتماعياً ، فباستمر دفع الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة في الإنتشار والإزدهار حتى بلغ أقصى مداه في نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وذلك في زمن المجاهد الإسلامي الكبير أحمد الجران (أحمد بن

---

(٢٣) انظر ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٥ وما بعدها ، إبراهيم طرخان « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة » . ص ٣٦ - ٣٨ .

(٢٤) حمدي السيد. الصومال قديماً وحديثاً ، ص ٣٩٤ ومابعدها ، غيشان بن علي بن جريس « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ ...) ص ١٥٣ وما بعدها .

جرا) ، حيث أشتدت الدعوة لمناهضة النصرانية ونشر الإسلام واللغة العربية في هذه البلاد [٢٥] .

والثابت أن الدعوة الإسلامية في بلاد الطراز الإسلامي والحبشة المسيحية، كما في غيرها من المناطق - ارتبطت باللغة العربية ، لغة القرآن والعلوم الإسلامية ، وسار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهاد في سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية [٢٦] .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربي هو القلم المعروف في أفريقية دون غيره ،وكانت هناك علاقة قديمة بين العرب وبين الحبشة والزنج ، وكان ذلك قبل القرن السابع الميلادي ، أي قبل دخول الإسلام في القارة الأفريقية ، وقد اشتهرت عدة طرق للقوافل ، كانت تبدأ من زيلع وهرر وسواكن وأوفات ، فتجتاز هضاب الحبشة إلى الداخل حتى منطقة البحيرات . وقد تولى العرب أمر هذه التجارة منذ أزمان بعيدة ، حيث يجتازون الصعاب ، ويخترقون الهضاب والوديان التماساً للرزق ، وكان العرب ينشدون الذهب والعاج والأبنوس والرقيق والبخور ، مقابل بضائعهم التي كانوا يحضرونها معهم والتي كانت تتمثل في الحرير والسروج والسيوف والنحاس والملح وأنواع شتى

---

(٢٥) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . تحفة الزمان (أو) فتوح الحبشة ،مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية ، رينيه باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٧٥-٧٩ ، فتحي غيث . الإسلام والحبشة عبر التاريخ (القاهرة،(د.ت) ص ٥٣ وما بعدها .

(٢٦) انظر ، عبد الشافي غنيم عبد القادر « البحر الأحمر طريق للدعوة الإسلامية » ص ٧٩ وما بعدها ، يوسف فضل « انتشار الإسلام في سودان وادي النيل » ص ٢٧ وما بعدها ، السر سيد أحمد العراقي « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في اثيوبيا والصومال » ، ص ١٦٦ وما بعدها .

من المنسوجات ، فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد وغير ذلك [٢٧] .

نستطيع القول أن هذه العلاقة التجارية بين العرب ومنطقة القرن الأفريقي والحبشة التي بدأت في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وازدهرت بعد القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تمثل أولية للغة العربية في تلك البلاد ، ولقد نمت هذه العلاقة بطريقة سليمة طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام في كل بلاد أفريقية الشرقية ، فالتجارة بطبيعة الحال تلزمها لغة التخاطب بين البائع والمشتري كما تولد الصلة بينهما ، وبما أن اللغة العربية كانت أرقى من اللغات المحلية فمن الطبيعي أيضاً أن تكون هي المستعملة في ذلك الزمن ، ومن الطبيعي أيضاً أن يلتقطها التجار والأهالي من إخوانهم العرب وينشرونها فيما بينهم ، وهذه العلاقة التجارية إذن هي التي وضعت الحجر الأساسي للغة العربية في أفريقية الشرقية ، وبدأ أولئك التجار يدخلون كلمات وتعابير عربية في تلك المناطق ، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجياً حتى توغلت في ربوع أفريقية ، واندمج بعضها في اللهجات المحلية ، وخاصة بعد انتشار الإسلام . ومما يؤكد هذا وجود كلمات عربية كثيرة في بعض اللغات الأفريقية مثل لغة السواحيلي والأحباش ، وخاصة اسماء تلك البضائع التي كانت تصدر إليها من اليمن وعمان والحجاز في تلك القرون الغابرة ، وهذا فضلاً عن الكلمات والتعابير الإسلامية التي دخلت مع دخول الإسلام ، فنجد في اللغة السواحيلية

---

(٢٧) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص ٣٣ وما بعدها ، شمس الدين المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . تحقيق دي غوي (ليدن ، ١٨٧٧م) ص ٧٩ ، ٩٧ ، ابراهيم طرخان « الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة » . ص ٣٨ وما بعدها .

والأثيوبية مثلاً أن أسماء هذه البضائع عربية ، فكلمة السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم والدواة وأمثالها كلها وافدة على اللغة السواحلية والأثيوبية ، وتنطق بتحريف بسيط (٢٨) ، لذلك يمكن القول أن اللغة العربية قد تركت آثارها في عدد من اللغات المحلية لدرجة كبيرة ، وظهر هذا الأثر واضحاً في لغة السواحيلي وبعض اللهجات الأثيوبية والصومالية والأرتيرية ، ويوجد في هذه اللغات الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية استخدمت في كتابة اللغة السواحيلية منذ زمن مبكر ، كما استخدمت في اللغات الصومالية والأمهرية (٢٩) .

وقد ساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها ، فضلا عن الجانب الديني المرتبط بها ، أن الكثير من الشعوب الأفريقية في منطقة القرن الأفريقي وعلى طول الساحل الشرقي الممتد من زيلع شمالاً إلى سوفالا جنوباً، ادعت الأصول الشرقية و لقد ادعى ملوك أوفات وهرر وزيلع ومقديشو وكلوه وغيرهم ، أنهم انحدروا من الشرق . ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في أفريقية الشرقية الإسلامية هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها ، وهذه الهجرات - كما سبق القول - قديمة وسابقة على دخول الإسلام ، وازدادت بانتشار الإسلام ، ثم أن مصاهرة العرب مع القبائل الأفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام مثل قبائل الأمهرة والدناقل والإيتريين والأحباش والصوماليين ، وظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير في هذه البلاد ، فأدى ذلك إلى تقدمها وتطورها ، فتطلعت

(٢٨) عبد الرحمن زكي . الإسلام والمسلمون في شرق أفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) ص ٧٧ وما بعدها ، سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٧٨ ، ٣٦٩ وما بعدها .

(٢٩) عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون في شرق أفريقية ، ص ٧٦ وما بعدها ، السر سيد أحمد العراقي « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في اثيوبيا والصومال » ص ١٦٨ وما بعدها .

إلى البلاد الإسلامية في الشرق والشمال الشرقي من أجل العقيدة والمدنية ولم تحل صعاب البحر والمحيط دون الإجتياز [٣٠].

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي بصفة خاصة ، وبلاد شرقي أفريقية بوجه عام ، بعهود الدول الإسلامية الكبرى و أوفات ، زيلع ، هدية ، مقديشو وكلوة ، وبقية دول الطراز الإسلامي بصفة عامة ، فقد كانت اللغة العربية اللغة الرسمية السائدة فيها ، واستخدمت في شتى الأغراض وأوفت بها واستخدمت في مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم هي لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول والعالم الإسلامي الخارجي . ووجد في الدواوين المصرية زمن المماليك صيغ عربية لمخاطبة ملوك تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها [٣١].

يتضح من هذا العرض السريع أن اللغة العربية كانت اللغة الدولية في العصور الوسطى في جميع البلاد الإسلامية ، واستمرت كذلك حتى بداية التدخل الأوروبي في شئون البلاد الأفريقية الإسلامية ، فكانت اللغة العربية طيلة هذه القرون هي لغة الدين والثقافة والتجارة ، ثم هي لغة الحكومة والإدارة والقضاء كما أصبحت لغة تخاطب في كثير من بلاد الأحباش والصومال والسواحيلي بصفة عامة ، [٣٢] ، مع وجود اللغات المحلية كلغة الأمهرا والتيجري

---

(٣٠) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ١٣٤ وما بعدها ، عبد الرحمن زكي « الإسلام والمسلمون في شرق أفريقية » ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٣١) للمزيد انظر ، شهاب الدين بن فضل الله العمري . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة ، ١٩٢٤م) جـ ١ ، ص ١١-١٢، انظر كذلك الجزء الثاني من هذا الكتاب الدي لازال مخطوطاً بجامعة الأزهر تحت رقم (٦٧٣٥/٤٤١) ، القلقشندي صبح الأعشى، جـ ٥ ، ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٣٢) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جـ ١ ، ص ٦٨ وما بعدها.

والبني عامر والدناقل والصومال والسواحيلي ، هذا بالإضافة إلى بعض اللهجات الأفريقية القديمة كلغة البانتو والبوشمن والهوتنتوت ، ثم أن اللغة العربية من بعد ، هي لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات (٣٣) ، بمعنى آخر كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة (Lingua Franca) .

مراحل انتشار اللغة العربية :-

مر ازدهار اللغة العربية الذي اقترن بانتشار الإسلام في بلاد أفريقية الشرقية بوجه عام بمراحل عديدة :-

فالمعروف أن الإسلام قد بدأ ينتشر في تلك البلاد منذ ظهوره ، وقد ساهم الأفريقيون مع العرب بنشر الدعوة الإسلامية منذ مطلع القرن الأول الهجري ، بل أن إزدياد الهجرات العربية والإسلامية أدى إلى إزدياد الداخلين في الإسلام ، فالصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة بين بلاد القرن الأفريقي (الحبشة والصومال) وبلاد العرب ، وقد كثرت هجرات المسلمين بعد ظهور الإسلام ، من العرب والفرس وغيرهم . واحتكر التجار المسلمون عملية الإتصال بهذه البلاد لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم في تلك البلاد ، وهناك جهود دول الطراز الإسلامي ، (٣٤) التي يعاني ملوكها في نشر الإسلام واللغة العربية بين سكان هذه البلاد من

---

(٣٣) ابن فضل الله العمري . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، جـ ٢ . ورقة ١٨٤ وما بعدها ، ابن بطوطة . تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ ١ ص ٢٦٩ وما بعدها .

(٣٤) لمزيد من التفصيلات ، انظر فاضلو حوراني . العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٥١ وما بعدها ، محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص ٣٢ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس « بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية » ، جـ ١ ، ص ١١-٣٧ ، للمؤلف نفسه « الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية » ص ٧١ وما بعدها ، للمؤلف نفسه « الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية .. » ص ٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه أيضاً « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م) ص ١٥٣ - ١٨٩ .

الأمهرا والتيجري والصوماليين والأحباش والأرتيريين . وقد بلغت هذه الدول ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) ، فقامت بدور كبير بنشر الإسلام والعلوم الإسلامية العربية [٣٥] .

وقد ذكر ابن بطوطة أن ملوك هذه البلاد كانوا شديدي الحماس لنشر الإسلام واللغة العربية بين قومهم وبين القبائل الأفريقية المجاورة من ناحية الغرب والجنوب [٣٦] . وكان حماس هؤلاء الملوك من العناصر الهامة في ازدياد انتشار الإسلام ، كما أن الصلات المتنوعة والجهود البارزة لملوك دول الطراز الإسلامي قد أدت إلى اتساع رقعة البلاد الإسلامية في أفريقية الشرقية . ولما كانت الحبشة جزءاً من شرقي أفريقية ، فلا ريب أن الإسلام دخلها وانتشر بين سكانها ، بدرجات متفاوتة ، وذلك بفضل جهود ملوك دول الطراز المجاورين لها ، أو الخاضعين لسيادتها في بعض الفترات .

والراجح أن عدداً كبيراً من سكان الحبشة المسيحية قد اعتنق الإسلام ، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد الحبشة منذ زمن مبكر ، قبل قيام الطراز الإسلامي ، وقد برزت الآثار الإسلامية في بلاد الطراز الإسلامي وفي بلاد الحبشة والقرن الأفريقي بوجه عام ، وأوضح ما كانت في هدية وأوفات ودوارو وأرابيني وشرخا وبالي وهرر وزيلع ، وقد ضمت أوفات وحدها نحو أثني عشر مسجداً ،

---

(٣٥) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ ، المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٢٧ وما بعدها ، محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، ص ٣١ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس « العرب في مقديشو .. » ص ١٢٩ وما بعدها .

(٣٦) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها .

وكذلك هدية وهرر ، وألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية ، كما أن نواحي هذه البلاد كانت ملأى بالعلماء والفقهاء والأئمة، (٣٧) واصبحت مدن هذه البلاد مثل أوفات وزيلع وهدية وشرخا وهرر مراكز ثقافية عربية إسلامية ، كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية ، وكانت اللغة العربية هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد ، وهذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات ، وتبوأت هذه اللغة في الحبشة والطراز الإسلامي المكانة التي تبوأتها اللغة اللاتينية في أوروبا في العصور الوسطى ، بل زادت عليها ، إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة للدين والثقافة حتى في العهد الإستعماري في أفريقية ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجياً أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا بتلك العصور ، أكثر من هذا ، شهد بعض المكتشفين والمستعمرين في مطلع العصور الحديثة ، بأن المام سكان شرقي أفريقية باللغة العربية ، يفوق إلمام أوروبا باللغة اللاتينية في العصر الوسيط (٣٨) .

ومما يذكر أن ملوك دول الطراز الإسلامي كانوا يرسلون العلماء بين القبائل لبث العقيدة الصحيحة ، وأقبل الأفريقيون المسلمون من سكان هذه البلاد على مناهل العلم العربية في حماس تلقائي ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام ولغته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما أمتاز به المسلمون الذين استقروا في

---

(٣٧) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ص ٣٢٣-٣٢٧، العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ١ ص ١٢-١٥، زاهر رياض . الإسلام في أثيوبيا ، ص ٦٤ وما بعدها، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٣٨) توماس أرنولد ، الدعوة الإسلامية ، ص ٨٧ ، وللإطلاع على تفصيلات أكثر انظر ، محمد المعتصم سيد ، دول إسلامية شرق أفريقيا (هرر والصومال) ، ص ٣٦ وما بعدها ، حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٢٦ وما بعدها .

هذه البلاد والذين اتصلوا بتلك البلاد من كفاءة وخبرة في شتى الميادين الإقتصادية والإدارية فضلاً عن الجانب الثقافي ، إذ كان المسلمون يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية ، بدليل استعانة ملوك دول الطراز بهم في أجل أعمالهم ، فالمسلمون في بداية الأمر هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، فلذلك كانوا هم الذين يساعدون الملوك (٣٩) ، وهذا دليل على انتشار الثقافة الإسلامية التي توسعت وانتشرت بعد ازدهار دول الطراز الإسلامي .

وبالاضافة إلى الدور الذي قام به التجار والدعاة في نشر الإسلام في بلاد القرن الأفريقي وما جاورها شمالاً وغرباً وجنوباً ، فهناك عامل آخر ساعد على نشر الإسلام واللغة العربية في تلك البلاد المجاورة من الحبشة وارتيريا حتى الصومال الشمالي وهضبة البحيرات حتى أعالي نهر النيل الأزرق ، وذلك هو الهجرة التي قام بها التجار المسلمون من مقديشو ومركة وبراوة إلى مدن القرن الأفريقي ، وخاصة أثر غزو الشيرازيين الفرس لتلك البلاد والإستيلاء عليها ، فانتشر التجار في هذه البلاد وأقاموا مراكز تجارية اصبح لبعضها أهمية عظيمة واثر كبير في نشر الدين والثقافة العربية في شرقي أفريقية (٤٠) .

لقد وجدت المدارس الكثيرة أيضاً في جميع المدن المشهورة بجوار المساجد ، مثل مدارس هدية وبالي وشرخا وأوفات ، ويقول ابن بطوطة أن أهل مدنية زيلع قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب علم ، وبجانب الإهتمام

---

(٣٩) انظر ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ، ص ٣٧-٤٠ .

(٤٠) الشاطر بوصيلي . معالم تاريخ السودان ووادي النيل ، ص ٥٣-٥٥ ، غيشان بن علي بن جريس « العرب في مقديشو ... ش ، ص ١٣٢ وما بعدها .

Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 18-21.

بالقرآن، كما ذكر ابن بطوطه ، هناك الإهتمام بلغة القرآن ، وهي اللغة العربية التي اكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمي شرق أفريقية عامة [٤١]. ولم تكتف قبائل هذه الدول بدخول الإسلام ، بل طبعت بطابع عربي بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد . وهناك خصائص معينة في نطق الحروف العربية بين مسلمي شرقي أفريقية ، أما طريقة الكتابة ، فهي طريقة الخط الكوفي .

ساعد ازدهار دول الطراز الإسلامي ، واتساع رقعتها وعظمة ملوك المسلمين وتفانيهم من أجل خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية على أن تترك اللغة العربية أثرها القوي في اللغات المحلية، ولا سيما لغات السواحيلي والأمهرا والتيجري ، فاستخدمت اللغة العربية منذ ذلك التاريخ في كتابة اللغة السواحيلية ولاتزال إلى اليوم .

كان العامل التجاري من عوامل ازدهار اللغة العربية وانتشارها على نطاق واسع حول هضبة الحبشة والبحيرات وما جاورها . وكانت طرق القوافل التجارية تبدأ من زيلع وأوفات وتتجه إلى الجنوب عن طريق هدية وبالي إلى أن تصل أكسوم وهرر إلى داخل أثيوبيا ، وهذا مما يسهل وصول التجار المسلمين إليها وبالتالي دخول الإسلام وتعلم اللغة العربية . فلا شك أن التجار هم الذين أدخلوا الإسلام في تلك المنطقة . [٤٢].

لقد استطاع ملوك هدية وبالي وأوفات في أيام ازدهار دولهم إيجاد علاقة سياسية أو تجارية بين حكوماتهم والبلاد العربية الإسلامية وخاصة الحجاز

---

(٤١) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٤٢) لمزيد من التفصيلات ، انظر . عبد الرحمن بن خلدون . مقدمة ابن خلدون (القاهرة ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م) جـ ٢ ص ٥٧١-٥٧٣ ، شهاب الدين عرب فقيه ، تحفة الزمان (فتوح الحبشة) ص ١٧ - ٢٣ .

واليمن ومصر ، وبالطبع فهناك الكثير من المراسلات التي جرت بين هذه الدول وتلك البلاد العربية والظاهر أن العلاقة مع الحجاز كانت بسبب الحج ، إذ إن من المعروف أن كثيراً من ملوك أوفات وهدية كانوا يؤدون تلك الفريضة(٤٣).

ولا شك أن العلاقة التي كانت موجودة في تلك القرون الغابرة قد ساعدت كثيراً في نشر الثقافة العربية الإسلامية في تلك المنطقة ، فقد انتشر فيها التعليم وكثر من يتكلم باللغة العربية ، وكثر العلماء ، ومما ساعد في نشر اللغة العربية وجود عدد كبير من العرب الوافدين إليها من اليمن ، ومن قبائل ربيعة التي استقرت بعض بطونها في بعض مدن هذه البلاد حتى ارتيريا(٤٤).

ويضاف إلى هذه الأدوار ما قامت به بعض القبائل العربية مثل قحطان وربيعة وبعض القبائل اليمنية مثل الأزد وغيرهم ، وقد أشتد حماس هذه القبائل لنشر الإسلام في زمن ازدهار دول هدية وبالي وأرابيني ، فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية بفضل جهود ملوكها الذين نشروا الإسلام والثقافة الإسلامية في مناطق عديدة يقع بعضها في الهضبة الحبشية وبعضها الآخر في منطقة البحيرات ، لذلك تمثل مرحلة هذه الدول وقبائلها العربية العصر الذهبي لازدهار وانتشار اللغة العربية وتقدم العلوم والثقافة الإسلامية في بلاد شرقي

---

(٤٣) حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً . ص ٣١٧ وما بعدها ، حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤٠-٢٤٢ ، صلاح العقاد . زنجبار (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١-٢٢ ، غيثان بن علي بن جريس « سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقاتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط ... » .

(٤٤) لمزيد من المعلومات ، انظر ، شمس الدين الأنصاري الدمشقي . نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بطرسبورج ، ١٢٨١هـ / ١٨٦٥م) ص ١٦٢-١٦٣ ، حمدي السيد ، الصومال قديماً وحديثاً ، ص ٣٤٦ .

أفريقية [٤٥] .

فعندما قام الإمام أحمد بن جرا بالجهاد ونشر الإسلام في القرن العاشر الهجري ، كان أكبر همه بعد تحطيم الوثنية والقضاء على الحركة الصليبية النصرانية ، نشر مبادىء الإسلام الصحيحة والثقافة العربية . ولم يكن أيضاً حكام هذه البلاد الذين نظموا دولهم وإماراتهم حسب النظم الإسلامية يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس سلاطين أو أمراء ، إنما كانوا يدعون مؤدبين أو معلمين أو شيوخاً لعلمهم وورعهم بالإضافة إلى أهميتهم ومكانتهم .

إن هؤلاء الحكام هم الذين يباشرون الحكم بين رعيتهم حسب الشريعة الإسلامية ، كما كانوا يباشرون الأمور السياسية أيضاً ، ويؤمونهم في الصلاة، وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يقومون بتدريس العلوم الدينية في أوقات فراغهم، وكانوا مثلاً في التواضع والزهد . وعلى الرغم من أن دول الطراز الإسلامي لم تفتح مدارس رسمية نظامية على النظام المدرسي الحديث ، فإنها شجعت ذلك التعليم تشجيعاً بالغاً ، فكان معظم الملوك والحكام دعاة ومعلمين ، وكذلك كان الوزراء والقضاة ، وكانوا كلهم يجعلون بيوتهم مدارس ويفتحون أبوابهم على مصاريعها لطلاب العلم ولغير الطلاب من كافة المسلمين ، وكان من الطبيعي أن يقلد الطلاب قادتهم وأساتذتهم ، ومن ثم كثرت المدارس القرآنية وتعددت المجالس العلمية في معظم مدن دول الطراز الإسلامي وانتشر التعليم الديني ، وكثر التأليف ، فأصبح ذلك العصر عصر نهضة في شتى العلوم النقلية وغيرها . ويمكن القول إن تعليم اللغة العربية قد نال أهمية كبيرة في فترة ازدهار هذه الدول [٤٦] .

---

(٤٥) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(٤٦) المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، ص ٧-٩ ، المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ١٣٣-١٣٥ .

ولم تكن مناهج الدراسة في تلك المدارس القرآنية منظمة تنظيماً دقيقاً كالذي نعرفه الآن في المدارس ، ولم تكن محددة . لكن ينتقل الصبي في تلك المدارس الكثيرة من المرحلة الأولية وهي المدارس القرآنية ،ويستمر بعد ذلك في تلك المدارس متنقلاً من عالم إلى آخر ، حتى يصل إلى المستوى المقصود ، ثم يدخل في سلك العلماء ويقتفي أثرهم فيدرس كما يدرسون ، وكان الطلبة دائماً يعتمدون على الكتب التي تدرس وعلى المدرس الذي يدرسها على طريقة الأزهر القديم ، حيث إن أساس التعليم مبني على الشيخ والكتاب فقط . وكان الطالب ينتقل من عالم إلى آخر وربما كان الإنتقال في بعض الأحيان من بلد إلى آخر إلتماساً للعلم حتى يأخذ كفايته (٤٧) . لقد عكف العلماء على تعليم اللغة العربية وتعلموها لغة وأدباً ، وألفوا بها كتباً كثيرة في شتى الفنون . وقد أنتج العلماء والأدباء في تلك الفترة كثيراً ، وألفوا كتباً ورسائل عالجوا فيها الكثير من المشكلات الدينية والإجتماعية والسياسية (٤٨) .

لقد أعطى المجتمع الإسلامي هناك العلم والعلماء منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للتزود من مناهلهم العلمية . وبذل العلماء مجهودات هائلة لآداء

---

(٤٧) عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم في الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص ١٤ وما بعدها .

Freeman & Grenville , The East African Coast , PP. 39-41, Reusch, History of East Africa , PP. 154-5 .

(٤٨) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤٦ وما بعدها .

Marsh & Kingsnorth . An Introduction to the History of East Africa (London , 1966) PP. 31 - 4 .

رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية في مكة والمدينة والقاهرة ودمشق . ونزحت إلي هذه البلاد جميع الفرق والمذاهب المعروفة - آنذاك - في العالم الإسلامي ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد ، فتنوعت الحياة الثقافية ، وركز سلاطين الطراز على الإلتزام بخلق الإسلام في المجتمع .وفي الإدارة الحكومية . كما اتخذوا ألقاباً متصلة بالدين كسعد الدين وجمال الدين ومعز الدين وغيرها . كما أصبح العلماء مجموعة ذات وجود مؤثر في البلاط السلطاني في الحياة الثقافية والإجتماعية في هدية وأوفات وهرر وزيلع وارابيني . وقاد العلماء حركات الجهاد كالشيخ محمد أبي عبد الله والشيخ حق الدين الثاني وأحمد بن إبراهيم الجران ، كما تولى بعضهم مهمة السفارات كالشيخ عبد الله الزيلعي (٤٩) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية ، وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التي تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية . كما كان لدول الساحل الإسلامية مثل كلوة وأوفات وهدية وأرابيني قضاة ومحاكم شرعية وأئمة للمساجد وكتبة . مما يستدعي وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية . كما ساعد ازدهار دول الطراز واتساع رقعتها وعظمة ملوكها ، وتفانيهم في خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على استمرار هجرة العلماء في أيام السلطان جمال الدين الثاني من سلاطين الطراز الإسلامي ، وقد نزل عدد من هؤلاء العلماء في مدينة برية عام (٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) ، ثم انتشروا في مدن دول الطراز

---

(٤٩) لمزيد من التفصيلات ، انظر . ابن بطوطة . تحفة النظار ، جـ ١ ، ص ٩٣-٩٤ ، ١٠٧ ، ٢٦٨وما بعدها ، حسن ابراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤١ وما بعدها .

المختلفة [٥٠] .

وبفضل هجرة العلماء واستمرارها ظلت العقيدة والثقافة الإسلامية ثابتة ، حتى في أصعب أوقات الشدة التي تعرضت لها هذه الدول في نضالها المستمر ضد حملات الصليبيين عليها من وقت لآخر ، وأدى ازدهار الحركة العلمية في ربوع هذه البلاد إلى تعدد المؤلفات العلمية وكتب الفقه والحديث والتفسير . ومن أهم ما وصل إلينا منها كتاب « تاريخ عمر ولشمع وإمبراطوريته » ، للشيخ أبي بكر باعلوي ، وفتوح الحبشة لشهاب الدين الجيزاني «عرب فقيه» [٥١] .

ومما ساعد على ازدهار الحركة العلمية ، وانتشار اللغة العربية في بلاد الطراز ، انتشار الطرق الصوفية وظهورها في شرقي إفريقيا في فترة العصور الوسطى ، وكان أوسع تلك الطرق انتشاراً الطريقة القادرية والشاذلية ، بجانب طرق أخرى هي الرفاعية والأحمدية والإدريسية وغيرها . وكانت لكل طائفة زواياها الخاصة التي يجتمع فيها المريدون للذكر ، وقد امتدت الطوائف على طول مدن الساحل وجزره ، بل وامتدت لتشمل الداخل أيضاً ، وقد ساهمت فهذه الطرق بقدر وافر في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في ربوع الطراز الإسلامي [٥٢] .

---

(٥٠) حسن ابراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤٤ وما بعدها ،
Freeman & Grenville , The East African Coast , PP. 172-3,
Reusch, History of East Africa , PP. 123-129 .

(٥١) شهاب الدين عرب فقيه . تحفة الزمان (فتوح الحبشة) ، ص ١٧- , ٢٥

(٥٢) Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 135-7.
Marsh & Kingsnorth . An Introduction to the History of East Africa (London , 1966) PP. 23 ff .

وفي ضوء ما تقدم ، يتضح لنا أن حركة التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية قد تطورت ووصلت منزلة رفيعة خلال فترة ازدهار دول الطراز الإسلامي في الحبشة ، لأن هذه الدول كانت موضوعة على أساس إسلامي خاضع لقوانين شرعية ونظم دقيقة لابد من دراستها ومعرفتها قبل تطبيقها . ولما كانت هذه الدول تقوم على نظم إسلامية ، فقد كان من الطبيعي أن تدون فيها الدواوين على الطريقة الإسلامية ، وأن يكون فيها محاكم شرعية وقضاء. لذلك أدرك المستعمرون بعد دخولهم هذه البلاد أهمية اللغة العربية حيث كانت اللغة الرسمية ولغة الثقافة ، فحاولوا بكل ما يستطيعون من قوة أن يزيلوا اللغة العربية من مكانها ، فجعلوا اللغات الإنجليزية والإيطالية والفرنسية هي الرسمية في تلك البلاد ، وأصبحت هذه اللغات هي لغة الدواوين والمكاتب الحكومية . كما استبدل المستعمرون بالحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغات واللهجات الأفريقية الحروف اللاتينية في المدارس الحديثة التي أنشأوها ، وشجعوا الإرساليات والطوائف المسيحية في هذه البلاد وسهلوا لها كل الطرق والوسائل لنشر الدين المسيحي والثقافة المسيحية ، وبرغم ذلك تركت اللغة العربية أثرها البارز في شعوب أفريقية المختلفة ، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً في لغاتهم المحلية . ولايزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية المستخدمة في شرق أفريقية في مظاهر الحياة : الدينية والثقافية والإقتصادية ، وفي الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الإجتماعية ، وحتى في أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات ، ولاتزال اللغة العربية متفوقة من حيث سعة الإنتشار والبقاء بسبب مكانتها المقدسة ، لأنها لغة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية .

وبعد ، فيتضح لنا أيضاً أن أفريقية الشرقية قد كانت ومازالت جزءاً هاماً من دار الإسلام متميزاً في إطارها نابضاً بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية

في أثناء القرون الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية ونظمها السياسية والإجتماعية وابداعاتها الأدبية والفنية ، متفاعلة معطياتها في كل تلك الأبواب مع معطيات مثيلاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية في القارتين الآسيوية والأفريقية .

المبحث الخامس

سلطنة أوفات الإسلامية
في العصورالوسطى
(٦٠٠ - ٩٠٠ هـ / ١٢٠٠ - ١٥٠٠م) (*)

(*) هذه الدراسة نشرت في مجلة المؤرخ المصري قسم التاريخ-كلية الآداب - جامعة القاهرة (عام ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م) العدد (١٦)ص١٥٣ - ١٨٩ .

سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى

(٦٠٠-٩٠٠هـ/١٢٠٠-١٥٠٠م)

أدت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق أفريقيا دوراً مهماً في تشكيل تاريخ تلك المنطقة إقتصادياً وسياسياً ودينياً ، وغير ذلك من الجوانب الأخرى المرتبطة بالعامل التاريخي . ذلك أن الإمارات والمراكز التي أنشأها العرب المسلمون في تلك المنطقة أسهمت إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى الساحل الأفريقي ، وعلى الأخص أثيوبيا والصومال ، ومن ثم إلى الداخل [(١)] . والواقع أن سواحل منطقة القرن الأفريقي كانت دائماً مراكز مهمة للمواصلات ، ومنطقة لإستقبال الهجرات منذ أقدم العصور ، وهي الهجرات التي لعبت دوراً كبيراً في تشكيل الحياة الإجتماعية والثقافية والفكرية في منطقة حيوية هاجر إليها المسلمون ، وإنتشروا فيها ، مما أدى إلى قيام ممالك إسلامية عرفت باسم « دول الطراز الإسلامي » وأهمها مملكة (أوفات) الإسلامية التي بلغت درجة كبيرة من التقدم والرفاهية في العصور الوسطى فضلاً على ما أسهمت به في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية ، كما تزعمت حركة جهاد إسلامي ضد أباطرة الحبشة وبطارقتها .

---

(١) محمد بن حبيب . كتاب المنمق في أخبار قريش ، تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٥م) ص ٣٢ وما بعدها ، أبو محمد بن عبد الملك بن هشام . السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة : د.ت) جـ ١ ، ص ٣٢١ -٣٢٢ ، السر سيد أحمد العراقي . « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » . (ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية - الخرطوم / ٣٠ ٢٨ يوليو ١٩٨٣م) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥/م) ص ١٥٩- ١٦٠ ، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية ، ١٩٩٤م) جـ ١ ، ص ٩ - ٣٧ .

والإهتمام بدراسة منطقة تعتبر من المناطق الإسلامية المهمة التي أدت دورها كاملاً في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية ، جدير بالعناية والإهتمام وذلك إعتزازاً بالتراث الإسلامي وحفاظاً له من الضياع ، وعملاً على تسجيله في صفحات التاريخ ، فضلاً عن إبراز الجهود الرائعة التي بذلت في مجال نشر العقيدة الإسلامية في تلك الحقبة . ومن هنا كان إهتمامنا بدراسة موضوع « مملكة أوفات الإسلامية » بوصفه من الموضوعات المهمة الجديرة بالبحث والتقصي ، إذ تمثل الفترة التي شغلتها تلك الدولة الإسلامية ، حلقة من حلقات تاريخ منطقة مهمة لم تحظ بنصيبها الكافي من الدراسة . وقد شملت مملكة (أوفات) الإسلامية سواحل وداخلية شمال وشرق جمهورية الصومال ، وجمهورية جيبوتي ، وبعض مناطق الصومال الغربي (أوجادين) حتى أطراف هضبة شوا الحالية وبعض مناطقها الشرقية ، كما أمتدت في بعض فترات سيادتها إلى معظم أجزاء أثيوبيا الحالية (٢) .

لم تكن سواحل أثيوبيا والصومال مجهولة لدى شعوب العالم الخارجي منذ أقدم العصور ، إذ كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن وجود صلات قديمة ومستمرة بين هذه السواحل وشعوب العالم الخارجي . وقد اهتم العرب بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية المتعلقة بتلك البلاد . وأشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن بلاد أفريقيا الشرقية ، وخاصة أثيوبيا والصومال هم : المسعودي وابن حوقل والإصطخري

---

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر ، أنطوني سلري . الجغرافية الإجتماعية لأفريقيا ، ترجمة إبراهيم رزقانة ومحمد جمال الدين رزقانة (الاسكندرية ، ١٩٨١م) ص ٢٥٦-٢٥٨ ، غيثان بن علي بن جريس . « الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الإجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري (بحث منشور بمركز بحوث كلية التربية بأبها - جامعة الملك سعود ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م) ص ١ - ٨ .

والأدريسي وأبو الفداء وغيرهم[٣] .

وهكذا كان العرب من أهم الشعوب التي اتصلت بأثيوبيا والصومال منذ القدم ، وقد نشطوا في الإتصال بتلك المناطق منذ زمن دول معين وسبأ وحمير في اليمن وكان لهذه الدول نشاط كبير في الحركة التجارية البحرية والبرية إذ تمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم في المحيط الهندي وسواحل شرق أفريقيا . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير في هذا المضمار ، بعد أن تمكنوا من السيطرة على ناصية التجارة عقب تدهور دول الجنوب منذ القرن السادس الميلادي[٤] ثم تدفقت مجموعات العرب والمسلمين بعد إزدهار الإسلام ديناً ودولة ، فأنشأوا المراكز والإمارات

---

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر ، علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) جـ ٢ ، ص ٣٤ وما بعدها ، أبو القاسم بن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، تحقيق آم دي غوي (ليدن ، ١٩٣٨م) ص ٣٤ وما بعدها ، آبراهيم بن محمد الإصطخري ، مسالك الممالك . تحقيق إم . دي غوي (ليدن ، ١٩٢٧م) ص ٧-٨ ، محمد بن عبد الله الإدريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) جـ ١ ، ص ١٠٩-١٣١ ، عماد الدين اسماعيل ابو الفداء ، تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص ١٥٢ - ١٦٣ ، السر العراقي «الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية .. » ص ١٥٩-١٦١ .

(٤) أحمد بن واضح اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، تحقيق هوتسمان (ليدن ، ١٨٨٣م) جـ ٢ ص ١٧٧ ، أحمد بن يحيى البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد. (القاهرة ، د.ت) ص ١٥٣ ، ٧٠٣ ، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢ (بغداد ، ١٩٧٧م) جـ ٢ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
R, Coupland East Africa and its Invaders (Oxford , 1938) PP. 15-16, A.Z. March & G. W. Kingsnorth , An Introduction to History of East Africa (London , 1966) PP. 8-9, P-Corne. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987) PP. 124-5, M.J. Kister " Some Reports concerning Mecca From Jahiliyya to Islam " Studies in Jahiliyya and Early Islam . (London , 1980) PP. 61-62.

العربية ، ونشروا الإسلام بين القبائل الأفريقية التي كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبانتو والبجة ، ومن بينهم الأريتريون وغيرهم وقد حمل دعاة الإسلام إلى هذه البلاد حضارة ذات مظاهر ثلاثة :

١ - طابع الحضارة العربية من حرية العقيدة وحرية الفكر وعدم الجمود.

٢ - ثقافة عربية إسلامية جامعة شاملة لمختلف الفنون والعلوم .

٣ - الدين الإسلامي نفسه الذي يتلائم مع كل زمان ومكان .

وهكذا كان المهاجرون يحملون طابعاً جديداً بالإضافة إلى نشاطهم التجاري القديم وهذا الطابع الجديد يتمثل في عقائدهم ومذاهبهم التي سادت في بلادهم نتيجة لظهور الإسلام وما تلاه من نشوء الفرق والمذاهب الواحدة تلو الأخرى لنشر الدعوة ، وتحكمت في ذلك عوامل إقتصادية أو سياسية أو دينية أو إجتماعية ، إذ إنها جميعاً لم تصل في وقت واحد .

وقد قامت الدعوة للدين الإسلامي في أثيوبيا منذ ظهور الإسلام ، ويؤرخ لدخول الإسلام في أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى للحبشة ، ثم كثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب، حتى أضحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية . كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . كذلك اخترق عدد منهم الحدود الحبشية وأسسوا مراكز إستقرار بالتدريج ، وتحكموا في ثغور الحبشة المهمة التي كان من أهمها ميناء عدوليس (Adulis) مما أدى في نهاية الأمر إلى القضاء على تجارة

الحبشة الخارجية (٥) ونتيجة لذلك سقطت مملكة أكسوم الحبشية ، وهي المملكة المسيطرة على ذلك الجزء ردحاً طويلاً قبل ظهر الإسلام . وقد أخذ الإسلام بعد أفول أكسوم الحبشية يتقدم بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل . فإعتنقته القبائل التي تسكن شواطئ أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجري وفي جزء من قبيلة لابلين في معظم البجة ، وكذلك بين القبائل المتفرقة المسماة الجبرتة وقبيلة الدناقل (الدناكل)· ، وتكونت على أثر ذلك مراكز استقرار على طول الساحل الشرقي لأفريقيا ، امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقديشو ومركة وبراوة وممبسة وزنجبار وكلوة . وفي الداخل من أثيوبيا امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً وإعتنقته عناصر الساهو والعفر في شرق الحبشة ، كما امتد إلى مناطق السيدامو

---

(٥) انظر ، جلال الدين السيوطي ، أزهار العروش في أخبار الحبوش ، مخطوط ومصور عن نسخة بالأسكوريال ، ميكروفلم رقم (٢٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ورقة ٣٦ وما بعدها ، إبراهيم على طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى . (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢٩ - ٣٠ . غيثان بن علي بن جريس .« تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .العدد (٨) رجب ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) ص ٤١٢-٤٣٣، وللمؤلف نفسه . «الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية » ، مجلة المؤرخ العربي (القاهرة ، ١٩٩٥م) العدد (٣) المجلد (١) ص ٦٧ - ٨٥ .

Sir E.A. W. Budge .
A History of Ethiopia & Abyssinia. (London, 1928) Vol. 1. PP. 120-122.

الشرقية وجنوب الحبشة [٦]. وكثر المسلمون في أرض البجة ، وشجعهم على ذلك غنى المنطقة بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وامتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة ذلك دخول كثير من أهل البجة في الإسلام . وأشهر القبائل العربية التي استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر التي سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين [٧].

ومن المراكز التي تأسست في منطقة شوا الشرقية بالحبشة مملكة يحتمل أنها قامت حوالي نهاية القرن الثالث الهجري (نهاية القرن التاسع الميلادي) (٢٨٢ هـ - ٨٩٦ م) بزعامة أسرة عربية تنسب إلى قبيلة

---

(٦) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٥١-٥٢ ، يوسف فضل « انتشار الإسلام في سودان وادي النيل » ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية (الخرطوم ٢٨ - ٣٠ يوليو - تموز ١٩٨٣) (بغداد ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٢٥-٢٦، توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص٢٨٧ وما بعدها .

J.S. Trimingham . Islam in Ethiopia (London , 1962) PP. 5-7, Kamerer, Abyssinie et la mer Rouge (Le Caire, 1929) P. 58 , C.N. Stigand . The Land of Zing (London , 1913) PP. 104, 107, R.Reusch History of East Africa (New York , 1961) PP. 18-20.

(٧) أحمد بن علي المقريزي - الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة، د.ت) ص ٢٢ وما بعدها ، أحمد الحفني القنائي . الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان (القاهرة ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م) ص ١٥-١٦، عبد الشافي غنيم عبد القادر « البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية » البحر الأحمر في التاريخ والسياسة المعاصرة . أبحاث الأسبوع العلمي ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها .

Yusuf Fadl Hassan .
The Arabs and the Sudan (Khartoum, 1973) PP. 59-66 .

مخزوم القرشية ، وهي التي ينسب إليها خالد بن الوليد ويقال أن أفراد هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب بزعامة ود بن هشام لتستقر هناك في منطقة من أخصب مناطقها وهي منطقة شو[٨].

كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى في تلك المنطقة وما يليها شرقاً في عدل (Adel) وموارا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعاً لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلاً على أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية في بلاد الحبشة وهي إمارة أوفات[٩].

ولعل الفترة البارزة في التوسع الإسلامي في أثيوبيا ، تقع بين القرنين (الرابع والسادس الهجريين) (العاشر والثاني عشر الميلادي) ، فهذه هي فترة التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة ، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية ، وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ، ولو على حساب بعضها البعض داخل الوطن الحبشي ، فمثلاً تحولت منطقة نهر جوبا للإسلام حوالي عام (١١٠٨م) ، وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى[١٠].

---

(٨) للمزيد من التفصيلات انظر حمدي السيد . الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ٣٥٠-٣٥١ ، غيشان بن علي بن جريس « الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية ... » ص ٧١

Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 50 ff .

(٩) أبو العباس أحمد القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ، ١٩٠٦م) جـ٥ ، ص ٣٢٤ وما بعدها ، غيشان بن علي بن جريس . « بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية » ، جـ ١ ، ص ١١ ، ٢٦٠ .

(١٠) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٢-٣٢٣ ، غيشان بن علي بن جريس ، «الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية ... » ص ٧١-٧٢ .

Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. 62 ff .

فأصبحت هذه الرقعة الإسلامية الممتدة في جزء من أفريقيا الشرقية تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية ، وتقابل اليمن في الجزيرة العربية ، ومن أجل هذا الوضع الجغرافي نعتها المؤرخون بمنطقة « الطراز الإسلامي » لأنها على جانب البحر كالطراز له (١١). واشتهر في هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهي : أوفات ، دوارو ، أرابيني ، هدية ، شرخا ، بالي ، دارة (١٢).

وقد اتسم تكوين هذه الممالك بالطابع السلمي التجاري أو الإقتصادي بصفة عامة ؛ إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية ، ولم تكن في نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية - في أول أمرها على الأقل- ويرجع ذلك إلى أن الحبشة هي موطن الهجرة الإسلامية الأولى «حيث أصاب المسلمون الدار والقرار » فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك إرتبطت بالعالم الإسلامي الخارجي ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج ، وانتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة المنورة ودمشق والقاهرة ، وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز ، فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموي بدمشق ، وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرتية (١٣).

---

(١١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ، عبد الرحمن زكي . الإسلام والمسلمون في شرق أفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) جـ ١ ص ٧٧-٨٠ .

(١٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القاهرة ، ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م) جـ ١ ، ص ١١-١٢ ، ١٨٤-١٨٥، ابراهيم طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ، ص ٩٥ وما بعدها .

(١٣) للمزيد من التفصيلات انظر ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي ، المعروف بابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) جـ٢، ص ٧٣ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس « الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية » ، ص ٧٢ .

وتعتبر سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت في أثيوبيا بسبب تحكمها في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قريش من بني عبد الدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب ، وسلطنة أوفات هي التي تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة المسيحية (١٤) . أما الوضع السياسي لتلك الممالك الإسلامية فإنها كانت خاضعة لملك الحبشة ، وعليها أن تدفع ضرائب معينة في كل سنة لملك الحبشة ، من القماش والحرير والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق (١٥).

وهكذا نجم عن إنتشار الإسلام في أثيوبيا قيام عدة إمارات ومراكز أهمها سلطنة أوفات الإسلامية ، وهي جميعاً مستقلة داخلياً وتدفع الجزية أحياناً لملك الحبشة ، وكانت الكنيسة القبطية في مصر تكلف مبعوثيها في بعض الأوقات ، بمراعاة مصالح المسلمين في الحبشة ، فمثلاً تدخل بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) في إختيار أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس ، وذلك عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، واشترط عليه رعاية جانب المسلمين ، والإهتمام ببناء المساجد والإكثار منها (١٦).

---

(١٤) ابن بطوطة ، تحفة النظار ... ، جـ ٢ ، ص ٧٣-٧٥، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٥، ص ٣٣٢ .

(١٥) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ . ص ٣٣ ، غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام « مجلة المؤرخ العربي بالقاهرة (١٩٩٣) العدد (١) ص ١٢٨ وما بعدها .

(١٦) للمزيد من التفصيلات ، انظر ، « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » ، ص ١٦٣ وما بعدها .

وقد سيطرت على ملوك الحبشة عدة عوامل في صراعهم ضد المسلمين، أهمها العامل السياسي والإقتصادي للحد من نشاط المسلمين التجاري ، والإستيلاء على مواطنهم لتوسيع مملكتهم . ويأتي بعد ذلك العامل الديني ، فالحبشة مسيحية متعصبة لمسيحيتها ، ولكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينياً . وليس بغريب إذا علمنا أن الأرض التي سيطر عليها المسلمون في الحبشة فاقت في مساحتها أرض مملكة الحبشة المسيحية ، وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحيط الأقاليم المسيحية من الجنوب والشرق ، فضلاً عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان في الشمال والغرب ، وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلاً تاماً عن العالم الخارجي ، ولا سيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع (ميناء أريتريا الحالي على البحر الأحمر) ، وعدل هو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر . مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة (١٧).

غير أنه حدث لما وليت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠ م، وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) (١٢٧٠-١٢٨٥)، أن اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لدعم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين . ذلك أن السليمانيين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة والموانيء ، مما جعل أثيوبيا في علاقاتها الخارجية تحت رحمة المسلمين ، فذبلت المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة ومنها مدينة أكسوم العاصمة التي فقدت أهميتها وحلت

---

(١٧) انظر ابن بطوطة ، تحفة النظار ... ، جـ ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها ، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... ، ص ٣٥ - ٤٠ .
Budge, A History of Ethiopia . Vol. 1. PP. 373 ff , Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. ff .

بالبلاد أزمات إقتصادية نتج عنها قحط [١٨]. وعلى ذلك بدأ الصراع بين المسلمين في أثيوبيا والحبشة والمسيحية ردحاً من الزمن ، وتزعمت أوفات أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة حركة الجهاد ، وانضوى تحت لوائها بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، واستمر هذا الصراع بين المسلمين والحبشة المسيحية حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، حيث ظهرت في الأفق قوى جديدة تتمثل في ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشف الجغرافي ، فتقدم العثمانيون ، والبرتغاليون الذين قادوا حركة الكشف الجغرافي فسيطروا على سواحل زنجبار الشرقية في المحيط الهندي ، كل يناصر الفريق الذي ألتمس العون منه . كذلك دخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش في نضالهم السابق ، ووجد المسلمون في أثيوبيا عاملاً مهماً للإرتباط بالعثمانيين الذين بسطوا سيطرتهم على سواكن وجزيرة زيلع ، وأنشأوا علاقات مع المسلمين في مصوع التي يحتلها البرتغاليون ، وهو عامل الأتفاق في الدين ، فضلاً عن ترحيب العثمانيين بهذا الإرتباط الديني بجانب الأهداف التجارية . وقد تحملت سلطنة أوفات الإسلامية عبء الجهاد الديني مع الأتراك العثمانيين في منطقة القرن الأفريقي ضد الحبشة المسيحية التي يساندها البرتغاليون [١٩].

كانت الهجرة المخزومية (هجرة بني مخزوم) هي أولى الهجرات العربية الإسلامية إلى منطقة القرن الأفريقي . ونجع أحفاد ود بن هشام في

---

(١٨) انظر ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٣٠ .

(١٩) الشاطر بوصيلي عبد الجليل . معالم تاريخ السودان ووادي النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٦ وما بعدها ، وللمزيد من التفصيلات عن دول الطراز الإسلامي السبع وعلى رأسها مملكة أوفات الإسلامية ، انظر ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤-٣٣٠، المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ١٢٥ وما بعدها .

تكوين أول مملكة إسلامية في منطقة القرن الأفريقي ، عرفت بأسم مملكة شوا الإسلامية ، وكان ذلك في عام ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م ، وحكمت المنطقة لمدة أربعة قرون ، واضطلعت بمسئولية نشر الإسلام في الحبشة والصومال، ولكنها لم تلبث أن تدهورت أحوالها واضمحل نشاطها ، وكانت مرحلة احتضارها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي عندما مزقتها الخلافات الداخلية والصراع الخارجي ، حتى سقطت في عام ١٢٨٥ م على أيدي سلطنة أوفات الإسلامية التي توسعت نحو الداخل والساحل لنشر نفوذ الإسلام في تلك المنطقة [٢٠].وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على مدى تغلغل النفوذ الإسلامي وسيطرته السياسية حتى بلغ منطقة « شوا » و « السيدامو » والواقع أن سلطنة أوفات الإسلامية التي تأسست في القرن الثالث عشر الميلادي أدت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين ، واضطلعت بالدور الأكبر في نشر الفكر والثقافة الإسلامية ، والحفاظ على التراث الإسلامي الكبير الذي تركه المسلمون في منطقة القرن الأفريقي ومنطقة أفريقيا على وجه العموم [٢١].

وقد وصفت سلطنة أوفات الإسلامية بأن أبعادها بلغت خمسة عشر يوماً طولاً ، وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد ، وكلها عامرة آهلة بقرى متصلة ، وبها نهر جار ، وهي أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى سواحل اليمن ، كما أنها أوسع هذه الممالك أرضاً ، ويحكم ملكها على

---

(٢٠) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٤٣٢-٤٣٣، السر أحمد العراقي ، « الإسلام ومراكز الثقافة ... » ص ١٥٨-١٦١ .

Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 62-3.

(٢١) السر العراقي « الإسلام ومراكز الثقافة .. » ص ١٦٠ وما بعدها

Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 58 ff.

الزيلع ، ويبلغ جيشها خمسة عشر ألفاً من الفرسان ، ويتبعهم عشرون ألفاً أو أكثر من الرجالة ، وخيلهم عراب ، ما يركبون البغال [٢٢] ومن مدنها المهمة الأخرى ، بلقلزر ، وكلجور ، وسمق ، وسوا ، وعدل ، وحنا ، ولاو [٢٣].

ويعتبر ابن فضل الله العمري أول من وصف مملكة أوفات الإسلامية وأخواتها من ممالك الإسلام في قرن أفريقيا ، وصفاً دقيقاً ، اعتمد عليه اللاحقون إعتماداً يكاد يكون حرفياً ، واستمد معلوماته من فقهاء زيلعيين برئاسة الفقيه عبد الله الزيلعي ، قد وفدوا على مصر المملوكية وسلطانها «الناصر محمد بن قلاوون » ما بين (٧٣٣ - ٧٣٩ هـ) لآداء مهمة تتعلق بأمور ممالك المسلمين في منطقة القرن الأفريقي ، ونقل عنهم العمري أخبار هذه الممالك السبع (الطراز الإسلامي) ، وسجل أخبارهم في كتابه الذي شمل أخبار جميع ممالك الإسلام في أنحاء العالم الإسلامي . ويذكر العمري في بداية كتابه أنه لم ينقل إلا عن أعيان الثقات ، من ذوي التدقيق في النظر ، والتحقيق للرواية [٢٤].

وفي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كتب المقريزي رسالة « الإلمام » ، ونقلها من أفواه رواة قادمين من بلاد الزيلع أثناء موسم الحج سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م ، وأطلق على ممالك المسلمين في منطقة القرن الأفريقي اسم « بلاد الزيلع » وطول أرضها براً وبحراً حوالي مسيرة شهرين وعرضها أكثر من شهرين ، إلا أن غالبها قفار غير

---

(٢٢) للمزيد من التفصيلات عن طبيعة سلطنة أوفات ، انظر ، أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ١٦٠-١٦١ ، العمري . مسالك الإبصار في ممالك الأمصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣ وما بعدها .

(٢٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ورقة ١٨٥ .

(٢٤) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢ وما بعدها .

مسكونة، ومقدار العمارة مسافة ثلاثة وأربعين يوماً طولاً في عرض أربعين يوماً ، وتنقسم إلى سبع ممالك ، ولكل مملكة من الممالك السبع ملك ، وطول مملكة أوفات خمسة عشر يوماً في عرض عشرين يوماً كلها عامرة بالقرى ، وملك أوفات يحكم على الزيلع ، وهي بلاد حارة (٢٥).

لقد غطت مملكة أوفات على كل سهل زيلع وشرق شوا والمنحدرات المؤدية إلى أودية هواش ، وإلى خليج عدن والمحيط الهندي . وبمعنى آخر ، فقد سيطرت على أجزاء هامة من سواحل جمهورية الصومال الشمالية والشمالية الشرقية ، وجمهورية جيبوتي ، وإقليم هرر في الصومال الغربي (أوجادين في الحبشة حالياً) ، كما أن قبائل العفر (الدناكل أو الدناقل) حول بحيرة أوسا كانوا يدينون لحكامها بنوع من الولاء ، وحينئذ كانت تسيطر على طرق التجارة المتجهة إلى زيلع ، وهي الأولى من بين الممالك الإسلامية التي تتمتع بأهمية سياسية وعسكرية كبيرة (٢٦).

وقد وصف الرحالة الطنجي « ابن بطوطة » سنة ١٣٣١ مدينة زيلع فذكر أنها للبربر السودان « ومذاهبهم شافعية » وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مقدشو ، ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة (٢٧).

---

(٢٥) انظر المقريزي ، الإلمام ، ص ٦-٧ .

(٢٦) انظر ،

Ullendorff , Ency of Islam , art " Habashs" Vol.3 Taddesse Tamart. Church and State in Ethiopia 1270 - 1527. (Oxford, 1972) PP. 134-135.

(٢٧) للمزيد ، انظر ، ابن بطوطة ، تحفة النظار .. (طبعة بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٣ .

وهناك إشارة أخرى أوردها الجغرافي المشهور بالدمشقي أكثر تفصيلاً للمناطق الساحلية ، إذ سمى كل منطقة بإسم سكانها . وأطلق على خليج عدن اسم بحيرة بربرة ، أشار إلى بلاد الحبشة وأرض باضع وجبرة (على ساحل البحر الأحمر الغربي)(٢٨).وساحل زنجبار وأرض الزيلع ، وأرض أوتل . ويقصد بأرض جبرة بلاد مملكة أوفات ، كما أن اسم « أوتل » تحريف اسم عدل أودل الصومالي (٢٩).

وهكذا تدفقت الهجرات العربية الإسلامية إلى هذه الأماكن الداخلية في سهول زيلع وهضبة هرر ومنحدرات شوا ، وإقليم وادي الصدع الكبير ، وبالي وسيدامو ، وامتزجوا بالوطنيين ، وأخذت الأسلحة تنتشر تدريجياً ، حتى تأسست ممالك إسلامية في تلك البقعة ، وأقدمها مملكة شوا الإسلامية حوالي (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) بزعامة أسرة عربية مخزومية ، سبقت الإشارة إليها (٣٠).

كذلك قامت بعد ذلك عدة مشيخات إسلامية في المناطق الداخلية والساحلية ، منها سلطنة « عدل ومورا وهويات وجيدايا ، إلا أنها لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات فيما بينها ، وسرعان ما طوتها إحدى أقوى الممالك الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وهي مملكة أوفات الإسلامية .

وقد أسس مملكة أوفات قوم من قريش ، فمنهم من يقول هم من بني

---

(٢٨) شمس الدين محمد الأنصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، (بطرسبورج ، ١٨٦٥م) ص ١٥١-١٥٣ .

(٢٩) أودل (Awdel) اسم محلي أطلقه الصوماليون على مدينة زيلع وما يجاورها من البلاد . وهو مركب من (Aw) أي الشيخ . ودل (Dal) تعني الوطن ، ويكون وطن الشيخ أو العلماء . ويعتقد أنه تحريف لكلمة عدل التي اشتهرت بها مملكة عدل الرسلامية التابعة لمملكة أوفات.

(٣٠) Trimingham , Islam in Ethiopia . P. 58 ff .

عبد الدار ، ومنهم من يقول إنهم من بني هاشم ، ثم من ولد عقيل بن أبي طالب ، قدم أولهم من الحجاز ونزلوا أرض جبرة التي اشتهرت بجبرت ، وهما من أراضي الزيلع ، واستوطنوا بها وأقاموا بمملكة « أوفات » وعرف جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح إلى أن كان منهم « عمر ولشمع » . حكم عمر هذا مدينة أوفات وأعمالها لمدة طويلة ، وصارت له بها شوكة قوية حتى مات ، وترك أربعة أولاد أو خمسة ، ملكوا أوفات من بعده واحد منهم بزو ، ومنهم حق الدين الأول ، حتى كان آخرهم صبر الدين محمد الذي ملك أوفات سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠م) وطالت مدته (٣١).

وإذا كانت المصادر قد أجمعت على أن عمر ولشمع هو مؤسس مملكة أوفات ، إلا أن تاريخ تأسيسها يكتنفه الغموض ، فعلى حسب رواية المقريزي ، حكم عمر أوفات مدة طويلة ، ثم خلفه أبناؤه الأربعة أو الخمسة ، حتى آلت السلطنة إلى آخرهم « صبر الدين محمد » في حوالي سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) .

ومن هنا يرجح أن تأسيس هذه المملكة يرجع إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي وتشير الرواية إلى أن نسبه يصل إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (٣٢) ، إلا أن هذا الإدعاء لم يسلم من نقد المؤرخين الذين ذكروا أنهم مثل كثير من الأسر الإسلامية التي حكمت بلاداً

---

(٣١) للمزيد من التفصيلات انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤-٣٣٠، المقريزي ، الإلمام ، ص ٩ وما بعدها ، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة... ص ٣٢ - ٣٨ .

(٣٢) المقريزي ، الإلمام ، ص ١١ وما بعدها ، الشيخ أحمد عبد الله زيراش ، كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبع . (مقديشو ، ١٩٧١م) ص ٦٩-٧٣، الحسين بن يحى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م) جـ ٢ ، ص ٤-٧ .

إسلامية، ادعت نسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو آل البيت ، أو النسب القرشي ، أو الأصول العربية عامة .

ومهما يكن من أمر ، فقد شرع عمر ولشمع في توسيع نفوذ مملكته على حساب ممالك ومشايخ إسلامية في المنطقة ، ويبدو أنه بدأ توسعه على حساب مملكة شوا الإسلامية ، ثم أرسل حملات متعددة بعد ذلك إلى جيدايا وعدل ومورا وهويات وزنجبار ، وتمكن من إخضاعها جميعاً ، ثم امتد نفوذ هذه المملكة إلى شواطئ النيل الأزرق ، وامتد غرباً إلى أقليم نهر « أنكوي » .

وكما بسطت أوفات نفوذها شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر في منطقة الزيلع وسهل أوسا ، فقد وصلت سيطرتها جنوباً إلى شبه جزيرة حافون في المحيط الهندي ، وبالتالي أصبحت مملكة أوفات تتحكم في مساحة واسعة من أراضي متنوعة الموارد ، وسيطرت على كثير من الطرق التجارية البحرية منها والبرية ، فأصبح لها مركز الزعامة والصدارة على جميع الممالك التي قامت في المنطقة [٣٣].

وفي ظل هذا المركز السياسي والديني والإقتصادي ، حفل تاريخ هذه المملكة الإسلامية بالصراع من أجل البقاء ونشر الدين الإسلامي بين سكان منطقة القرن الأفريقي ، ذلك أنه ما كاد يكتمل نموها وقوتها حتى خاضت غمار حروب طال أمدها ، استنزفت كثيراً من مواردها ، وأضحت شغلها الشاغل ، ودمرت كثيراً من المدن والقرى والمساجد ودور العبادة الأخرى .

---

(٣٣) للمزيد ، انظر ، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص ٣٢-٣٧، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٥٢-٤٥٦،
Trimingham , Islam in Ethiopia . PP. 67-8.

وقد أضعفت هذه الحروب نشاط مملكة أوفات الثقافي والحضاري . ومن جهة أخرى ، توقف نشاط الدعوة من أجل نشر الإسلام وحضارته وثقافته وبقائه في منطقة القرن الأفريقي ، وذلك بسبب الصراع الدموي بين المسلمين والمسيحيين في تلك البقعة الأفريقية (٣٤) .

ومع ذلك فإن مملكة أوفات الإسلامية ظلت على جانب كبير من القوة والعظمة منذ أيام مؤسسها « عمر ولشمع » نظراً لسيطرتها على منطقة استراتيجية واسعة . ويقال إنها خضعت فترة من الزمن لمملكة داموت الوثنية (٣٥) .التي حكمت الجزء الجنوبي الشرقي لهضبة شوا ، إلا أن هذا الخضوع لم يدم طويلاً فسرعان ما تمكن عمر ولشمع في بداية تأسيس دولته من القضاء عليها وضمها إلى مملكته (٣٦) .

ويعتبر حق الدين محمد الثاني المؤسس الثاني لمملكة أوفات الإسلامية ، واستمر حكمه لمدة عشر سنوات (٧٦٦ - ٧٧٦ هـ /

---

(٣٤) انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٣٩-٤٤١، سعيد عبد الفتاح عاشور « بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، عدد (١٤) (١٩٦٨م) .

F.F Al - Varis (A Portuguese) Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Years 1520-1527 Trans by Lord Stanely (London , 1881) PP. 311-314, 393 ff.

(٣٥) تقع بلاد داموت عندمنابع نهر هواش في الجزء الجنوبي الشرقي من هضبة شوا ، ومازالت وثنية حتى فتحها الوزير عدلي (Adli) في أيام الأمير أحمد بن إبراهيم ، وللمزيد ، انظر : شهاب الدين أحمد عرب فقيه ، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ١١٣،١٧، ١١٥، ١٦٥، ٣٠٨ .

(٣٦) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق (القاهرة ، ١٩٦٦م) جـ ٣ ، ص ٤٣٢-٤٣٣، المقريزي، الإلمام ص١٠-١٢ .

١٣٦٤ - ١٣٧٤ م) . وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان سعد الدين أبو البركات ، واتسعت المملكة وازدهرت في عهده ، وكثرت عساكرها ، وذلك لما اتصف به من الحنكة السياسية ، وحسن تدبير أمور المملكة ، وفتح كثيراً من البلاد مثل بلاد زلان ، وبالي ، وأمحره ، وروعت أعماله وجهاده مملكة الحبشة المسيحية (٣٧) .

على أن مملكة أوفات الإسلامية لم تسلم مما كان يحدث في غيرها من الممالك من تنافس بين الأمراء ، وحروب على السلطة ، كما أنها كانت مطمعاً لكثير من ملوك الحبشة المسيحيين ، فشنوا عليها الغارات ، إلا أنها صمدت وخاضت المعارك الحربية العديدة صوناً للعقيدة الإسلامية ، ويدل بقاؤها على مسرح الحوادث وخوضها لحروب الجهاد (النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة / النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي) على أنها كانت على جانب كبير من القوة التي مكنتها من المحافظة على استقلالها طوال تلك الفترة . وكان شهاب الدين بن سعد الدين من ملوك تلك الفترة في أوفات ، ممن ساروا في طريق الجهاد ، وتوسيع نطاق نفوذ المملكة ، ونشر العدالة في ربوعها ، كما تطلع إلى استعادة الممالك الإسلامية التي وقعت في إيدي النصارى ، فتمكن من استعادة هدية ، وبالي (٣٨) .

وقد أظهر أبناؤه من بعده حزماً ، وبذلو ا مجهودات جبارة لإعادة فتح البلاد والتوغل إلى داخل مملكة الحبشة المسيحية نفسها ، واسترجاع مملكة أسلافهم ، وأعادوا الأمن والإستقرار إلى ممالك بالي ، وهدية ،

---

(٣٧) انظر ، المقريزي ، الإلمام ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٣٨) شوقي عطا الله الجمل . سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٧٤م) ص ١٩٥، محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ٥٠ - ٥١ .

ودوارو ، التي نجحوا في استعادتها من ملك الحبشة المسيحي فازدهرت مملكتهم في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك لسيطرتهم على الموانىء المشهورة : زيلع ، وبربرة ، وتاجورة ، كما سيطروا على منطقة هرر الغنية بمحاصيلها الزراعية ، فضلاً عن الطرق التجارية من وإلى مدينة هرر التي تقع على رأس مثلث قاعدته زيلع وبربرة. وكان إزدهار مملكة أوفات التجاري نتيجة لإزدهارها السياسي ، وموقعها على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وبعدها عن مركز القوة الذي تسيطر عليه الحبشة المسيحية على الهضبة الأثيوبية فانتظمت طرق القوافل التجارية بين الساحل والظهير القاري ، فضلاً عن انتظام التجارة الخارجية وازداد انتشار الإسلام في المنطقة بازدياد قوته السياسية متمثلة في مملكة أوفات الإسلامية (٣٩).

يذكر الفاريز Al - Varis مرافق رحلة البرتغال إلى الحبشة سنة ١٥٢٠ - ١٥٢٦ م ، أن مملكة أوفات كانت ممتدة الأرجاء ، وتسيطر على الأراضي التي تطل على رأس قرن أفريقيا « رأس جوردافوى » كما كانت تمتلك زيلع وبربرة ، وأنه كانت لهذه المملكة علاقات وطيدة وقديمة مع السلاطين والملوك المسلمين ، وخاصة في اليمن ومصر ، وكذلك أشراف مكة ، وكان هؤلاء الحكام يرسلون إليها الأسلحة والخيول لمعاونتهم في حروبهم ضد أباطرة الحبشة (٤٠) . ومنذ نهاية القرن

(٣٩) انظر ،

F.F Al - Varis (Father Francislo) Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Year 1520-1527 Trans and Edited by Lord Stanely (London , 1881) PP. 346-349.

(٤٠) ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ... ، ص ٦٦ وما بعدها.

الخامس عشر الميلادي ظهر في أوفات أمراء متحمسون للإسلام ونشر العقيدة الإسلامية يساعدهم الفقهاء والعلماء وقد نقل السلطان « أبو بكر بن محمد » عاصمة السلطنة إلى مدينة هرر سنة ٩٢٨ هـ / ١٥١٢ م ، وذلك لأسباب محلية وعالمية ، ومنذ ذلك الحين تظهر أهمية مدينة هرر ، التي برزت فيها قوة المسلمين ، فاتسعت رقعة المملكة ، وضمت إلى أملاكها نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة ، فضلاً عن جميع مناطق ممالك المسلمين في القرن الأفريقي ، وإنهارت قوى الأحباش التي التزمت جانب الدفاع (٤١).

وقد واجهت مملكة أوفات الإسلامية منذ قيامها مشاكل عديدة ، من أهمها : تلك التي جاءتها من الحبشة المسيحية وكانت الديانات السماوية، اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام تعيش جنباً إلى جنب ، بطريقة سلمية لعدة قرون في منطقة قرن أفريقيا ، فتركز النصرانية واليهودية على المرتفعات ، ويتركز الإسلام في المنخفضات الشمالية والشرقية والجنوبية ، و منذ أن عادت الأسرة السليمانية إلى عرش الحبشة، وتحرك مركز المسيحية نحو أمهرا (أمحرا) في الجنوب ، تطلعت هذه الأسرة إلى السيطرة على مملكة أوفات الإسلامية ، لأن أوفات كانت تسيطر على بلاد واسعة ذات إمكانات هائلة ، كما تسيطر على طرق التجارة بحزم ، هذا ، بالإضافة إلى أن أوفات كانت تمتلك جيشاً قوياً ، وتنظيماً إدارياً محلياً ومتقناً ، فاستطاعت أوفات بهذه القدرات الهائلة أن تجابه الحبشة المسيحية التي تحاول القضاء على هذه المملكة الإسلامية

---

(٤١) انظر : الشارط بوصيلي ، معالم تاريخ السودان ... ص ١٠-١٢ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ص ٤٤١ - ٤٤٣ .

Roland Oliver and Antony & Atomore . The African Middle Ages 1400 - 1800 (Cambridge, Univ. Press,) PP. 45-46 .

العظيمة ، وهذا وحده عمق الصراع الطويل بين المملكتين الذي امتد إلى بعض العصور الحديثة ، مما يثبت دون شك أن المنطقة صارت مسرحاً لحروب صليبية واسعة النطاق استمدت أسبابها من قوى عالمية خارج الحبشة ، لها أهدافها المحلية والعالمية ، مخفية حيناً ومعلنة حيناً آخر ، تدفع الحبشة نحو التحامها بمملكة أوفات حتى تخضعها ، ويتسنى لها السيطرة على منافذ البحر الأحمر ، وبالتالي تستطيع أن تنفذ أهدافاً صليبية عامة ، ولا يمنع ذلك امتزاج عوامل إقتصادية بأخرى دينية سياسية [٤٢].

وكان أن برزت الأخطار على مملكة أوفات الإسلامية في زمن ملك الحبشة يجباصيون Yagba Seyon (١٢٨٥ - ١٢٩٤ م) واستعدت أوفات لمواجهة هذه الأخطار ، وبدأ الصراع بينهما في شكل مناوشات بسيطة ومحدودة على الحدود والتخوم التي تفصل بين مملكتي الفريقين ، إلا أن ذلك قد تطور فيما بعد ، مما أدى إلى نشوب قتال ومعارك طاحنة بينهما .

وقد جرد ملك الحبشة حملة على مملكة عدل - إحدى ولايات أوفات - ويرجع ذلك إلى إلقاء سلطات عدل القبض على مبعوث حبشي قدم من بيت المقدس ، وأجبرته على الختان بعد أن رفض إعتناق الإسلام ، ويقال أن إمارتين إسلاميتين ، عاونتا ملك الحبشة في هذا الهجوم الذي أدى إلى نهب بلاد « عدل » ثم عقدت هدنة بين الطرفين ، فتحت بموجبها الحدود بين البلدين [٤٣] ، ولكن رغم هذه الهدنة المعقودة ، فإن كلاً

---

(٤٢) عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ، ص ٤٣ - ٤٤ .
Jean Doress. Ethiopia (London , 1959) P. 5-11, Trimingham, Islam in Ethiopia , PP. 68-70.

(٤٣) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ص ٤٥٤-٤٥٥، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص ٥٠ ، عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون .. ص ٣٣٢ ، توماس أرنولد ،الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٣٥ .

منهما كان يحاول الاستعداد والتقاط أنفاسه ، وانتهزت أوفات فرصة تصارع وتكالب أبناء يجباصيون على السلطة ، فشنت هجمات متتالية على الحبشة واتخذت الجهاد ديناً وعقيدة ، واستطاعوا خلالها تقوية مراكزهم في المنطقة (٤٤).

وفي عام ٦٩٨ هـ -١٢٩٨ / ٩٩) قام الشيخ محمد أبو عبد الله أحد شيوخ مملكة أوفات ، بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها قضاءً مبرماً لإعتداءاتها المتكررة على المسلمين والديار الإسلامية ، وحشد حوله مائتي ألف مسلم من الصومال والجالا ، وأعدهم للجهاد ، وغزا الحبشة ، التي اضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود الشرقية (٤٥).

كذلك ازدادت قوة مملكة أوفات أيام السلطان « صبر الدين محمد بن عمر ولشمع » (٧٠٠ - ٧١٦ هـ / ١٣٠٠ - ١٣١٦م) والذي لم يستطع ملك الحبشة ودم أرعد (Wedam Arad) (١٢٩٩ / ١٣١٤ م) أن يرد هجماته القوية ، ويقال أنه بعث رسالة إلى البابا كليمنت الخامس في أفنيون بفرنسا ، وربما كانت لغرض روحي بحت ، أو لطلب مساعدة مادية ضد مملكة أوفات الإسلامية (٤٦).

---

(٤٤) للمزيد ، انظر عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون ، ص ٣٣٢-٣٣٤، توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٣٥-١٣٧ .

(٤٥) الشاطر البوصيلي ، معالم تاريخ السودان ... ص ١٣-١٤، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٤٦) للمزيد ، انظر ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية .. ص ٤٥٣، عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ، ص ٤٤ ، جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، (القاهرة ، ١٩٧٥م) ، ص ١٢٨-١٢٩ .
R. Burton , First Foot Steps in East Africa (London , 1966)
PP. 1781-2 .

ثم كان أن تمتعت المنطقة بفترة هدوء نسبي حتى عهد السلطان جمال الدين الأول (٧٢١ - ٧٧٨ هـ) وانتهجت السلطة في عهده سياسة التوسع في أملاك الحبشة على أن الحرب استؤنفت بين الجانبين خاصة في عهد ملك الحبشة يجباصيون الذي أعد حملة تعتبر من أشد الحملات الحبشية ضد مملكة أوفات في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، ومنذ ذلك الحين اتسمت الحروب بطابع القسوة والشدة والوحشية بينهما منذ عام ١٣٢٩ م ، وتحمل الجانبان خسائر فادحة في الأرواح والمعدات ، واحرقت أماكن العبادة ، وقتل رجال الدين ، وخرب المسلمون الكنائس والأديرة وقتلوا الرهبان رداً على أعمال الحبشة الوحشية ضد المسلمين ، كما دخلوا مدناً مسيحية ، في أثناء زحفهم على الحبشة ، وقتل الأحباش الأبرياء وخربوا المساجد ، واستمرت الحروب على هذه الطريقة لمدة ثلاثة قرون ، تهدأ حيناً ، وتثور أحياناً أخرى حسب ظروف وقوة وضعف حكام الطرفين ، لكنها في كل الأحوال جهاد بين الهلال والصليب ، وتوسعت مجالاتها وميادينها ، بل تحولت إلى نزاع عالمي اشتركت فيه قوى خارجية لمساعدة الطرفين مثل المماليك والعثمانيين ودولة البرتغال المسيحية . ويظهر واقع حملة (عمدا صيون) على مملكة أوفات ، مدى الصعوبات التي كانت تواجه مملكة أوفات بشأن توحيد الجبهة الإسلامية ضد الحبشة ، وذلك راجع إلى طبيعة تكوين الممالك الإسلامية المبعثرة في مساحة أرضية شاسعة وسيئة المواصلات، تتخللها قبائل بدوية وثنية ، وشعوب زراعية قلما تميل إلى الحروب كشعوب سيداما الزراعية ، فأدت هذه الظروف البشرية منها والطبيعية إلى أن أصبح أمر تنظيم الجيش وترحيله من منطقة إلى أخرى . حسب متطلبات الجهاد ، أمراً في غاية الصعوبة ، فحلت الهزائم على أوفات

وأخواتها على الرغم مما أبدوه من مقاومة باسلة وجهاد متصل [٤٧].

وهكذا تضافرت عدة عوامل لإضعاف مملكة أوفات الإسلامية وسقوطها في النهاية فكانت هناك عوامل داخلية خاصة بمملكة أوفات وظروفها الداخلية كالحروب الطويلة الأمد التي خاضتها ، والتنافس على السلطة بين أمرائها . أما العوامل الأخرى الخارجية فتتمثل في نجاح البرتغاليين في الدوران حول قارة أفريقيا ، وتحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومحاولة سيطرة البرتغاليين على منافذ البحر الأحمر ، والتحالف مع الحبشة ، مما أدى إلى صراع مملوكي برتغالي حول هذه التجارة ، وإنقاذ العالم الإسلامي من سيطرة صليبية ، فاشتدت ضراوة الحروب بين المسلمين والصليبيين في القرن الأفريقي ، مما أدى في النهاية إلى سقوط كل من اليمن ومصر على أيدي الأتراك العثمانيين الذين حملوا لواء الجهاد الإسلامي ضد البرتغاليين فامتدت سيطرتهم إلى شواطئ مملكة أوفات التي تأثرت بالكشوف البحرية . وكان الأحباش قد التفوا حول القوة البرتغالية التي أحرزت النصر على جيش المسلمين لوفرة الأسلحة النارية البرتغالية ، وكان الجيش الإسلامي يقوده المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم (الجران) [٤٨] الذي طلب مساعدة العثمانيين باعتبارهم أقوى قوة إسلامية في الشرق العربي آنذاك ، فأرسل إليه مصطفى باشا النشار أول ولاة العثمانيين في اليمن (١٥٤٠ - ١٥٤٥ م)

---

(٤٧) شهاب الدين عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ١٤٩-١٥٧ ، سعد بدير الحلواني . «الإتصالات الأوروبية الحبشية وأثرها على العالم العربي في أواخر العصور الوسطى وفجر الحديثة » . الصراع بين العرب والإستعمار في عصر التوسع الإوروبي الأول (ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ٢٥- ٢٦ جمادي الآخر (١٤١٥ هـ) ٢٨ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤م (القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م) ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٤٨) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (القاهرة ، ١٩٦٣م) جـ ٢ ، ص ١١٩٨، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب (القاهرة ، د.ت) ص ١٦٩ .

حملة مكونة من خمسمائة جندي ، وقيل تسعمائة ، مزودين بالبنادق ، ومنذ ذلك الزمن اتخذ الصراع في القرن الأفريقي صفة الصراع الدولي[49].

وكان انتصار البرتغاليين ومفاجأتهم للجيش الإسلامي عام ٩٤٩ هـ / ١٥٤٣ م واستشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم (الجران) ، ضربة قاصمة للقوى الإسلامية ، فمنذ ذلك الحين نجح البرتغاليون في تطويق العالم الإسلامي لسيطرتهم على مياه المحيط الهندي ، وتهديدهم المباشر لمنافذ الخليج العربي والبحر الأحمر وتحويل طريق التجارة العالمية والقضاء على القائد الإسلامي المشهور في قرن أفريقيا « أحمد بن إبراهيم» بتحالفهم مع مملكة القديس يوحنا ، ثم رجحت كفة الحروب بين المسلمين والمسيحيين بالتدخل الأوروبي[50].

على أن سقوط مملكة أوفات ، لم يكن يعني ضياع السلطة الإسلامية في المنطقة ، فقد تحولت السلطة السياسية إلى « سلطنة هرر » المستقلة، يحكمها أمراء مستقلون عن السلطة المسيحية التي نجحت في الإستيلاء على معظم مملكة أوفات الإسلامية بمساعدة أوروبية .

أما الأحوال العامة لمملكة أوفات الإسلامية ، فالثابت أنه دانت لها قبائل وممالك إسلامية بالطاعة والولاء ، فاستطاع آل ولشمع إدارة البلاد

---

(٤٩) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب ، انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ص ٤٠٩ ، شوقي الجمل . (تطور العلاقة بين الكنيستين المصرية والأثيوبية وانعكاساتها على العلاقة السياسية بين الدولتين) (الندوة الدولية للقرن الأفريقي ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٧م، جـ ٢ ، ص ٦٦٧-٦٦٩ .

(٥٠) انظر : العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ورقة ١٨٢ ، ١٨٨ ، المقريزي ، الإلمام ، ص ٥-١٢، أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٨م) جـ ٦ ، ص ٧٠٩ - ٧١٠ .

بمهارة فائقة ، وحكموا حكماً عادلاً ، وبسطوا الأمن والإستقرار ، وطبقوا الشرع الإسلامي ، وأسسوا نظاماً قضائياً مستمداً من الكتاب والسنة ، وأقاموا حضارة إسلامية شامخة ، وانتهج مؤسسو مملكة أوفات (الولشمعيون) منهجاً وراثياً في الحكم ، واتخذوا ألقاب سلاطين وملوك[٥١].

أما التنظيم الإداري ، فقد قسم السلاطين مملكتهم إلى عدة أقسام إدارية ، فقسموها إلى إمارات وأقاليم يحكمها امراء أمصار يعينهم السلطان أو الملك ، ويوصيهم بالخير والصلاح ، وأن يحفظوا البلاد ، وأن لا يأتي من قبلهم ما يؤذي المسلمين ، وأنهم ليسوا من الأسرة الحاكمة فقط، وإنما من مختلف الأمم والشعوب التي تخضع لحكمهم[٥٢].

أما لقب الوزير فقد ظهر في عهد السلطان « صبر الدين الثاني » ولم يوضح مخصصاته الإدارية والسياسية ، ولكن الظاهر أنهم استخدموا لقب الوزير كلقب الأمير ، سواء أمير الجيش أو الأمصار . وقد ذكر عرب فقيه أن أحمد بن إبراهيم قائد الجيش الإسلامي في أوفات عين عدداً من الوزراء يأتمرون بأمره كالوزير عدلي ، وعباس ، ومجاهد ، ونور بن إبراهيم، ومناصبهم الإدارية والقيادية كالأمراء[٥٣].

ولما كانت الشورى في الحكم الإسلامي ، تقوم مقام الرقابة الإدارية فإن مظاهرها تجلت في مجالس حكم السلاطين والأمراء في مملكة أوفات، وكان السلطان يعقد مجلسه تحت شعائر وترتيبات مرعية ،

---

(٥١) المقريزي ، الإلمام ، ص ١٠-١٦، عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ١٠٤ ، ٢٦٧ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(٥٣) المصدر نفسه ، وللمزيد من التفصيلات العمري : مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزي ، الإلمام ، ص ٧ ،القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٤-٣٣٥.

ويجلس الملك على كرسي مطعم بالذهب ، إرتفاعه أربعة أذرع ، وأكابر الأمراء حوله على كراسي أخفض من كرسيه ، وبقية الأمراء وقوف ، ويحمل رجلان على رأسه السلاح ، ثم ينظر في المظالم التي تعرض عليه (٥٤).

وكانت الشورى من أكبر العوامل التي ساعدت أحمد بن إبراهيم في انتصاراته العظيمة على الحبشة المسيحية ، وأعطى إهتماماً خاصاً لاستشارة أمرائه وقواته (٥٥) ، وكان التشاور يجرى دائماً عند اختيار كل سلطان جديد ، وكان يشترك في ذلك الأمراء والقضاة وأمراء الأمصار وقادة الجيش (٥٦).

وكان السلطان يقود الجيش بنفسه ، ويضرب عند خروجه للحرب بوق كبير مصنوع من خشب شجرة الحنبا ، وكانت الأبواق والطبول والطاسات والنقارات وسيلة إعلامية محلية ، استعملت لجمع أفراد الجيش وأمراء القبائل ، خصوصاً عندما تصل إلى العاصمة أو المعسكر أنباء إنتصارات أحرزها الجيش الإسلامي في جبهة من جبهات القتال ، أو لخبر أليم كنعي السلطان (٥٧).

وعلى الرغم من أن قيادة الجيش من وظائف السلطان ، فإنه لتعدد جبهات القتال كان لكل أمير ولاية سلطة قيادة جيشه ، وشن الغارات ،

---

(٥٤) انظر : تفصيلات أكثر . حسن جوهر . الصومال (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ١٤-١٦ .

(٥٥) عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٦٢-٧٣ ، ١٠٣ ، ١٧٥-١٧٦ .

(٥٦) للمزيد ، انظر : المقريزي ، الإلمام ، ص ٤-٧ ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٤ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٤ ، عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٢٩ ، ٢٩٧ ، ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٥٧) عرب فقيه ، فتوح ، ص ٢٧٣ ، ٢٩٨ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول ، ص ٣٦-٣٩ .

وإنفاذ الجيش إلى وجهته ، كما كان السلطان يعهد لبعض الأمراء بقيادة السرايا ، وجرت العادة أن يأمروا قوادهم أن لا يقاتلوا الناس حتى يعرضوا عليهم الإسلام ، فإن أبوا ، فالجزية ، وإلا فالحرب [٥٨].

وانقسم الجيش في المعارك الحربية إلى قلب وميمنة وميسرة ، كل منها مقسم ، إلى فرق لها أمراء وأعلام مختلفة الألوان والأشكال ، وتحكمها قيادة عليا في قلب الجيش ، وعندها علم المملكة ، حيث إن فيها السلطان أو القائد العام للجيش . وبما أن قبائل إسلامية دخلت الحروب مع الجيش النظامي ، فإن أمير الفرقة أو الميمنة أو الميسرة كلها ، قد يكون زعيم أقوى قبيلة في تشكيل الفرقة أو الميمنة ، وتوزع فرقة رماة السهام بين الفرق المختلفة ، وتنقسم الخيول إلى هجوم وإحتياطي يحمي وراء ظهورهم . وقد إستخدم المسلمون الدفاعات والتحصينات ، وعرفوا حروب القلاع ، والإستخبارات العسكرية ، والإستعانة بالأدلاء في المواقع المجهولة ، وإرسال قوات الإستطلاع إلى المواقع الأمامية ، وتنظيم حراسة معسكرات الجيش على شكل الدوريات والورديات [٥٩] ولمملكة أوفات راية خضراء مكتوب في وسطها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدلها الإمام أحمد بأخرى بيضاء وأطرافها حمراء مكتوب عليها آيات قرآنية ، وأبيات من الشعر منسوبة إلى علي بن أبي طالب ، وبعض الأوسمة [٦٠].

وكان القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة ، وبعض الإمارات الأخرى تقوم بالإفتاء على مذهب الإمام الشافعي ، ووجد منصب الحسبة وهو الأمر

---

(٥٨) عرب فقيه ، فتوح ، ص ٤٠-٤١ ، الشيخ زيراش، كشف السدول ، ص ٥٧-٥٩ .

(٥٩) عرب فقيه، فتوح الحبشة ، ص ٤٠-٤١ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول، ص ٥٧-٥٩

(٦٠) انظر : عرب فقيه ،فتوح الحبشة ، ص ٤١-٤٣ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية .. ص ٤٦١-٤٦٣ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول، ص ٥٠-٥٢ .

بالمعروف والنهي عن المنكر .

أما النظام المالي فمن الواضح أن موارد الدولة الإسلامية التي تمول بيت المال متعددة وأن مصدر وأسلوب تطبيقها من الكتاب والسنة ، فالزكاة والجزية والغنائم والفيء نزلت بشأنها آيات قرآنية ، والخراج قرره الخليفة عمر بن الخطاب ، إستنباطاً من القرآن ، كما قرر العشور بمبدأ المعاملة بالمثل بعد أن فرض على تجار المسلمين في أراض أجنبية واستلزم الإسلام الإجتهاد في تطبيقها بما لا يخالف الكتاب والسنة ، فجاء تطبيقها على إختلاف الظروف المكانية والزمانية على الوجه الأكمل[٦١].

وكانت الزكاة مورداً من موارد مالية مملكة أوفات ، ونظمت آدا ءها بموافقة الدولة ، وأرسلت العاملين لجمعها من المسلمين ، وتصريفها على مصارفها المحددة في قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ...)[٦٢] وتشددوا في طلبها لأن عند أهلها محافظة للدين[٦٣].

أما الجزية فكانت مقررة ، ويقال إن السلطان سعد الدين رفض جزية سنوية من ملك وثني يدعى إيلى بورى ، بإعتبار أن الجزية تؤخذ من أهل

---

(٦١) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤ عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٨٨-٨٩، المقريزي ، الإلمام ، ص ٦-٨ ، قطب إبراهيم محمد ، النظم المالية في الإسلام (القاهرة ، ١٩٨٢) ص ٢٦، ٢٨-٢٩ .

(٦٢) سورة التوبة : آية (٦٠) ، وللمزيد انظر : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم (بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م) جـ ٢ ، ص ٣٧٨-٣٨٠ .

(٦٣) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ،ورقة ١٨٣، عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٨٨-٨٩ .

الذمـة [٦٤] كما نتج عن حروب الجهاد التي خاضتها مملكة أوفات مغانم كثيرة من أموال وأسلحة وأسرى ، مما يشكل مورداً من موارد الدولة. وقسمة الغنائم - بعد إخراج الخمس منها - راجعه إلى تقدير السلطان وما يراه مناسباً للمحاربين في سبيل الله [٦٥].

أما العملة ، فلم يكن لمملكة أوفات دار سك النقود ، وكانوا يتعاملون بدنانير ودراهم مصر مما يدخل مع التجار إلى بلادهم ، كما تعاملت بالذهب الذي يجلب إليها من منطقتي دافوت وسخا في الحبشة ، وكانت الأوقية من الذهب تساوي حوالي ثمانين إلى مائة وعشرين درهماً على قدر جودة الذهب ونقائه ، وكانت المقايضة خير وسيلة للتبادل التجاري ، وكانت الموازين موجودة ، ثم ظهرت في القرن الخامس عشر عملة جديدة عرفت باسم ورقة أوفات ، ثم ظهرت في القرن السادس عشر دراهم في أوفات عرفت باسم الأشرفية والملحقية ، إلا أن تاريخ سكها لم يحدد . وكانت قيمة الصاع من الذرة - في أيام الرخاء - خمسة محلق - أما أيام الغلاء فهي إثنتا عشر أشرفية ، وصاع الملح خمس وعشرون أشرفية ، والبقرة حوالي ثلاثمائة أشرفية أو أكثر من ذلك [٦٦].

ونتج عن التركيبة الإجتماعية لمملكة أوفات ، أنه تعايشت فيها جماعات مختلفة الأعراف من عرب وهنود وفرس وأفارقة ، وذلك منذ بزوغ فجر الإسلام ، وحركة نشر العقيدة الإسلامية ، ويعيش هذا الخليط

(٦٤) قطب إبراهيم ، النظم المالية ، ص ٨٥-٨٧، عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ١٠٩، ١٤٢ ، ١٤٤-١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ، ٢٧٣، المقريزي ، الإلمام ، ص ١٢ وما بعدها .

(٦٥) عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٢٧ ، قطب ابراهيم ، النظم المالية ، ص ٨٥ .

(٦٦) للمزيد ، انظر : العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤، عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٢٦٣، محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ١٣٤٨هـ) ج ٢ ، ص ١٤٢-١٤٣، نعيم زكي فهيم طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص ٣٦٣- ٣٦٤ .

السكاني في المدن الساحلية في منطقة القرن الأفريقي ، حيث ظهرت في أوساطهم لهجة زيلعية من كلمات عربية وصومالية وعفرية وهندية ، وربما فارسية ، ومازالت الرقصات الشعبية ، والأغاني الزيلعية ذات الطابع الخاص ، إلى اليوم ، تشير إلى ذلك التمازج اللغوي والعرقي .

وكانت الأسرة الحاكمة عربية الأصل ، وبجانبها التجار والزراع والجنود من العرب المهاجرين ، والهنود من أكبر الطبقات التجارية ، ويشكل الأفارقة أغلبية مجتمع أوفات ، وحسب موقع المملكة فإنهم كانوا بصفة أساسية من الصوماليين والعفريين والجاليين (٦٧) ولم يكن للفوارق اللونية أي أثر في المجتمع ، فإمتزجت تلك العناصر إمتزاجاً يكاد يكون تاماً (٦٨).

وجملة القول ، أن مملكة أوفات عاشت في قرن أفريقيا ردحاً من الزمن، وساهمت إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى تلك المنطقة . كما ساعدت على نشر التراث الإسلامي ، فضلاً على الدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً ، فاستمر دفع الحضارة الإسلامية في قرن أفريقيا في الإزدهار والإنتشار حتى بلغ مداه في أيامها ، وشجعت أوفات التعليم الإسلامي الذي هو جزء لا يتجزأ من الدين كما أن أهلها كانوا يحافظون على دينهم ، وعندهم المساجد والجوامع التي تقام فيها الجمع والجماعات ، وظهرت المدارس القرآنية

---

(٦٧) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٣١-٣٣، ابراهيم طرخان ، الممالك الإسلامية في الحبشة ، ص ٤٤ .

M. Lewis . The Modern History of Somaliland from Nation to State (London , 1965) PP. 21 - 22 .

(٦٨) عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، ص ١٥٤، حسن جوهر ، الحبشة ، ص ١٤٠، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٤٨١ .

بظهور الإسلام ، فنظام التعليم عندهم يشبه ما عرف في العالم الإسلامي قبل ظهور المدارس النظامية ، إذ بدأ من مرحلة الكتاتيب ، ثم مرحلة العلوم العقلية والنقلية ، واهتم السلاطين والفقهاء والعلماء بأن يحل الدين الإسلامي وثقافته محل الوثنية والمسيحية ، ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً ، وواكبت اللغة العربية وثقافتها حركة المد الإسلامي وانتشاره في المنطقة وأصبحت لغة التسجيل في دواوين الحكومة والمكاتبات الرسمية وفي القضاء حتى تركت بصماتها القوية في اللغات المحلية ، كما كان السكان يجيدون اللغة العربية ، وهذا ما يقوله العمرى :

« وكلام أهلها (يقصد أوفات) باللغة الحبشية ، ويتكلمون أيضاً بالعربية (٦٩) ، وشيد أهل أوفات مدارس القرآن الكريم (الدوكسDugs) في كل مكان يوجد فيه مجتمع إسلامي ، وأهتم المجتمع بها ، وأرسلوا إليها أولادهم وكانت الأدوات المستخدمة في الدوكس : اللوح ، والقلم ، والدواة (٧٠) .

وازدهرت الحركة العلمية في مدن مملكة أوفات ، وأصبحت زيلع وهرر وأوفات وبربرة مدناً جامعية مشهورة في مملكة أوفات ، ودول الطراز الإسلامي ، وتنقل الطلاب بين هذ المدن التي اشتهرت بإتقان علمائها علوماً معينة ، حيث اشتهرت هرر بدراسة علوم اللغة العربية والتفسير

---

(٦٩) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٩٨٣-١٨٤ ، المقريزي ، الإلمام ، ص ٧ ، جامع عمر عيسى ، تاريخ الصومال في العصور الوسطى والحديثة (القاهرة ، ١٩٦٥م) ص ٣٥،١٦ .

(٧٠) كلمة دوكسي (Dugsi) الصومالية هي الخلاوي السودانية أو الكتاتيب العربية ، أما الكتاب (Kutaab) فهو مفرد وجمع وهو طالب المدرسة القرآنية ، وتطابق الكلمة العربية في المقصود والكتاب الصبيان . للمزيد انظر أحمد أمين ، ضحى الإسلام (القاهرة ، ١٩٧٩م) جـ ٢ ، ص ٥٠ ، عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم في الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص ١٣ ، جامع عمر عيسى ، تاريخ الصومال ، ص ٣٨ .

والحديث، واشتهرت زيلع بفقه الشافعية ، وأعطى المجتمع الإسلامي العلم والعلماء منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء ا لدين، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للنهل من مواردهم العلمية ، وبذل العلماء مجهودات هائلة لآداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية في مكة والمدينة والقاهرة ودمشق(٧١) ، ونزحت إليها جميع الفرق والمذاهب المعروفة - آنذاك - في العالم الإسلامي ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد ، فتنوعت الحياة الثقافية فيها ، وأصبح العلماء طبقة ذات وجود مؤثر في البلاد السلطاني وفي الحياة الثقافية والإجتماعية ، وقادوا حركات الجهاد كالشيخ محمد أبو عبد الله ، والشيخ حق الدين الثاني ، وأحمد بن إبراهيم، كما تولى بعضهم مهمة السفارات كالشيخ عبد الله الزيلعي (٧٢).

وأيا ما كان الأمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية ، وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التي تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية ، كما أن للمملكة قضاة ومحاكم شرعية ، وأئمة للمساجد ، وكتبة ، مما يستدعي وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية وساعد على ذلك استمرار هجرة علماء المسلمين إليها من الأقطار المجاورة ، وكانت أشهرها هجرة الأربعة والأربعين شيخاً حضرمياً في أيام السلطان جمال الدين الثاني ، الذين نزلوا في مدينة بربرة عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م (٧٣).

(٧١) للمزيد من التفصيلات انظر : عبد القادر شيخ عبد الله ، تاريخ التعليم في الصومال ، ص ٤٠ .

(٧٢) العمري ، مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤ ، والمقريزي ، الإلمام ،ص ٦-٧، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٤٨٤ - ٤٨٦ .

(٧٣) انظر ، عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ١٣-١٤، المقريزي ،الإلمام ، ص ٧ ، العمري، مسالك الأبصار ج٢، ورقة ١٨٥-١٨٦، أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨٧، حمدي السيد، الصومال قديماً وحديثاً (مقديشو ، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٣٥٢-٣٥٣ .

وقد ارتبطت مملكة أوفات الإسلامية بعلاقات واسعة مع عدد من الدول الإسلامية في المشرق العربي لنيل مساعداتهم المعنوية والمادية لمواصلة الجهاد ونشر العقيدة الإسلامية في المنطقة ، ومن أهم هذه الدول مصر واليمن ، وقد أضفى البحر الأحمر على مملكة أوفات أهمية كشريان تجاري بين الشرق والغرب ، واحتلت مدن زيلع وتاجورة وعيذاب وسواكن والسويس وغيرها مكانة مرموقة في عالم تجارة العصر الوسيط وبعض العصور الحديثة ، وكان أهل أوفات حملة التجارة الشرقية مع إخوانهم الأريتريين والسودانيين واليمنيين ، وكونوا خطاً تجارياً ضخماً ، ينقل المتاجر بين موانىء البحر الأحمر الجنوبية والمحيط الهندي ، وبين موانىء مصر الشمالية التي ينقل منها التجار الإيطاليون إلى أوروبا . أما المصريون فقد أعطوا إهتماماً كبيراً لتجارة البحر الأحمر وخطا بيبرس خطوات واسعة نحو تأمين دولته المترامية الأطراف ، والملاحة في البحر الأحمر . إذ استنكر تعرض صاحبي سواكن ودهلك للتجارة في عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤ م وبعد عامين من ذلك سير حملة استولت على سواكن ، وأقرت الأمور فيها ، مما أدى إلى تقرب حكام دهلك إلى المماليك (٧٤).

وكانت اليمن من أهم الدول الإسلامية في شرق البحر الأحمر التي ارتبطت بها مملكة أوفات بعلاقات سياسية إقتصادية وثقافية ، لأن معظم المستوطنين العرب فيها كانوا من أصل يمني وكانت مملكة أوفات ملجأ الهاربين من دوامة الصراع في اليمن .

وكان لأوفات - بجانب العلاقة السابقة . صلات ثقافية مع المشرق العربي ، وفي مراكزه الثقافية كالأزهر والجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين ، وتنقل العلماء والطلاب على طول الإمبراطورية الإسلامية

---

(٧٤) للمزيد انظر : محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدها ، (الاسكندرية ، ١٩٨٠م) ص ٣٧٧ .

وعرضها بحرية وأمان ، وظهر في هذا الجو العلمي الرائع علماء زيلعيون صاروا جهابذة العلم ، وحازوا على شهرة في محيط الدولة الإسلامية ، حيث استقروا بصفة مستديمة في مصر والشام واليمن والحجاز والعراق ، فاهتم بهم كتاب تراجم العلماء المسلمين والبارزين في مجال العلوم الإسلامية ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ فخر الدين الزيلعي، وجمال الدين أبو محمد الزيلعي ، وغيرهم كثير (٧٥) .

---

(٧٥) جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ، د.ت) جـ١ ، ص ١٥١-١٥٢ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، جـ ١ ، ص ٤٠٢-٤٠٣ ، عبد الرحمن زكي ، أفريقيا الإسلامية (القاهرة ، ١٩٨٥م) جـ ٢ ، ص ٣٦-٣٧ .

المبحث السادس

سلطنة أوفات الإسلامية
في منطقة القرن الأفريقي
وعلاقاتها مع العالم الإسلامي
خلال العصر الإسلامي الوسيط(*)

(*) بحث منشـــور في مجلة كليـــــة البنات بجامعـــــة عين شـــمس . عدد (١٩)
(عام ١٤١٧ هـ / ٩٦ - ١٩٩٧م) .

سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي
وعلاقاتها مع العالم الإسلامي
خلال العصر الإسلامي الوسيط

لقد غطى الإسلام منذ فجر ظهوره ، المنطقة الممتدة من ساحل البحر الأحمر الغربي شمالاً إلى منطقة سوفالا في أقصى الجنوب الأفريقي في المحيط الهندي جنوباً ، ثم غطى مناطق الداخل في الحبشة والصومال إلى أعالي النيل ومنطقة البحيرات ، ثم تخطى الداخل إلى مناطق الغابات والهضاب .

والإسلام حين دخل تلك البلاد منذ فجر ظهوره ، شكل عادات السكان وطور أحوالهم ، وقامت ممالك إسلامية في تلك المناطق ، سادت ردحاً من الزمن ، وقامت بدور عظيم وفعال في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين سكان تلك البلاد ، وظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير في بلاد شرق أفريقية عامة ، ومنطقة القرن الأفريقي على وجه الخصوص ، الأمر الذي يدعو إلى دراسة الدور الكبير الذي قام به الدين الإسلامي واللغة العربية في تقدم تلك البلاد وتطورها وإزدهارها . فأصبحت بلاد شرق أفريقية ومنطقة القرن الأفريقي - بالإسلام وثقافته - عظيمة الحضارة والتمدن والتطور [(١)] .

لقد تطلعت منطقة القرن الأفريقي ، منذ دخول الإسلام ، وقيام الممالك الإسلامية فيها ، خاصة مملكة أوفات الإسلامية ، التي إزدهرت في تلك

---

(١) للمزيد من التفصيلات ، انظر : محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ،(القاهرة ، ١٩٧٧م) ، ص ٣٣ ، غيشان بن علي بن جريس «الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى ، مجلة المؤرخ العربي . مج (١) عدد (٣) (١٩٩٥م) ص ٦٧ وما بعدها .

المنطقة في فترة العصور الوسطى [٢] ، إلى البلاد الإسلامية في الشمال والشمال الشرقي ، من أجل العقيدة والمدنية ، وكان عامل القرب الجغرافي من أهم العوامل التي ساعدت على ذلك الإتصال والإلتقاء . لذلك فإن موضوع هذا البحث هو علاج تاريخي لعلاقات تلك البلاد في زمن مملكة أوفات الإسلامية التي إزدهرت في منطقة القرن الأفريقي داخل بلاد الحبشة مع البلاد العربية الإسلامية وخاصة اليمن ومصر ، وذلك خلال العصور الإسلامية الوسيطة .

كانت منطقة القرن الأفريقي ، تسيطر عليها مملكة أكسوم الحبشية قبل الإسلام ، وكما سبق القول ، فإن الدعوة للدين الإسلامي في تلك المنطقة قد قامت منذ ظهور الإسلام ، ويمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام في أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى وإظهار النجاشي ارماح (اصحمه) للإسلام ، ثم كثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب. وفي ظل ظروف متعددة أخذت مملكة أكسوم طريقها للإنحطاط ، وفي الوقت نفسه كان الإسلام يسير بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل ، فإعتنقته القبائل التي تسكن شواطئ أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجري وقبائل البلين والبجة والجبرتة والدناقل ، وتكونت

---

(٢) انظر تفصيلات أكثر في بحثنا الذي نشرناه في مجلة المؤرخ المصري (قسم التاريخ - جامعة القاهرة - المجلد السادس عشر ، ١٩٩٦م) والموسوم بـ « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠ هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م) ص ١٥٣ - ١٨٩, وقد ناقشنا في هذا البحث بعض الجوانب التاريخية والحضارية لظهور ثم توسع مملكة أوفات التي عاشت في القرن الأفريقي أكثر من ثلاثة قرون ، وقد بينا إسهاماتها في نشر الدين الإسلامي في تلك البقاع ، وتصدي حكامها للنصرانية المتشددة في محاربة الإسلام هناك . كما ناقشنا بعض الأحوال العامة لدولة أوفات ، وخاصة النظم الإدارية والمالية ، وأشرنا أيضا إلى أوضاع التركيبة الإجتماعية لسكان وطبقات مملكة أوفات ، ولم نغفل الإشارة إلى بعض النواحي الإجتماعة والدينية والتعليمية في تلك البلاد .

على أثر ذلك مراكز استقرار في الساحل وفي الداخل الذي امتزج فيه المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، وقامت على أثر ذلك مشيخات إسلامية، تطورت هي بدورها إلى ممالك كان من أشهرها مملكة أوفات الإسلامية. كانت تلك الممالك الإسلامية تعرف أيضاً « بدول الطراز الإسلامي » ، وهي سبع ممالك : أوفات ، دوارو ، أرابيني ، هدية ، شرخا ، بالي وداره. وتعرف أيضاً بممالك القرن الأفريقي [٣].

وقد أدت هذه الممالك الإسلامية دوراً كبيراً في نشر الإسلام بين الأريتريين والأحباش والدناقل . وارتبطت هذه الممالك إرتباطاً قوياً بالعالم الإسلامي الخارجي ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة المنورة وبغداد ودمشق والقاهرة ، وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز . وأقوى هذه الممالك مملكة أوفات الإسلامية التي قامت بدور عظيم في نشر الإسلام ، كما تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة المسيحية حتى ظهور البرتغاليين والعثمانيين في البحار العربية ، حيث انتقل مسرح الحروب الصليبية إلى شرقي أفريقية [٤].

(٣) للإطلاع على تفصيلات أكثر ، انظر : عبد المجيد عابدين بين الحبشة والعرب ، (القاهرة ، د.ت) ص ٢١٧ وما بعدها : الشيخ أحمد عبد الله زيراش . كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبعة (مقديشو ، ١٩٧١م) ص ٦٩ وما بعدها ، زاهر رياض . الإسلام في أثيوبيا في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٦١ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عدد (٨) رجب (١٤١٣هـ).

(٤) للمزيد انظر : سعد بدير الحلواني « الإتصالات الأوروبية الحبشية واثرها على العالم العربي في اواخر العصور الوسطى وفجر الحديثة » الصراع بين العرب والإستعمار في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ٢٥ – ٢٦ جمادي الآخرة (١٤١٥ هـ) ٢٨ – ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤م) (القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م) ص ٢٠٣ وما بعدها .

واتبعت مملكة أوفات وسائل متعددة لنشر الإسلام ، ودعم النفوذ والسيادة الإسلامية في تلك الأرجاء . وكان الطابع الأساسي لنشر الدعوة الإسلامية هو السلم والإقناع ، مما جعل سكان تلك البلاد يقبلون على اعتناق الإسلام إقبالاً شديداً ، فلم يشهر حملة لواء الدعوة الإسلامية في أوفات السيف إلا في الحالات الدفاعية ، ونشط الدعاة المسلمون كما نشط التجار في نشر الإسلام ، والتفوا حول ملوك أوفات وحببوا الدين الإسلامي إليهم . ومما ساعد على قبول الإسلام ذلك الإندماج والمصاهرة التي تمت بين التجار العرب الوافدين من اليمن وعمان وحضرموت والبحرين والحجاز ، وبين الأحباش والجبرتة والدناقل والبجة والأريتريين . وبهذه الطريقة الهادئة دخل زعماء هذه القبائل وروساؤها والعشائر في الإسلام ، وتحمسوا له بدورهم لنشر الدعوة بين الجيران الوثنيين .

وكان للعلاقات الوطيدة التي أقامتها مملكة أوفات الإسلامية بالعالم الإسلامي ، الأثر الكبير في دعم الحضارة الإسلامية في هذه البلاد ، لقد ساعد هذا الإتصال على مد أبناء هذه البلاد بجميع مقومات الدول وأساليب الحياة والتشريع والحضارة . وأثر هذا الإتصال في الحياة العقلية للمسلمين تأثيراً عميقاً ، وبفضله نشأت بين المسلمين في هذه البلاد وبلاد العالم الإسلامي الأخرى وحدة فكرية رائعة .

لقد كان لمملكة أوفات الإسلامية علاقات خارجية ممتازة خاصة البلاد الإسلامية التي نخص منها مصر واليمن . وكان للموقع الجغرافي الأثر الكبير في جعل منطقة القرن الأفريقي ، الذي يمثل جزءاً كبيراً من ساحل شرقي أفريقية أحد الأبواب الرئيسية التي وصلت القارة الأفريقية بالمنبع الأول للعروبة ومهد الحضارة الإسلامية وأهلها ؛ إذ تقرب هذه المنطقة من بلاد اليمن مهد الحضارات العريقة التي عرفها العرب قبل الإسلام ، وقامت بها علائق وثيقة كان لها أثرها في المنفعة المتبادلة وخدمة

الحضارة . فاشتهرت بلاد اليمن في العصر الجاهلي برواج متاجرها ونشاط أهلها في نقل متاجر البلاد العربية القريبة منها والبعيدة كذلك . وبعد ظهور الإسلام وانتشاره ، ثم انشاء المدن العربية في منطقة القرن الأفريقي، وعلى طول الساحل ، ازداد نمو العلاقات في المجالات المختلفة . غير أن عرب جنوب الجزيرة العربية لم يقتصروا على القيام بالوساطة في نقل المتاجر فحسب . وإنما دأبوا بفطرتهم السليمة على إختيار قواعد على الساحل الشرقي المقابل لهم تصلح لنقل السلع ، وتساعد على خلق مراكز للعمران يجتمع حولها السكان المحليون (٥).

وقد ذكر المسعودي وجود علاقات تجارية تربط بين ساحل أفريقية الشرقي ، وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية (٦) . ومن أوفات سافر طلاب العلم إلى الجزيرة العربية لنهل العلوم والمعارف ، خاصة علوم الدين والفقه . وكان أبناء القرن الأفريقي في أوفات ينتقلون بين عدن ومكة لطلب العلم ، وقد نهل هؤلاء من علوم الدين المختلفة ، ونبغوا فيها وتضلعوا في الفقه الإسلامي .

أما علاقات مملكة أوفات الإسلامية بمصر ، فقد كانت الأخيرة تربطها

---

(٥) لمزيد من الإطلاع انظر : حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٢ وما بعدها ، غبشان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو واثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » مجلة المؤرخ العربي . العدد (١) مج (١) (القاهرة ، ١٩٩٣م) ص ١٢٩ وما وبعدها .

R.Reusch , History of East Africa (New York , 1961) PP. 17 - 18 .

(٦) للإطلاع على تفصيلات أكثر ، انظر : أبو الحسن علي المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ، ١٩٥٨م) جـ ١ ، ص ١٤٨، وللمزيد أيضا :

Abdullah Alwi Haji Hassan . " The Arabian Commercial Background in Pre- Islamic time " Islamic Culture . Vol. LXI. No. 2 (1987) PP. 78 - 9 .

علاقات منذ القدم مع هذه البلاد ؛ إذ كانت مصر تحتاج إلى البخور والعطور التي تستعمل في الطقوس الدينية في زمن الفراعنة وغيرهم ، وعرفت منطقة القرن الأفريقي وبلاد الصومال لديهم منذ وقت بعيد بأنها بلاد البخور والأحجار الثمينة وغيرها من النفائس الثمينة التي يحتاجون إليها في بناء معابدهم . وتوطدت علاقات أوفات بمصر في زمن عصر الولاة والدولة الأيوبية . ومن بعدها دولة المماليك التي في زمنها أصبحت مصر مركز للخلافة الإسلامية ، فكان معظم ملوك العالم الإسلامي ، ومنها أوفات ، يرسلون البعوث إلى مصر لأخذ التفاويض من الخليفة العباسي الموجود في مصر ، وكانت دولة المماليك أيضاً تساعد أوفات الإسلامية في حروبها المقدسة ضد ملوك الحبشة المسيحيين ، خاصة في زمن السلاطين بيبرس وقلاوون والناصر محمد .

لذلك فإن موضوع هذا البحث علاج تاريخي للعلاقات السياسية والتجارية والثقافية التي أقامتها مملكة أوفات الإسلامية مع مصر واليمن، فأفادت أوفات من هذه العلاقات الطيبة واستطاع حكامها بهذا الدعم المادي والمعنوي أن ينشروا الأمن والإستقرار ، ويقضوا على الفتن والإضطرابات التي كانت تأتيهم بين الحين والأخر من ملوك الحبشة المسيحيين . وعم الرخاء في ربوع البلاد ، وأدار ملوك هذه البلاد دفة البلاد في مقدرة ومهارة ، ونشروا لواء العدل ، واستطاعوا أن يحكموا البلاد حكماً صالحاً ونشروا الإسلام ، ودانت لهم معظم بلاد الحبشة المسيحية لما يربو على القرنين ، وأزدهرت الحركة العلمية والثقافية ، بعد أن استقدم ملوك أوفات العلماء والفقهاء من الحجاز واليمن ومصر والعراق والشام ، وأرسلوهم بين القبائل الأفريقية لبث العقيدة الصحيحة . وكان ازدهار حركة التبادل التجاري مع الجزيرة العربية ومصر والشام وغيرها من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية . واشتهرت

مدن مملكة أوفات مثل زيلع وهرر وغيرها بكثرة علمائها ومازالت هذه المدن محتفظة بمكانتها العلمية كمراكز كبرى للثقافة الإسلامية في تلك البقعة من القارة . وقد عنى ملوك أوفات بجانب الإهتمام الكبير بالحركة الفكرية والثقافية ، عنوا عناية تامة بشتى نواحي الحياة الأخرى الإقتصادية والإجتماعية والدينية (٧) ، وأصبحت بلاد القرن الأفريقي إسلامية خالصة ، بسبب الجهود الكبيرة التي قام بها ملوك أوفات في دعم العلاقات في مختلف نواحيها مع بلاد العالم الإسلامي ، بحكم الجوار والعقيدة ومقومات الثقافة ، وتشابك المصالح المشتركة وروابط الدين واللغة ومحاربة أعداء الدين الذين استهدفوا التوجه الإسلامي والحركة الإسلامية التي استهدفها الصليبيون من البرتغاليين وحلفائهم من ملوك الحبشة المسيحية . لذلك قصدت في البحث الإشارة إلى دور أوفات الإسلامية التاريخي والحضاري المتمثل في التوجه بإخلاص إلى جيرانها المسلمين ، وتوضيح ما استطعت الإشارة إليه من الحيوية والنشاط الذي تمتعت به أوفات الإسلامية في علاقاتها المتميزة مع بلاد المسلمين في مصر واليمن وغيرهما . وكان للدعم المعنوي والمالي والسياسي الذي وجدته مملكة أوفات الإسلامية من جيرانها المسلمين . وبحكم الصلات القوية التي ربطت بينهم ، أن عرفت أوفات عبر تاريخها ، الإنتصارات المتواصلة على أعداء الإسلام ، ونضج وعيها ، وصلب عودها ، وأصبحت قادرة على تحمل مسئولياتها ، وأصبحت قادرة على مواجهة الصعاب ، واستطاعت أن ترسم الطريق بوضوح ، وتحدد الأهداف دون لبس ، واثقة

---

(٧) لقد أشرنا لكثير من هذه الجوانب في بحثنا ، الآنف الذكر ، والمنشور في مجل المؤرخ المصري ، العدد (١٦) (١٩٩٦م) ، « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى ... » ص ١٥٣ وما بعدها . ويتضح لنا أن مملكة أوفات من أقوى وأعظم الممالك الإسلامية السبع التي قامت في القرن الأفريقي والمعروفة باسم « دول الطراز الإسلامي ».

في قدراتها ودعم اشقائها ورحابة إمكاناتها ، فهيأ لها مناخ التضامن الذي وفره لها أشقاؤها المسلمون في البلاد الإسلامية أن تتصدى للخطر الصليبي الذي هدد البلاد والعباد ، وهدد السواحل والمقدسات الإسلامية.

وفي الواقع إن منطقة القرن الأفريقي تعتبر أحد الأبواب الرئيسية الذي وصل القارة الأفريقية بالينبوع الأول للعروبة ومهد الحضارة الإسلامية وأهلها ، منذ فجر الإسلام (٨) ، ونظراً لأن حكام مملكة أوفات من أصل عربي ، فقد ارتبطوا بعلاقات واسعة مع عدد من الدول الإسلامية في المشرق العربي ، وكذلك المغرب العربي وذلك لنيل مساعداتهم المعنوية والمادية لمواصلة الجهاد ونشر العقيدة الإسلامية في المنطقة (٩). ومن أهم هذه الدول مصر واليمن .

---

(٨) وللمزيد من التفصيلات عن الصلات بين القرن الأفريقي والبلاد العربية ، منذ الفترات السابقة للإسلام ، انظر : محمد بن حبيب . كتاب المنمق في أخبار قريش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٥م) ص ٣٣ ، ٤٠٠ وما بدها ، حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً (مقديشو ، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٢٧-٢٨ ، راشد البراوي . الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ١٠-١١، حسن ابراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٦-٢٧ ، غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » ، ص ١٣١ وما بعدها .

R. Coupland East Africa and its Invaders (Oxford, 1938) PP. 15-16; R. Reusch . History of East Africa . PP. 18 ff .

(٩) للمزيد انظر : أبو العباس أحمد القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ، ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ٣٢٤ ، حسن احمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٤٣٢ - ٤٣٣ انظر أيضا مقالنا : - « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى » ص ١٧٨ وما بعدها

J.S. Trimingham Islam in Ethiopia (London . 1962) PP. 62-3 .

قام ولاة مصر لا سيما الأيوبيون بشراء المماليك ، حتى بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ثكنات في القلعة التي أنشأها في جزيرة الروضة في القاهرة سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م) وفيها الأسلحة والمعدات الحربية، والمسجد ، وأقام فيها مماليكه البحرية وبأيديهم انتهت دولة الأيوبيين ، في مصر سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) [١٠] ، كما أستولى المماليك الجراكسة (الشراكسة) الأتراك على الحكم في عام (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م)[١١] و اصبحت مصر المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /

---

(١٠) ولمزيد من التفصيلات عن الدولة الأيوبية وخاصة في عهد السلطان الصالح نجم الدين ، وكذلك عن نفوذ المماليك البحرية في اواخر عصر بني أيوب وأوائل دولة المماليك ، انظر : علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير . الكامل في التاريخ (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) الجزءان التاسع والعاشر . بيبرس المنصوري . كتاب التحفة المملوكية في الدولة التركية (تاريخ ، دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨- ٧١١هـ) تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (القاهرة ، ١٤٠٧ هـ) ص ٢٥ ومابعدها ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٩٤م) جـ ٢ ، ص ٧٦٦ وما بعدها ، للمؤلف نفسه . مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (بيروت ، ١٩٧٢م) ص ٢٦ وما بعدها ، وفاء محمد علي . قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام (القاهرة ، ١٤٠٧هـ) ، ص ٤٠ وما بعدها .

(١١) وللإطلاع على تفصيلات أوسع عن وصول ثم نفوذ المماليك الجراكسة إلى الحكم في مصر ، انظر : أحمد بن علي المقريزي . الخطط المقريزية ، المسماة بالمواعظ والإعتبار (بيروت ، ١٩٥٩م) مج ١ ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، بيبرس المنصوري . التحفة المملوكية في الدولة التركية ، ص ٤٣ وما بعدها ، سعيد عاشور . مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٦٤ وما بعدها ، أحمد مختار العبادي . قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ، ص ١١٧ .

١٢٥٠-١٥١٧م) أكبر قوة إسلامية على مسرح الأحداث في العالم الإسلامي [١٢] . وترجع علاقة أوفات بمصر المملوكية إلى فترة مبكرة من قيام الدولتين ، على الرغم من أن أول إتصال رسمي بينهما كان في سنة (٧٣٣ هـ / ١٣٣٢م) [١٣] ، إلا أن الإتصالات كانت تتم عن طريق الحجاج والتجار ، وطلاب أوفات في مصر [١٤] ، واهتم سلاطين المماليك إهتماماً شديداً بأحوال مملكة أوفات ، وساعدوها عن طريق مطران الأقباط الذي يعين لرئاسة كنيسة الحبشة [١٥] ، كما كان سلاطين مصر يكتبون رسائلهم إلى أباطرة الحبشة ويطلبون فيها الكف عن محاربة مملكة أوفات [١٦] ، ومما يدل على باكورة العلائق بينهما ، رفض

---

(١٢) للمزيد من التوضيحات ، انظر : أحمد مختار العبادي . قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٧٨ وما بعدها ، سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٢٣ وما بعدها .

(١٣) للمزيد انظر : القلقشندي . صبح الأعشى . جـ ٥ ص ٣٣٣ وما بعدها ، عبد الرحمن زكي . أفريقيا الإسلامية (القاهرة ، ١٩٨٥م) جـ ٢ ، ص ٤٥ ومابعدها .

(١٤) لمزيد من التفصيلات عن تلك العلاقات ، انظر : جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ، د.ت) جـ ١ ، ص ١٥١-١٥٢ ، السر سيد أحمد العراقي ، « الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية - الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو (١٩٨٣م) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ١٦٣ وما بعدها ، عبد الرحمن زكي . أفريقيا الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٦ - ٣٧ (١٥) الأنبا الإسكندرس اسكندر . تاريخ الكنيسة القبطية ، مطران الأقباط الكاثوليكية في أسيوط (القاهرة ، ١٩٦٢م) جـ ٢ ، ص ٣٨ وما بعدها .

(١٦) كان نصاري الحبشة ينظرون إلى سلطنة أوفات نظرة عدائية ، فلا يدخرون جهداً في محاربتهم والتحالف ضد حكام وسكان هذه السلطنة . للمزيد انظر : شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الجيزاني (عرب فقيه) . تحفة الزمان أو فتوح أو فتوح الحبشة . حققه فهيم شلتوت (القاهرة ، ١٩٧٤م) ، ص ٦ وما بعدها ، محمد المعتصم سيد .. دول إسلامية في شرق أفريقيا (هرر والصومال) (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٣٣ وما بعدها ، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٦١ - ٤٦٣ .

السلطان بيبرس أن يعين المطران (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م) .نتيجة لقيام «يكونو أملاك » بحملة عسكرية ضد أوفات كإجراءات وقائية نحو توسعاتها في المنطقة [١٧] . وكذلك لم يوافق السلطان قلاوون على تعيينه إلا بعد أن عقدت هدنة بين مملكة أوفات ومملكة الحبشة [١٨].

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ ١٢٩٣/ - ١٣٤٠ م) قامت حوادث شغب وإضطرابات بين المسلمين والمسيحيين ، فإنعكست آثارها على منطقة القرن الأفريقي التي هاجرت إليها أعداد غفيرة من الأقباط . حتى بعث عمداصيون الحبشي رسالة تهديد إلى سلطان مصر ، بأنه سيقوم بحرب ضد مملكة أوفات إذا لم يضع حداً لمحاربة الأقباط . وطرد سفارته من بلاطه ، وذكر أن الحبشة كانت ملجأ للأقباط منذ الحروب الصليبيبة في الشرق الأوسط ، حيث وافق النجاشي (لاليلا) (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) بدخول عشرة آلاف قبطي في بلاده فراراً من حروب الشرق الأوسط [١٩].

وفي عام (٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) بعث السلطان « صبر الدين » الأول وفداً إلى السلطان الناصر محمد برئاسة الشيخ عبد الله الزيلعي ويقول العمري: « وقد كان الفقيه عبد الله الزيلعي قد سعى إلى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسل أمحرة (أمهرا) إليها » وأمر السلطان «الناصر » بطريق الإسكندرية بكتابة رسالة إلى ملك الحبشة يطلب منه أن

---

(١٧) للمزيد انظر : المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ وما بعدها ، محي الدين بن عبد الظاهر . تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون . تحقيق مراد كامل (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٣٨-٤٠ .

(١٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ١٢٠-١٢١ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون ، ص ٢٦٧-٢٦٨

Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. 69-70 .

(١٩) للمزيد من المعلومات انظر : الأنبا الاسكندرس . تاريخ الكنيسة القبطية . جـ ٢ ، ص ٤٢ وما بعدها .

يكف عن أذيته للمسلمين في مملكة أوفات ، وكتب البطريق كتاباً بليغاً شافياً فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال [٢٠] . وقد اتصل السلطان سعد الدين بالسلطان برقوق الذي بعث سفيره ، برهان الدين الدمياطي إلى الحبشة ومعه رسالة واضحة يطلب من ملك الحبشة الكف عن الإعتداء على مملكة أوفات وكان ذلك في سنة (٧٨٨ هـ / ١٣٨٦م) [٢١].

كانت علاقة أوفات بمصر ، تعكس أثرها دوما على حروب قرن أفريقية. وبما أن علاقة أوفات بمصر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وصلت أوج عظمتها وقوتها ، فإن حاكم الحبشة، رزء يعقوب ، قام بسجن مبعوث السلطان جقمق في عام (٨٤٧ هـ / ١٤٤٣م) واقسم أن ينتقم من حاكم مملكة أوفات السلطان « شهاب الدين» الذي كان على صلة وطيدة بسلطان مصر المملوكي . وتشير بعض الدراسات إلى أن حاكم الحبشة تمكن من قتل شهاب الدين ، في ٢٦ رمضان (٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م) ثم بعث المبعوث المصري إلى مكان الحادث ليرى شهاب الدين مقتولاً ، ليكون ذلك أنكى للمسلمين عامة ولسلطان مصر خاصة ، كما أنه لم يطلق سراح السفير المصري إلا بعد

---

(٢٠) شهاب الدين بن فضل الله العمري . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، (القاهرة ، ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م) جـ ٢ ، ص . ١٨٢ وهذه النسخة نفسها توجد مخطوطة في جامعة الأزهر تحت رقم (٤٤١ على ٦٧٣٥) ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ . ويذكر أن الشيخ عبد الله الزيلعي رجع إلى مصر ثانية عام (٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) موفداً من حاكم أوفات إلى سلطان مصر بشأن الصدامات بين المسلمين والنصارى في القرن الأفريقي . انظر ، عبد الرحمن زكي ، أفريقيا الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٤٥ .

(٢١) للمزيد انظر ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٣٤ وما بعدها ، محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٦٦ ، ١٥٩ .

مـضى أربع سنوات [٢٢] . أما السلطان جقمق فقد استدعى بطريق الإسكندرية وضم له مجلس القضاة الأربعة في شهر شعبان سنة (٨٥٢ هـ / أكتوبر ١٤٤٨ م) وأمره أن لا يكتب إلى ملك الحبشة ، إلا بإذن السلطان [٢٣] ، كما قام بإجراء إتصال مع مملكة أوفات وأرسل مبعوثه «مثقال الحبشي » إلى سلطان مملكة أوفات ، محمد شهاب الدين ، ناصحاً إياه أن يقوم بقدر المستطاع بتطبيع العلاقات مع رزء يعقوب حتى لا تتعرض مملكته إلى خطر ، وأجاب بأنها لا تنفع المهادنة مع الحبشة ، وإنما يجب أن تتخذ سياسة قوية ومتشددة ضد يعقوب وأثبتت الأيام صدق قوله حيث إنه في العام التالي لهذه الأحداث ، (٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م) ، وفد على مصر قاضي مدينة سواكن السودانية ، ولديه أخبار مفادها أن يعقوب الحبشي يعد أسطولاً حربياً مكوناً من مائتي سفينة للإغارة على

---

(٢٢) ابراهيم علي طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى . (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٦٤-٦٥ ، ابراهيم طرخان . مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢-١٥١٧م) . (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ١٥٨ - ١٥٩ ، أحمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٥٣-٥٤، ٢١٧. وللمزيد من التفصيلات عن الصدامات بين المسلمين والنصارى في القرن الأفريقي أو مصر نتيجة للخلاف العقائدي ، انظر : شرقي الجمل . « تطور العلاقة بين الكنيستين المصرية والأثيوبية وانعكاساتها على العلاقة السياسية بين الدولتين » (الندوة الدولية للقرن الأفريقي(معهد البحوث والدراسات الأفريقية (١٩٨٧م) جـ ٢ ، ص ٦٦٨ وما بعدها .

(٢٣) للمزيد ، انظر : أحمد دراج . المماليك والفرنج ، ص ٦٤- ٦٥ إبراهيم طرخان . مصر في عصر دولة المماليك ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

سواحل بلاد الحجاز [٢٤] ، وتكرر هذا الخبر ثانية خلال ذلك العام ، فحينئذ أرسل السلطان جقمق مبعوثة الأمير جانبك الظاهري (شاد بندر جدة) إلى السلطان « محمد بن شهاب الدين » للتباحث معه حول هذا الغزو الحبشي المرتقب ، وهذا الأمير قد رجع إلى القاهرة في شهر جمادي الأولى سنة (٨٥٦ هـ / يوليو ١٤٥٢ م) ومعه رسول السلطان « محمد » [٢٥] .

---

(٢٤) ولم تكن هذه أول محاولة للأحباش في الإغارة على بلاد الحجاز ، وإنما يعود تاريخ إرسال بعض الحملات البحرية إلى ميناء جدة ، خلال العصر الإسلامي ، إلى عهد الرسول (ﷺ) في السنة التاسعة للهجرة . حيث تم ارسال قوة حبشية إلي ميناء جدة . وعند سماع الرسول ﷺ بها أرسل سرية يقودها علقمة بن محرز المدلجي للتصدي لتلك القوة النصرانية . ومن يتتبع العلاقات بين الحبشة والحجاز ، يجد أن الغارات من قبل الأحباش تكررت خلال العصور الإسلامية الوسيطة ، ولكن خلفاء الإسلام في تلك العصور كانوا دائماً على أهبة الاستعداد لرد ومحاربة تلك الغارات . للمزيد من التفصيلات ، انظر : محمد بن عمر الواقدي . كتاب المغازي . تحقيق مارسدن جونس (بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) ص ٩٨٣ - ٩٨٤ ، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب (مكان النشر والتاريخ : بدون) جـ ٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ ، محمد بن ظهيرة القرشي . الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الرشيف . (القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م) ص ٨١ وما بعدها ، عبد القدوس الأنصاري . موسوعة تاريخ مدينة جدة (القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) ص ٥٧ ، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور (الإسكندرية ، ١٩٩٤م) جـ ١ ، ص ١٨ - ١٩ ، وللمؤلف نفسه « تطور العلاقات السياسية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » ، ص ٤١٧ وما بعدها .
Trimingham , Islam in Ethiopia , PP. 46 - 8 .

(٢٥) إبراهيم طرخان . مصر في عصر المماليك ، ص ١٥٩ - ١٦١ .
أحمد دراج . المماليك والفرنج ، ص ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

من حيث العلاقات الإقتصادية بينهما فقد أضفى البحر الأحمر إليها أهميته كشريان تجاري بين الشرق والغرب ، واحتلت مدن زيلع[(٢٦)] وتاجورة[(٢٧)] ، وعيذاب[(٢٨)] ، وسواكن[(٢٩)] ، والسويس وغيرها ، مكانة مرموقة في عالم تجارة العصر الوسيط وبعض العصور الحديثة . وكان الأوفاتيون حملة التجارة الشرقية مع إخوانهم الأرتريين والسودانيين واليمنيين ، وكونوا خطاً تجارياً ضخماً ، ينقل المتاجر بين موانيء البحر الأحمر الجنوبية والمحيط الهندي ، وبين موانيء مصر الشمالية التي ينقل

---

(٢٦) زيلع :- ميناء يقع على الشاطئ الأفريقي لخليج عدن ، ويعد من أهم الثغور التجارية . وخاصة في العهود الماضية ، حيث كان يجلب منه العديد من السلع الشرقية ، وكذلك الأفريقية . للمزيد من التفصيلات عن هذا الميناء ، انظر : عماد الدين إسماعيل أبو الفداء . تقويم البلدان (بيروت ، مصور من طبعة باريس) عام (١٨٤٠م) ص ١٦٠ ، شهاب الدين ياقوت الحموي . معجم البلدان (بيروت ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤/م) جـ ٣ ، ص ١٦٤-١٦٥ ، أيضاً انظر : دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ، مج ١١ ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢٧) ميناء تاجورة يقع على خليج تاجورة في جمهورية جيبوتي وينسب تأسيس هذا الميناء إلى السلطان سعد الدين أبي البركات . أحمد عبد الله زيراش . كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكها السبع ، ص ٥١-٥٢ .

(٢٨) ميناء عيذاب يقع على البحر الأحمر ، ويعد من أشهر موانيه ، تأتي إليه السفن من اليمن وزيلع والهند ، كما كانت طريق الحج المصري تمر عليه ، حيث يأتي إليه الحجاج المصريون عن طريق قوص . ومن هناك يتجهون إلي جدة . وقد استخدم حجاج مصر والمغرب هذا الميناء السوداني أكثر من مائتي سنة ، حتى عام (٧٦٦هـ / ١٣٦٤م) . للمزيد انظر : ابن عبد الظاهر . تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ١٧٢-١٧٤ .

(٢٩) سواكن : ميناء يقع علي الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وتعد مدينة سواكن بلدة قديمة حيث كانت من أملاك أهل البجة الذين تنتمي إليهم قبائل الهدندوة والعبابدة . وكان من أثر الصلات القديمة التي قامت بين أهل مكة وسكان ساحل البحر الأحمر في أفريقية الغربية أن استقر التجار العرب في سواكن وتصاهروا مع البجة . وقد وجد ابن بطوطة في سواكن عام (٧٣١هـ / ١٣٣٠م) ابن امير مكة المكرمة على رأس أهل البجة . للمزيد من التفصيلات ، انظر : محمد بن عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) . رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) جـ ١ ، ص ٢٦٩-٢٧٠ ، انظر أيضاً : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٧٦ .

منها التجار الإيطاليون تجارتهم إلى أوروبا [٣٠] . أما المصريون فقد أعطوا إهتماماً كبيراً لتجارة البحر الأحمر ، وخطا السلطان بيبرس خطوات واسعة نحو تأمين دولته المترامية الأطراف ، والملاحة في البحر الأحمر : إذ استنكر تعرض صاحبي سواكن ودهلك [٣١] في عـــام (٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤م) للتجارة المصرية ، وبعد عامين من ذلك سير حملة استولت علي سواكن وأقرت الأمور فيها ، مما أدى إلى تقرب حكام « دهلك » إلى المماليك [٣٢].

كانت اليمن هي الأخرى ، من أهم الدول الإسلامية في شرق البحر الأحمر ، التي إرتبطت بها مملكة أوفات بعلاقات سياسية وإقتصادية

(٣٠) للمزيد من التفصيلات عن النشاط التجاري بين الشرق والغرب عبر البحر الأحمر والبلدان المطلة عليه ، انظر : محمد عبد العال أحمد . بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (الاسكندرية ، ١٩٨٠م) ص ٣٧٧ وما بعدها . وللمزيد اكثر انظر : يحيى بن الحسين بن قاسم بن محمد بن علي غاية الأماني في أخبار القطر اليماني . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٩٦٨م) جـ ١ ، ص ٥٢-٥٣ ، عبد الله مبشر الطرازي « العلاقات التجارية بين البلاد العربية وبلاد شبه القارة الهندية قبل الإسلام وبعده حتى العصر العباسي » مجلة الفيصل ، عدد (٦٩) (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٤٠-٤٣ .

S. Maqbul Ahmad. " Commercial Relations of India with Arab World (1000 B.C. up to Modern times " Islamic Culuture . Vol. 38(1964) PP. 141-155, S.D. Goitein " letters and Documents on the Indian Trade in the Medieval Times " Islamic Culuture . Vol. 37, (1963) PP. 188-205 .

(٣١) دهلك : اسم أعجمي معرب ، ويقال له دهيك أيضاً ، وهي جزيرة في بحر اليمن ، وهو مرسي بين بلاد اليمن والحبشة ، ويقال إنها بلدة ضيقة حرجة حارة ، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها . وبقيت هذه البلدة على مر التاريخ الإسلامي تسهم في الأحداث السياسية التي كانت تقع في البلدان المطلة على البحر الأحمر سواء من ناحية أفريقيا أو من ناحية شبه الجزيرة العربية . للمزيد عن هذه الجزيرة ، انظر : ياقوت الحموي . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مج ٩ ، ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٣٢) للمزيد من التوضيحات انظر : محمد عبد العال أحمد . بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص ٣٨٢ .

وثقافية ، لأن معظم المستوطنين العرب فيها كانوا من أصل يمني [٣٣] .
ولم يكن اليمنيون يتمتعون - آنذاك - بحكومة مركزية موحدة ، فكل السواحل كانت تخضع لممالك سنية [٣٤] ، وكل الجبال أو معظمها للأشراف الزيديين وعاصمتهم صنعاء . ولسهولة المواصلات والإتصالات بين الساحلين ، أصبح المذهب السني هو السائد في البلدين ، فتوطدت صلات أوفات بهؤلاء أكثر من صلاتها بالأشراف . وأهم الدول اليمنية الساحلية دولة بني رسول (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤ م) ، ودولة بني طاهر (٨٥٨ - ٩٢٣ هـ / ١٤٥٤ - ١٥١٧ م) .

وبإختلاف المذهب والنظم والنمط الإقتصادي بين ممالك الساحل والجبال . فإن ممالك الساحل كانت مضطرة إلى تحسين علاقتها مع مملكة أوفات الإسلامية ومصر المملوكية . وهو بعينه ما يسعى إليه الأوفاتيون [٣٥] ، وتنبه إليه الأحباش ، فبعث « يكونو أملاك » رسله إلى مصر سنة (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) عن طريق صاحب اليمن شمس الدين يوسف بن علي كي يكسب صداقته أولاً ثم صداقة صاحب مصر ، السلطان بيبرس ثانياً ، وإن تذرع بحجة أنه يخاف أن تتعرض السفارة للنهب إذا ما

(٣٣) للمزيد انظر : أحمد بن علي المقريزي . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ، د.ت) ص ٢٣ وما بعدها ، أحمد الحفني القنائي . الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان (القاهرة ، ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م) ص ١٦ وما بعدها ، عبد الشافي غنيم عبد القادر : «البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية » . البحر الأحمر في التاريخ والسياسة المعاصرة . أبحاث الأسبوع العلمي (١٠-١٥ مارس ١٩٧٩م) (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها .
Yusuf Fadl Hassan . The Arabs and the Sudan (Khartoum , 1973) PP. 59-66 .

(٣٤) ابن فضل الله العمري . مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ص ٨٤ وما بعدها .

(٣٥) للمزيد من التفصيلات ، انظر : ابن فضل الله العمري . مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ص ١٨٠-١٨٣ ، محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٣٧ ، محمد عبد العال أحمد . بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص ٤٤٣ وما بعدها.

بعثها إلى مصر مباشرة [٣٦] . وتكررت المحاولة الحبشية بقطع أواصر الصداقة بين حق الدين الثاني وسعد الدين ، وبين صاحب اليمن الأفضل الرسولي ، حيث بعث النجاشي الحطي ، سيف أرعد ، إليه في سنة (٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) هداياه ورسله وطلب أن لا يتدخل في الصراع الدائر بينه وبين حق الدين الثاني وأن يتم التبادل التجاري بينهما عن طريق دهلك ، ولكن العلاقات الأوفاتية اليمنية كانت أقوى وأثمن من أن تنالها المحاولات الحبشية وتآمرها المستمر [٣٧] .

وعندما ورث الطاهريون ملك الرسوليين ، انتهجوا سياسة العزلة في بادىء الأمر ، لتحقيق سيطرتهم الكاملة على اليمن ، ومن أجل العلاقات الأزلية بين اليمن وأوفات ، استطاع الأوفاتيون أن يخرجوا الطاهريين من عزلتهم السياسية ، فارتبطوا بهم بصلات الود والصداقة ، وجهز السلطان المجاهد الطاهري في سنة (٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م) مائة وخمسين فرساً من الخيول العربية ، والسيوف ، والرماح ، والدرق ، ومساعدات أخرى إلى مملكة أوفات . كما ساعدهم في جمادي الأولى سنة (٨٨١ هـ أغسطس ١٤٧٦ م) بمجموعة أخرى من الخيول تنيف عن خمسين فرساً [٣٨] .

(٣٦) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ، محمد عبد العال . بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص ٣٧٦ .

(٣٧) علي بن الحسن الخزرجي . العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية . تحقيق محمد بسيوني (القاهرة ، ١٩١١م) ص ١٣٩-١٤٠ ، محمد عبد العال ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص ٣٧٦-٣٧٧ ، ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص ٥٦-٥٧ .

(٣٨) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الديبع الزبيدي . بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد (نسخة مصورة ضمن مكتبة الباحث تم تصويرها من مخطوطات دار الكتب المصرية) ص ٢٠-٢١ ، محمد عبد العال . بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٧٠-٧١ .

وكانت مملكة أوفات ملجأ للهاربين من دوامة الصراع في اليمن ، ففي عام (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) قام الشيخ عبد الباقي بن محمد الطاهري بثورة ضد السلطان « عامر الطاهري » ثم ولى وجهه شطر أوفات بعد فشل ثورته ، ونزل في مدينة « بربرة » [٣٩] عام (٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م) فرحب به السلطان « محمد بن أظهر الدين » وعندئذ بعث سلطان اليمن عامر الطاهري رسالة إلى محمد بن أظهر الدين يطلب فيها أن يلقي القبض على الهارب إليهم ويعيده إليه . فقبض عليه ، ولكن قام الأحباش بغارة على أوفات فأطلق السلطان محمد سراح الشيخ عبد الباقي فاشترك في الجهاد ، وأظهر شجاعة نادرة أثارت إهتمام السلطان به ، فرأى أن من واجب الشهامة العربية والحكمة أن لا يفرط في حقه ، فأكرمه إكراماً شديداً ، حتى نفذ جميع طلباته ، ومن أهمها أن يسمح له بأن يعود إلى اليمن وقد عاد واستقر ببلدة يافع [٤٠].

وهكذا كانت مصر واليمن دعامة لمملكة أوفات فمدوا إليها يد العون حيناً من الدهر ، نتيجة لوحدة العقيدة ، وتبادل المنافع الإقتصادية . وفي (القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) نجح الإمام أحمد بن إبراهيم بن جرا (الجران) بتكوين علاقة صداقة مع السلطان « مكثر » ، سلطان مملكة البجة الإسلامية في شرق السودان ، وكان هذا السلطان الذي يبلغ جيشه حوالي خمسة عشر ألف جندي نوبي مسلم ، في حرب مع النجاشي (لبناد نجل) الحبشي ، فإستنجد بالإمام « أحمد » الذي كان

---

(٣٩) للمزيد انظر : عيدروس العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال (مقديشو ، ١٩٥٤م) ص ٥٨ - ٥٩ .

(٤٠) ابن الديبع الزبيدي . بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، ص ٢٦ . وتقع بلاد يافع في جنوب اليمن ، وقد عرفت قبائل يافع بالشجاعة وقوة الشكيمة في محاربة الأعداء . للمزيد انظر : السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني الأول لليمن (القاهرة ، ١٩٧٤م) ص ١٤-١٥ .

- آنذاك - في إقليم « التيجري » فأسرع خطاه لنصرته . وقام السلطان «مكثر » باستضافة جيش المسلمين ، كما قدم إليهم حوالي عشرين حصاناً كمساعدة . وتزوج الإمام أحمد ابنة السلطان مكثير من أجل توطيد أواصر الصداقة بينهما [٤١].

كان لأوفات - بجانب العلاقات السابقة - صلات ثقافية مع المشرق العربي في مراكزه الثقافية كالأزهر والجامع الأموي بدمشق ، والحرمين الشريفين . ومعروف أن الأزهر منذ إنشائه - قلعة من أمنع قلاع الحضارة والثقافة الإسلامية . ونهل من مورده أعداد كثيرة من طلبة العلم ، الذين كانوا في سنة (٨٢٨ هـ / ١٤١٤ م) يقدرون بسبعمائة وخمسين دارساً من زيالعة وعجم ، وريف مصر ومغاربة لكل منهم رواق يعرف بهم ، كرواق الجبرتية لطلاب مملكة أوفات الإسلامية [٤٢] و لم يكن الأزهر المركز العلمي الوحيد الذي اشتهر في محيط مملكة مصر في ذلك الوقت ، بل كان هناك أيضا المسجد الأموي في دمشق الذي تعقد فيه حلقات علمية بمختلف فنون العلم . ويقوم بتدريس العلم فيه عدد كبير من المعلمين ويستند كل منهم إلى سارية من سواري المسجد ، وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء ، وهي لطائفة الزيالعة السودان [٤٣]. ولا يستبعد أن قام الزيلعيون بالتدريس في هذا المسجد الشامي . كما كانت مصر تتولى رعاية شئون المسجد الشريف وله خدم وسدنة من فتيان قرن أفريقية وغيرهم ، وعرف كبيرهم بشيخ الخدام . وهؤلاء الخدام على مرتبة عالية في سلك العمل حتى كان شيخ الخدم في هيئة الأمراء الكبار ، ولهم مرتبات تأتي إليهم كل سنة من مصر والشام [٤٤].

---

(٤١) عبر فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٣٢٤، ٣٢٧ .
(٤٢) للمزيد انظر ، المقريزي ، الخطط المقريزية ، مج ٣ ، جـ ١ ، ص ٢٣٤-٢٣٦ .
(٤٣) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحفة النظار ، جـ ١ ، ص ٩٣-٩٤ ، ١٠٧ وما بعدها .
(٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٠-١٢١ ، ١٦٣ وما بعدها .

وتنقل العلماء والطلاب على طول الإمبراطورية الإسلامية وعرضها ، بحرية وأمان ، وظهر في هذا الجو العلمي الرائع ، علماء زيلعيون صاروا جهابذة العلم ، وحازوا على شهرة واسعة في محيط الدولة الإسلامية ، حيث استقروا بصفة مستديمة في مصر والشام واليمن والحجاز والعراق . فإهتم بهم كتاب تراجم العلماء المسلمين البارزين في مجال العلوم الإسلامية ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : الشيخ فخر الدين الزيلعي عثمان بن علي بن يحيى بن يوسف الزيلعي الذي قدم إلى القاهرة سنة (٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م) ودرس فيها وأفتى ، وتولى مشيخة الخانقاه وشرح الكنز ، ومات بها سنة (٧٤٣ هـ / ١٣٤٢م) (٤٥) .

ومنهم أيضاً جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، سمع وأخذ من أصحاب النجيب ، وعن الفخر الزيلعي شارح الكنز، وعن القاضي علاء الدين التركماني ، وابن عقيل ، وغيرهم ، ولازم مطالعه كتب الحديث إلى أن خرج أحاديث الهداية ، وأحاديث الكشف ، وكان يرافق الشيخ زين الدين العراقي في مطالعة كتب الحديث ، فالعراقي لتخريج الأحياء ،والزيلعي لتخريج أحاديث الكتابين المذكورين ، ويعين كل منهما الآخر ، ومات الزيلعي في القاهرة سنة (٧٦٢ هـ / ١٣٦١م)(٤٦) .

محمد بن أحمد بن عبد العزيز الجبرتي ، ولي نظر الحرم الشريف وكان مشكور السيرة مات في مكة سنة (٧٦٥ هـ / ١٣٦٣م) (٤٧) .

---

(٤٥) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . تحقيق وتقديم محمد سيد جاد الحكم (القاهرة ، ١٩٦٦م) جـ ٣ ، ص ٦١ ، عبد الرحمن زكي . أفريقية الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٦ .

(٤٦) محمد بن علي الشوكاني . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، ١٣٤٨ هـ) ، جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جـ ١ ، ص ١٥١ وما بعدها ، عبد الرحمن زكي . أفريقية الإسلامية ، جـ ١ ، ص ١٠-١١ .

(٤٧) ابن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ ، ٤١٦ .

عبد الرحمن بن عبد الله الجبرتي نزيل مكة ، وسمع من الوادي آشي ، وصفي الدين الطبري ، وغير واحد من علماء مكة الأجلاء ، ثم رحل إلى دمشق فسمع بها من الحافظ المزي ، وإعتنى بالقراءات وأدب الأطفال ، ثم رجع إلى مكة وتوفى فيها سنة (٧٧٣ هـ / ١٣٧١م) (٤٨).

الشيخ عبد الله الجبرتي أحد الصلحاء المعتقدين توفى سنة (٨٨٠ هـ/ ١٣٧٨م) وقبره مشهور بالقرافة في مصر (٤٩).

الفقيه الزيلعي عيسى بن موسى المتوفي سنة (٨٠٢هـ١٣٩٩/م) في مدينة زبيد في اليمن عن عمر يناهز نيفاً وتسعين وحضر دفنه كافة أعيان الدولة الرسولية (٥٠).

الشيخ أبو بكر بن محمد الجبرتي كان في مكة لمدة ثلاثين عاماً ، ونسب إليه أنه كان مشهوراً بعلم الحرف ، وشاع خبره حتى أقبل عليه الشريف حسن بن عجلان ، يتوسط عنده في أمور حسنة من أفعال الخير ، وقضاء حوائج الناس ، ودخل في اليمن قبل وفاته بخمس سنوات ، فإكرم مورده حتى مات في سنة (٨٢٠ هـ ١٤١٧/ هـ) ودفن بالمعلاة وكثر الازدحام على حمل نعشه ، وله بمكة أولاد وملك (٥١).

الشيخ على بن يوسف بن صبر الدين بن موسى الجبرتي الأزهري الشافعي المعروف بالجبرتي ، قدم القاهرة حوالي سنة (٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م) وقرأ بها القراءات على الشهاب السكندري والشمس بن العطار، وجماعة أخرى ، مما قرأ وسمع الصحيح على الأربعين في

(٤٨) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(٤٩) السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٥٠) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣١٠، علي بن الحسن الخزرجي ، العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية ، ص ١٥٣ وما بعدها .

(٥١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة، ١٣٥٣هـ) جـ ١ ، ص ٢٥٢ .

الظاهرية القديمة ، وسافر إلى دمشق سنة (٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) وقرأ فيها القراءات على ابن النجار ، ثم رحل إلى بغداد ، وصحب فضلاً القادري من ذرية الشيخ عبد القادر ، ولبس منه الخرقة ونحوها ، ورجع إلى القاهرة وعقد له ناموس المشيخة وجلس في خلوة بسطح الأزهر ، وتردد إليه غير واحد من الخدم . فصار يتوسل بهم في حوائج من يقصده من التجار الحلبيين وغيرهم . كما كان مقرباً للسلطان قايتباي المملوكي الذي إعتقد في صلاحه وولايته .

وفي سنة (٨٧٨ هـ / ١٤٧٣م) بنى جامعاً في مدينة (أدكو) في مصر ، وكثر التردد إليها ، كما كثرت مساعداته لقاضيها ابن الفويطي . وربما أخذ عنه بعض الطلبة القراءات وتوفي سنة (٨٩٩ هـ / ١٤٩٣م)[٥٢] .

الشيخ علي بن إبراهيم نور الدين قدم أبوه من زيلع إلى زبيد[٥٣] ، وتفقه قليلاً من الشهاب أحمد بن أبي بكر الناشري ، ثم لازمه الجمال محمد الطيب الناشري قراءة وسماعاً إلى أن أذن له بالإفتاء والتدريس وقرأ الفرائض والحساب على الفقيه الشاب الكردي ، وبرع في ذلك ، وانتفع به، وقرأها حتى صار مدار الفتيا فيه ، ومات في سنة (٨٨٠ هـ / ١٤٧٥م)[٥٤] .

آدم بن أبي بكر الجبرتي ، كان في مكة واستمع العلم من أجل وأفضل علمائها في عصره . ومن أشهر شيوخه السراج معمر بن عبد القوى في

---

(٥٢) المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٥٣ ، عبد الرحمن زكي . أفريقية الإسلامية ، جـ ٢ ، ص٣٦ .

(٥٣) زبيد ميناء اليمن ومجمع التجار من مصر والحجاز وزيلع وهي مشتى صاحب اليمن من بني رسول . بينما كانت تعز مصيف ومقر بني رسول . للمزيد انظر ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي . المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي . تحقيق أحمد نجاتي (القاهرة، ١٩٥٦م) جـ ١ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٥٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٥ ، ص ١٦٠ .

اللغة العربية ، وعبد النبي المغربي ، وسمع من الشيخ شمس الدين السخاوي في مكة من كتاب الصحيحين وغيره ، وبرع في الفقه وأصوله واللغة العربية ، كما برز بالتجويد القرآني ، إلا أنه مات شاباً في سنة (٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م) [٥٥].

تلك علاقات مملكة أوفات بالعالم الإسلامي ، وكدولة تجارية ، فلها صلات تجارية مع الشرق الأقصى . وكانت السفن الصينية تتاجر مع المملكة وتشحن من موانيها في المحيط الهندي بضائع منها اللبان والبخور وجلود النمور ، والعاج ، إلا أن أول تعامل للسفن الصينية (الجنوك) في البحر الأحمر في سنة (٨٣٥هـ / ١٤٣٢م) حين وصلت سفينتان من سفنهم إلى مدينة عدن ولم تتمكن من تفريغ شحنتيهما فإتجهتا إلى مدينة جدة بموافقة السلطان « برسباي » المملوكي الذي رفع الحظر عنهما [٥٦] . أما الهند التي كانت من أكبر الدول التي تنقل المتاجر الشرقية من الشرق الأقصى إلى موانئ البحر الأحمر . فإن لسفنها وسلعها شهرة ورواجاً في أسواق وموانيء المملكة . وبمساعدة جاليتهم في مملكة أوفات كانوا ينقلون سلع أوفات إلى الشرق الأقصى وبجانب اللبان والبخور والعاج والرقيق . ظهرت أهمية الأحجار الكريمة الأوفاتية في أسواق الهند لاسيما في قاليقوط [٥٧] . ويعتقد أن الهنود كانوا يتاجرون بسلاح المدافع في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وحينما حاصر الإمام « أحمد » في سنة (٩٣٩ هـ / ١٥٣٢م) حصن

---

(٥٥) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٧ .

(٥٦) عيدروس العيدروس . بغية الآمال في تاريخ الصومال ، ص ٩ ، محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص ٤٥٨ .

(٥٧) حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ ، نعيم زكي فهمي . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص ٢٥٢ ، شوقي عطا الله الجمل . سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٧٤م) ص ١٦٢ .

العنبا ، لمدة شهرين وأظهر سلاح المدافع عند الأحباش فاعليته ، بعث الإمام أحمد ، وزجار أبون ، صاحب زيلع ليشتري له مدافع من ميناء زيلع، فاشترى ثلاثة مدافع والخبيران الهنديان مع المدافع أعطاهما الإمام ، ليقوما بضرب المدافع على الحصن ، مائة أوقية ذهباً (٥٨) . وربما وصلت المدافع التي في يد الأحباش عن طريق تجارهم .

على ذلك يمكن القول ، إن مملكة أوفات الإسلامية التي أقامها المسلمون ، ظلت - ولقرون عديدة - بفضل علاقاتها مع بلاد العالم الإسلامي الأخرى ، خاصة اليمن ومصر ، مراكز نشاط ومدنية ، وقواعد لنشر الثقافة الإسلامية بين القبائل الأفريقية في الساحل وداخله . وشاعت شهرة تلك المملكة ومدنها ، لأنها كانت وسيطة بين عواصم العالم الإسلامي الكبرى ، وبقية أجزاء أفريقيا المجاورة ، في نقل الفكر والثقافة الإسلامية وساعد على هذا الإتصال عامل القرب الجغرافي لليمن وسهولة الملاحة ، وبراعة المسلمين في البحر ، فاتصلوا بالحجاز ومصر والشام ، وتطورت مملكة أوفات بفضل تجمع العلماء والفقهاء الذين وفدوا إليها من تلك البلاد ، وأدى هذا كله إلى تجاوز شهرة أوفات ومدنها المختلفة حدود الساحل ، فازدهرت الحضارة الإسلامية ، وظلت الصبغة العربية هي البارزة والمميزة في بلاد الحبشة ومنطقة القرن الأفريقي وبلاد الساحل الأخرى خلال فترة العصور الوسطى ، وانتشرت الآداب الإسلامية بين بقية المجتمعات التي تعيش في الساحل الأفريقي وفي داخله . ولقد استقرت الثقافة الإسلامية في هذه البلاد وظلت تعيش وتزدهر وتنتشر منذ فجر العصور الوسطي الإسلامية إلى الوقت الحاضر ، وذلك بفضل ملوك أوفات وقوة إتصالهم بالعالم الإسلامي .

---

(٥٨) عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٣١٢ ، ٣١٧ .

المبحث السابع

القدس الشريف
خلال القرون الإسلامية المبكرة (*)

(*) هذا البحث نشـــــــر في مجلة المنهل العدد السنوي الخاص عدد (٥٠٨) مج (٥٥) (الربيعان ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)ص ص ٤٠ - ٤٥

القدس الشريف خلال القرون الإسلامية المبكرة

يفهم من بعض الروايات التاريخية المبكرة أن المسجد الأقصى عرف بهذا الإسم لأنه أبعد المساجد التي تزار ويبتغى بها الأجر ، وقيل لأنه لم يكن وراءه موضع عبادة ، وقيل لبعده عن الأقذار والخبائث (١) . وتشير الكثير من المصادر إلى قدم تاريخ القدس الشريف ، فيذكر أن النبي موسى عليه السلام ، حث قومه بنى إسرائيل على دخوله لإقامة دين الله في ربوعه ، ولتعلو فوقه راية الإسلام ، دين الله الذي اصطفاه للبشرية كلها ، فأبوا وتقاعسوا ، وقعدوا عن الجهاد ، وقالوا لنبيهم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون). (٢) ويجمع المؤرخون على أن الرسول الكريم سليمان بن داود عليهما السلام أول من بنى هيكلاً في بلاد فلسطين ، وفي مدينة القدس ، التي كانت تعرف قيماً بـ (إيلياء) ، وذلك في الفترة الزمنية الواقعة بين عامي (٩٧٢ إلى ٩٣٣) قبل الميلاد. وبقى ذلك الهيكل قائماً إلى عام (٥٨٦ ق . م) ، ثم جاء الملك البابلي بختنصر ، فهدمه ، ودمر المدينة ، ونقل جميع اليهود الذين كانوا بها إلى مدينة بابل ، ثم تعاقب على حكم مدينة القدس (إيلياء) الفرس، ثم الإغريق ، ثم الرومان ، حتى ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، وإمتد إلى بلاد الشام (٣) .

---

(١) انظر تفصيلات أكثر . الزركشي . أعلام المساجد باحكام المساجد . تحقيق أبو الوفا المراغي (القاهرة ، ١٩٦٥م) ص ٢٢٧ . مجير الدين . الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (بيروت ، ١٩٧٣م) جـ ١ . ص ٦ .

(٢) سورة المائدة ، آية (٢٤) .

(٣) للمزيد من المعلومات عن تاريخ القدس الشريف قبل الإسلام ، انظر ، كتاب البلدان ، لابن الفقيه (طبعة ليدن ، ١٣٠٢هـ) ص ٩٣ وما بعدها ، كتاب البلدان لليعقوبي (طبعة ليدن ، ١٩٨١م) ، سيد عبد المجيد بكر ، أشهر المساجد في الإسلام ، البقاع المقدسة (جدة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) جـ ١ ، ص ٢٩١-٢٩٦ ، محمود العابدي : قدسنا (القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) وللعابدي أيضاً ، مأساة بيت المقدس (عمان ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ص ١٥-٢٨ .

وتنزل رسالة الإسلام على النبي محمد بن عبد الله « عليه أفضل الصلاة والسلام » فيدعو قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهكذا بقى طوال المرحلة المكية ، ويحدث له في تلك الفترة معجزة الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى ، قال الله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) (٤) ، والآية الكريمة تشير إلى معجزة الإسراء والمعراج التي منحها الله إلى عبده ورسوله محمد ﷺ وهي أيضا تشير إلى القدسية والبركة التي اختص الله بها بيت المقدس . والقرآن الكريم يسجل لنا في أكثر من آية ، المكانة العالية التي وصفه الله بها ، فيذكره بالقداسة حيناً ، وبالبركة حيناً آخر .

وقال رسول الله ﷺ « لا تشد الرحال إلى أفضل من ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس » ، وصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في سواه ، ومن صبر على لأوائها وشدتها جاءه الله برزقه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن يساره ، ومن فوقه ومن تحته فأكل رغداً ثم دخل الجنة ، وهي أول أرض بارك الله جل وعز فيها ، وبشر الله جل وعز إبراهيم وسارة باسحاق بها ، وتسور الملائكة المحراب على داود بها ، ويمنع الدجال عدو الله أن يدخلها ، ويهلك يأجوج ومأجوج حول بيت المقدس ، وأوصى آدم أن يدفن بها ، وكذلك اسحاق ويعقوب ، وحمل يعقوب من أرض مصر إليها ، ودفنت مريم بها ، وبها موضع الصراط ، ووادي جهنم . والسكينة ،وإليها المحشر والمنشر ، وتاب الله عز وجل على داود بها ، وصدق إبراهيم الرؤيا بها ، وكلم عيسى الناس في المهد بها ، وتقاد الجنة والنار إليها يوم القيامة (٥) . وفضائل

---

(٤) سورة الإسراء ، آية (١)

(٥) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

بيت المقدس كثيرة وكتب السنة والتراث الإسلامي مليئة بما ذكر عن علو منزلتها وفضلها عند الله .

وعند ظهور الإسلام ، كانت مدينة القدس الشريفة في أيدى الرومان النصارى ، وبقيت على تلك الحال في عهدي الرسول ﷺ ، والخليفة الراشد أبي بكر الصديق ، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب يحرز المسلمون نصراً عظيماً على الروم في معركة اليرموك، ثم تسقط مدن بلاد الشام في أيدي المسلمين واحدة بعد الأخرى ، وتذكر المصادر التاريخية المبكرة قصة دخول المسلمين إلى مدينة القدس ، فيرسل عمرو بن العاص رسولاً إلى أهلها يدعوهم إلى الإسلام أو دفع الجزية فلم يلبوا أياً من هذين الشرطين، عندئذ قرر صاحب القيادة العامة في بلاد الشام ، أبو عبيدة عامر بن الجراح حرب أهل بيت المقدس ، فأرسل إليهم حوالي خمسة وثلاثين جندياً من المسلمين ، ثم لحق ذلك الجيش بنفسه وحاصروا مدينة القدس عدة أسابيع ، فلم يستطيعوا إختراق أسوار المدينة ، ولم يرغب النصارى في تسليمها ، وعندما بلغ الأمر حده عند الطرفين ، ورأى النصارى إصرار المسلمين على فتح المدينة ، أطل بطريق بيت المقدس على المسلمين وقال لهم : « أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم عشرين سنة ما فتحتموها أبداً » يقصد مدينة القدس - وإنما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا ، ولن نجد صفته ونعته معكم أبداً ، فقال أبو عبيدة : وما وصفه من يفتح ميدنتكم ؟ قال البطريق . لا نخبركم بصفته لكن نجد في كتبنا وما قرأناه من علمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد ، اسمه عمر يعرف بالفاروق ، وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولسنا نرى صفته فيكم ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك تبسم ضاحكاً ، وقال : فتحنا البلد ورب الكعبة ، ثم أقبل على البطريق ، وقال له : إذا رأيت الرجل تعرفه ؟ قال : نعم وكيف لا أعرفه ، قال أبو عبيدة : هو والله خليفتنا وصاحب

نبينا ، فقال البطريق: إن كان الأمر كما ذكرت فقد علمت صدق قولنا ، فأحقن الدماء، وابعث إلى صاحبك يأتي فإذا رأيناه وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غير هم ولا نكد وأعطيناه الجزية (٦) . وبعد سماع أبي عبيدة لكل ما قال بطريق بيت المقدس ، شاور أصحابه في الأمر فأشاروا عليه بالكتابة إلى الخليفة عمر ، فكتب له خطاباً مطولاً سرد له فيه أوضاع الجيوش الإسلامية في بلاد الشام ، ثم قال :« فلما كان اليوم الذي كتبت إليك يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم ، إلا صاحب نبينا واسمه عمر ، وأنه يعرف صفته ونعته ، وهو عندهم في كتبهم، وقد سألنا حقن الدماء ، فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله يفتح هذه البلدة علينا على يدك »(٧) . ثم ارسل ابو عبيدة الرسالة مع ميسرة بن مسروق العبسي ، فجاء بها إلى الخليفة عمر بن الخطاب وسلمها إليه في صلاة الفجر ،فقرأها الخليفة على المسلمين ، وطلب مشورتهم، فأشار عليه علي بن ابي طالب وغيره من الصحابة بأن يلبي ما طلب إليه فلم يكن عليه إلا الرحيل إلى بلاد الشام ، وعند وصوله ، التقى بأبي عبيدة وجميع جيوش المسلمين هناك ، ثم ذهب مع أبي عبيدة حتى صارا على مقربة من أسوار بيت المقدس ، ونادى أبو عبيدة فسمعه بعض القساوسة من الداخل ، فأخبرهم أن أمير المؤمنين عمر قد وصل فأخبروا كبير البطارقة ، والذي تحدث مع أبي عبيدة من قبل ، فجاء حتى أشرف على الخليفة عمر بن

(٦) انظر ، كتاب فتوح الشام لعمر الواقدي (بيروت ، د.ت) جـ ١ ص ٢٢٣-٢٢٤ .

(٧) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ، وفي رواية أخرى للأزدي تذكر أن أبا عبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره ماذا تم مع أهل بيت المقدس ، وامتناعهم عن تسليم المدينة إلا للخليفة عمر ، وكيف تصرف معهم ، إلى أن قال : « وقد أخذنا عليهم المواثيق المغلظة بإيمانهم ، لئن أنت قدمت عليهم فأمنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك ، وليؤدين الجزية وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة ففعلوا ، وأخذنا عليهم الإيمان بذلك، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل ، فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً وعافية للمسلمين زاد الله رشدك ويسر أمرك ، انظر نص هذه الرسالة في كتاب « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله (بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

الخطاب وأبي عبيدة ، وعندما رأى الخليفة ، صاح بأعلى صوته ، وقال : هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ، ثم قال لمن حوله « يا ويحكم » ، انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة ، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله » (٨).

وفتحت أبواب بلدة إيلياء (مدينة القدس الشريفة) للخليفة عمر بن الخطاب فدخلها (رضي الله عنه) مجدداً لها نقاءها الإسلامي ، وبركتها العظيمة التي ذكرها الله عز وجل في محكم كتابه ، والتي أخبر عنها الرسول محمد بن عبد الله (عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم) واعطى عمر الأمان لأهلها ، وكتب لهم بذلك كتاباً قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهالي إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص فيها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منها فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن اقام منهم فهو آمن . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين إذا اعطوا الذي عليهم من الجزية »(٩) .

---

(٨) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٩) انظر ، تاريخ الأمم والملوك ، لمحمد بن جرير الطبري (بيروت ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢م) جـ ٣ ، ص ٦٠٩ .

وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وبهذا الأمان انتقلت مدينة القدس إلى حوزة الدولة الإسلامية وعاد المسجد الثالث « المسجد الأقصى » إلى أيدي المؤمنين بالله وحده ، وبمحمد رسوله ، وتجمع أغلب المصادر التاريخية الإسلامية المبكرة على أن أول من أعاد بناء هيكل النبي سليمان (عليه السلام) وبشكل جامع إسلامي ، كان الخليفة عمر بن الخطاب ، عام ١٥ هـ/ ٦٣٦م) ، وذلك تخليداً لمنزلة المكان وبركته التي أشار الله إليها في كتابه الكريم .

ويذكر ابن كثير قصة الخليفة عمر عندما عزم على البحث عن مكان قبة الصخرة الذي اندثر وضاع ، فيقول : « دخل عمر بيت المقدس ، وسأل كعب الأحبار ، عن مكان الصخرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اذرع من وادي جهنم كذا وكذا ذراعاً ، فهي ثم ، فذرعوا فوجدوها وقد اتخذها النصارة مزبلة ، كما فعلت اليهود من قبل بمكان الصلب ، وهو المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي شبه بعيسى فاعتقدت النصاري أنه المسيح، ولما تحقق عمر من وضع الصخرة أمر بإزالة ما عليها من الكناسة حتى قيل أنه كنسها بردائه ، وروى أن عمر قال لكعب : أين ترى أن أصلى ؟ ، قال : إن اخذت عني صليت خلف الصخرة وكانت القدس كلها بين يديك ، فقال عمر ضاهيت والله اليهود ، لا ، ولكن صلى حيث صلى رسول الله ﷺ ، فتقدم إلى القبلة فصلى ، ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في ردائه وكنس الناس » (١٠) ، ويذكر أن المكان الذي صلى فيه الخليفة عمر أقيم عليه مسجد ، وسمى بالمسجد العمري والصخرة صيرت في مؤخرته .

---

(١٠) انظر ، السيد رزق الطويل ، بيت المقدس بين جريمة الضياع ومسؤولية العودة «مجلة التضامن الإسلامي » ، السنة (٤٧) الجزء (٥) ذو القعدة (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٥٠-٥١

وبقى بيت المقدس والمسجد الأقصى على الوضع الذي عرفناه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، حيث صارت بلاد فلسطين مثلها مثل أي جزء في بلاد الشام تعود من حيث الأوضاع الإدارية ،والمالية ،والسياسية إلى الوالي الذي كان يقيم في مدينة دمشق فينفذ ويجسد سياسة الخلافة الراشدة المقيمة في المدينة المنورة من بلاد الحجاز واستمر المسلمون يحافظون على القدس الشريف ، والمسجد الأقصى ، بل ويوليه بعض الخلفاء الأوائل كل إهتمام ورعاية ، وأعظم ما وصلنا من أعمال خلفاء بني أمية تجاه المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ما ذكر ابن الأثير وابن الطقطقي حيث قالا أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك هو الذي أعاد تشييد وبناء المسجد الأقصى ، (١١) ويستدلان على قولهما بما جاء في الرسائل التي كتبها قرة بن شريك (عامل الأمويين على مصر في عهد الوليد) إلى أحد حكام الصعيد في سنة ٨٧ هـ . طالباً منه إمداده بالصناع المهرة لتشييد بناء المسجد الأقصى ، وهذه الرواية على خلاف ما اتفق عليه جمهرة المؤرخين من أن الخليفة عبد الملك بن مروان ، أبا الوليد ، هو الذي أعاد تشييد وعمران المسجد الأقصى في سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م (١٢).

ويتعرض بعض المؤرخين للأسباب التي جعلت الخليفة عبد الملك بن مروان يقوم بتشييد وإعادة بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فيذكرون أن سيطرة عبد الله بن الزبير على الحجاز ، بما فيها من المشاعر المقدسة، كالكعبة وغيرها ، جعلت عبد الملك يفكر بل ويعزم على تشييد المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، من أجل جعل الناس يحجون إليها بدلاً

(١١)انظر ، عارف باشا العارف ، تاريخ القدس (القاهرة ، ١٩٥١م) ص ٢٩٤ .
(١٢) انظر تفصيلات أكثر ، المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ، ١٩٧٧م) ص ١٦٨-١٦٩ ، مجير الدين الأنس الجليل ، جـ ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

من الحج إلى مكة المكرمة ، بل ويقولون أنه كان يرد على المعترضين عليه بأن المسجد الأقصى واحد من المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إلى واحد منها (١٣) . ولو دققنا النظر في هذه الرواية لوجدناها واهية ، لأنها تروي قصة ملفقة على رجل بذل الغالي والرخيص من أجل نشر الإسلام في أجزاء عديدة من العالم الإسلامي بل سعى إلى تعريب الدواوين وسك عملة إسلامية حلت محل العملات الفارسية والرومية التي كان يتعامل بها الناس في عهده ، إلى جانب أن الكثير من مصادر التاريخ وتراجم الرجال تحتوى على معلومات كثيرة تبين المناقب والأعمال والصفات الإيجابية التي كان يتحلى بها الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولا ندري كيف نوفق بين كل هذه الأعمال التي عرف بها الخليفة عبد الملك وبين القول بأن رغبته في بناء قبة الصخرة وتشييد المسجد الأقصى كان بهدف صرف الناس في حجهم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وذلك بسبب النزاع الذي بينه وبين عبد الله بن الزبير ، والسؤال الذي يفرض نفسه ، كيف مثل هذا التصرف يحصل من خليفة سعى إلى مد الفتوح الإسلامية إلى كل من بلاد المغرب ، والأندلس ، وفارس ،و بلاد الهند والسند ، ثم يقال عنه إنه سعى إلى نقض الركن الخامس من أركان الإسلام ألا وهو الحج إلى بيت الله الحرام في مكة؟ .

هذا الإتهام الذي اتهم به الخليفة عبد الملك الأموي ، ليس إلا جزءاً صغيراً من الإتهامات التي كتبها المؤرخون عن امراء وخلفاء وحكام دولة بني أمية .

---

(١٣) انظر عن اقوال المؤرخين الذين قالوا بهذه الرواية في كتاب الفن الإسلامي لأبي صالح الألفي (القاهرة ، د.ت) ص ١٤٥ - ١٤٧ ، فنون الإسلام ، لزكي محمد حسن (القاهرة ، ١٩٤٨م) ، ص ٣٧-٣٩ .

ولو سألنا أنفسنا : لماذا الخليفة عبد الملك سعى إلى إعادة بناء المسجد الأقصى وتشييد قبة الصخرة ؟ ، فالإجابة ، هي : ان عصري الخليفتين الأمويين ، عبد الملك ، والوليد ، عرفا بالتطور العمراني ، فلم يكن الناس يقتصرون على تشييد المساجد ، وإنما امتد الازدهار إلى بناء المنازل ، والقصور ، والمرافق المختلفة ، وبهذا فالخليفة عبد الملك أولى الأماكن المقدسة الكثير من الإهتمام ، كما كانت لديه الرغبة في إحاطة الصخرة المقدسة ببناء جليل ، وهي الصخرة التي روى أن الرسول ﷺ وضع قدمه عليها ليلة عروجه إلى السماء .

أيضا رغبة الخليفة عبد الملك في أن يكون للمسلمين عمائر دينية تضارع في البهاء والعظمة الكنائس المسيحية المنتشرة في بلاد الشام وفلسطين عصرئذ .

ومن زيارات الخليفة عبد الملك بن مروان لبيت المقدس ، تولد عنده الحب والرغبة في إعادة بناء المسجد ،وبناء قبة الصخرة المباركة ، فبعث بالرسائل إلى جميع عماله في سائر الأمصار معرباً عن رغبته في بناء قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى ، ووردت إليه رسائل الموافقة تفيض حماساً وتأييداً فجمع العمال والصناع والمهندسين ، ورصد لهذه العمارة أموالاً طائلة ، فخصص لها خراج مصر لسبع سنوات ، وأسند الإشراف على البناء إلى أبي المقدام رجاء بن حيوه الكندي ، وانضم إليه يزيد بن سلام مولي عبد الملك بن مروان واستغرق البناء سبع سنوات ، ويرى الكثير من علماء العمارة أن بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في عهد الخليفة عبد الملك يعتبر أقدم بناء إسلامي عظيم ، ومن أمهات الأعمال الفنية العالمية الفذة التي تعود إلى القرون الإسلامية الوسطى ويورد عبد العزيز حميد وصلاح حسين العبيدي ، نقلاً عن المصادر الإسلامية المبكرة ، وصفاً لبناء قبة الصخرة ، فيقولان : « إن بناء قبة الصخرة مثمن الشكل ، طول كل ضلع

من اضلاعه الثمانية ٢٠.٥ م ، وإرتفاعها ٩.٥م ، يلي الجدران الخارجية تثمينة من الأعمدة والأكتاف ، وزعت في نمط خاص ، وهو أن يقع بين كل كتفين عمودان ، فيكون مجموع الأكتاف ثمانية ،ومجموع الأعمدة ستة عشر ، ويلي هذه التثمينة رواق ثم دائرة من الأعمدة والأكتاف قوامها أربعة أكتاف وإثنا عشر عموداً وزعت في شكل خاص قوامه كل ثلاثة أعمدة محصورة بين كتفين . وهذه الدائرة من الأعمدة والأكتاف تحمل فوقها رقبة ثنائية تنتهي بالقبة ، وهي قبة ضخمة نصف كروية من الخشب تغطى من الخارج بصفائح الرصاص ، ومن الداخل طبقة تغطي من الخارج بصفائح الرصاص ، ومن الداخل طبقة من الجص المزخرف (١٤) .

وبعد عصر الخليفة عبد الملك بن مروان . جرى على المسجد الأقصى وقبة الصخرة بعض التعديلات أو التحسينات ، فيذكر المؤرخون ، أن زلزالاً هدم سقف المسجد من جهتيه الشرقية والغربية في عام ١٣٠ هـ / ٧٤٧م ، فأعيد بناؤه بشكل أفضل وأقوى ويذكر أن الخليفة العباسي ، أبا جعفر المنصور ، أوصى بنزع صفائح الذهب والفضة التي كانت على الأبواب منذ أيام عبد الملك ، ثم ضربت دنانير ودراهم وانفقت عليه حتى فرغ منه عام ١٤١ هـ / ٨٥٨م (١٥) وفي ١٥٨هـ / ٧٧٤ م حدث زلزال آخر فوق البناء الذي أقامه الخليفة المنصور ، فأمر الخليفة المهدي بتعميره ، قائلا: رث هذا المسجد وطال ، وخلا من الرجال (أي أرجل العقود) انقصوا من طوله وزيدوا في عرضه فتم ذلك في سنة ١٦٣هـ / ٧٨٠م(١٦) .

---

(١٤) عبد العزيز حميد ، وصلاح حسين العبيدي ، الفنون العربية الإسلامية (بغداد ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ص ٨٠-٨١ .

(١٥) المقدسي أحسن التقاسيم ، ص ١٦٨-١٦٩ ، مجير الدين ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٨٢ .

١٦ - مجير الدين ، المصدر نفسه ، جـ ١ ص ١٨٣ ، عارف باشا العارف ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

واستمر المسجد الأقصى في مسيرته التاريخية ، ورحلته الطويلة عبر السنين إلى أن تعرض لزلزال جديد زعزع أركانه عام ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣م ، فأصلحه الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م، ثم جدده المستنصر بالله في سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥م .

وخلاصة القول ، إن بيت المقدس والمسجد الأقصى من الأماكن الطاهرة التي لقيت الحماية والإهتمام والتشييد من خلفاء وزعماء المسلمين خلال القرون الإسلامية المبكرة ، ولكن عندما تنازع المسلمون ، ولم يتحدوا وفشلوا وذهبت ريحهم ، ضم بيت المقدس بما فيه المسجد والقبة ، فصارت في أيدي اليهود ، الذين لم يوفوا بالعهود ، فسعوا إلى هتك الأعراض وسلب الأموال ، وهدر الدماء ، وقتل الأطفال ، وتشريد النساء والمسلمون لا يتحدون ولا يفيقون من غفلتهم فيتعاونوا فيما بينهم من أجل إعلاء كلمة الحق ، ومحاربة الظلم والطغيان ، واسترداد القدس السجينة من أيدي أعداء الله ، وسيأتي ذلك اليوم قريباً بإذن الله .

البحث الثامن

ظاهرة سمل العين في العصور الوسطى بين التشريع والتسييس(*)

(*) نشر هذا البحث في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس تحت الرقم التسلسلي (١٨٦) (القاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م) ص ١ - ٣٧ .

مقدمـــــة :

إذا كان الإنسان قد اهتم بتدوين قانونه ، فقد تعددت أسبابه إلى هذا ولعل أهم أسباب هذا التدوين هو اتساع رقعة الدولة ، وإزدياد عدد السكان على نحو يتعذر معه انفراد شخص واحد بمهمة القضاء . وإذا تعدد القضاة فلابد من تطبيقهم لقانون موحد ، وأيسر سبل هذا التوحيد هي التدوين ، علاوة على أن التدوين يحفظ القواعد القانونية من الضياع أو التحريف ، وييسر على القاضي تطبيق القانون وتفسيره وينشر القانون بين المجتمع . وهذا الإعتبار الأخير ربما كان الدافع لتدوين القانون لدى الرومان والبيزنطيين . وتعتبر المدونات القديمة صورة أمينة وصادقة عن الحالة السياسية والإجتماعية للمجتمع ، وشاملة لكافة قواعد السلوك الإنساني ، ولإجراءات التقاضي ونظم القانون الجنائي ، كما أنها تعد تسجيلاً للتقاليد الدينية والعرفية ، والأحكام والعقوبات المتغيرة والمتجددة التي حرص المشرعون على إدراجها لتغيير الأوضاع القائمة . وعلى هذا فقد اقتضت الضرورة إصدار الأحكام على الذين قدموا للمحاكمة، وصدرت ضدهم أحكام تدينهم [١] .

---

(١) نظراً لما تميزت به هذه المدونات القديمة من احترام الناس لها لأن بعضها صدر عن الألهة مثل قانون مانو الهندي ، وبعضها صدر عن مصلح إجتماعي مشهور مثل حمورابي،كما صدر بعضها نتيجة لأحداث سياسية وإجتماعية هامة مثل قانون الألواح الأثنى عشر عند الرومان . وقد حرص المشرعون اللاحقون على نسبة ما يصدرونه من تشريعات جديدة إلى تلك المدونات السابقة حتى تكتسب ذات القدر من الإحترام . وللمزيد من التفصيلات ، انظر . عبد المجيد محمد الحفناوي ، وعكاشة محمد عبد العال . تاريخ النظم الإجتماعية والقانونية والقانون الروماني (بيروت : الدار الجامعية ، ١٩٨٩م) ص ٤٧، هشام صادق . تاريخ النظم القانونية والإجتماعية (بيروت : الدار الجامعية ، ١٩٨٢م) ص ١٢٠-١٢١ .

وتأكيداً للقول بأن عقوبات الجسد بمختلف أنواعها كان يركز عليها من أجل تحقيق أمن وسلامة الحاكم والدولة ، أي أن الدافع الأغلب لتنفيذ هذه العقوبات الجسدية كان دافعاً سياسياً ، إذ أن الحالات التي كان يلتزم فيها الشخص المتهم بالعقوبة الجسدية في مجال القضايا المدنية أخذت في التلاشي شيئاً فشيئاً على نحو صارت الغلبة معه للحالات التي يلتزم بها الشخص في ماله وأصبح التزام الشخص المتهم في القضايا المالية على سبيل المثال يتعرض لنوع آخر من العقوبة غير التي كان يلقاها سابقاً وهي السجن أو العقوبة الجسدية . وعلى هذا النحو أصبح الإلتزام بالجسد في العقوبة قاصراً على حالة الجريمة السياسية ، وأصبح المال يغني عن هذه العقوبة الجسدية في القضايا المالية والقروض . وكان السمل معروفاً لدى الناس في العصور القديمة والوسطى وخاصة لدى اليونان والرومان وانتشرتبصورة أوسع في عصر الدولة البيزنطية ، وريثة الإمبراطورية الرومانية ، وبسيادة العنصر الجرماني على أوروبا الغربية بصفة عامة ظهر ما أصطلح على تسميته باسم العصور المظلمة ، وهي العصور التي سادت حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، وخلال تلك الفترة ظهرت سيادة الإمبراطورية البيزنطية على الجزء الأكبر من أوروبا بوجه عام ، ويرى منتسكيو ، صاحب (كتاب العقد الإجتماعي) ، وهو رجل قانوني ومؤرخ، أن تاريخ الإمبراطورية اليونانية أو البيزنطية منذ القرن السابع الميلادي ليس سوى سجل حافل بالمؤامرات والفتن واصبحت ظاهرة السمل في كل مظاهرها أمراً مألوفاً لا يثير إنتباه أحد [٢] .

وإذا كانت عقوبات الجسد قد تنوعت وتعددت . لسبب أو لآخر وفقاً لمقتضيات العصور ، فمن الثابت أن هذه العقوبات ، وكان منها على

---

(٢) هشام صادق ، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية ، ص ٧٩ وما بعدها

سبيل المثال لا الحصر عقوبة سمل العين . قد تأثرت ببعض الأحداث السياسية والتطورات التاريخية . وأثرت أيضاً في البعض الآخر من هذه الأحداث وعلى هذا النحو كانت هذه الظاهرة واقعاً ملموساً في تشريعات مجتمعات العصور الوسطى ، وأيضاً كانت حقيقة أكثر واقعية في تاريخ وسياسات هذه المجتمعات . وهذا ما سوف يكشف عنه هذا البحث .

ظاهرة سمل العين في تشريعات العصور الوسطى

أ - عند المسلمين :

المقصود بسمل العين ، عند المسلمين ، فقؤها . ويقال سملت عينه تسمل ، إذا فقئت بحديدة محماه ، ويذكر ابن منظور نقلاً عن أبي عبيدة بأن السمل هو : أن تفقأ العين بحديدة محماه أو بغير ذلك ، وقد يكون السمل فقأها بالشوك ، وأورد بيتاً من الشعر لأبي ذويب يرثى بنين له ماتوا ، فقال :

فالعين بعدها كأن حداقها

سملت بشوك فهي عور تدمع [(٣)]

ويقال سمر العين أي سملها أو كحلها بمسمار من الحديد تم وضعه في النار حتى الإحمرار ثم يوضع رأسه في وسط العين فيفقؤها [(٤)] . والسمر والسمل كلمتان مترادفتان يقصد بهما فقأ عين الإنسان ، وفقأ العين بالمسمار أو بالشوك أو بأي آلة أخرى يطلق عليها السمر أو السمل

---

(٣) محمد بن مكرم بن منظور لسان العرب تحقيق على شيري (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م) جـ ٦ ص ٣٧ ، وللمزيد انظر ، محمد مرتضى الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس (مصر : المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ) جـ ٧ ، ص ٣٨١

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٦ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١

فالكلمتان تفيد معنى واحداً وهـو القضاء على بصر المسمول أو المسمور [(٥)] .

وكلمة سمال تطلق على الشخص الذي يقوم بتنفيذ عملية السمل ، ويذكر أن رجلاً من العرب لطم رجلاً آخر ففقأ عينه ، فسمى سمالاً [(٦)] ، ويذكر الجوهري أن إعرابياً فقأ عين رجل فسمى ولده وأحفاده وجميع أفراد أهل بيته بني سمال ، وذكر في رواية أخرى أن أبي سمال كان كنية رجل من بني أسد [(٧)] .

وظاهرة السمل عند المسلمين منهي عنها تشريعياً لأنها جزء من التشويه أو التمثيل بالإنسان [(٨)] ، ورغم أنها لم تكن شائعة في صدر الإسلام وفي عهد الدولة الأموية ، إلا أن بعض كتب السنة وغيرها من المصادر الإسلامية المبكرة تورد قصة قوم عكل الذين جاءوا إلى الرسول ﷺ في المدينة وأعلنوا إسلامهم ثم أصابهم مرض فشكوا ذلك إلى

---

(٥) وللمزيد من التوضيحات عن كلمتي « السمر والسمل » للعين ، انظر ، ابن منظور . لسان العرب ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ ، الزبيدي ، تاج العروس ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧ ، اسماعيل بن حماد الجوهري . تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح) . تقديم عبد الله العلايلي ، واعداد وتصنيف نديم واسامة مرعشلي (بيروت : دار الحضارة ، ١٩٧٤م) الجزء الأول (أ - ص) ، ص ٦١٣ .

٦ - ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ ، الزبيدي ، تاج العروس ، جـ ٧ ، ص ٣٨١ .

(٧) الجوهري ، الصحاح ، الجزء (أ - ص) ، ص ٦١٣ . وهناك معاني عديدة لكلمة «سمل» ، فيقال : - السمل بكسر الميم أي الخلق من الثياب ، والسملة ، أيضاً : الماء القليل عندما يبقى في أسفل الإناء أو غيره ويقال سملت بين القوم سملاً أو أسملت إذا أصلحت بينهم . والسمال : شجر باليمن ، والسوملة : الأرض الواسعة ، وقيل : الجوف الواسع من الأرض . وسمويل ، طائر وقيل بلدة كثيرة الطير . وللمزيد من التفاصيل ، انظر . الجوهري . الصحاح ، الجزء (أ-ص) ص ٦١٣ وما بعدها ، الزبيدي ، تاج العروس ، جـ ٧ ، ص ٣٨١ ، ابن منظور ، لسان العرب، جـ ٦ ، ص ٣٧١ .

(٨) وللإطلاع على تفصيلات أكثر عن المثلة وما ذكر عنها في بعض كتب التراث ، انظر . غيثان بن علي بن جريس ، « صور من تاريخ المثلة منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بني العباس » مجلة الدارة (العدد الأول ، سنة (١٨) ١٤١٢هـ) ص ٨٤-١٠١ ، وللمؤلف نفسه ، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) جـ ١ ص ١٦١ - ١٧٨ .

الرسول ﷺ فقال : « الا تخرجوا مع راعينا في ابله فتصيبوا من ألبانها وأبوالها ، قالوا بلى ، ثم لحقوا بالراعي وعملوا بنصيحة الرسول ﷺ فصحت أجسادهم ثم قاموا بقتل راعي الرسول ﷺ وساقوا الأبل راجعين إلى أوطانهم فبعث وراءهم من جاء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم نبذهم في الشمس حتى ماتوا [(٩)] » .

وهذا التصرف الذي صدر من الرسول الكريم كان مبنياً على أسس فقهية شرعية ، حيث نزل قول الله تعالي (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » [(١٠)] وبهذا يتضح لنا أن الإسلام بل الرسول ﷺ طبق عقوبة السمل والتنكيل على من حارب الله ورسوله واعتدى على المسلمين بالقتل كما حدث مع أولئك النفر من قبيلة عكل . وثبت عن الرسول ﷺ أنه قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : رجل زنى بعد إحصانه فإنه يرجم، أو رجل قتل رجلاً متعمداً فيقتل ، أو رجل يخرج من الإسلام يحارب الله ورسوله فيقتل أو يقطع أو يصلب » وما فعله أولئك النفر من عكل :

---

(٩) أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري . صحيح البخاري (القاهرة : دار مطابع الشعب، د.ت) جـ ٨ ، ص ٢٠١-٢٠٢، مسلم بن الحجاج بن مسلم . صحيح مسلم بشرح النووي (بيروت : دار الفكر ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٨م) . جـ ١١ ص ١٥٣-١٥٦، أحمد بن شعيب بن علي النسائي . سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي (بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت) مج ٤ ، جـ ٧ ، ص ٩٤،أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) جـ ٧ ، ص ١٤٧ وما بعدها ، سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود . صحيح سنن المصطفى (القاهرة : المطبعة التجارية ، د.ت) جـ ٢ ، ص ٢٢١، أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد بن حنبل (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) جـ ٣ ، ص ٢٨٧ .

(١٠) سورة المائدة ، آية / ٣٣ .

أنهم حاربوا الله ورسوله بقتلهم الراعي ثم إرتدادهم عن الإسلام ، فهم عندئذ استحقوا ما نزل بهم من عقاب [11] .

وقد اختلف العلماء في المراد من الآية السابقة ، فقال الإمام مالك أن الإمام مخير في تطبيق القتل أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي ، ثم يختم حديثه بقوله : « .. إلا أن يكون المحارب قد قتل فيحتم على الإمام قتله » [12] ويذكر أبو حنيفة قوله إن الإمام بالخيار وإن قتلوا ، وقال الشافعي وآخرون إن قتل المحاربون ولم يأخذوا المال قتلوا ، وإن قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، فإن أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فإن اخافوا السبيل ولم يأخذوا شيئاً ولم يقتلوا طلبوا حتى يعزروا ، وهو المراد بالنفي [13] .

ومما ثبت عن الرسول ص أنه عاقب أولئك المحاربين لله ورسوله ، وكانت عملية سمل عيونهم إحدى العقوبات التي نفذها فيهم ، ولكن كما أشار بعض العلماء إن هذه الحادثة التي وقعت مع قوم قبيلة عكل كانت قبل أن تنزل الحدود [14] ، فلم تذكر المصادر التاريخية أن أحداً من

---

(١١) النسائي ، سنن ، مج ٤ ، جـ ٧ ، ص ٩٤ وما بعدها .

(١٢) مسلم ، صحيح مسلم ، جـ ١١ ، ص ١٥٣ وما بعدها .

(١٣) المصدر نفسه ، جـ ١١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٤) المصدر نفسه ، جـ ١١ ص ١٥٤ ، ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ ، عبد السلام بن تيمية . المنتقى من أخبار المصطفى (بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٤م) جـ ٢ ، ص ٧٣٣ . والحدود كما هو معروف : زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر وترك ما أمر ، وقد نزلت في القرآن الكريم على أنها حق الله ، وهي تكون في عقوبات الزنا والقذف والسرقة وشرب الخمر ، بقصد صيانة النسل والعرض والمال والعقل . لمزيد من التفصيلات انظر ، علي بن محمد الماوردي . الأحكام السلطانية في الولايات الدينية (بيروت: دار الكتاب العربي ، د.ت) ص ٣٦١ وما بعدها . تقي الدين أحمد المقريزي . كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية) . القاهرة ، د.ت ، ١٣٢٦ هـ) جـ ١ ، ص ١٤٤ ، جـ ٣ ، ص ٣٠٢ .

المسلمين طبقها في عهود الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ، وكذلك العهد الأول من حكم دولة بني العباس [(١٥)] ، ولا يمكننا القول بأن التشريع الإسلامي في عصره المزدهر في العهود الوسطى قد تأثر بتشريع الرومان أو غيرهم [(١٦)] لأنه تشريع إسلامي صرف يعبر عن طبيعة المجتمع الإسلامي المتطور ، [(١٧)] ولأن الأصل الديني للقانون هو عدم جواز تعديله إلا عن طريق قانون سماوي آخر فإن أحداً لا يستطيع تعديل أحكام الشريعة الإسلامية لأن زمن النسخ قد ولى بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام [(١٨)] .

ب - عند الاوروبيين :

أما إذا إنتقلنا إلى الحديث عن ظاهرة سمل العين في التشريعات الأوروبية في العصور الوسطى ، فإننا نجد من المناسب أن نشير أولاً بإيجاز إلى تطور هذه التشريعات ، وما اقتضته الظروف والملابسات التي أحاطت بتطبيق العقوبات ، وأنواع هذه العقوبات .

فإذا كان القانون الأوروبي قد بدأ دور التقنين في عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) فإنه بلغ ذروته في عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) ، إذ أنه في عام ٥٢٩م أصدر جستنيان قانونه ، راغباً في إعادة تنظيم المجموعة القانونية الرومانية بأكملها ، لكي ينقيها من جملة التكرارات والمتناقضات والغموض ، وفي عام ٥٣٣م أصدر المصنف الهائل المعروف

---

(١٥) مسلم ، صحيح مسلم ، جـ ١١ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٦، ص ٣٧١، ابن تيمية ، المنتقى ، جـ ٢ ص ٧٣٣ .

(١٦) هناك العديد من التشريعات والقوانين الوضعية التي تختلف عن تشريعات الإسلام والتي كانت تمارس عند كثير من المجتمعات غير المسلمة ، امثال الرومان والفرس والهنود وغيرهم . وعقوبة السمل كانت احدى العقوبات المطبقة عند الرومان ضمن قوانين وتشريعات معينة . وللمزيد من التفصيل انظر الصفحات التالية والأخيرة من هذا البحث .

(١٧) للمزيد انظر ، احمد أمين . فجر الإسلام (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩م) ص ٢٤٦ وما بعدها .

بالموجز Digest وهو عبارة عن تنقيح لمجموعة من المؤلفات القانونية يبلغ عددها ألفي مؤلف تتمشى مع روح الحاضر وليكون المرجع الأعلى في جميع المسائل القانونية ، وحرص على إصدار ملخص لهذا المصنف ، ثم أصدر أخيراً سلسلة مطولة من القوانين التكميلية أسماها القوانين الجديدة (Novellae Leges) ، وبها أصبح القانون الروماني متمشياً مع أحدث التطورات (١٩) .

وكانت هذه القوانين رومانية في روحها وليست مسيحية ، بدليل احتفاظها بالطلاق والسرقة ، وعقوبة الإعدام . وحتى بعد أن سيطر الفكر الديني على الحياة الأوروبية بشكل عام بعد ذلك ، فقد انقضى وقت طويل قبل أن يسمح للقانون بالتأثر برغبات الكنيسة المسيحية .

ونظراً لمجموعة المتغيرات التي طرأت على الإمبراطورية البيزنطية في عصر الفتوحات الإسلامية خلال القرن الهجرى الأول (السابع الميلادي) ، وخروج بعض البلدان من حوزتها مثل الشام وفلسطين ومصر في الشرق وشمال أفريقيا في الجنوب والأجزاء الشمالية من شبه جزيرة البلقان ، لم تعد الإدارة في حاجة إلى اللغة اللاتينية لغة للقانون السائد ، وأصبحت اللغة اليونانية هي السائدة واصبح من اللازم تصنيف قانون جديد . فعهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (٧١٧-٧٤١م) إلى لجنة اختار بنفسه أعضاها ، وأسفرت عن إصدار قانون عام (٧٣٩م) عرف باسم

---

(١٨) انظر هشام صادق ، تاريخ النظم القانونية ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(١٩) وللمزيد من التفصيلات انظر . الحفناوي وعكاشة ، النظم الإجتماعية ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، نورمان بينز . الإمبراطورية البيزنطية ، تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام . تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد (القاهرة ، د. ن ، ١٩٥٠م) ص ٢٥١ . ولقد كان جستنيان يبغى من هذا العمل (القوانين الجديدة) تجميع القانون الروماني الوضعي .

الإكلوجـــا (Ecloga) بمعنى : المختار الموجز من القوانين ، وهذا المعنى يدل على المصادر التي جاءت منها هذه المختارات [٢٠] .

والمتأمل لتشريعات الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري يجد أنه قد بدأ مرحلة تشريعية جديدة تميزت وعرفت باسم تشريعات الأباطرة اللاأيقونيين، ودون الدخول في تفصيلات هذا الإصطلاح لابد من الإشارة إلى أن الشيء الهام في هذا الشأن هو أن الدولة الإسلامية منذ فجر ظهورها قد احتكت بالدولة البيزنطية وتأثرت بها كما أنها أثرت فيها ، فهناك التأثير المتبادل والتبادل الحضاري ، حتى أن حركة بيزنطية بحتة هي حركة تحطيم الصور المقدسة كانت قد تأثرت بتعاليم الإسلام التي تحارب الوثنية في شتى صورها [٢١] ، بينما نجد في العالم البيزنطي أن الكنيسة لم توفق فيما وفق فيه العالم الإسلامي من صياغة القوانين صياغة جديدة مبنية على أساس العقيدة الدينية المسيحية وحدها ، بل تركت بعض الحكام مثل هؤلاء الذين ينعتون باللايقونيين يقومون بمهمة وضع قوانين جديدة كانت تمثل تراجعاً عن روح القانون الروماني [٢٢] . بينما يمكن القول بأنه ليس من المحقق أن كانت الدولة الإسلامية وخاصة في العصر العباسي الأول قد تأثرت بما يجري من

---

(٢٠) A.A. Vasiliev . The History of Byzantime Empire 324 - 1453, 2 vols, (Madison , 1970-1971) PP. 141,242-243, Ostrogorsky . History of the Byzantine State . Trans. Joan Hussey (Oxford , 1956) PP. 140- 141 .

(٢١) كما سميت حركة تحطيم الصور باسم الحركة اللاأيقونية Iconoclasm ، وكانت هذه الحركة القاسم المشترك لكثير من أحداث الإمبراطورية البيزنطية سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، كما كانت هذه الحركة محاولة للقيام بإصلاح إجتماعي وسياسي علاوة على كونها إصلاحاً دينياً . انظر :

A-Bailly . Byzance , (Paris 1939) P. 192 C.Diehl . Histoire de L'Empire Byzantine, (Paris , 1934) P. 80 .

عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ، ١٩٦٧م) ، ص ٨٣ .

(٢٢) وللمزيد ، انظر ، بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

عملية السمل في الدولة البيزنطية أم لا ، لأن معظم حوادث السمل التي ظهرت في تاريخ الإسلام كانت في العصر العباسي الثاني ، كما سنرى في الصفحات التالية:

وهكذا نجد أن إهتمام ليو الثالث الإيسوري بالنواحي الدينية جعلته يحرص على طبع القانون بالطابع الإنساني ،وذلك عن طريق إدخال المبادىء المسيحية ليكون القانون أكثر إنسانية ، وهكذا تجلى أثر النصرانية في القانون الجنائي عن طريق تقييد عقوبة الإعدام وإحلال عقوبة قطع الأوصال وسمل العين مكانها . ومن ثم فقد أخذت عقوبة الإعدام في التقلص ، وهذا ما ميز قانون الجنايات البيزنطي في هذه الآونة (٢٣).

وبمجيء عصر الإمبراطور بازيل الأول المقدوني (٨٦٧هـ/ ٨٨٦م) بدأت فترة تشريعية جديدة لها خصائصها ، إذ غلب عليها صفة الرجوع إلى قانون جستنيان ، واستمرت هذه الفترة خلال حكم الأباطرة المقدونيين، الذي استمر حتى عام ١٠٥٧ م ، فقد أراد العودة إلي ما كانت عليه أمور التشريع في عهد جستنيان ، وبمعنى آخر كان يهدف إلى إضعاف الدور الديني الكنسي عكس الحال أثناء حكم الأباطرة الأيسوريين . ورغم هذا فقد استمر بعض ما كان موجوداً في قانون العقوبات ، ومنها على سبيل المثال عقوبة سمل العين (٢٤).

ولعل أهم ما يبرز صحة هذه التطورات التشريعية بخصوص هذه العقوبة التي نتناولها في هذا البحث . تلك الصورة التي وردت في أحدى اللوحات الفنية البيزنطية التي تصور كيف عاقب الإمبراطور بازيل الأول المقدوني قائده ليو ، وتعرض اللوحة لهذا الأمر من خلال ثلاث مراحل ، الأولى :

(٢٣) رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٨١-٨٣ .
(٢٤) المرجع نفسه ، ص ٨٢ - ٨٥ ، بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٤-١٥٥

أثناء إصدار العقوبة عليه وإدانته ، الثانية : أثناء تنفيذ عقوبة السمل ، إذ يقوم المكلف بالتنفيذ - ويسمى السمال عند العرب - بفقأ عينه اليمنى ، بسيخ حديدي ساخن حتى الإحمرار ، الثالثة : أثناء تنفيذ عقوبة بتر اليد إذ يقدم المذنب (ليو) يده عل قطعة خشب ليقوم نفس الشخص السابق المكلف بالتنفيذ ببتر يد ليو من المعصم (٢٥) .

وعلاوة على عقوبة سمل العين ، فقد اقترن بتنفيذ هذه العقوبة عقوبة أخرى وهي مصادرة الأموال (٢٦) ، ولكن : هل كان من حق المتهم تقديم التماس للتخفيف ؟ حقيقة كان هناك ما يسمى بـ (حق الإلتجاء) . وبمقتضى هذا الحق كان يلجأ المتهم لرجال الدين طالباً التخفيف ، ولكن هذا الحق لم يكن يسري على جميع المذنبين ، ويبدو أن المذنب السياسي فقط لم يكن له حق التمتع بحماية أو إجارة رجال الدين (٢٧) .

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي ، قام الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) خليفة بازيل الأول بوضع مجموعة جديدة باللغة الإغريقية أخذت عن مجموعات جستنيان بعد تطويع نصوصها ، وتعرف هذه المجموعة

---

(٢٥) انظر :
Sherrard . Byzantium (Nederland , 1967) PP. 70 - 71 .

(٢٦) انظر ، بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٤ - ١٥٥ . . ومصادرة العقارات والأموال من العقوبات التي كان يطبقها بعض خلفاء بني أمية وبني العباس على أعدائهم من الوزراء والأمراء ، ورجال الدولة المناوئين لهم خلال العصور الإسلامية الوسيطة ، وللمزيد من التفصيلات انظر محمد بن جرير الطبري . تاريخ الأمم والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت : دار سويدان ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م) ، جـ ٨ ، ص ٢٩١٠ ، علي بن الأثير ، الكامل في التاريخ (بيروت : دار الكتب العربية ، ١٣٨٧هـ) جـ ٥ ، ص ١٧٤ ، عماد الدين أبو الفداء ابن كثير . البداية والنهاية (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٣٥١هـ) جـ ٩ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت : دار الأفاق الجديدة ، د. ت) ص ٣١١ ، ٣١٤-٣١٥ ، راجع أيضا : شاكر مصطفى . دولة بني العباس (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣م) جـ ١ ، ص ١٥٦ .

(٢٧) انظر بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

باسم البازيليكا Basilica نسبة إلى الإمبراطور بازيل الذي بدأ في وضعها ، ولكنها لم تتم إلا في عهد خلفه ، ظلت هذه المجموعة بما حوته من مختلف فروع القانون وتطبيقاته وعقوباته ، بما فيها من عقوبات القطع والسمل مطبقة حتى سقوط القسطنطينية في يد الأتراك مع إضافة الحواشي والتعليقات التي ظهرت خلال القرون اللاحقة ، ولم تلغ هذه المجموعة مجموعات جستنيان ولكن ترتب على تطبيقها إهمال الرجوع إلى هذه المجموعات بالتدريج (٢٨) .

ولو وقفنا عند ممارسة عقوبة السمل لتوضيح ما ينتج عنها لدى الشخص المسمول من آثار نفسية وإجتماعية وإقتصادية لوجدناها تأتي في مرتبة بين عقوبة الإعدام وبين عقوبة التقطيع ، فمن يتم إعدامه ينتهي أمره بالموت ، ومن يتم تقطيع أحد أطرافه مثل يده أو رجله أو أنفه فربما يستطيع أن يمارس عمله بصورة معتادة ، وربما يستعيد نفوذه إن كان ذا منزلة ، كحاكم أو غيره ، ومن طبق عليه عقوبة السمل فربما يمارس عمله ولكن في مستوى أقل من قطع اليد أو الرجل ، كما أنه قد لا يستطيع تصريف حياته أو إستعادة سلطته إن كان ذا سلطة ، ويؤكد ما ذهبنا إليه : أن بعض خلفاء أو أمراء ووزراء الدولة الإسلامية ، وكذلك أباطرة الدولة البيزنطية ، كما سيأتي بعد ، قد تعرضوا لعقوبة سمل العين ، لسبب أو لآخر ، فلم يعرف أن أحدهم قد عاد إلى ممارسة نشاط الحكم وهو ضرير ، بعكس عقوبة أخرى مثل جدع الأنف أو غيره ، فعلى سبيل المثال : تعرض الإمبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥م) لثورة أدت إلى القبض عليه ونفيه إلى خرسون في شبه جزيرة القرم بعد أن جدع أنفه ، ولكن تمكن من العودة إلى عرشه من جديد بعد أن أمضى في المنفى عشر سنوات ،

---

(٢٨) انظر الحفناوي وعكاشة . تاريخ النظم الإجتماعية ، ص ١١١-١١٢ .

واستمر يحكم ست سنوات أخرى (٧٠٥ - ٧١١م) وهو مجدوع الأنف(Rhinotmetus) غير مكترث بما أصابه من التشهير والتشويه(٢٩).

* ظاهرة سمل العين في العصور الوسطى

أ - عند المسلمين :

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن هذه الظاهرة ، وكيف طبقت والظروف التي جعلتها تطل علينا بين الأحداث السياسية التي نقرؤها في كتب التاريخ من خلال المصادر الأصلية والأحداث المعاصرة : نجد أن هناك روايات تاريخية ، على سبيل المثال لا الحصر ، تذكر ظاهرة استهداف فقأ العيون في بعض المعارك الحربية التي حدثت بين المسلمين وغيرهم من أعداء الدين أثناء الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ،ويذكر البلاذري (٣٠) الحروب التي وقعت بين المسلمين وبين أهل النوبة في دنقلا (٣١) في زمن ملكهم قاليدرون (Qualidrun) وكان والي مصر

---

(٢٩) وتجدر الإشارة إلى أن قوة إرادة جستنيان الثاني الذي تعرض لهذه العقوبة جعلت عقوبة جدع الأنف لدى حكام الدولة البيزنطية أقل أهمية ، بل لم يعد لها مكانة كبيرة ولم يجر تنفيذها مستقبلاً على الأباطرة المخلوعين أو المغتصبين . وللمزيد من التفصيلات عن أنواع العقوبات المستخدمة في العصور الوسطى ومدى أثر كل عقوبة على من تنفذ فيه ، انظر آدم متز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري . نقله من الألمانية إلى العربية ، محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م) جـ ٢ ، ص ١٤٩ - ١٦٥ .

(٣٠) أحمد بن يحي البلاذري ، فتوح البلدان . تحقيق صلاح الدين المنجد . (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية . د.ت) ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣١) كانت بلاد النوبة خلال فترة ظهور الإسلام ، تنقسم إلى جزءين هما : - مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا ، ومملكة علوه في الجنوب وعاصمتها سوبا . انظر تفصيلات اكثر عن موقع وجغرافية بلاد النوبة ، مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبه في العصور الوسطى . (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٠م) ص ١ - ٢٢ .

آنذاك ، في خلافة عمر بن الخطاب ، هو عمرو بن العاص الذي أرسل حملته لمحاربة النوبيين في أرض النوبة (٣٢) ، ويشير البلاذري إلى أن أهل النوبة كانوا في مواجهتهم للمسلمين يسعون إلى تسليط نبالهم وسهامهم نحو عيون المسلمين ، وقد استطاعوا إصابة نحو مائة وخمسين عيناً من عيون المسلمين ففقأوها ، ومن دقة النوبيين في رمي عيون المسلمين سموا بـ « رماة الحدق » (٣٣) .

ويورد الطبري رواية أخرى تشابه إلى حد كبير تلك الرواية التي ذكرها البلاذري ، فيشير إلى إحدى الحروب التي دارت بين المسلمين والفرس في عام ١٢ هـ / ٦٣٣م ، والتي اطلق عليها اسم « ذات العيون » في زمن الخليفة أبي بكر الصديق ، ويذكر أن قائد الجيش الإسلامي في تلك المعركة كان خالد بن الوليد الذي أمر رجاله بإتباع طريقة يقاتلون بها الفرس ويستطيعون هزيمتهم فقال بهذا الشأن « إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب - يقصد الفرس - فارموا عيونهم ولا تقصدوا غيرها » فسمع المسلمون نصيحة القائد خالد بن الوليد وتمكنوا من فقأ ألف عين من أعين رجال الفرس ، فانتصر المسلمون عليهم وأطلق على تلك الوقعة «ذات العيون » (٣٤) .

(٣٢) وللمزيد من التفصيلات عن الحروب التي جرت بين المسلمين وأهل النوبة في عهدي الخليفتين الراشدين ، عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، انظر : عبد الرحمن بن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر واخبارها (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٢٠م) ص ١٨٣-١٨٤ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، راجع أيضاً : مصطفي مسعد ، الإسلام والنوبة ، ص ١١١- ١١٣ ، يوسف فضل ، « انتشار الإسلام في سودان وادي النيل » ، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية » الخرطوم ٢٨/ ٣٠ يوليو / تموز ١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٢٧- ٣١ .

(٣٣) انظر ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٧ - ٣٧٥ ، ويذكر أن بعض المسلمين قد فقئت أعينهم في بعض المعارك خلال الفتوحات الإسلامية ، أمثال : المغيرة بن أبي شعبة ويزيد بن أبي سفيان . انظر الطبري ، تاريخ الأمم والملوك . جـ ٣ ، ص ٥٢٤ .

وتشير بعض مصادر التاريخ الإسلامي فتسهب في ذكر الحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس في زمن الخليفتين الراشدين ، أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما (٣٥) ، ويذكر الطبري : أن الفرس في حربهم ضد المسلمين في عهد عمر بن الخطاب كانوا قد أحضروا معهم الفيلة أكثر من مرة لمحاربة المسلمين وإرهابهم ، وعندئذ بدأ المسلمون يفكرون في الكيفية التي يمكن بها التصدي لتلك الفيلة فرأوا أن أنسب وسيلة لمواجهة تلك الفيلة هي رميها بالسهام والنبال في أعينها وفقؤها ، وبذلك نجح المسلمون في حروبهم ضد الفرس ، ووضعوا حداً لهجمات فيلة الفرس بفقأ أعينها ، وتخلصوا من الخطر الذي كان يحدق بهم من هجمات ودهس الفيلة (٣٦) وقد جادت قريحة الشاعر القعقاع بن عمرو بأبيات شعرية عديدة حفظها لنا الطبري ومنها :

فيولاً أراها كالبيوت مغيرة

أسمل أعياناً لها وماقيا (٣٧)

---

(٣٥) وللمزيد من تفصيلات أوسع عن الفتوحات الإسلامية في بلاد الفرس وغيرها ، انظر الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٥٤ وما بعدها ، عبد الرحمن بن خلدون . تاريخ إبن خلدون (بيروت : دار العلم للجميع ، د. ت) جـ ٢ ، ص ٨٤ وما بعدها ، راجع أيضاً : عبد الوهاب النجار . الخلفاء الراشدون (بيروت : دار الفكر ، د. ت) ص ٢٠٥ - ٢٤١ .

(٣٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ،ص ٥٥٧ .

(٣٧) المصدر نفسه ، وقد سبق البيت الذي ورد في المتن أبيات عديدة للقعقاع منها :

حضض قومي مضرحي بن يعمر

فله قومي حين هزوا العواليا

وما خام عنها يوم سارت جموعنا

لأهل قديس يمنعون المواليا

فإن كنت قاتلت العدو فللته

فإني لألقى في الحروب الدواهيا

ثم ذكر البيت المشار إليه في المتن . انظر ، الطبري .، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٥٥٧

ومما سبقت الإشارة إليه من ظاهرة فقأ الأعين في عهد الخلفاء الراشدين نجد أن هذه الظاهرة - حتى الآن - لم تتم بطريقة مرتبة ومنظمة لمن يراد سمله ، أو لمن يقوم بعملية السمل بغرض الإنتقام والتشفي أو التخلص وشل حركة من يراد سمله . وما لاحظنا من عملية فقأ العيون في بعض المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين أعدائهم من الفرس والنوبيين ليس إلا خطة عسكرية من قادة تلك المعارك يسعى من يمارسها إلى كسب النصر على عدوه ، ثم إن رمى عيون المقاتلين أو الفيلة بالنبال والسهام طريقة عسكرية إجتهادية قد يحالف النجاح من يقوم بها ، وربما فشل فلا يحقق ما يسعى إلى تحقيقه .

وبعد سمل الرسول ﷺ لقوم قبيلة عكل ، نجد المصادر التاريخية المبكرة لا تذكر استخدام السمل كعقوبة إلا في العصر العباسي الثاني ، وخاصة عصر النفوذ التركي (٢٣٢ هـ / ٨٤٦م - ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) بعد أن انتشرت الفوضى في بلاط الدولة العباسية ، وصار القادة الأتراك أصحاب الحل والعقد في شئون البلاد ، وأصبح البعض من صانعي القرارات في بلاط الخلافة يسعى إلى التفنن في تطبيق العقوبات والجزاءات على رجال السياسة وغيرهم من ذوي المناصب الإدارية والإجتماعية في البلاد ، وكان الخليفة العباسي القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣م) أول من ذاق عذاب السمل من خلفاء الدولة الإسلامية . والقاهر بالله كما أشارت بعض المصادر كان ميالاً لسفك الدماء محباً للمال ، سيء السياسة ، قليل الرغبة في إصطناع الرجال غير مفكر في عواقب الأمور . وعندئذ عزم قادة الأتراك على خلعه من الخلافة فرفض التنازل ، وقال لمن يريد عزله من الأتراك « إن لي في أعناقكم بيعة

وفي أعناق الناس ، ولست أبرئكم ولا أحللكم منها .. (٣٨) . وأخيراً أجبره القادة الأتراك على خلع نفسه عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م ، واستدعوا محمداً بن المقتدر العباسي فنصبوه بدلاً من القاهر بالله ولقبوه الراضي بالله ، ثم قاموا بكحل عيني القاهر بالله بمسمار حديد حتى سالت على خده ، ربما حتى لا يتمكن من العودة إلى العرش مرة أخرى بعد أن فقد واحدة من أهم حواسه ، ويذكر أنه قد رؤي وهو يستجدي العامة في شوارع بغداد ، ويسألهم أن يتصدقوا عليه حتى مات عام ٣٣٣هـ / ٩٤٤م (٣٩) .

ومنذ عهد الخليفة الراضي اختلت أمور الدولة العباسية أكثر فأكثر ، واضطربت شئونها الإقتصادية والمالية ، وخاصة بعد أن أمتنع معظم الولاة عن إرسال ما كانوا يرسلونه من الأموال إلى العاصمة في كل عام . وقد وصف الصولي في كتابه (الأوراق) حالة بغداد في أواخر عصر النفوذ التركي ، وخاصة في عهد ما عرف بـ « عصر أمرة الأمراء » (٤٠) فقال:

(٣٨) انظر جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م) ص ٣١١ ، ويذكر أنه في عهد الخليفة القاهر بالله انتشرت الفتن ، فثار عليه الجند وتآمر عليه كبار رجال دولته ، وقائده مؤنس المظفر ووزيره ابن مقلة ، ويقول السيوطي في هذا الصدد أيضاً « فتحيل القاهر عليهم إلى أن امسكهم ووبخهم وطين على ابن المكتفي بين حائطين ... » .

(٣٩) وللمزيد من التفصيلات عن حياة الخليفة القاهر بالله وكيف تم سمله ، انظر . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٣٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص١٧٨ ، مؤلف مجهول . العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، أم . دي غوى (ليدن : مطبعة بريل ١٨٦٩م) ص ١٤٣ .

(٤٠) ظهر منصب أمير الأمراء في عهد الخليفة العباس الراضي عام (٣٢٢هـ / ٩٣٣م) وذلك عندما قلد الخليفة محمد بن رائق من واسط والبصرة منصب الإمارة واطلق عليه لقب « أمير الأمراء » وبالتالي صار ابن رائق أعلى منصب في الدولة ، بعد الخليفة بطبيعة الحال ، ثم تنافس العديد من الرجال على هذا اللقب وصار يطلق على من تكون له الغلبة على أقرانه . وكانت سلبيات هذا المنصب أن أوجد الصراع والتنافس غير الشريف بين كثير من رجال وقادة دولة بني العباس . وللمزيد من التفصيل ، انظر أبو بكر الصولي . اخبار الراضي بالله والمتقي لله . أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٣ هـ ، نشره ج . هيوارث (القاهرة، ١٩٣٥م) ص ١٣٣-١٣٥، ٢٠١-٢٠٢، ٢٢٦، ٢٢٩ ، ٢٣٤، ٢٤٤-٢٤٧، ٢٨٢-٢٨٥ ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي . الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ، د.ن ، ١٩٢٣م) ص ٢٦١ وما بعدها ، أبو علي أحمد مسكويه . كتاب تجارب الأمم . نشره . هـ . ف . أمدرور (القاهرة ، ١٣٣٢- ١٣٣٣هـ / ١٩١٤-١٩١٥م) جـ١ ، ص ٣٥١، جـ ٢ ، ص ٢٨، ٧٢-٧٥ .

« .. إن العامة عاثوا في الأرض فساداً ، وانقضوا على الحمامات العامة وأخذوا ثياب من فيها ، وكثرت المصادرات وتفاقم شر اللصوص الذين تسلقوا لكبس الدور ليلاً ، وانتشرت ظاهرة سمل أعين الخلفاء والوزراء.. » (٤١) .

وخلال عصر إمرة الأمراء ظهر استبداد أمير الأمراء أبي عبد الله البريدي ، الأمر الذي جعل الخليفة العباسي المتقي ٣٢٩ هـ / ٩٤٠م - ٣٣٢ هـ / ٩٤٣م يطلب من الحمدانيين في الموصل أن يساعدوه ضد البريديين فأجابوا رغبته ، ودخل الحمدانيون إلى بغداد لنصرة الخليفة المتقي ، إلا أنهم لم يستمروا في بغداد سوى سنة واحدة ، ولم يكن على الخليفة المتقى إلا الخروج مع الحمدانيين إلى بلاد الجزيرة ، وبقى يتنقل معهم وهم يهزمون مرة بعد أخرى على يد القائد التركي أمير الأمراء « توزون » . وقد طلب الأخشيدي أمير مصر من الخليفة المتقي الذهاب إليه في القاهرة لكي يناصره على أعدائه حتى يعيده إلى ملكه ، ولكن الخليفة العباسي لم يقبل ، وعرض القائد توزون على الخليفة المتقي أن يعود إلى بغداد بعد أن أمنه وطمأنه ، ويذكر أن الخليفة أخذ على توزون المواثيق والعهود أكثر من مرة فعاد إلى بغداد بعد أن تأكد من صدق نواياه نحوه . وبعد عودة الخليفة لم يدم الصفاء بينهما طويلاً ، حيث كاتب الخليفة المتقي بني بويه يدعوهم إلى دخول بغداد فجاءوا إليها من بلاد فارس عام (٣٣٢ هـ / ٩٤٣م) ، ولكن توزون صدهم عنها ، ثم قبض على الخليفة المتقي وخلعه وأمر إحدى الجواري أن تسمل عينيه ،

---

(٤١) أبو بكر الصولي ، كتاب الأوراق . قسم أخبار الشعراء نشره ج. هيوارث (القاهرة ، ١٩٣٣ - ١٩٣٤م) ص ٧٦-٧٧ ، وللمزيد من التفصيلات ، انظر : الصولي أيضاً . أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٣٢ وما بعدها .

وعاش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة يعاني تلك الحالة إلى أن مات في داره[٤٢] .

أما عهد أمراء بني بويه الذي بدأ من عام (٣٣٤هـ / ٩٤٥م) فقد افتتح بفصل جديد أكثر ظلاماً في تاريخ الخلافة العباسية ، وكان المستكفي خليفة الخليفة المتقي ، وقادة بغداد وشعبها ينتظرون على أيدي بني بويه شيئاً من الإستقرار يستمدونه من سيطرتهم الكاملة على معظم أقاليم فارس الممتدة تحت سلطانهم ، إلا أن الأمير البويهي أحمد بن بويه والملقب بمعز الدولة لم يلبث بعد دخوله بغداد أن تنكر للخليفة المستكفي واتهمه بالتآمر عليه ، فقرر خلعه ، ويذكر كل من السيوطي وابن الأثير أن معز الدولة تحيل على المستكفي ، فدخل عليه ، وتقدم اثنان من رجاله إلى الخليفة فمد يده إليهما ظناً أنهما يريدان تقبيلها فأنزلاه عن السرير حتى طرحاه على الأرض وجراه بعمامته ، وهجم الديلم على دار الخلافة ونهبوها فلم يبق فيها شيء ، ومضى معز الدولة وساق المستكفي ماشياً إليه وسملت عيناه يومئذ واحضروا الفضل بن المقتدر وبايعه المستكفي ، وأشهد على نفسه بالخلع ، ثم سجن إلى أن مات سنة(٣٣٨ هـ / ٩٤٩م) ولقب الخليفة الجديد بالمطيع[٤٣] ، ليتأكد -مرة أخرى- أن عقوبة سمل العين كانت تسيس - أحياناً - في العالم الإسلامي من أجل خدمة وتأمين مستقبل واستقرار الحاكم الجديد .

---

(٤٢) وللمزيد من التفصيلات انظر ، الطبري ، تاريخ الأمم والملوك (طبعة بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) جـ ١١ ، ص ,٣٤٧. السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٦٦ ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ص ٣٠١ ، ويذكر السيوطي ما فعل توزون بالخليفة المتقي بعد سمله وخلعه فقال « :- « ادخل المتقي بغداد مسمول العينين وقد اخذ منه الخاتم والبردة والقضيب ، واحضر توزون عبد الله بن المكتفي وبايعه بالخلافة ، ولقب المستكفي بالله ثم بايعه المتقي المسمول واشهد على نفسه بالخلع ... » انظر . السيوطي . تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٦ وما بعدها .

(٤٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٨ ، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٣١٤ .

وهكذا قدر لاحفاد المنصور والرشيد أن ينحدروا إلى هذا المستوى من الضعف والإستكانة لدرجة وصلوا فيها إلى أن يستجدوا الناس والمصلين الصدقة على أبواب جوامع المنصورة وغيرها . وقد وصف المسعودي تلك الحالة بقوله : « .. فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ، ليس للخليفة حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم ، فأدى ذلك إلى سفك دم الخليفة وسمل أعينه مما أدى في النهاية إلى أفول نجم الخلافة وسقوطها .. » (٤٤) .

ولم تقتصر عقوبة السمل على خلفاء بني العباس فحسب ، وإنما تجاوزت محيطهم إلى مجتمع الأمراء والوزراء في بلاط الدولة العباسية ، وكذلك في بعض مجتمعات الدويلات الإسلامية التي ظهرت في العصور الإسلامية الوسطى . ففي عام (٣٧٦ هـ ٩٨٦/م) يذكر لنا كل من ابن الأثير والسيوطي الروايات التي جعلت الأمير البويهي شرف الدولة يسعى إلى سمل عيني أخيه صمصام الدولة ، وقد قام بذلك خوفاً أن يسلب منه سلطة الإمارة (٤٥) .

ونجد أن أمراء بني بوية قد بالغوا في استخدام عقوبة السمل فكانوا لا يتورعون من تطبييقها على بعض الوزراء والساسة في عهدهم ، ومما يؤكد ذلك ما قام به الأمير عضد الدولة عندما سمل عيني كل من الوزيرين أبن بقية وعلي بن أبي الفتح ابن العميد ، وذلك بسبب خوفه منهما لما لمس منهما من تمرد وعصيان ضده (٤٦) .

---

(٤٤) انظر . علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٣م) جـ ٤ ، ص ٢٢١ وما بعدها .

(٤٥) وللمزيد من التفصيلات عن شرف الدولة البويهي وقيامه بسمل عيني صمصام الدولة ، انظر . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٣٨ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص٣٧٨ .

(٤٦) ابن خلدون . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ .

وقد خلت مصادر تاريخ الدولة الفاطمية وتاريخ الدولة الأموية بالأندلس من الإشارة إلى وجود ظاهرة السمل في تلك البلاد ، إلا أنه من الثابت أن الدولة العثمانية عرفت هذه الظاهرة في بعض فترات تاريخها الطويل وفي داخل بلاط سلاطينها ونذكر على سبيل المثال لا الحصر السلطان العثماني، مراد الأول ، (٧٦٢ - ٧٩٢هـ / ١٣٦٠ - ١٣٨٩م) الذي أمر بسمل عيني ابنه الذي تآمر مع البيزنطيين على خلعه ، والمعروف أن الدولة العثمانية كانت تعاصر في كثير من فترات تاريخها الإمبراطورية البيزنطية التي شاعت فيها ظاهرة سمل العينين .

ب - عند الأوروبيين :

لا نلاحظ وجود ظاهرة السمل كثيراً في الغرب الأوروبي ، بينما نجدها منتشرة بشكل أوسع في الجزء الشرقي من البلاد الأوروبية فهناك العديد من أمثلة سمل العيون في بلاد الدولة البيزنطية وخاصة بين الساسة من الحكام . ففي عام ١٢٤هـ / ٧٤١م ، عندما كان الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥هـ) يواجه هجوماً قوياً من الدولة الأموية اندلعت عندئذ ضده ثورة بقيادة صهره (أخي زوجته) أرتابا سدوس الذي نجح في الوصول إلى العاصمة البيزنطية ، فاستمال الكثير وخلع على نفسه لقب الإمبراطور ، كما توج أكبر أبنائه شريكاً له . وبعد مشقة بالغة استطاع قسطنطين الخامس القضاء على هذه الثورة ، وأسر المتمرد أرتابا سدوس وحكم عليه وعلى ولده بسمل أعينهم ، كما أشتد في معاقبة كل من شارك وأيد هذه الثورة فقطع أوصالهم وسمل أعين كثيراً منهم (٤٧) .

(٤٧) وللمزيد من التفصيلات ، انظر .

Ostrogorsky , State, PP. 148 - 149 .

راجع أيضا : الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

وديع فتحي عبد الله . العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي ٧٤١-٨٢٠م / ١٢٤ - ٢٠٥هـ (الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠م) ص ١٢٧ - ١٣١ . وكان الخوف من الثورة العسكرية التي كان يقوم بها الجند أو القادة الدافع وراء شدة قانون العقوبات الموجود في قانون الجند ، الذي اقتبس من التفسيرات اليونانية لمجموعة قوانين جستنيان ، ثم الإكلوجا ، ثم القوانين التي صدرت بعد ذلك . انظر

Vasiliev , The History of the Byzantine , PP. 248- 249 .

وقد امتدت عقوبة السمل في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى رجال الدين ، الذين اعتنقوا عبادة الصور والإيقونات ، لأنه كان مناهضاً لعبادة الصور والأيقونات ، وبسبب هذا الأختلاف المذهبي استخدم الإمبراطور قائده ميخائيل لاخانودراكون في إضطهاد معتنقي الإيقونات ولا سيما الرهبان منهم ففي عام ٧٧٢ م جمع هذا القائد كل رجال الدين وخيرهم بين الزواج وبين التعذيب ، (حتى يجبرهم على الخروج من الرهبنة) فقال لهم : « من يرد منكم أن يطيع الإمبراطور فليرتد الرداء الأبيض وليصطحب له زوجة في تلك الساعة ، أما الذي لم يفعل ذلك فسيمضى منفياً مسمول العينين إلى قبرس [(٤٨)] .

ونظراً لأن غالبية الرهبان قد رفضوا هذا العرض المصحوب بالتهديد ، فقد نفذ القائد تهديده وقام بسمل أعين بعض منهم وإعدام البعض الآخر ، وكان تعليق الإمبراطور على هذه الأعمال أنه سعد بها وكتب إليه مهنئاً «لقد وجدت فيك ضالتي ، ولقد حققت رغبتي » [(٤٩)]

وظاهرة سمل أخرى قام بها الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) ضد عمه نقفور ، وقد حدثت بعد أن تولى الحكم ثم إنشغل بالحرب ضد البلغار مما سبب الضعف لحكمه وإزدياد نفوذ أمه إيرين التي قاسمته الحكم بعد أن حاول خصومه تنصيب عمه نقفور ، ولكي يحافظ الإمبراطور قسطنطين السادس على حكمه ويسلم من منافسة عمه نقفور بادر بالقبض عليه وسمل عينه ثم قطع ألسنة أعمامه الآخرين .[(٥٠)]

---

(٤٨) انظر :

Ostrogorsky , State, PP. 154 - 155, Vasiliev , The History of the Byzantine , PP. 262 - 263 .

راجع أيضا : الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، وديع فتحي ، العلاقات السياسية ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٤٩) المصادر نفسها .

(٥٠) المصادر نفسها .

أما عن أشهر حادثة لسمل العين ليس فقط على المستوى السياسي وإنما على المستوى الإنساني أيضاً ذلك السمل الذي حدث للإمبراطور قسطنطين السادس على يد أمه إيرين التي كانت وصية على عرش ابنها ، وبعد أن وصل إلى سن النضج ،لم ترضخ لطبيعة الحياة وتترك العرش لإبنها لكي يحكم منفرداً ، فقد كانت شهوة السلطة والحكم أكبر من عاطفة الأمومة التي حباها الله لكل أم تجاه أبنها . فقد نسيت إيرين هذه المشاعر الإنسانية ، وأخذت تفكر وتكيد له ، وتتآمر ضده للتخلص منه بأي شكل ، حتى هداها تفكيرها إلى تدبير مؤامرة انتهت إلى سمل عيني أبنها ، وهذا يعكس مدى شراسة الصراع على الحكم وعمق المشاكل الداخلية التي وقعت فيها بيزنطة ، وتذكر المصادر أن المؤامرة التي دبرتها إيرين لإبنها قد حدثت في الحجرة التي ولد فيها هذا الإمبراطور ، ويقال أن أمه أرسلته بعد ذلك إلى أحد الأديرة حيث أمضى عشرين عاماً هناك، وفي رأي آخر ، ينال تأييد الباحث ، يقال : إنه مات في نفس العام الذي دبرت فيه المؤامرة . ولعل أهم ما دفع الأم ، من الناحية السياسية إلى ذلك هو خوفها وخشيتها من شعبية وحب الجيش لأبنها ، وخوفها أيضاً من مغبة إتصال ابنها بشارلمان وما يترتب على هذا الإتصال من إمكانية حدوث تقارب بين الشرق والغرب . وهكذا سيطر على الأم إيرين طموح

الحكم المنفرد وليس طموح الحكم العادل ، والذي انتهى بهذه الجريمة اللاأخلاقية (٥١) ، وهكذا نلاحظ مدى ارتباط هذه الظاهرة بالأحداث التاريخية ، بل ودور هذه الظاهرة في تسييس الأحداث .

أما أشهر حادثة من حيث عدد من تعرض لعقوبة سمل العين فهي تلك التي قام بها الإمبراطور بازيل الثاني المقدوني (٩٧٦ - ١٠٢٥م) الذي واجه خطر البلغار في حرب طويلة الأمد هدم فيها أركان المملكة البلغارية التي بناها صمويل ، وقد حقق باسل نصره الحاسم عام ١٠١٤ حيث سمل في هذه المعركة أعين خمسة عشر ألف بلغاري إلا مائة وخمسين أبقى على عين واحدة لكل منهم ليعودوا إلي وطنهم بجماعاتهم ، وقد رأى

---

(٥١) انظر : وديع فتحي عبد الله ، العلاقات السياسية ، ص ٢٦٥ - ٢٦٧
للمزيد أنظر أيضاً :
Theophanes , Confessor , Chronographia , Patrologia , Graeca Ed Migne , Tome CVIII, paris 1863 , Cols 940-952, Georgius Hamartolus Monachus , Chronicon , P.G.M., Tome CX, Paris 1863 , Col 968, Cedrenus, G. Historiarum Compendium , P.G.M., Tome CXX11 , Paris 1864 et 1894, cols 908-9, Bar Hebraeus , The Chronography of Gregory Abul - Faraj , Tr from the Syrian by E.A. Willis Bidge , London , 1932. P. 120
وقد سملت ايرين عيني ابنها يوم الثلاثاء ١٦ من رجب عام ١٨١ هـ (١٥ من أغسطس ٧٩٧م) وانفردت بالحكم . وتذكر المصادر اليونانية (البيزنطية) أنها تلقبت بلقب أوغسطة (الحاكمة) وأصبحت أول إمرأة تسيطر علي الإمبراطورية البيزنطية كحاكمة مستقلة . وحرصت ألا تصف نفسها في الكتابات الرسمية بصفة التأنيث بازيليا (Basillissa) . بل جعلت اسمها بصفة التذكير بازيليوس (Basileus) وبدأت الاستمتاع بالحكم منفردة بعد ما بلغت الخمسين من العمر ، وذلك على حساب ابنها الذي ضحت به .
راجع أيضاً : وديع فتحي عبد الله ، العلاقات السياسية، ص ٢٦٩ ، انظر أيضاً :
Cedrenus , Historiarum , Georguis Hamartulus Chronicon , Col. 968.

بازيل أن يفعل هذا العمل ليكونوا عبرة لبني وطنهم ، أيضا أراد أن يفرغ نهائيا من هذه الحروب التي ظلت ثلاثين سنة تستنفد موارد الإمبراطورية البيزنطية ، كما أراد أن يبعث إلى كل قرية في بلغاريا أحد هؤلاء الأضراء التعساء ليكون شاهداً على قوة الإمبراطور بازيل الثاني الذي أخذ شهرته في التاريخ باسم جزار البلغار (Bulgaroctone) تمييزاً له عن سميه بازيل الأول مؤسس الأسرة المقدونية .(٥٢)

وهناك أمثلة صادفناها في التاريخ البيزنطي وتبرهن على استبدال حكم الإعدام بعقوبة سمل العين ، وذلك ما حدث في عهد الإمبراطور حنا الأول (٩٦٩ - ٩٧٦م) عندما قبض على قادة الثورة التي هددت عرشه ومعاونيهم ، وكان منهم بعض المرتزقة ، وصدر ضدهم حكم الإعدام ،غير أن الإمبراطور استبدل به سمل العين والنفي المؤبد (٥٣) . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا التعديل قد طبق على المواطن البيزنطي الأصل ، وأيضاً على الأجنبي الذي يعيش في بيزنطة ، فعلى الرغم من أن التفرقة بين الوطني والأجنبي لها مظاهر متعددة في التشريعات من حيث الحقوق والواجبات . إلا أن عقوبة سمل العين قد تجاوزت هذه التفرقة بين الوطني البيزنطي والأجنبي مما يعكس أنها كعقوبة في غالب الأمر كان لها مدلول سياسي لحماية الإمبراطور أكثر منها عقوبة قانونية لحماية المجتمع من الفساد (٥٤) .

---

(٥٢) انظر ، وسام عبد العزيز فرج . الإمبراطورية البيزنطية ، ٣٢٤-١٠٢٥م(د.ن، ١٩٨٣م) ص ١٣١٣ ، انظر أيضاً :

Schlumberger, L'Epopee, Tome II, 339-341, P. 410 .

(٥٣) انظر :

Schlumberger, G., L'E popee Byzantine a la fin du dixieme Siecle. 3 Vols, Paris 1896-1905, Tome I P. 64,P. 67.

(٥٤) انظر هشام صادق . تاريخ النظم القانونية ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

كما عرف عن الإمبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨م) تفضيله بل حبه لعقوبة سمل العين ، وقد صار كل فرد في العاصمة القسطنطينية حزيناً لهذا التفضيل رغم اعتراف الجميع بالجرم الذي يرتكبه من تطبق عليه هذه العقوبة ، أما الإمبراطور نفسه فكان يرى أن عقوبة سمل العين أخف من عقوبة الإعدام .(٥٥)

أيضاً الإمبراطور ميخائيل الخامس (١٠٤١ - ١٠٤٢م) لم ينج هو الآخر من السمل ، فيوم أن كان إمبراطوراً التفت إلى الإمبراطورة زوي (١٠٢٨ - ١٠٥٠م) التي اشترك معها في الحكم أزواجها (٥٦) ، ومنهم الإمبراطور ميخائيل الخامس ، فسجنها ثم نفاها خوفاً من ثورتها عليه ، ولكن نفي هذه الإمبراطورة لم يحم الإمبراطور من قيام ثورة في القسطنطينية تنادي بسقوط ميخائيل والإفراج عن زوي وإعادتها ، وكانت تلك الثورة عارمة قوية استطاع قادتها إسقاط الإمبراطور ميخائيل وإعادة الإمبراطورة زوي إلى حكم البلاد ، فلم يكن منها إلا أن قبضت على عدوها

---

(٥٥) انظر :
I. Zonaras , 1 , Epitome Historiarum , Ed, M., Pinder , and B, Buttner - worbst , 3 vols , Bonn, 1841-1897, (III. P. 570)
كانت عقوبة الإعدام تطبق على الخارجين على النظم البيزنطية ، أو على من هدد الإمبراطورية نفسها ، واحيانا يصاحب عقوبة الإعدام عقوبة تقطيع أجزاء الجسم أيضاً . ومنها على سبيل المثال:- عقوبة الإعدام التي تعرض لها المتمرد البيزنطي توماس السلافي الذي حاول الوصول إلى عرش الإمبراطورية على حساب الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني (٢٠٥-٢١٤هـ / ٨٢٠-٨٢٩م) ، وذلك بمساعدة الخليفة العباسي المأمون ، مقابل استيلاء الخلافة على مناطق معينة على الحدود البيزنطية . ولكن فشلت محاولة توماس وتم القبض عليه وقطعت يداه وقدماه ووضع على حمار ، وقد اخذ البيزنطيون يدورون به في الشوارع ، وتعرض للتعذيب وانتهي به الأمر إلى الإعدام .

(٥٦) اشترك مع الإمبراطورة زوي في الحكم ازواجها رومانوس الثالث (١٠٢٨-١٠٣٤م) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١م) ، وميخائيل الخامس (١٠٤١-١٠٤٢م) وأخيراً قسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٤م) . وللمزيد من التفصيلات انظر : عمر كمال توفيق . تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٠ .

ميخائيل الخامس وسملت عينيه [٥٧] .

وهناك أباطرة آخرون تم سمل عيونهم تحت ظل ظروف وملابسات مختلفة ، فالإمبراطور الكسيس الثالث (١١٩٥-١٢٠٣م) استطاع خلع أخيه إسحق الثاني إنجيلوس عام (١١٨٥-١١٩٥م) ، وحل محله في حكم البلاد ثم قبض على إسحق وسمل عينيه وألقاه في أحد السجون هو وأبنه [٥٨] ، كذلك من أشهر الأباطرة الذين تعرضوا للسمل الإمبراطور رومانوس الرابع (١٠٦٨ - ١٠٧١م) الذي هزم علي يد السلطان ألب أرسلان في موقعة ملا ذكرت عام ١٠٧١م ووقع أسيراً في يد السلطان السلجوقي ، وبعد أن أطلق سراحه عاد إلي عاصمته ولكنه خلع عن العرش وسملت عيناه ومات متأثراً بجراحه عام ١٠٧٢ [٥٩] ، ونلاحظ - هنا أيضاً - أن هذه الحادثة التي سملت فيها عين هذا الإمبراطور تبرهن على أنه أحياناً تستخدم هذه الظاهرة كوسيلة مؤثرة من وسائل انهاء الحياة السياسية لمن يمثلون خطراً على الحكم البيزنطي ، على إعتبار أنه يترتب على هذه العقوبة فقدان الشخص لأحد الحواس التي يجب أن يتمتع بها الحاكم .

كذلك يذكر أن معركة حاسمة جرت بين ملك البلغار حنا آنس الثاني وبين حاكم سالونيك تيودور انجليوس في مكان يطلق عليه كلوكو ثينترا وقد انتهت المعركة بانتصار حنا آنس فقبض على عدوه تيودور وسمل عينيه ثم سجنه [٦٠] .

(٥٧) وللمزيد من التفصيلات انظر ، جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣م) (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٤م) ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ستيفن رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٥٨) انظر ، جوزيف نسيم ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٤٦ .

(٥٩) انظر تفصيلات اكثر ، حسنين محمد ربيع . دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة، دار النهضة العربية . ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ١٩٤،
Ostrogorsky , State, PP. 305-306 .

(٦٠) حسنين ربيع ، دراسات ، ص ٢٧٧ .

كما أن رجال الدين والبطارقة لم يكونوا يسلمون هم الآخرون من عقوبة السمل فيذكر أن الإمبراطور ميخائيل الثامن (١٢٦١-١٢٨٢م) سملعيني البطريق حنا الرابع الإسكاريس في أغسطس عام ١٢٦١ (٦١) .

وخلاصة القول إن ظاهرة السمل قد عرفت عند الشعوب غير العربية قبل الإسلام مثل اليونانيين والرومان ولم تكن معروفة في صدر الإسلام اللهم إلا تلك الحالة التي طبقها الرسول (ﷺ) على قوم عكل الذين حاربوا الله ورسوله ومع أن الرسول نفذها حسب ما ذكرت بعض المصادر الإسلامية المبكرة إلا أن ذلك كان قبل نزول آية الحدود في كتاب الله ولهذا لا نجد أية رواية تذكر أن الرسول (ﷺ) نفذها بعد تلك الحالة الآنفة الذكر ، كذلك الخلفاء الراشدون وخلفاء دولة بني أمية . فلم نجد أي مصدر يذكر أن هذه الظاهرة استخدمت كعقوبة ، مع أن هناك إشارات إلى حوادث فقأ الأعين في الحروب ، كما حدث في الحروب التي وقعت مع المسلمين وأهالي فارس أو بلاد النوبة ، لكن إذا رويت فربما لا تعتمد عليها كقاعدة لأن المهم هو عملية سمل العين المعد والمرتب لها من قبل الفاعل والمنفذين لعملية فقأ العين .

ولم تعرف ظاهرة السمل عند المسلمين كعقوبة تطبق على من يراد معاقبته إلا منذ العصر العباسي الثاني وخاصة بعد أن صار الترك هم أصحاب الحل والعقد في البلاد ، عندئذ لم يتورعوا في الإعتداء على خلفاء ووزراء بني العباس وكانت عقوبة السمل من العقوبات التي تمت ممارستها في ذلك العصر . والسبب الذي جعل هذه الظاهرة تنتشر فيعيني البطريق حنا الرابع الإسكاريس في أغسطس عام ١٢٦١ (٦١) .

وخلاصة القول إن ظاهرة السمل قد عرفت عند الشعوب غير العربية قبل

---

(٦١) المرجع نفسه ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

الإسلام مثل اليونانيين والرومان ولم تكن معروفة في صدر الإسلام اللهم إلا تلك الحالة التي طبقها الرسول (ﷺ) على قوم عكل الذين حاربوا الله ورسوله ومع أن الرسول نفذها حسب ما ذكرت بعض المصادر الإسلامية المبكرة إلا أن ذلك كان قبل نزول آية الحدود في كتاب الله ولهذا لا نجد أية رواية تذكر أن الرسول (ﷺ) نفذها بعد تلك الحالة الآنفة الذكر ، كذلك الخلفاء الراشدون وخلفاء دولة بني أمية . فلم نجد أي مصدر يذكر أن هذه الظاهرة استخدمت كعقوبة ، مع أن هناك إشارات إلى حوادث فقأ الأعين في الحروب ، كما حدث في الحروب التي وقعت مع المسلمين وأهالي فارس أو بلاد النوبة ، لكن إذا رويت فربما لا تعتمد عليها كقاعدة لأن المهم هو عملية سمل العين المعد والمرتب لها من قبل الفاعل والمنفذين لعملية فقأ العين .

ولم تعرف ظاهرة السمل عند المسلمين كعقوبة تطبق على من يراد معاقبته إلا منذ العصر العباسي الثاني وخاصة بعد أن صار الترك هم أصحاب الحل والعقد في البلاد ، عندئذ لم يتورعوا في الإعتداء على خلفاء ووزراء بني العباس وكانت عقوبة السمل من العقوبات التي تمت ممارستها في ذلك العصر . والسبب الذي جعل هذه الظاهرة تنتشر في بلاط الدولة الإسلامية يمكن ايعازه إلي عدة أمور : -

١ - الضعف الذي خيم على نفوذ خلفاء بني العباس حيث صاروا العوبة في ايدي العناصر التي وصلت إلى بلاط الخلافة من الأتراك والديالمة والفرس .

٢ - التأثر الذي جلبته تلك العناصر معها فربما كانت ظاهرة السمل موجودة في محيط البلاد التي قدموا منها وخاصة في بلاد المشرق وعندما اصبحوا ساسة البلاد صاروا لا يتورعون في تطبيقها على

من يرون معاقبته.

٣ - كذلك الشيء الذي لا نشك فيه هو تأثر تلك العناصر الإسلامية ببعض العادات والتقاليد عند الرومان والبيزنطيين ، وظاهرة السمل من العقوبات التي عرفت عندهم قبل الإسلام .

ولهذا فظاهرة السمل والتفنن في ممارستها ربما جلبت إلى بلاد المسلمين عن طريق البيزنطيين ، لأنه - كما شاهدنا في الصفحات السابقة - فإن ظاهرة السمل كانت من العقوبات المنتشرة في الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية . ومن يقارن ممارسة عقوبة السمل عند

المبحث التاسع

ملامح الحياة الإجتماعية في العراق خلال عصر بني العباس (*)

(*) هذه المقالة نشـــرت في مجلة المنهل العدد (٥٢٥) مج (٥٧) عام (٦١) الربيعان ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ١٦٨ - ١٧٤

ملامح الحياة الإجتماعية في العراق خلال عصر بني العباس

هناك صور من الحياة عديدة في المجتمع العراقي خلال حكم بني العباس (١٣٢هـ/ ٧٤٩م - ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ، منها ما استحدث مع واقع البيئة ، ومنها ما كانت ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام ، ومنها ما اقتبست من الأمم الأجنبية وخاصة الفرس ، وهذه الصور بالامكان ان يطلق عليها اسم : العادات والتقاليد ، التي سيطرت على عقول الناس ولاتزال مسيطرة حتى اليوم . هذا وتختلف هذه العادات والتقاليد باختلاف المناسبات ، فثمة عادات تظهر في مناسبات الأفراح والأعياد ، وهناك عادات أخرى تبرز في حالات الأتراح والأحزان وجميعها لها علاقة بالحياة الإجتماعية بصفة عامة .

ومن مناسبات الأفراح ، الإحتفال بالأعياد الدينية والمواسم القومية ، ويذكر أن العرب في جاهليتهم كانوا يحتفلون ببعض الأعياد والمواسم ، ويظهر أن أعظم أعيادهم كانا اثنين . فقد روى المحدثون والمؤرخون أن الرسول ﷺ قدم المدينة ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل قد أبدلكم خيراً منهما : يوم الفطر ، ويوم الأضحى ، فأول ما بدىء به من العيدين في المدينة عيد الفطر ، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة ، وفيها كان عيد الأضحى أيضا [١] ، ويقال أن العيدين اللذين كانا في الجاهلية هما المهرجان والنيروز [٢] . وقد كانت للجاهلية مواسم أخرى يعيدون فيها ويفرحون ، وهي مواسم الأسواق التي كانت لهم

(١) انظر تفصيلات أكثر في كتاب النويري ، نهاية الارب ، جـ ١ ، ص ١٧٧ وما بعدها .
(٢) انظر كتاب بلوغ الأرب ، للسيد محمود شكري الألوسي ، جـ ١ ، ص ٤٠٤ ، (طبعة بغداد) .

في الجاهلية كأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وكأعياد الفرس التي كان يحتفل بها متحمسة العرب ، وأعياد اليهود والنصارى التي كان يعيد فيها متهودو العرب ومتنصروهم .

فلما بزغت شمس الأسلام نهى الرسول ﷺ عن الإحتفال بغير عيدي الفطر والأضحى ويظهر أن الرسول الأعظم قد لاحظ أنه لابد لكل أمة من عيد يفرح فيه الصغير ، وينشرح به صدر الكبير ويروح فيه عن نفسه ، وأنه لابد لكل عيد من مناسبة ، وقد خشي الرسول ﷺ أنه إن أبقى الإحتفال بذينك الموسمين الوثنيين (المهرجان والنيروز) أن يكون ذلك تنويهاً بشعائر الجاهلية ، فاستبدلهما بموسمين عظيمين هما يوم انتهاء صوم رمضان ، ويوم وقوف الناس على عرفة ، قال السيد محمود شكري الألوسي : « أنه ما من عيد في الناس إلا سبب وجوده تنويه بشعائر دين ، أو موافقة أئمة مذهب ، أو شيء مما يضاهي ذلك فخشى النبي ص ان تركهم وعاداتهم أن يكون هناك تنويه بشعائر الجاهلية ، أو ترويج لسنة أسلافها ، فأبدلهما بيومي (المهرجان والنيروز) يومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفية ، وضم مع التجميل فيهما ذكر الله ، وأبواباً من الطاعات ، لئلا يكون اجتماع المسلمين لمحض اللعب ، ولئلا يخلو اجتماعهم أيضاً من إعلاء كلمة الله » . (٣) .

ويظهر أن المسلمين عادوا بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين ، وبخاصة في العصر العباسي ، إلى الإحتفال ببعض الأعياد القومية ، وعلى وجه الخصوص النيروز والمهرجان ، والنيروز هو أعظم أعياد الفرس ، ويقال : إن أول من اتخذه جمشيد ، وسبب اتخاذه - فيما يزعمون - أن

---

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٤٠٤ وما بعدها .

الملك طهمورث وكان ملكاً عاتياً فلما هلك وملك بعده جمشيد سمي اليوم الذي ملك فيه (نوروز) أي اليوم الجديد . ومنهم من يزعم أنه اليوم الذي خلق الله فيه السموات والأرض وأنه كان معظماً عند الفرس منذ أيام جمشيد ، ومنهم من يزعم أن أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران ومدته ستة أيام أولها اليوم الأول من شهر (افريدون ماه) الذي هو أول شهور سنتهم . وأما المهرجان فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان وفي اليوم السادس عشر من (مهرماه) من شهور الفرس وهو ستة أيام ، ويسمى آخرها المهرجان الأكبر . قال المسعودي : « وسبب تسميتهم له بهذا الأسم أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم ، وكان لهم ملك يسمى (مهر) يسير فيهم بالعنف والعسف ، فمات في نصف الشهر الذي يسمونه (مهرماه) فسمى ذلك اليوم (مهرجان) وتفسيره (نفس مهر ذهبت) .

وإلى جانب الأعياد الإسلامية ، عيدي الفطر والأضحى ، ظل المسلمون يحتفلون بهذين الموسمين (المهرجان والنيروز) وبخاصة في فارس والعراق طوال العصور العباسية ، وكان من عادات البعض أن يخرجوا إلى البساتين والمنتديات العامة فيتفسحون ويتبادلون الهدايا والتحف ، ويلبسون أفخر الثياب وأغلى الحلل وأثمنها . قال السيد الألوسي : «وكانوا في مواسمهم وأيامهم يتزينون بأحسن الثياب والملابس الفاخرة والحلل المثمنة والبرود المعجبة ، والفرسان منهم يتسابقون على الخيل ، والأجواد ييسرون (أي يلعبون بالميسر) وصبيانهم يلعبون أنواعا من الملاعب ، ويزمرون بالدفوف ، ونحو ذلك من التغني بأراجيز وأبيات من الشعر .. » (٤) وكانوا يوزعون الأموال والصدقات على الفقراء ، وأهل

---

(٤) المصدر نفسه

الحاجة ، كل بحسب قدرته ، وكان الخليفة يمنح عطاياه وهداياه للمقربين من خاصته ورجاله ، وكذلك كان يفعل الأعيان والوزراء ، وبخاصة في النيروز ، فقد كانوا يحتفلون فيه احتفالات لطيفة ، وربما سمح بعض الخلفاء لجماعات من المضحكين وأصحاب السماجات (المساخر) أن يظهروا في حضرته أو في الميادين العامة . وكانوا يسمحون أن يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع . أما الفقراء وسواد الشعب ، فقد كانوا يفعلون ذلك في الشوارع والميادين ، وأما الأغنياء ، فقد كانوا يفعلون ذلك في دورهم وحدائقهم [٥] . أما يوم المهرجان - وهو عيد الدخول في الشتاء- فهو أكبر الأعياد بعد النيروز ، وقد كانوا يتهادون فيه أيضاً ، ويفرحون بمقدمه ، وفي الأدب العربي نثر وشعر كثير عن احتفال الناس بهذه الأعياد [٦] .

ومن الأفراح في العراق وما جرت عليه العادة في عيد الأضحى أن يستقبل الحجاج عند عودتهم من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتقدم التهاني لهم بسلامة الوصول وآداء فريضة الحج [٧] ، وقد يشترك الخليفة نفسه في هذا الإستقبال . ويذكر في سنة واحد وتسعين وثلاث مائة أن استقبل الخليفة القادر بالله أهل خرسان القادمين من الحج الذاهبين إلى المشرق [٨] .

ومن صور الحياة أيضاً الإحتفال بختمة القرآن الكريم ، ويكون مقصوراً على الأحداث ، وتنظم بذلك المواكب ويظهرون فيها بأحسن الأزياء

(٥) انظر آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ وما بعدها .

(٦) انظر الفصل الممتع المفيد الذي كتبه الإمام ابن تيمية في كتابه النفيس « اقتضاء الصراط المستقيم » عن الأعياد وبدعها .

(٧) انظر ابن الجوزي ، تلبيس أبليس ، ص ١٤٠ ، ٣٨٢ .

(٨) انظر كتاب المنتظم في التاريخ ، لابن الجوزي ، جـ ٧ ، ص ٢١٥ .

ويجوبون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وقد لبسوا أفخر الثياب ، ثم تقام المآدب وتوزع الخلع على المقربين والمؤدبين ، وتقام مآدب يدعى إليها بعض العلماء وتوقد فيها النيران [٩] .

ومن الطريف أن الخلفاء العباسيين أنفسهم كانوا يتوقعون أن ترسل إليهم الهدايا من حاشيتهم وموظفيهم في جميع أنحاء المملكة عندئذ ، وأكثر من ذلك ، يطالبون بها فالمتوكل جلس في يوم النيروز لاستقبال المهنئين واستلام الهدايا فدخل عليه الطبيب بختيشوع بن جبرائيل وكان من المقربين له فقال له المتوكل ما ترى في هذا اليوم ؟ فقال مثل جرباشات الشحاذين إذ لبس قدر وأقبل على ما معي ، ثم أخرج من كمه درج أبنوس مضبب بالذهب وفتحه عن حرير أخضر انكشف عن ملعقة كبيرة من جوهر لمع منها شهاب ، ووضعها بين يديه فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله [١٠] . وقد تبلغ قيمة هدايا النيروز والمهرجان للخلفاء ولعائلاتهم مبلغاً كبيراً قد يتجاوز خمسة وثلاثين ألف دينار [١١] .

هذا ، وقد يتهادون بالقصائد الشعرية أيضاً ، خاصة إلى من هم أعلى منهم منزلة . وهكذا فعل اسحق الصابي وهو في سجنه ، إذ كتب إلى عضد الدولة قصيدة أرسلها إليه مع درهم خرداني وجزء من كتاب ، فكان مطلعها [١٢] :

تصبح بعز واعتلاء حدود

وابشر بخير واطراد سعود

---

(٩) ابن الجوزي ، تلبيس ، ص ٣٨٢ .
(١٠) انظر ، ابن أبي اصيبعه ، طبقات الأطباء ، ص ٢٠٧ .
(١١) مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(١٢) انظر الثعالبي ، يتيمة الدهر ، جـ ٢ ص ٢٨١ .

وقال :

أتتك الهدايا فيه بين موفر على قدر

المهدي وبين زهيد

وقال :

فكان احتفالي في الهدية درهماً

يطير من الأنفاس يوم ركود

وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسي وتقييده

بالشكل مثل قيودي

وكتب إلنيه في يوم نيروز فقال [(١٣)] :

تهن بهذا اليوم واحظ بخيره

وكن أبداً بالعود منه على وعد

أرى الناس يهدون الهدايا نفيسة

اليك ولم يترك لي الدهر ما أهدى

سوى سكر يحلو لك العيش مثله

وآسي أخي عمر كعمرك ممتد

وبينهما من ضرب قومك درهم

وأبيات شعر من ثنائي ومن حمدي

فإن كنت ترضى ما به انبسطت يدي

وتقبله مني فهذا الذي عندي

---

(١٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٢٨٢ .

أما حفلات التشريف - والتي اقتصرت على الخلفاء بصورة خاصة - فالعادة جرت أن يخلع الخليفة على الأمير أو الوزير والنقيب أو الوالي لإحدي المقاطعات أو غيرهم خلعاً وألقاباً . وقد عرفت عادة الألقاب أولاً منذ عهد الرسول ﷺ إذ لقب ﷺ جماعة من أصحابه بألقاب تتفق مع ما قاموا به من الأعمال وما يتصفون بها فلقب أبا بكر (بالصديق) وعثمان (بذي النورين) وعلياً (بأبي تراب) وجعفر (بالطيار) وحمزة (أسد الله)وهكذا[١٤] . ولم تستعمل ألقاب في العصر الأموي حتى جاء العصر العباسي ، فسمي كل خليفة باسم واعتبرت ألقاباً دينية فأبوا العباس (بالسفاح) وهارون (بالرشيد) وهكذا الباقون كالمهدي والمتوكل والمستعين والمأمون [١٥] وغيرهم حتى الوزراء والقواد أعطيت لهم ألقاب ، فالمأمون أعطى الفضل بن سهل لقب (ذي الرئاستين) ولقب المعتمد صاعد بن مخلد بذي الوزارتين ، ولقب المقتدر بن الحسن ابن الفرات بولي الدولة وهكذا بقية وزراء وأمراء الدولة [١٦]. هذا وقد وصلت الألقاب إلى ثلاثة وأربعة ألقاب في العصر البويهي [١٧] وبصورة عامة كانت الألقاب في عهد الرسول ﷺ تعطى لأهل التقوى والدين ولكنها تغيرت في العصر العباسي فأصبحت تعطى لرجال السياسة وفيها تعظيم وتفخيم [١٨] .

ولم يكتف العصر العباسي بمنح الألقاب ، بل اعطيت معها خلع بلغت إلى السبعة مع الطوق والسوار [١٩] وأعطيت للأمير بحكم لواء [٢٠]

---

(١٤) هلال الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ١٢٨ .
(١٥) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٦ .
(١٦) الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(١٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٤ .
(١٨) القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٩١ .
(١٩) السيوطي ، المصدر السابق .
(٢٠) الصولي ، الأوراق ، ص ١٩ .

وجعل أمير الأمراء ، وكذلك لابن رائق [٢١] وغيرهم من الأمراء والقواد ، وكانت العادة أيضاً أن يخطب على المنابر للخلفاء ويذكر اسمهم فقط ، ولكن في القرن الرابع شارك الأمراءالخلفاء في ذكر اسمهم مع اسم الخليفة [٢٢] وكانت العادة أن تضرب الطبول والدبادب للصلوات بحضرة الخليفة [٢٣] فقط ثم اخذت تضرب للأمراء أيضاً قيل أول من ضربت له الدبادب هو عضد الدولة (٢٤) ثم استمرت طيلة فترة حكم بني بويه [٢٥]

ومن صور مناسبات البهجة والأفراح ، اللعب بالنرد والشطرنج ، وكان العصر العباسي من أنشط العصور التي اشتهر فيها اللعب بالشطرنج ، حيث نبغ فيه لاعبون معدودون منهم العدلي الذي ذكره ابن النديم في أول الفصل الذي كتبه عن البارعين بهذه الصناعة والمؤلفين فيها وفي حيلها ، وقد ذكر عنه أنه أول من عمل كتاباً في الشطرنج ، وله أيضاً كتاب النرد وأسبابها واللعب بها [٢٦] . وممن ذكرهم ابن النديم في عداد الشطرنجيين الرازي ، ولا ندري أي رازي هو ، غير أنه ذكر في صدد الكلام عنه ، أنه كان نظير العدلي ، وأنهما كانا يلعبان بين يدي الخليفة المتوكل على الله ، وله كتاب في الشطرنج [٢٧] . أما إمام هذه الصناعة فهو أبو بكر الصولي محمد بن يحيى الكاتب ، الذي يذكر أنه كان أحسن شطرنجي في زمانه حتى لقب به ،وقد ألف كتاباً ذائع الصيت في الشطرنج ذكره إبن النديم ، وقال : له كتاب الشطرنج النسخة الأولى والنسخة

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .
(٢٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١١ ص ٢٩٩ .
(٢٣) الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(٢٤) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٢٩٩ .
(٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم في التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٣٤٠ .
(٢٦) انظر كتاب الفهرست ،لابن النديم ، طبعة مصر ، ص ٢٠٣ وما بعدها ، و ٢٢١، انظر أيضاً المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ١ ، ص ٣١١ .
(٢٧) ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

الثانية [٢٨] .

ومن وسائل التسلية الأخرى التي عرفها العباسيون بل ووجدت لها رواجاً عند الكثير من فئات المجتمع ، مسابقة الخيل والبغال والحمير والكلاب والطيور [٢٩] ، وكذلك المصارعة والركض والسباحة ، والصيد والطرد [٣٠] ، وجميع هذه الوسائل وغيرها كثير مارسها عليه القوم وعامة المجتمع ، بل دون في بعضها مؤلفات عدة ، ومن يدقق النظر والإطلاع في كتب التراث وبخاصة الأدبية منها ، يجد معلومات غزيرة عن ممارسة مثل هذه الألعاب وبخاصة في المراكز الحضارية الكبرى في العراق والشام وبلاد فارس وما حولها ، والمسامرة بالقصص وسرد الطرف من الصور الإجتماعية التي عاشها ومارسها العباسيون في قصورهم ومنتدياتهم ، بل ومارسها أغنياء المجتمع وفقراؤه ، ومن يطالع كتب الآدب ، أمثال مؤلفات الجاحظ ، وابن عبد الله ، وابن قتيبة والثعالبي ، والأغاني والقيرواني الحصري ، وغيرها كثير يجدها مليئة بالقصص والطرف التي كانت تجرى في أماكن عدة وفي أزمان مختلفة خلال عهود بني العباس ، بل ويجد تفصيلات أكثر عن طرق عرضها ، ونوعية ما يقدم من فكاهات وقصص ، ومن كان يدعم مثل تلك المجالس ، بل ومن كان يرتادها إما مشاركاً أو مشاهداً ، إلى غير ذلك من التوضيحات والتفصيلات الأخرى . وهناك صور أخرى تمثل نواحي الحياة في المجتمع، نذكر منها شيئاً فيما يخص الطعام . واللباس وبعض الأمور الأخرى . فمن العادات المتبعة عند الطعام هي غسل الأيدي قبل الطعام وبعده ويكون في وعاء واحد يسمى الطشت ويبدأ رب البيت بالغسيل [٣١] ويذكر متز أن العادة جرت أن يبدأ الغسل من جهة اليسار حتى ينتهي بصاحب

(٢٨) المصدر نفسه .
(٢٩) كشاجم أدب القديم ، ص ٢٧ .
(٣٠) انظر الهمذاني ، المقامات ، ص ١٣٥ .
(٣١) الغزالي « إحياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٦ .

البيت [٣٢] ، بينما يغسل يديه بعد الضيوف عند الإنتهاء من الطعام [٣٣] ويستعمل عادة الأشنان في الغسيل [٣٤] ، ويذكر كشاجم أن عامة الناس تعودوا على إجلال رؤسائهم وخلفائهم بعدم غسل أيديهم بحضرتهم وأجازوا ذلك مع نظرائهم ليكون بذلك [٣٥] أليق ويذكر أن القائد الأفشين أكل عند الخليفة المعتصم يوماً وبعد الإنتهاء من الطعام غسل يديه بحيث يراه المعتصم فأزعجه بهذا التصرف [٣٦] . وهذا وبعد الغسيل تنظف الأسنان . حكي أن المأمون كان يصرف ساعتين كل يوم يستمع فيهما للشعراء اثناء تنظيف أسنانه ، كما يستعمل السواك لتنظيف الأسنان [٣٧] .

هذا ، وقد اهتم الكتاب بآداب الطعام ، فكتب الغزالي خمسة قواعد لآداب الطعام [٣٨] وكذلك كشاجم [٣٩] كتب في هذا الموضوع إضافة إلى عدد كبير من الكتاب والمؤرخين من اهتم بذلك ، فالخطيب البغدادي ذكر أنه بعد الإنتهاء من الطعام على صاحب الدعوة أن يبخر المدعوين [٤٠] وعلى المدعوين أن يشكروا صاحب الدعوة عند مغادرتهم للبيت [٤١] . أما عادات اللباس فهي كثيرة أيضاً فلكل طبقة زي خاص

---

(٣٢) كشاجم ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٣) انظر الغزالي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧ ، وللمزيد أيضاً ، انظر الأزدي ، حكاية إبن القاسم ، ص ٤١ .
(٣٤) آدم متز المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .
(٣٥) كشاجم ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٦) آدم متز ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .
(٣٧) الأزدي ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، انظر أيضاً الغزالي ، مطالع البدور ، جـ ٢ ص ٦٨
(٣٨) الغزالي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦ - ١٨ .
(٣٩) كشاجم ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٤٠) المصدر نفسه ، انظر أيضاً الخطيب ، التطفيل ، ص ٨٦ .
(٤١) الغزالي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥ .

بها . فالخلفاء اتخذوا السواد [٤٢] ولا يمكن تغييره لأنه اصبح شعاراً لدولتهم وكذلك الوزراء وغيرهم من الداخلين لدار الخلافة عليهم أن يتخذوا الأقبية السوداء لباسا لهم [٤٣] وحتى من يحضر مجالسهم لبست الأثواب المصبغة الزاهية الإحمرار والإصفرار والأخضرار يصقلونها حتى تلمع [٤٤] وفي المواكب تتخذ أثواب خاصة بها أيضا [٤٥] وجرت العادة أن يلبس القضاة والفقهاء المبطنة والطيلسان الأسود والدراعة السوداء والقلانس المستديرة حتى أبدلت بعد ذلك بالعمائم السود المصقولة .

أما عادات الأحزان فهي كثيرة ولاتزال متبعة حتى اليوم في المجتمع وتبدأ عند تشييع المتوفي ، إذ يخرج الأهل والأصدقاء ، والمعارف ويسيرون خلف الجنازة [٤٦] فالمرأة تخرج وتبكي وتنشر شعرها وتلطم وتنشد الأشعار ، وهكذا فعلت عند مقتل الخليفة المسترشد [٤٧] وقد تخرج نائحة خاصة خلف الجنازة [٤٨] وربما يخرج رجال من أصحاب الذكر يسيرون خلف الجنازة وهم يقومون بالتهاليل وترتيل الألحان [٤٩] .

وفي حالة الدفن اعتاد البعض من أهل بغداد أن يدفن موتاه خارج أسوارها والبعض الآخر يدفن موتاه في النجف وهؤلاء أصحاب المذهب الشيعي وتنقل الأموات إلى هذا المقر حتى من الأماكن البعيدة ، ولازالت هذه العادة متبعة ليومنا هذا ، وذكر أن عضد الدولة الأمير البويهي نقل

---

(٤٢) هلال الصابي ، الوزراء ، ص ٢٦١ .
(٤٣) هلال الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٩١ .
(٤٤) الموشى ، الوشاء ، ص ١٨٣ ، انظر أيضاً جرجي زيدان ، التمدن الإسلامي ، جـ ٥ ، ص ٨٣ .
(٤٥) الصابي ، رسوم ، ص ٩٠ .
(٤٦) ابن الجوزي ، ذم الهوى ، ص ٤٧٨ .
(٤٧) ابن الجوزي ، المنتظم في التاريخ ، جـ ١٠ ص ٤٦ .
(٤٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٣ ، ص ٣١ .
(٤٩) ابن القوطي . الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة ، ص ٢٣٧ .

جثمانه إلى النجف في القرن الرابع الهجري [50] وكذلك استمرت عادة قراءة القرآن على القبور لدى جميع طبقات المجتمع حكى أن امرأة فقيرة دفعت إلى رجل رغيفاً وطلبت منه أن يقرأ عند قبر ابنها فقرأ « يوم يسحبون في النار على وجوههم دوقوا » قالت له هكذا يقرأ عند القبور؟[51] .

وعلى ذكر طريقة دفن الموتى نشير إلى عادة دفن النقود أيضاً تحت الأرض خوفاً من ضياعها : فالأمير الذي يحكم كان يحفظ أمواله في الصحراء [52] . وهكذا كان يفعل التجار . حكي أن تاجراً قدم من خراسان متأهباً للحج ، وبقي من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها ، فقال إن حملتها خاطرت بها وإن أودعتها خفت مغبة المودع ، فمضى إلى الصحراء ودفنها تحت الشجرة ، وعندما عاد لم يجدها فوصل الخبر إلى عضد الدولة فاستطاع بمهارته وعمق تفكيره أن يهتدي إلى السارق [53] .

أما المآتم التي تقام على الأموات ، فكانت على نوعين ، منها الخاصة بالرجال والأخرى بالنساء ، يقرأ فيهما القرآن . ويختار لمجالس النساء قراء عميان أو قارئات يلبس فيها الثياب ذات اللون الأسود وهي تمثل شعار الحزن . وعلى ذكر ثياب العزاء فإن المؤرخين وغيرهم من الكتاب لم يمدونا بمعلومات وافية عن لونها ووصفها : على أننا نستطيع أن نقول أنه كان يغلب عليها اللون الأسود وذلك على ضوء ما ذكره بعض المؤرخين عن وفاة الخليفة المستنصر العباسي سنة ٦٤٠ هـ وارتداء رجال الدولة الثياب السوداء في يوم وفاة هذا الخليفة [54]

---

(٥٠) ابن الجوزي ، المنتظم في التاريخ جـ ٨ ص ٣١٧
(٥١) ابن الجوزي ، الظراف والمتماجنين ، ص ٩٨
(٥٢) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١١ ص ١ ٣
(٥٣) ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص ٥٢
(٥٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٩٥

ومن بين العادات الدينية التي تمثل صوراً من المجتمع العراقي زيارة قبور الأئمة والشهداء من أهل البيت ، وكذلك قبر الإمام أبي حنيفة ومشهد الصحابي سلمان الفارسي . وقد زار بعض الخلفاء قبور أهل البيت ، وكانت تنفق أموال كثيرة على قبور الشخصيات التي تتمتع بصفة دينية ، فالخليفة المستنصر عند زيارته لقبر الإمام موسى بن جعفر أعطى ثلاثة آلاف دينار لنقيب الطالبيين لصرفها على المعنيين في مشهد الأئمة [٥٥] . وفي حالة وفاة شخصية كبيرة كالخليفة أو الأمير فالحزن يعم بغداد كلها اذ تغلق الأسواق وتعلق الأقمشة السوداء على جدرانها وتقام المآتم في كل مكان . وحدث مثل ذلك في القرن الخامس الهجري عند وفاة الخليفة القائم بأمر الله فأظهرت علائم الحزن لمدة ثلاثة أيام [٥٦] على المستوى الرسمي والشعبي ، وكذلك عند وفاة الأمير البويهي عضد الدولة . هذا وقد يظهر أصحاب المذهب الشيعي الحزن الشديد في ذكرى استشهاد الإمام الحسين يوم عاشوراء [٥٧] ولاتزال عادة اظهار الحزن مستمرة في العراق حتى الوقت الحاضر .

وخلاصة القول ، أن العهود الإسلامية الأولى وبخاصة عهود بني العباس شهدت أنماطاً إجتماعية كثيرة ، ورثت من السابقين لتلك العصور ، وبعضها تم إقتباسه من الفرس وغيرهم كعيدي المهرجان والنيروز . وما حدث من تنوع وتفنن في أساليب العيش خلال العصور العباسية ، ليس إلا نتيجة للإندماج والإنفتاح البشري الذي عاشته تلك الأزمنة ، حيث كان سكان المجتمع خليطاً من العرب ، والفرس والأتراك ، والبربر ، والصقالبة والديالمة ، والأحباش ، والهنود وغيرهم ، كما ساد الخير والثراء الكثير

---

(٥٥) ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
(٥٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ١٦٥ .
(٥٧) المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص ١٥ .

من سكان البلاد ، وبالتالي حصل التطور الحضاري الإجتماعي في جميع ضروب العيش ، وليست النماذج التي أوردناها في هذه المقالة إلا شريحة بسيطة من الكيان الإجتماعي الكبير الذي كانت تعيشه جميع فئات المجتمع تحت مظلة الخلافة العباسية .

المبحث العاشر

صور من الإحتفالات الرمضانية
عبر العصور الإسلامية (*)

(*) هذا البحث نشـــر فـــي مجلـــة المنهل عـــدد (٥١٣) مـــج (٥٥) (رمضان ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م) ص ١١٣ - ١١٧ .

قال الله تعالي : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة / ١٨٣) وقال تعالي : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) (البقرة / ١٨٥)، ولفضل وعلو مكانة الصيام عند الله ، ذكر الله في القرآن الكريم ، (والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) (الأحزاب / ٣٥) . ويشير البخاري إلى قول الرسول ﷺ : إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم ، وقوله ﷺ « إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » .[(١)]

وجميع كتب التراث الإسلامي ، غير القرآن الكريم وكتب السنة ، مليئة بفضائل رمضان ، وما ذكر فيه من شعر ونثر ، وما حدث فيه من معارك وأحداث سياسية ، وما يواكبه من أفراح وإحتفالات ونشاطات دينية وفكرية وثقافية وعلمية وغيرها ، وما يتصف به الناس من عادات وصفات على اختلاف طبقاتهم والوانهم ولهجاتهم وأعرافهم وتقاليدهم .[(٢)]

(١) انظر ، صحيح البخاري (طبعة دار العربية للطباعة والنشر ، التاريخ غير مدون) جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٢) والمشاهد لأحوال المسلمين في أي جزء من أجزاء الأرض قبل بداية رمضان ، يجدهم فرحين مستبشرين بقدوم هذا الشهر الكريم ، الذي تكثر فيه الخيرات ويضاعف الله فيه الحسنات ويغفر السيئات ، ويجدهم أيضاً قد استعدوا قبل قدومه بتوفير طعامهم وشرابهم وما يتطلب لعيشهم من أجل التفرغ للصوم ، والعبادة ، وصلاة التراويح وقيام الليل ، ومن العادات التي قد نلاحظها أيضاً عند بعض المسلمين في وقتنا الحاضر ، هو قضاء وقت الليل في السهر والأكل والشرب ، ثم النوم أغلب أوقات النهار ، وهذه عادة لم نجدها عند السلف الصالح رضوان الله عليهم ، ولم نجدها حتى عند الأوائل من آبائنا وأجدادنا غفر الله لهم ، ولهذا فهي عادة غير حميدة ، لأن الله عز وجل قد جعل وقت النهار للذهاب والأياب أما وقت الليل فهو للنوم والراحة والتهجد والعبادة وما شابه ذلك .

والحديث عن شهر رمضان يطول منذ فجر الإسلام وحتى وقتنا الحاضر فذلك يحتاج لتدوين كل ما ورد عنه لعدة مجلدات ، إلا أننا نناقش في هذه الصفحات نماذج وصور للإحتفالات والتقاليد الإجتماعية التي كان يمارسها المسلمون في شهر رمضان خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة ..

يبدأ المسلمون شهر رمضان بعد انتهاء شهر شعبان ورؤية شهر رمضان، أخذاً بقول الرسول ص « إذا رأيتموه - يقصد الهلال - فصوموا » (٣) . . وفي بداية صدر الإسلام كان المسلمون يستقبلون شهر رمضان بفرحة وسرور مع الإقتصاد في الملبس والمطعم وتزيين المنازل وترتيبها ، والإجتهاد في العبادة كقراءة القرآن وقيام الليل والتصدق على الفقراء والمساكين .

ويذكر عن عمر بن الخطاب أنه فرض لكل فرد من المسلمين في كل ليلة من رمضان درهماً من بيت المال يفطر عليه ، ولأمهات المؤمنين درهمين . ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة أقر ذلك وزاده ، ثم إتخذ في شهر رمضان سماطاً في المسجد للمتعبدين والمعتكفين وأبناء السبيل والفقراء والأيتام والمساكين (٤) .

وبعد مجيء خلفاء بني أمية ثم خلفاء بن العباس ،وتوسع رقعة الدولة الإسلامية ، واختلاط عرب شبه الجزيرة العربية بعناصر مختلفة ، كالفرس، والترك والديالمة ، والصقالبة و الأفارقة ، وغيرهم ، تطورت الحياة

---

(٣) صحيح البخاري ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٤) انظر ، ابن كثير ، البداية والنهاية (طبعة القاهرة ، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م) جـ ٧ ، ص ١٤٨ وهكذا كان عمر وعثمان وغيرهما من الخلفا الراشدين ، وصحابة الرسول * الذين كانوا ينفقون ويتصدقون على المسلمين وخاصة الفقراء والمحتاجين ، من أموالهم حتى لا يسألوا الناس اعطوهم أو منعوهم ، ولو شعر الأغنياء الموسرون في رمضان بحال الفقراء الذين قد لا يجدون ما يفطرون عليه ، ولو انفقوا واعطوهم مما أعطاهم الله لما وجد فقير واحد بين المسلمين .

الإجتماعية ، واندمجت بعض العادات والتقاليد بعضها ببعض ، وكثرت الأموال في أيدي الناس ، وتناقلت بعض الثقافات والعادات من عنصر لآخر . وبالتالي أثر ذلك على بعض الإحتفالات والعادات التي مارسها المسلمون في شهر رمضان وعيد الفطر ، وصار الخلفاء والوزراء والأمراء والأغنياء ينفقون الأموال الكثيرة في بناء المنازل وتزيينها قبل قدوم شهر رمضان ، بل صار خلفاء بني العباس يخرجون في الشوارع بمواكب عظيمة في أول يوم من شهر رمضان ، ويوم عيد الفطر ، ومن حولهم رجال الدولة من وزراء وأمراء وموظفين وحرس ورجال الشرطة والجيش وغيرهم .

وتطلق في تلك المواكب الصفافير وتقرع الطبول ، وجميعهم قد لبسوا أجمل الثياب وأحسنها ، وعوام الناس كانوا يقفون على جانبي الطريق التي يمر بها موكب الخليفة ، وهم ينادون « السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام » (٥) .

وينفق الخلفاء والوزراء والأمراء الأموال والصدقات على العلماء وبعض موظفي الدولة ، وعلى الفقراء والمساكين والأيتام ، بل وتمد اسمطة الطعام في الجوامع الكبيرة وبعض الشوارع أو الدور لكي يأكل عليها الصائمون من الفقراء وعامة الناس ، ويحكى عن الوزير ابن عباد أنه كان لا تخلو داره في كل ليلة من ليالي رمضان من أكثر من ألف صائم يفطرون على مائدته ، ويذكر أن صدقاته وقرباته في شهر رمضان كانت تفوق ما

---

(٥) انظر ، بدري محمد فهد ، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (نسخة مخطوطة) ص ١٦٠ . أسعد أطلس والحياة الإجتماعية في القرنين الثالث والرابع الهجري » . مجلة المجمع العلمي العراقي مج ٢ (بغداد ١٣٧١هـ / ١٩٥١م) ص ٢٧٢-٣٠٠ .

M.M. Ahsan .
Social Life Under the Abbssid (London , 1979) 00-275-292, Ghithan Ali Jrais- The Social Industrial and Commercial History of the Hijaz Under the Early Abbasids 132-232 / 749-847 A. D PP. 87 ff .

ينفق في جميع شهور السنة [٦] . وهناك الكثير من أمثال الوزير ابن عباد ، كالخليفة المهدي العباسي ، وهارون الرشيد ، والمأمون ، وغيرهم من الوزراء والأمراء الذين كانوا يفعلون الخير ، ويتصدقون على المحتاجين والفقراء والأيتام خلال أيام شهر رمضان ، وفي عيدي الفطر والأضحى المباركين [٧] .

وفي عهد الدولة الفاطمية تعددت الأعياد والإحتفالات واحتفلت الدولة بمناسبات كثيرة ، كان بعضها جديداً على أعراف وتقاليد الإسلام [٨] .

(٦) آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م) جـ ٢ ص ٢٥٠-٢٥١ . سعيد عبد الفتاح عاشور « الحياة الإجتماعية في المدينة الإسلامية ، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته (القاهرة ، ١٩٧٨م) ص ٢١٩-٢٢٢ . انظر ، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) مادة (رمضان) جـ ١٠ ، ص ١٨٥-١٨٦ ، ومادة (صوم) جـ ١٤ ، ص ٣٩٢-٤٣٦ .

(٧) ولمزيد من التفصيلات عن صدقات وأعطيات خلفاء بني العباس على الفقراء والمساكين وعامة الناس . أنظر غيثان بن علي بن جريس ، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية تقديم ومراجعة الإستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) جـ ١ ، ص ٨٩ وما بعدها ، ولنفس المؤلف أيضاً « أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز » مجلة الدارة العدد (٤) سنة (١٦) (رجب وشعبان ورمضان ، ١٤١١هـ) ص ١١٣ - ١٢٩ . وللمؤلف أيضاً « مواقف خلفاء بني العباس الخيرية تجاه أهل الحجاز (١٣٢ - ٢٣٢هـ مجلة المنهل ، العدد (٤٩٧) مج ٥٤ (المحرم ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ٨٢ وما بعدها .

(٨) لم يعرف المسلمون إلا عيدي الفطر والأضحى اللذين سنهما الرسول ﷺ عندما جاء إلى المدينة المنورة فوجد عند أهلها يومين يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ، قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، قال : إن الله قد آبدلكم بهما خيراً ، يوم الأضحي ويوم الفطر ، (رواه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود والنسائي في سننهما) ، أما بعض الإحتفالات أو الأعياد التي ابتدعها الخفاء الفاطميون ، فهي كثيرة منها : « رأس السنة » أول العام ، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين ، مولد النبي * (١٢ ربيع الأول ، مولد علي بن أبي طالب ، مولد الحسن عليه السلام ، مولد الحسين عليه السلام ، مولد السيدة فاطمة الزهراء ، مولد الخليفة الجالس على العرش ، ليلة أول رجب ، ليلة نصف رجب ، ليلة أول شعبان ، ليلة نصف شعبان ، وفاء النيل ، يوم النيروز ، يوم الغطاس ، يوم الميلاد ، عيد النصر (في ١٦ محرم) وهو اليوم الذي أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجعله في عزلة عن الناس من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٣٤هـ / ١١٣٠م ، خميس العهد (وهو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بأنجيلهم، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى وشعورهم الديني ، عيد المهرجان ، وجميع هذه الأعياد اقتبست من تقاليد وأعراف أهل البلاد المفتوحة أو المجاورة ولا سيما الفرس والبيزنطيين ، انظر حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ، ١٩٨١م) ص ٦٤٧ - ٦٥٠، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٨م) ص ١٢٦ .

ومواكب الفاطميين في رمضان كانت تمتاز بالفخامة في الترتيبات والملابس وتقديم الأطعمة في أوقات الإفطار ، وكان الخليفة الفاطمي يذهب في الثلاث جمع الأخيرة من رمضان للصلاة والخطبة في مساجد الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص على التوالي ، فكل جمعة يصلي في مسجد من هذه المساجد ويخطب في الناس فيها ، ويذكر أن صاحب بيت المال كان يشرف في صبح كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تنظيف وتأثيث المسجد الذي سيصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة ، وكان الخليفة يحضر إلى المسجد قبل وقت الخطبة بوقت كاف ومن حوله رجال الشرطة والجيش والحرس الخاص ، ثم يعتلي المنبر ويخطب في الناس خطبة قصيرة ، ثم يؤم المصلين ، وعند انتهاء الصلاة يخرج الخليفة ووزيره على يمينه وقاضي القضاة وداعي الدعاة على يساره ، ثم يعود بموكبه إلي مقر إقامته (٩).

وتتعرض بعض كتب التراث الإسلامي لبعض الإحتفالات الرمضانية في بعض المدن الإسلامية ، فيشير المقدسي ، في القرن الرابع الهجري ، إلى عادات أهل اليمن في عدن وصنعاء وصعده وغيرها ، فيقول « ويزينون السطوح قبل رمضان بيومين ويضربون عليها الدبادب ، فإذا دخل رمضان اجتمع الصبيان يدورون عند السحر يقرءون القصائد إلى آخر الليل» (١٠).

ويشير هذا الرحالة إلى بعض عادات أهل مكة المكرمة ، فيذكر أنهم ينصبون القباب في ليالي رمضان وليلة الفطر ، ثم يزينون السوق بين الصفا والمروة ويضربون الدبادب إلى الصباح ، وإذا صلوا الصبح في أول

---

(٩) حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٤٥ وما بعدها ، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٠ وما بعدها .
(١٠) انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم (مطبعة بريل ، ليدن ١٨٧٦م) ص ١٠٠ .

يوم من عيد الفطر ، تقبل الولائد مزينات بيدهن المراوح يطفن بالبيت ، ويذكر أنهم كانوا « يرتبون خمسة أئمة في التراويح يصلون بالناس ترويحه، ويطوفون ويكبرون ويهللون ثم يضرب الفرقاعيات كما تضرب عند الصلوات فيتقدم الإمام الأخر ، ويصلون العشاء إذا مضى من الليل الثلث ويفرغون إذا بقي الثلث ثم ينادون بالسحور من على جبل أبي قبيس[١١] .

ويذكر المقدسي عادات أهل فلسطين في صلا ة التراويح فيذكر أنهم كانوا يجلسون بين كل سلامين من التراويح ، وإذا قام الإمام إلى كل ترويحه نادي منادي الصلاة رحمكم الله ، ويصلون ست ترويحات .

* ومن عادات أهل مكة في بداية رمضان أن يقوموا بتجديد أثاث منازلهم ، وحصر المسجد الحرام ، وتكثير الشمع والمشاعل حتى تتلألأ منازلهم والحرم نوراً ، ويشير ابن بطوطة إلى تفرق الأئمة في الحرم المكي إلى فرق ، هم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية ، أما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء في صلاتهم فيتناوبون القراءة في صلاة التراويح ويوقدون الشمع ، وبالتالي يتحول المسجد إلى خلية نحل من المصلين والمتعبدين[١٢] ، ويشير إلى فرقة الشافعية الذين كانوا

---

(١١) المصدر نفسه ، وصلاة التراويح من المميزات التي يتميز بها شهر رمضان ، ويلاحظ في المدن الإسلامية ، أو بين الأقليات المسلمة في البلدان النصرانية ، إن الصائمين يجتمعون بعد صلاة العشاء فيؤدون صلاة التراويح وأحياناً يتعاقب أكثر من إمام ليصلي بالناس في الليلة الواحدة ، بل يختلف عدد الركعات التي تصلى في صلاة التراويح فأحياناً تكون إحدى عشر ركعة مع الوتر ، وأحياناً تكون ثلاثة عشر أو واحدة وعشرين ركعة . أو ثلاثاً وعشرين ركعة كما يؤدي بعض الصائمين صلاة القيام منذ منتصف الليل حتى وقت السحور . وغالباً تكون صلاة القيام في النصف الأخير من شهر رمضان.

(١٢) ونلاحظ المسجد الحرام في عصرنا الحالي خلال شهر رمضان يكتظ بالمصلين والمتعبدين الذين وفدوا للصلاة فيه ، أو لأداء العمرة ، أو للإعتكاف أو ما شابه ذلك وكثير من الوافدين إلى الحرم في رمضان قد يكونون من خارج مكة المكرمة أو خارج المملكة .

بالمسجد ، فيذكر أنهم أكثر الأئمة إجتهاداً ، ومن عاداتهم في صلاة التراويح أنهم إذا أكملوا عشرين ركعة يطوف أمامهم وجماعته ، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون »(١٣) .

وينوه ابن جبير وابن بطوطة عن عادة التسحير عند أهل الحجاز ، وخاصة أهل مكة المكرمة ،فيذكر كل منهما أن التنبيه عن السحور كان يتولاه المؤذن الزمزمي الذي كان يقيم في الصومعة الموجودة في الركن الشرقي من المسجد لقربها من دار الأمير ، وفي وقت السحور يقوم داعياً ومذكراً وحاثاً للناس على الإستيقاظ لتناول الطعام (١٤) ، وكان يشاركه في عمله أخوان صغيران يجاوبانه ويردان عليه ونصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عمود كالذراع ، وفي طرفه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج يستمران مشتعلان مدة وقت السحور ، وإذا طلع الفجر انزل المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة وشرع في الآذان ، ويبادر بقية المؤذنين في الآذان من كل ناحية (١٥) .

ويذكر ابن جبير أن دور أهل مكة المكرمة مرتفعة ومن لم يسمع النداء للسحور ، كان يصعد إلى أعلى داره ويطالع القنديلين فإذا لم يرهما عرف

---

(١٣) ابن بطوطة ، الرحلة ص ١٧٩ .

(١٤) تختلف عادة التنبيه للسحور من مكان لآخر ، فهناك من يؤذن من المسجد أو مكان عال في القرية أو المدينة ، وهناك من يتجول في أزقة الحي مهللاً ومكبراً ومنادياً لوجوب وقت السحور ، وفي الوقت الحالي تحسنت أحوال الناس فوجدت الساعات المنبهة ، والمكبرات الصوتية ، والمدافع التي تصدر أصواتاً قوية ليعلم الصائمون أن وقت الإفطار أو السحور قد حل ، ولمزيد من التفصيل ، انظر ، غيثان بن علي بن جريس ، عسير : دراسة تاريخية في الحياة الإجتماعية والإقتصادية (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ / ١٦٨٨ - ١٩٨٠م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ص ٣٠ وما بعدها ، محمد علي مغربي ، ملامح الحياة الإجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (جدة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤م) ص ٤٦ وما بعدها .

(١٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١١ وما بعدها ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٧٩-١٨٠ .

أن الفجر طلع فيمسك عن الطعام والشراب (١٦) .

وخلاصة القول إن الإحتفالات الإجتماعية لدى المسلمين على اختلاف اماكنهم وأجناسهم متعددة ومتنوعة ومختلفة من مكان لمكان ومن طبقة لأخرى كل على حسب مكانته الإجتماعية والمادية والسياسية ، ومن المعلوم أن المسلمين سواسية أمام الله فلا فرق بين عربي على عجمي ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى ، ولكن الظروف التي تحيط بكل انسان تؤثر على مستواه المعيشي ، فالأغنياء والأمراء والسلاطين والوزراء يختلفون في مستوى حياتهم عن الفقراء والمساكين والطبقة الكادحة في المجتمعات ، حيث يعيش الفريق الأول عيشة حسنة بسبب توفر الإمكانات التي تمتعهم بحياة تتصف بالدعة والراحة والهناء ، هذا عكس الفريق الآخر الذي يعاني ضيقاً بسبب دخله المحدود الذي يؤثر على ملبسه ومأكله ومشربه .

والإحتفالات الرمضانية عند المسلمين عبر العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، تختلف في مستوياتها من مجتمع إلى آخر كل حسب ما يتوفر لديه من مال وإمكانات ، وخاصة فيما يتعلق بتوفير الطعام والشراب واللباس وتزيين الدور التي يسكنون فيها ، فالخلفاء والوزراء والأغنياء لم يكونوا مثل الفقراء والضعفاء أو متوسطى الدخل ، أما فيما يتعلق بعادات دخول رمضان وقضاء الصوم والإفطار والسحور فقد تكون عادات متشابهة من حيث الجوهر ، مع اختلاف فيما يقدم الفرد أو الأسرة من مأكل ومشرب أثناء وقت الإفطار والصيام .

---

(١٦) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١١ وما بعدها

ومنذ أن فرض الله تعالى على عباده صيام هذا الشهر المبارك ، اجتهد المسلمون - قدر استطاعتهم - على أداء العبادات المالية والبدنية - ابتغاء مرضاة الله تعالى فبجانب الصلوات الخمس ونوافلها وأداء صلاة التراويح . يجتهد أغلب المسلمين في تلاوة القرآن الكريم في المساجد وفي منازلهم . ويتحاشون الخوض في الكلام والنقاش تفادياً لزلة اللسان التي يخاف المسلم أن تجرح صيامه فتؤذيه ، كما تؤذي غيره فهذا الشهر المبارك أوله رحمه وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، والعبادات المالية هي الإكثار من الإنفاق في سبيل الله في هذا الشهر المبارك ، فهناك زكاة الفطر تخفيفاً على الفقراء والمساكين واليتامى ، فصيام المسلم مرتبط بآدائها ، لأن صوم المسلم معلق بين السماء والأرض حتى يؤدي زكاة الفطر لأنها مرتبطة أشد الإرتباط بصيام المسلم وافطاره ، فهذه الروح التي يتصف بها المسلم في شهر رمضان المبارك ، ابتغاء مرضاة الله وحسن الثواب ، يؤمل أن يتمسك بها المسلم على مدار أشهر العام ، ولا يجب أن تقتصر على هذا الشهر المبارك ، ويظهر الفتور والكسل ، ويختفي ذلك الحماس الديني العظيم ، بل ينبغي على المسلم أن يكرس وقته لعبادته ، والعمل بالمعروف والبعد عن الفحشاء والمنكر ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

المبحث الحادي عشر

مهنة الطب في ضوء شريعة الإسلام
(دراسة وممارسة) (*)

(*) بحث نشر في مجلة المنهل عدد (٥٢٣) مج (٥٧) العام (٦١)
(محرم ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م) ص ٤٦ - ٥١ .

مهنة الطب في ضوء شريعة الإسلام (دراسة وممارسة)

إن الإسلام اهتم إهتماماً كبيراً بالطب باعتبار أنه نواة علمية عظيمة تكونت حولها علوم أخرى مفيدة مثل دراسة الطبية والكيمياء والمنطق وبذا نجد نوعين من الدراسة اهتم بهما الإسلام اهتماماً كبيراً : دراسة دينية حول القرآن الكريم والحديث الشريق ودراسة دنيوية حول الطب وما يدور حوله ، ولكل نوع من هذين النوعين مميزات خاصة ومنهج في البحث، وإن أثر كل منهما في الآخر وتأثر به ، ولقد عبر ابن خلدون عن هذين النوعين بقوله :

« العلوم صنفان ، صنف طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكره ، وصنف يأخذه عمن وصفه » .

ومن المفروض عندما يعزم أي دارس على علاج موضوع مثل « دراسة وممارسة مهنة الطب في ضوء الإسلام » أن يحدد أولاً المقصود بالإسلام في هذا الموضوع من ناحية ، والمقصود برداسة وممارسة مهنة الطب في ناحية أخرى » .

والإلام هنا لا يقصد به العقيدة والشعائر بقدر ما يقصد به الجوهر والروح والسلوك وأسلوب العمل ، والإسلام لم يكن مطلقاً في يوم من الأيام مجرد عبادات تؤدي وعبارات تردد وشعائر تقام إلا أنه إلى جانب العبادة أيضاً سلوك مثالى واسلوب كريم للحياة على المستويين الفردي والجماعي .

ومن ناحية أخرى فعندما نتحدث عن دراسة وممارسة الطب فمن المعلوم أننا لا نقصد بأن الطبيب يبدأ بالتخصص والدراسة لعلوم الشريعة وأصول الدين الإسلامي ، وإنما الذي نرمي إليه هو أن يلم طالب الطب بقدر من المعرفة عن روح الإسلام ومعنوياته ونظرته إلى علم الطب ، وأصول وآدا

مـزاولـة مـهنـة الطب في الإسـلام وذلك كله في ضـوء دراسـة تراجم بـعض مـشاهير أطباء المسلمين ، لاتخاذهم قدوة حسنة في حيـاتهم العامـة والخاصة ، وفي حرصـهم على مباشـرة عـملهم داخل اطار اسلامي واضح المعالم .

وبدراسة الإطار العام لمزاولة مهنة الطب في العالم الإسلامي وتراجم المعروفين من الأطباء وسيرهم عندئذ سنخرج بعدة حقائق هامة لو استوعبها الطبيب في يومنا الحاضر وتشربها قلبه وعقله لكان ذلك خير مؤشر إلى أن الإسلام قد وجد له مكاناً في دراسة وممارسة مهنة الطب في بلادنا ، بل واسهم الطبيب اسهاماً ملحوظاً في رفع مستوى المهنة في عالمنا الإسلامي ، بل على صعيد المجتمع البشري الكبير ، ونستطيع أن نجمل أهم هذه الحقائق في النقاط الآتية :

اولا : يجب على الطبيب أن يتصف بالإمانة في علاج المرضى وحفظ أسرارهم، ومن المعروف أن الإسلام يأمر المسلم بتأدية الأمانة إلى اهلها والحفاظ عليها . لا نقصد هنا بأمانة المال أو بعض النواحي المادية الأخرى ، وإنما الأهم من ذلك امانة السر لأن الأمور المادية تأتي وتذهب ، وإما ما يرتبط بأسرار الناس ودخائلهم فربما توقف عليه الشرف والعرض والسلامة ، وهذه أمور لا جبر ولا دواء لها إذا خدشت . وعلى الطبيب أن يعرف أن من أمراض الناس ما ينبغي أن يظل سراً ، لما يترتب على اذاعة خبره من ضرر أدبي ، وربما مادي ، يلحق بالمريض .

والطبيب يدخل البيوت ويطلع أحياناً على العورات ، ولهذا نادى أطباء المسلمين الأوائل بأن يغض الأطباء أبصارهم عن المحارم عند دخولهم إلى المرضى ولا يفشون الأسرار ويهتكون الأستار (١) .

---

(١) ابن بسام ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، ص ١٠٩ .

ويوصى الطبيب الشهر علي بن رضوان (٢) الطبيب المسلم بأن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي أطلع علهيا في منازل المرضى، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها (٣).

كما يجب على الطبيب أن يكون مؤتمناً على أرواح الناس وليس على أموالهم فحسب، ولذا مطلوب منه ألا يصف أدوية تتعارض مع أحكام الشريعة. كتلك التي تسبب الإجهاض للنساء أو قطع النسل للرجال.

ويلخص الطبيب علي بن رضوان ذلك في عبارات محدودة فيقول: «ينبغي على الطبيب أن يكون مأموناً، ثقة على الأرواح والأموال، ولا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة» (٤).

ثانياً: على الطبيب المسلم أن يعي أن الإسلام دين الرحمة، وأنه اذا كان الإسلام قد كرم مهنة الطب، وجعل علم الأبدان قريناً لعلم الأديان، دون تفرقة بين كبير وصغير أو غني وفقير فالكل بشر يألمون من المرض ويطلبون رحمة الله.

وبالإضافة إلى هذه المفاهيم التي ينبغي على الطبيب أن يفهمها لكونها جزءاً من تعاليم الإسلام وروحه و كذلك المريض في حاجة إلى رعاية نفسية، مما جعل أطباء المسلمين الأوائل يوصون دائماً بالعمل على رفع معنوياته وايهامه بالصحة، وفي ذلك يقول الرازي: «ينبغي للطبيب أن

---

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص ٥٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ويذكر ابن بسام، أن على الأطباء ألا يعطوا لأحد دواءً قتالاً ولا يشيدون به، ولا يعطون النسوة العوسج - وهي الصوفة التي تسقط الأجنة - والمعجون المعروف بالمرهم فإنه يقتل الأجنة، ولا للرجال ما يقطع النسل، انظر كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام، ص ١٠٩.

يوهم المريض أبداً بالصحة ويرجيه بها ، وإن كان غير واثق من ذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » (٥) .

ثالثاً : السعي في تحصيل العلم ومعرفة كل جديد في علم الطب ، والتدريب تدريباً طويلاً كافياً قبل التصدي لعلاج المرضى . ويحكى الطبيب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي ، المعاصر لعهد صلاح الدين الأيوبي (٦) ، فيقول عن نفسه « كنت أقرأ للناس بالجامع الأزهر من أول النها إلى نحو الساعة الرابعة وسط النهار ، وفي الليل اشتغل لنفسي.. » وكان يقول : عليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ، ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده حت يتجد أكمل منه ، وعليك بتعظيمه وتبجيله وينبغى أن تعضر خواطرك على العلماء وعل يتصانيفهم وتتثبت ولا تتعجل ومن لم يعرض جبينه إلى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة ، ومن لم يبجله لم يبجله الناس ، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح » .

أما الشيخ الرئيس ابن سينا فيقول عن نفسه « كنت أرجع بالليل إلى داري واضع السراج بين يدي ، واشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلى.. قوتي ، ثم أرجع إلى القراءة (٧) .

ولم يغفل المسلمون الأوائل أهمية الجانب العملي في تدريس الطب ، فيقول الشيرازي (٨) « أن الطب علم نظري وعملي » (٩) ولهذا فقد

---

(٥) ابن أبي اصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٢٠ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٦٨٩ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٣٨ .
(٨) انظر تفصيلات في كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيرازي ، ص ٩٧ .
(٩) المصدر نفسه .

اتبعوا النظام الذي أخذه عنهم العالم الحديث من الحاق دراسة الطب بإحدى المستشفيات أو العكس .

ويذكر الشيرازي في كتابه نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، أنه كان مطلوباً ممن اختار أن يمارس الطب في الإسلام أن يكد حتى يلم بتركيب البدن ومزاج الأعضاء والأمراض الحادثة فيها ، وأسبابها وأعراضها وعلاماتها ، والأدوية النافعة فيها ، والإعتياض عما لم يوجد منها ، والجد في استخراجها وطريق مداواتها ، ولا يساوي بين الأمراض والأدوية في كمياتها ويخالف بينها وبين كيفياتها ، فمن لم يكن كذلك فلا يحل له مداواة المرضى ولا يجوز له الإقدام على علاج يخاطر فيه (١٠) .

رابعاً : الإيمان بالله والتمسك بروح الدين وأحكام الشريعة وآداب الإسلام ، فمهنة الطب تعتمد أولاً وآخراً ، على الضمير ، من لا دين له لا ضمير ولا أخلاق له .

وعلى الطبيب أن يعرف أن شوامخ الطب في الإسلام لم يحققوا ما حققوه ولم يبلغوا ما بلغوه إلا بفضل الإعتماد على الله والتمسك بشرائعه والإلتزام بطاعته وتنفيذ أحكامه . ويروى الرئيس ابن سينا عن نفسه فيقول: « كلما كنت أتحير في مسألة ، ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي المنغلق ، وتيسر المتعسر » (١١) .

أما الحفيد أبو بكر بن زهر الأندلسي فقد وصف بأنه « كان حافظاً للقرآن وسمع الحديث . وكان ملازماً للأمور الشرعية ، متين الدين قوى النفس محباً للخير » (١٢) ، هذا في حين وصف أبو الحسن على بن

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .
(١١) ابن أبي اصيبعة ، ص ٤٣٨ .
(١٢) المصدر نفسه ، ص ٥٢١ .

رضوان المتعلم لصناعة الطب ، بأنه « هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خير ونفس ذكية (١٣) .

والتدين لا يعني التزمت والرهبنة وعلى الطبيب أن يعلم أن الإسلام نادى المسلم بألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وذلك في حدود ما أحله الله ودون إسراف ، ولا أدل على ذلك من أن ابن سينا الذي حفظ القرآن والذي ألف أكبر موسوعة في الطب عرفتها العصور الوسطى ، هو نفسه ابن سينا الذي ألف وكتب وأتى على كثير من كتب الأدب والشعر وغيرها (١٤) .

وكذلك الحفيد أبو بكر بنو زهر الأندلسي الذي وصف بأنه « أكمل صناعة الطب » ، وهو نفسه الذي قال الشعر واجاد فيه ، وكان له موشحات مشهورة يغني بها ، وهو أيضاً الذي وصف بأنه « كان ملازماً للأمور الشرعية ، متين الدين قوى النفس محباً للخير » (١٥) .

وينبغي على الطبيب أن لا يحصر ثقافته داخل دائرة تخصصه الضيق، بل لابد له من تنويع ثقافته وتوسيع دائرتها ، والأخذ بنصيب من العلوم الإنسانية التي تصقل شخصيته وتجعل منه طبيباً ناجحاً ،واسع الأفق ، قادراً على أن يتفاعل مع المجتمع الذي كرس حياته لخدمته .

وقد أن نجد طبيباً من مشاهير الأطباء في الإسلام إلا قد أصاب نصيبا من الدراسات الإنسانية سواء في الآداب أو التاريخ فضلاً عن العلوم الدينية واللغوية ويروى أن الرازي كان يحسن علوماً كثيرة منها الحديث يرويه ويكتب الناس عنه (١٦) .

---

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦٥ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٤٣٧ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٥٢١ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٤١٨ ، ويذكر أن أبا جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الجزار ، وهو من أعلام الطب في القيروان في القرن الرابع الهجري ، كان قد ألف في التاريخ عدة مؤلفات . أنظر : ابن جلجل الأندلسي . طبقات الأطباء والحكماء (طبعة القاهرة ، ١٩٥٥م) ص ٨٨-٩١ .

خامساً : ينبغي على المسلم رذا عمل عملاً أن يحسنه ويتقنه ، ولذا ارتكزت مهنة الطب في الدولة الإسلامية على ركيزة قوية من الأخلاص والدقة ومراعاة القواعد الصحية وأهمها النظافة - التي اعتبرت من الإيمان - فضلاً عن الإحتياط من انتقال العدوى من المريض إلى السليم .

ومن أوجه الإخلاص في آداء العمل المحافظة الشديدة على مواعدي العمل بالنسبة لتواجد الأطباء في البيمارستان حتى لا يحضر مريض ولا يجد الطبيب ، هذا فضلاً عن تواجد بعض الأطباء ليلاً في صورة خفارة ، مجتمعين أو متناوبين ، احتياطاً للطوارىء .

سادساً : من الواجب على الطبيب أن يؤمن بأن مهنة الطب لا تستهدف الكسب السريع بقدر ما تستهدف الخير والتقرب إلى الله عن طريق التخفيف عن المرضى . ولذا اتصف أطباء المسلمين بالتعفف ، وعدم المغالاة في تقاضي الأجور والأتعاب وعدم أخذ شيء منها إلا بعد شفاء المريض .

ويحكى عن أمين الدولة بن التلميذ الذي وصف بأنه أوحد زمانه في صناعة الطب والذي كان كبير الأطباء في البيمارستان العضدي ببغداد . ومقرباً من الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ، أنه كان « إذا مرض فقيه نقلوه إليه ، فيقوم في مرضه عليه فإذا شفي وهب له دينارين وصرفه »(١٧) .

ويذكر عن الطبيب أبي الحسن علي بن رضوان انه يشترط فيمن يزاول مهنة الطب « أن تكونرغبته في ابراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء »

(١٧) ابن أبي اصيبعة ، ص ٣٤٩ ، وقد جاء في القواعد التي وضعها الشيرازي لمباشرة مهنة الطب أن الطبيب يعالج المريض ، فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته . انظر : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٩٨ .

ويذكر عن نفسه أنه كان يحرص في تصرفاته مع المرضى على « التواضع والمداواة وغيات الملهوف وكشف كربه المكروب واسعاف المحتاج »(١٨).

سابعاً : أن الطبيب في الإسلام عرف كيف يحترم نفسيه ومهنته ، فحافظ على حسن مظهره من ناحية ، وحرص على كرامته وكرامة المهنة التي يزاولها من ناحية أخرى ولكي يكتمل للطبيب شخصيته وهيبته في نظر العامة والخاصة اشترط الطبيب على بن رضوان فيه « أن يكون تام الخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرؤية ، عاملاً ، خير الطبع » كما اشترط فيه « أن يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف البدن والثوب » (١٩) .

أما سلوكه الخاص فاشترط في الطبيب في الإسلام أن يحتفظ بحسن السمعة ، وان يحرص على ألا يفقد احترامه في أعين الناس بكثرة المزاح أو الكلام ، فيذكر عن الطبيب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي أنه نصح الطبيب المسلم فقال « أجعل كلامك في الغالب أن يكون وجيزاً فصيحاً ولا تجعله مهملاً ككلام الجمهور ، بل أرفعه عنهم ولا تباعده عليهم جداً ، وإياك والهذر والكلام فيما لا يعني وإياك والسكوت في محل الحاجة وإياك والضحك مع كلامك وكثرة تبتير الكلام ، بل اجعل كلامك سرداً بسكون بحيث يستشعر منك أو وراءك أكثر منه » (٢٠) .

كما ينبغي أن لا يتكالب الطبيب على المال ، وأن يترفع عن الماديات والصغائر ، يذكر عن الطبيب فخر الدين المارديني المتوفي سنة ٥٩٤هـ والذي وصف بأنه « كان أوحد زمانه وعلامة وقته في العلوم والحكمة » أنه عندما زار دمشق كان له مجلس عام للتدريس وقد طلب منه الشيخ

(١٨) ابن أبي اصيبعة ، ص ٥٦١ - ٥٦٥ .
(١٩) المصدر نفسه ، ص ٥٦٥ .
(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٦٨٩ .

مهذب الدين عبد الرحيم بن علي أن يطب اقامته بدمشق ليتم عليه قراءة كتاب القانون لابن سينا وذلك مقابل مبلغ كبير يدفع له كل شهر ، ولكن فخر الدين رفض العرض في اباء وشمم وقال :« العلم لا يباع أصلاً »(٢١).

ثامنا : اعتقد المسلمون اعتقاداً عظيماً بأن كثرة الأدوية يكون لها تأثيرها العكسي في جسم الانسان ، وربما غلبت سلبياتها على إيجابياتها ، ولهذا حرص الطب في الإسلام على تطبيق مبدأ العلاج بالغذاء لا بالدواء ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال : « سر بدائك ما حملك » وفي ذلك يقول عبد الملك بن أبحر الكنائي ، وكان قد اسلم على يد عمر بن عبد العزيز « دع الدواء ما احتمل بدنك الداء » (٢٢) .

وإذا ما احتاج الطبيب إلى العلاج بالدواء فلينظر إلى ما لهذا الدواء من جوانب سلبية ويحاول معادلتها والتخفيف عن أثرها ، وقد اشتملت المراسيم التي صدرت عن ديوان الإنشاء في العصور الإسلامية الوسيطة بتقليد أحد الأطباء منصب مقدم الأطباء ورئيسهم ، ووصيته بأن «يتجنب الدواء ما أمكنه المعالجة بالغذاء .. و إذا اضطر إلى وصف الدواء الصالح للعلة نظر إلى ما فيه من المنافذ - وان قلت - وتحيل لإصلاحه بوصف مصلح ، مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات في

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٠٧ ، وقد ترجم ابن أبي اصيبعة للشيخ العالم ابي عمر عثمان ابن هبة الله المعروف بابن ابي الحوافز ، فوصفه بأنه « أفضل الأطباء ، وسيد العلماء ، وفريد الدهر ، وقد عاش بمصر ومات بها ، وعاصر صلاح الدين ثم الملك الكامل بن العادل الأيوبي ، وكان ابن أبي الحوافز يعتبر مثلاً رائعاً في حرص الطبيب المسلم على رعاية حرمه ومهنته واحترامها . ويذكر عنه انه كان يوماً راكباً في الطريق فرأى في بعض النواحي على مصطبة بائع حمص مسلوق ،، وهو قاعد ، وأمامه كحال يهودي وهو واقف بيده المكحلة والميل وهو يكحل ذلك البائع ، فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه ، وضربه بالمقرعة على رأسه وشتمه وقال له : « إذا كنت أنت سفلة (وضيعاً) في نفسك ، أما للصناعة حرمة ؟ ، كنت قعدت إلى جانبه وكحلته ، ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي بائع حمص !! فتاب الكحال أن يعودإلى مثل ذلك الفعل ، وانصرف !! » . ابن أبي أصيبعة ، ٥٨٥.

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

الاستعمال والأوقات وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه » (٢٣) .

ويورد الرازي في قوله في صراحة ووضوح « إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة » وقد ألف الرازي نفسه كتاب الطب المملوكي في العلل وعلاج الأمراض كلها بالأغذية ، ودس الأدوية في الأغذية حيث لابد منها (٢٤) .

وبجانب اهتمام علماء المسلمين في الأصول وفي علوم الفقه والحديث والتفسير واللغة نحواً وصرفاً وبلاغة وشعراً ، كذلك تطرقت التصانيف إلى جوانب أخرى من حياة الأمة ، تعالج ضروبها وتحل مشكلاتها بالإرشاد والتوعية والتوضيح ، وكان الطب من بين الجوانب التي عنيت بها هذه المصنفات والرسائل قديمها وحديثها وذلك لعدة عوامل :

العامل الأول : كان العلماء يكتبون رسائلهم الطبية من أجل نشر الثقافة الطبية بين المسلمين للمنفعة العامة وحفظ الصحة ودرء الخطر عملاً بالقول المأثور :« العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان » وتحقيقاً لفكرة أن علم الطب والقيام به فرض كفاية واجب على الأمة ، والأمة يمثلها علماؤها .

والعامل الثاني : وهو الذي يكتب فيه العلماء رسائلهم الطبية من أجل تلافي حالة مرضية بعينها كانتشار مرض أو وباء وهذه قلة .

والعامل الثالث : أن يكون التأليف من أجل الحذلقة الطبية مثل صياغة بعض نثر الأقدمين ، بيد أنه يدخل في هذا المجال أيضا الرغبة في تعميم الثقافة الطبية بين الناس لسهولة حفظ المنظوم وسرعة تداوله بين الطلاب.

(٢٣) المصدر نفسه ، انظر أيضاً ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٨٣-١٨٤ .

(٢٤) ابن أبي اصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٢١ ، ابن جلجل الأندلسي ، طبقات الأطباء والحكماء (القاهرة ، ١٩٥٥م) ص ٨٨ - ٩٢ .

وخلاصة القول:

فهذه بعض الأسس والمبادىء المستقاة من روح الإسلام وتعاليمه من جهة ومن سير وتراجم بعض الأطباء المسلمين في العصور الإسلامية الذهبية من جهة أخرى . ولو استطعنا نحن معشر المسلمين اليوم أن نلقنها أنفسنا كأساتذة أو طلاب في كليات الطب وفي جميع جامعاتنا ، فإننا -بإذن الله - سننجح في إيجاد مكان للإسلام وللعقيدة الإسلامية في مناهجنا وبرامجنا ، وخاصة الطبيبة منها ، بل سنخلق جيلاً جديداً من الحكماء والأطباء يحترمون ويؤمنون بآداب المهنة الجليلة التي يزاولونها .

والله من وراء القصد ، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

المبحث الثاني عشر

البحر في كتب التراث الإسلامي
(اللغوية والأدبية ، كتب الجغرافية
والرحلات ، الكتب التاريخية ،
والموسوعات)(*)

(*) بحث نشر ضمن أعمال مؤتمر« الحضارة الإسلامية وعالم البحار » الذي عقده اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة من (٢٢-٢٤ جمادي الأولى ١٤١٤هـ / ٦- ٨ نوفمبر ١٩٩٣م) ص ٩١ - ١٣٤ .

البحر في كتب التراث الإسلامي
(اللغوية والأدبية ، كتب الجغرافية والرحلات ، الكتب التاريخية والموسوعات)

منذ فجر التاريخ والبحر موضع إهتمام لعوامل عديدة منها العوامل الطبيعية فضلاً عن العامل الإقتصادي بوجه عام والتجاري بوجه خاص ومن الشعوب التي اهتمت بالبحر منذ القدم شعوب اليونان والرومان ، كما عنى به الفينيقيون وشعوب الرافدين من ذوي الحضارات القديمة من السومريين والبابليين ، كذلك اهتم به المصريون القدماء الذين ارسلوا بعثات كشفية طافت البحار المختلفة وتعرفت على أسراره وخباياه . أما العرب فقد اهتموا بالبحر منذ أقدم العصور خاصة عرب الجنوب الذين اشتهروا بفنون الملاحة ، وبرعوا في معرفة نظام الرياح الموسمية التي تدفع السفن شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . وكانت لعرب الجنوب رحلتان على الأقل في العام، رحلة الصيف ، وفيها تدفعهم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة الجنوبية نحو الساحل الأفريقي ، ورحلة الربيع عندما تدفعهم الرياح الموسمية نحو الشمال الشرقي إلى سواحل الجزيرة وسواحل الهند حتى بلاد الشرق الأقصى (١) . وهكذا برز العرب في فنون الملاحة وما يرتبط بها من معارف مثل معرفة الطرق البحرية الآمنة ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع البلاد والجزر واستخدام الآلات التي

---

(١) للمزيد من التفصيل عن الإهتمام بالبحر عند شعوب العالم القديم ، انظر جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ٢ (بيروت ، ١٩٧٨م) حـ ٧ ، ص ٢٤٣ وما بعدها ، أنور الرفاعي ، الإسلام في حضارته ونظمه (دمشق ، دار الفكر ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور الوسطى، وأوائل العصور القديمة (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٢٣ . R. Coupland , East Africa and its Invaders (Oxford, 1938) PP. 15 ff .

تساعدهم في ركوب البحر مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية والإسطرلاب فضلاً عن رسم الخرائط . ولما كانت بلادهم قليلة الأخشاب اللازمة لصناعة السفن فقد جلبوها من ساحل ملبار بالهند ، ومن سواحل أفريقية الشرقية ، بل حصلوا على الخشب من بعض بلاد البحر المتوسط وجزره ، مثل اقريطش . ومرة أخرى نؤكد أن العرب الذين مرنوا بركوب البحر ومعرفة أسراره هم عرب الجنوب الذين اشتهروا كذلك بصناعة السفن . وقد عرف عرب عمان بمهارتهم في صناعة السفن وتفوقهم في أعمال الملاحة .

ولا أدل على إهتمام العرب بوجه خاص ، وللمسلمين بوجه عام بالبحر من عناية كتب التراث الإسلامي بهذا الجانب الحضاري عناية فائقة فتناولت البحر بالدراسة والفحص ، كما اهتمت بمختلف أوجه النشاط فيه وجاءت الدراسات والإشارات التي تناولت البحر في كتب التراث الإسلامي شعراً كان أم نثراً في غاية الدقة والبراعة وفي ضوء هذه الحقيقة جاء اهتمامنا بدراسة هذا الموضوع البحر في كتب التراث الإسلامي ، اللغوية والأدبية والجغرافيا والرحلات ، والتاريخية والموسوعات » . ورأينا أنه لابد من الإسهام لتسليط الضوء على الدور الكبير والدراسة القيمة التي قدمتها كتب التراث الإسلامي عن البحر .

ومن المعروف أن كتب التراث الإسلامي متنوعة الموضوعات والفروع ، لذلك اقتصرنا في دراستنا هذه على ذكر البحر والإهتمام به في كتب اللغة والأدب والجغرافيا والرحلات والتاريخ والموسوعات .

ونخص بالعناية كتب التاريخ والجغرافيا لعدة اعتبارات منها .

١ - الحرص على مسايرة الإتجاه العام لهذه الندوة التي ينظمها اتحاد المؤرخين ، مما يتطلب أن يكون للتاريخ و الجغرافيا النصيب الوافي .

٢ - أن كتب الجغرافيا والرحالة والتاريخ زاخرة بمعلومات قيمة وهامة عن البحار وعلومها ، وما يدور في عالمها وفلكها .

لذلك جاء الإهتمام بإلقاء الضوء على أكبر قدر ممكن على تلك المعارف عند الجغرافيين والرحالة والمؤرخين الأوائل .

هذا مع اعترافنا بأن ما جاء في كتب اللغة والأدب يعتبر تمهيداً لهذه الدراسة ، وسنبدأ دراستنا بهذا التمهيد .

اولا البحر في كتب اللغة والادب :

حفلت معظم المعاجم اللغوية والعربية بذكر البحر ، وأشارت إلى معانيه ، وتعمقت في تفسير كلمة « البحر » وهي الكلمة التي حظيت بشرح واف عند كل من ابن منظور والزبيدي والجوهري والفيروز أبادي وقد أجمع العلماء على أن البحر هو الماء الكثير مالحاً كان أم عذباً ، كما أضافوا بأن البحر خلاف البر (٢) . وأشار بعضهم إلى أن البحر سمي بهذا الإسم لعمقه واتساعه ، كما ذكروا بأن ماء البحر غالباً ما يكون مالحاً .(٣)

كذلك أجمع أهل اللغة على أن البحر هو اليم (٤) . ويقال أن كلمة

(٢) انظر ، جمال الدين أبو الفضل ابن منظور ، لسان العرب ، نسقه وعلق عليه ، على شيري (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م) ، جـ ١ ، ص ٣٢٢-٣٢٦، محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس (القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦هـ) جـ ٣ ، ص ٢٨-٣١ ، اسماعيل بن حماد الجوهري . الصحاح في اللغة والعلوم ، تصنيف نديم واسامة مرعشلي (بيروت : دار الحضارة العربية ، ١٩٧٤م) جـ ١ ، ص ٧٢-٧٣ ، مجد الدين محمد يعقوب الفيروزابادي . القاموس المحيط (القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د. ت) ، جـ ١ ، ص ٣٨١-٣٨٢ .

(٣) ابن منظور ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ ، والزبيدي ، جـ ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٤) ابن منظور ، جـ ١ ص ٣٢٤ ، أنور عبد العليم « المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية في الفترة ما بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادي . كتاب البحرية الإسلامية » (الإسكندرية : جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣م) ص ١٦٨ - ١٦٩ ، وكلمة (يم) وردت في عدة آيات بالقرآن الكريم ، انظر سورة طه (الآيتان ، ٣٩ : ٧٨) ، القصص (آية : ٧) ، الأعراف (آية : ١٣٦) .

البحر أصلاً كلمة سريانية ، فعربتها العرب وأصلها « يما » وكلمة اليم ورد ذكرها في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى:« فألقيه في اليم» [٥] وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود باليم هنا « نيل مصر » [٦] . وتروى بعض مصادر اللغة أن كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر [٧] .

وأشار الزهري إلى أن كل نهر لا ينقطع ماؤه مثل دجلة والنيل وغيرهما من الأنهار العذبة الكبيرة فهو بحر [٨] ويضيف ابن منظور والزبيدي أن البحار الكبيرة لا يكون ماؤها إلا ملحاً أجاجاً وراكداً [٩] . وهناك ألفاظ أخرى كثيرة مرادفة لأسم البحر في اللغة العربية فمنها على سبيل المثال «القلمس » و « الخضم » و « العيلم » [١٠] كذلك هناك العديد من الكلمات والألفاظ ذات الصلة الوثيقة بالبحر ومدلولاته المختلفة فكلمة «القاموس » تعني معظم البحر أو « البحر » ولجة البحر أي معظم البحر ومنه كلمة « بحر لجى » [١١] كذلك وردت كلمة « سفينة » وعبر عنها بلفظ آخر وهو « الفلك » وكلمة سفينة وردت كثيراً في القران الكريم [١٢] . وقد عرفها العرب قبل الإسلام خاصة عرب الجنوب كما سبق القول ، وقد وصف عمرو بن كلثوم السفينة في أبيات كثيرة ، نذكر منها هذا

---

(٥) سورة القصص (آية : ٧) .

(٦) انظر ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي (بيروت : دار المعرفة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م) جـ ٣ ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .

(٧) ابن منظور ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ .

(٨) المصدر نفسه

(٩) المصدر نفسه ، جـ ١٥، ص ٤٥٦-٤٥٧ ، أبو الحسن ابن سيده ، كتاب المخصص (القاهرة : مطبعة بولاق ، ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) جـ ١٠ ، ص ١٦٣ ،الزبيدي ، جـ ٣ ، ص ٢٨-٢٩ .

(١٠) انظر ، جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٤٤- ، ٢٤٥ راجع الألفاظ المذكورة في المعاجم اللغوية كلسان العرب وتاج العروس .

(١١) انظر ، الزبيدي ، جـ ٢ ص ٩٣ و ٩٤ .

(١٢) سورة البقرة : (آية : ١٦٤) ، الكهف (الآيتان ٧١،٧٩) ، العنكبوت(آية : ١٥) .

البيت :

ملأنا البحر حتى ضاق عنا   وموج البحر نملؤه سفينا [١٣]

أما كلمة الفلك وجمعها فلوك ، فيعبر عنها بالمركب ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم يقول الله تعالى : « والفلك التي تجري في البحر بأمره » [١٤] ويقول الشاعر :

جوافل في السراب كما استقلت   فلوك البحر زال بها الشرير [١٥]

ويقال للسفينة أيضاً « بارجة » وجمعها « بوارج » مع العلم أن السفن تعددت في الأحجام والأشكال والأهداف بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وبالتالي صار لها مسميات متعددة ، أشارت بعض المعاجم اللغوية إلى اكثرها ، بل أخرج بعض المؤلفين المحدثين دراسات كثيرة عن السفن وأسمائها ، وكتبوا عن المصطلحات التي كانت تطلق على السفن خلال القرون الإسلامية الوسيطة [١٦] .

كذلك كان للعاملين في البحر نصيباً أوفر في بعض المعاجم اللغوية . فقد أفردت بعض المعاجم تعريفاً لا بأس به عن بحارة البحر أو العاملين في السفن التي تجوب البحار . فالشخص الذي يعمل في السفينة ،

---

(١٣) ابن منظور ، جـ ٦ ، ص ٢٨٦، جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٤٧ .

(١٤) سورة البقرة (آية : ١٦٤) .

(١٥) جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٤٨، والمقصودر بكلمة (فلوك) أي جمع الفلك ، أما الشرير فهو شجر البحر ، ويظهر من هذا أن (الفلك) هي سفينة من سفن البحر ، وهي من السفن الكبيرة ، وقد ورد في القرآن الكريم آيضاً في « الفلك المشحون » ، أي السفينة المشحونة المملوءة . كما ورد في القرآن الكريم أشارات أخرى تدل على صنع الفلك وإلى سيرها في البحر.

(١٦) انظر تفصيلات أكثر ، درويش النخيلي ، السفن الإسلامية علي حروف المعجم (القاهرة:دار المعارف ، ١٩٨٩م) ص ٤ وما بعدها ، مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم . تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام (بيروت : دار النهضة ، ١٩٨١م) ص ١٣١-١٤٠ ، السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٦٩م) ص ٧ وما بعدها .

أطلقوا عليه كلمة « ملاح » وأحيانا « سفان » كما يقال للمكان الذي ترفأ إليه السفينة « مرفأ » وهي كلمة من أصل « رفأ » بمعنى أدنى .

وقد ورد في حديث تميم الداري قوله : « أنهم ركبوا البحر ثم أرفأوا إلى جزيرة » (١٧) ويقال للمرفأ « الميناء » وقد عرفوا بأنه الموضع الذي ترفأ فيه السفينة كما يقال له « فرضة » و « فرضة البحر » و «المرساة » أي البقعة التي ترسو فيها السفينة (١٨) .

وزخرت كتب الأدب الأخرى بذكر البحر ، ومعظمها حافل بإشارات جميلة عن « البحر » جاءت ضمن مواضيع متعددة الجوانب ، ففي كتب ابن قتيبة والأصفهاني والثعالبي والجاحظ وغيرهم نجد في أماكن كثيرة إشارات إلى ذكر البحر ، أما ضمن مواضيع اجتماعية أو أدبية أو إقتصادية وفي بعض الأحيان يرد ذكر أسماء بعض البحار أو بعض السواحل ، أو بعض المواقف والمناسبات التي يكون للبحر فيها دور ، ويشير المؤرخ الجغرافي الكبير أبو الحسن المسعودي إلى كتاب ألفه أبو بحر الجاحظ بعنوان كتاب « الأمصار وعجائب البلدان » ، ويتناول بعض المعلومات التي نقلها عنه كذلك يشير إلى نفس الكتاب عالم جغرافي آخر هو ابن الفقيه الهمذاني .

والمعروف عن الجاحظ أنه أديب وعالم لغة ضليع بالدرجة الأولى ، إلا أنه تعرض للجغرافيا وألم بفنونها الوصفية . والمعلوم عن بعض علماء المسلمين الأوائل أنهم كانوا يهتمون بأكثر من فرع من فروع المعرفة ويتفوقون في عدد منها ولا يحصرون أنفسهم في دائرة ضيقة من دوائر المعرفة .

---

(١٧) انظر ، ابن منظور ، جـ ٥ ص ٢٦٣ .
(١٨) جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

أما البحر في الشعر فقد يكون له حظ أكثر من غيره ، وذلك لعدة أسباب نذكر منها :

١ - حب العرب وكثير من المسلمين لقرض الشعر ، وولعهم ببيئة البحر وما يدور فيها من خواطر قد تساعد قريحة الشاعر على أن يقرض شعراً .

٢ - نشاط الحياة الأدبية والفكرية وكثرة الشعراء خلال القرون الإسلامية الوسيطة ، ثم ميل الإنسان واستمتاعه لسماع الشعر لما فيه من معان وأوزان وقواف جميلة تستهوى الإنسان ، الأمر الذي جعل الشعر يأتي في المقدمة ويطغى على ما عداه من فروع الأدب الأخرى .

وعلى ذلك يمكن القول أن البحر حظى بمكانة واسعة ورعاية فاقت حد الوصف في الشعر العربي في مناسبات عديدة . وامتد وصف الشعراء للبحر إلى التعرض لهيجانه وما يصحب ذلك من حركات المد والجزر كذلك جاء في الشعر العربي وصف للسفن التي استخدمت في البحار ، كما صور الشعراء همة بعض الخلفاء والأمراء أو القادة ونشاطهم في ركوب البحر ومعظم دواوين الشعر ملىء بوصف البحر والنشاط البشري عليه ، ونورد هنا بعض الأمثلة لبعض ما قيل في البحر وما يدور فيه :

فالكريم من الناس قد يوصف بالبحر في جوده وسخائه ، وهذا ما قاله الأعشى عندما وصف ممدوحه ، فقال :

وما مزبد من خليج الفرات جون غواربه تلتطم

يكب الخلية (١٩) ذات القلاع وقد كاد جؤجؤها يتحطم

---

(١٩) الخلية : اسم من اسماء السفن البحرية .

تكأكأ ملاحها وسطحها ومن الخوف كوائلها يأتزر [٢٠]

وذكر الشاعر أبو نواس شعراً يصف فيه بعض أنواع سفن (حرقات) للخليفة العباسي الأمين (١٩٣هـ / ٨٠٨م - ١٩٨ هـ ٨١٣/م) فقال :

فإذا ما ركابه سرن برا سار في الماء راكبا ليث غاب

أسد باسطـــا ذراعيه يعـــدو أهرث الشدق كالح الأنياب

لا يعانيـــه باللجام ولا الشوط ولا غمز رجله في الركاب

عجب الناس إذا رأوه على صورة ليث يمر مر السحاب

تسبق الطير في السماء إذا مـــا استعجلوها بجيئة وذهاب [٢١]

وفي قصيدة أخرى يقول :

اشرقت دجلة من نـوره واسفر الشطان واستبهجا

لم تر عيني مثله مركباً اسحن إن سار وإن عرجا

إذا استحثه مجاديفـه أعنق فورد الماء أو هملجا[٢٢]

وقال الشاعر الأندلسي أبو عبد الله بن الحداد فيها :

ذات هداب من المجاديف حاك هدب باك لدمعة إسعاد

حمم فوقها من البيض نـــــار كل من أرسلت عليه رماد [٢٣]

ويصف البحتري والي البحر أحمد بن الدينار بن عبد الله وقد غزا الروم بحراً ، فقال :

---

(٢٠) الكوائل : مؤخرة السفينة

(٢١) أنور عبد العليم : « المعارف البحرية ... » ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢٢) المرجع نفسه . والتعليق والهملجة ضربان من ضروب الجري .

(٢٣) انور الرفاعي ، ص ٤١٢

غدوت على الميمون صحباً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفر
يسوق أسطولاً كأنه سفينـــــة سحائب صيف من جهام وممطر [٢٤]

وقد أفتن شعراء المغرب والأندلس في وصفهم لسفن الأساطيل العربية، ومن ذلك قول أبي عمرو بن يزيد بن عبد الله بن أبي خالد الأشبيلي :

ويا للجواري المنشأت وحسنها طوائر بين الماء والجو عوماً
إذا نشرت في الجو أجنحة لها رأيت به روضاً ونورا مكسماً
مجاديف كالحيات مدت رؤوسها على رجل في الماء كي تروى الظما[٢٥] .

وتوصف أحياناً بعض السفن الحربية ، مع توضيح قوتها وضخامتها ، وذلك ما ذكر الشاعر أبن حمديس في قصيدة خاطب بها أحد أمراء بني زيري في المغرب الأدنى واصفا ضخامة السفن المعروفة بـ (الشونة ، وجمعه شواني) فقال :

أنشأت شواني طائـرة وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال نحسبهـــا في شم شواهقها فننا
ترمي ببروج إن ظهرت لعدو محرقة بطنا
وبنفط أبيض تحسبـه ماء وبه تذكى السكنا [٢٦]

ويصف ابن حمديس نوع آخر من السفن العسكرية ، وتسمى الحربية وجمعها حرابى أو حربيات ، وتمتاز بسرعتها وخفة حركتها ، فقال :

---

(٢٤) سعاد ماهر . البحرية في مصر الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٧م) ، ص ١٢٦ وما بعدها ، محمد ضيف الله بطانية « الأسطول الإسلامي ، نشأته وتطوره » مجلة الدارة ، عدد (٣) سنة (١١) (١٤٠٦ هـ ١٩٨٥/م) ص ١٨ - ١٩ .
(٢٥) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ،ص ١٧٠ .
(٢٦) أنور الرفاعي ، ص ٤١١ .

يخوضون بحراً كل حين إليهم ببحر يكون الموج فيه فوارسا

وحربية ترمي بمحرق نفـــــط فيغشى سعوط الموت فيها المعاطس

رأوا حربية ترمى بنفـــــط لإخماد النفوس له استعار

كأن المهل في الأنبوب منـــه إلى شي الوجوه له ابتدار

كأن منافس البركان فيـــها لأهوال الجحيم بها اعتبار

نحاس ينبري منـــــه شواظ لأرواح العلوج به بوار

وقال أيضاً في وصف النار الإغريقية :

وما للماء بالإطفاء حكـم عليه لدى الوقود ولا أقتدار [٢٧] .

ثانياً : البحر في كتب الجغرافيين والرحالة :

كان الجغرافيون والرحالة أكثر من غيرهم إهتماماً بالبحر ، وحديثاً عنه، وجاء ذلك لغدة إعتبارات :

١ - طبيعة عمل هؤلاء في حقل الجغرافيا ، وخاصة وإن اهتمام الجغرافيا بالبحر لا يقل عن اهتمامها بالبر ، وهذا الإهتمام جعل هؤلاء في ترحالهم وتنقلهم يدونون ملاحظاتهم ومشاهداتهم التي اكتسبوها من خلال أسفارهم وتجاربهم .

٢ - ترجمة بعض العلوم اليونانية المتعلقة بالبحار إلى العربية ، مما أمد الجغرافيين العرب والمسلمين بالكثير من المعلومات ، فدرسوها ونقبوا فيها ثم أضافوا إليها الكثير .

٣ - اتساع رقعة الدولة الإسلامية حتى أصبحت تضم العديد من البحار والخلجان ، يضاف إلى ذلك أن نشاط الملاحين المسلمين الأوائل

---

(٢٧) المرجع نفسه ، ص ٤١٣ ، ٤١٥ .

ساعد الجغرافيين والرحالة على كسب معارف متنوعة عن البحار وما يتصل بها.

ومن واقع الإلمام بما جاء في كتب الجغرافيين والرحالة ، يتضح لنا أن تفاوتا واضحاً وفرقاً بيناً في الإهتمام والوصف بين هؤلاء بعضهم وبعض، ففي حين اكتفى بعضهم بإشارات موجزة عن البحر نري أن البعض الآخر أفاض وأسهب كثيراً ويعتبر عبيد الله بن خرداذبه [(٢٨)] ، في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يعتبر من أوائل الذين أشاروا إلى الطرق البرية والبحرية وخاصة الطريق البحري الذي يمتد من بحر فارس إلى الهند والصين ، مع ذكر المحطات الجزر التي يصادفها المسافر على تلك الطرق . كذلك نوه ابن خرداذبه بحركة المد والجزر والتيارات البحرية التي تنفرد بها بحار تلك الجهات [(٢٩)] .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ظهر صاحب كتاب

---

(٢٨) ابن خرداذبه : هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ينتمي إلى اسرة فارسية له كتاب (المسالك والممالك) . وهذا الكتاب من المؤلفات المبكرة جداً للجغرافية العربية الوصفية ، وقد اقتبس منه الجغرافيون اللاحقون على نطاق واسع ، وقد اهتم ابن خرداذبة في هذا الكتاب بأمور كثيرة منها : وصفه لطرق المواصلات بين الأقطار والمدن الإسلامية ، وكذلك اشتمل على بعض المعلومات الفلكية السطحية ، وشيء من الغرائب والطرف عن البلدان القصية كالصين والهند وتركستان وغيرها . وللمزيد من التفصيل ، انظر ، أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون . (جدة : دار البيان العربي ، د. ت) ص ٥١-٥٥ ، شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية دراسة في التراث الجغرافي العربي (بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٨م) ص ٢٧٥-٢٧٦

(٢٩) أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م) ص ١٧٢-١٧٣ .

(الأعلاق النفسية) وهو أحمد بن عمر المعروف (بأبن رستة) [٣٠] ، إلى أن البحار المعروفة في المعمورة خمسة ، هي :

١ - بحر الهند وفارس والصين .

٢ - بحر الروم وشمال أفريقية .

٣ - بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسي المسمى ببحر أوقيانوس ، وكان يطلق عليه أيضاً بحر المغرب .

٤ - البحر الأسود ، ويعرف أيضاً باسم بحر نيطس .

٥ - بحر الخرز .

ولم يقتصر ابن رستة على ذكر اسماء هذه البحار وتوزيعها ، وإنما أشار إلى الأقاليم التي تطل على كل واحد من هذه البحار ، وتعرض لذكر طول وعرض كل بحر بالأميال ، مع الإشارة إلى عدد ما يخرج من كل بحر من خلجان ، وما تشتمل عليه من جزر ، ثم أضاف تفصيل ما ورد عن ابن خرداذبه عن بحر الهند وفارس من حيث هيجانه ، وحالة المد والجزر فيه ، وأفضل الأوقات للملاحة فيه [٣١] .

---

(٣٠) هو أبو علي أحمد محمد بن اسحق بن رسته ، وهو فارسي الأصل ، وقد اشتهر بموسوعته المعنونة بـ (الأعلاق النفيسة) ، والتي يبدو أنه كتبها في حدود (٢٩٠هـ / ٩٠٣م) ، ولكن لم يصل إلى أيدينا سوى الجزء السابع منها ، وهو الجزء المتعلق بالجغرافيا ، وقد تصدر هذا الجزء مقدمة وافية في الجغرافيا الرياضية والفلكية كما الحق بالكتاب قسم مخصص لعجائب العالم من حيوانات ونبات وآثار ومبان . كذلك اشتمل الكتاب على وصف للبحار والأنهار المشهورة والأقاليم السبعة بمدنها الرئيسية وقد توفى ابن رسته حوالي عام ٣١٠هـ / ٩٢٣م) ، انظر احمد رمضان أحمد ، المرجع السابق ، ص ٥٩-٨٩ .

(٣١) انظر ، أحمد بن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة ، الجزء السابع ، تحقيق أم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٩١م) ، ص ٨٣ - ٨٩ .

وفي العصر الذي عاش فيه ابن رسته ، خرج عالم جغرافي آخر ، هو ابن الفقيه الهمذاني (٣٢) ، فدون معلومات شمل فيها ما ذكر خرداذبه وإبن رسته ، ثم حدد البحار الكبار بأربعة هي : البحر الذي يمتد من الغرب إلى الصين ، وهو بحر فارس والهند والصين الذي اشار إليه ابن خرداذبه وابن رسته ، والبحر المتوسط وذكره باسم البحر المغربي الرومي ، ثم البحر الخراساني الخزري ،وأخيراً البحر ما بين روميه وخوارزم (٣٣). أما أبو اسحاق إبراهيم الأصطخري (٣٤) ، فلم يتفق مع من سبقه في توزيع البحار ،وإنما ذكر بحرين فقط هما : بحر فارس وبحر الروم ، وأشار إلى أن بحر فارس يبدأ ببحر القلزم وينتهي في سواحل الصين ،و بحر الروم يبدأ من مضيق جبل طارق حتى مدخل البحر الأسود ، وقد أورد تفصيلات طيبة عن ذينك البحرين (٣٥) . ويذكر أبو القاسم

(٣٢) هو أبو بكر أحمد بن محمد اسحاق بن الفقيه الملقب بالهمذاني ، ولد في مدينة همذان ، وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) .. وكتابه المعنون (مختصر كتاب البلدان) لم يخل من معلومات مفيدة عن بعض أقطار العالم الإسلامي . ومن أهم أجزاء هذا الكتاب ما يتعلق بوصف الأرض والبحار والأنهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر والمغرب وبلاد البربر والشام وفلسطين والعراق وبلاد الروم ، وقد توفي الهمذاني حوالي عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) ، انظر ، شاكر خصباك ، ص ٢٧٦-٢٧٧، أحمد رمضان أحمد ، ص ٨٥-٨٩ .

(٣٣) انظر ، أحمد ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق أم. دي. غوي (ليدن مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ) ص ٥ - ١٢ .

(٣٤) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري ، عاش في النصف الأول من القرن الرابع ألهجري (العاشر الميلادي) في مدينة اصطخر بإيران . وقد زار عدد من بلدان الأرض ، ثم دون كتابه (المسالك والممالك) ، وقسم بلاد الإسلام إلى عشرين إقليماً ورسم خارطة لكل من هذه الأقاليم جعلها في مطلع الحديث عنه . وقد آورد عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ، وغيرها من المعلومات القيمة لمن جاء بعده من الجغرافيين والرحالة الأوائل . انظر، أحمد رمضان أحمد ، ص ٧٩-٨٥ .

(٣٥) أبو اسحاق الأصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٧٣ وما بعدها .

محمد [٣٦] ، المعروف بـ (ابن حوقل) بعض الإشارات المشابهة لما ذكر الأصطخري ، وخاصة فيما يتعلق ببحر فارس وامتداده ، والبلاد التي يمر عليها ، كما يورد بعض التفصيلات عن بحر الخزر ، فيقول : « إن هذا البحر ليس له إتصال بشيء من البحار التي على وجه الأرض بطريق العادة والإختلاط إلا ما يدخل إليه من نهر الروس . ولو أن رجلاً طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع ، وهو بحر مالح ولا مد له ولا جزر ، مظلم قعره بخلاف بحر القلزم لأن قعره طين آجن آسن [٣٧].

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، برز أبو الحسن علي المسعودي [٣٨] ، فذكر بعض أقوال من سبقه وأشار إلى بعض المؤلفات التي لم تصلنا ، ككتاب (رسم المعمور من الأرض) و (في البحار المد والجزر) للفيلسوف العربي يعقوب الكندي ، المتوفي عام (٢١٦هـ / ٨٧٤م) ، وكتاب (البحار والمياه والجبال) لتلميذ الكندي ، أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي ، المتوفي عام (٢٨٦هـ / ٨٩٩م) ، وقد أورد المسعودي في كتابه المسمى (أخبار الزمان) معلومات جيدة عن توزيع البحار والمحيطات مع الإشارة إلى مدى صلاحية

---

(٣٦) هو أبو القاسم محمد بن العلي الموصلي المشهور بابن حوقل ، ولد في بغداد ، وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، قام ابن حوقل برحلات عديدة إلى اجزاء عديدة من قارتي آسيا وأفريقيا ، ثم دون كتابه المعروف بـ (صورة الأرض) وهذا الكتاب يعتبر من أهم وأبرز الكتب الجغرافية العربية المبكرة التي تمثل ركناً هاماً من أركان الجغرافية العربية ، وللمزيد من التفصيل ، انظر ، أحمد رمضان أحمد ، ص ١١٧-١٢٩ .

(٣٧) انظر ، محمد بن حوقل ، صورة الأرض (بيروت : منشورات مكتبة دار الحياة ، ١٩٦٢) ص ٢٧٦ .

(٣٨) انظر تفصيلات اكثر عن المسعودي ، أحمد رمضان أحمد المرجع السابق ، ص ١٠١-١١٧ .

بعضها للملاحة [٣٩]، وفي كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) يذكر فصولاً جيدة عن البحار وأطوالها ، وحركة المد والجزر في بعضها ، وما يتشعب من كل بحر من الخلجّان ، ويصب إليه من أنهار ، وما في أعظمها من جزائر عظام [٤٠] ، كذلك ذكر تفصيلات جانبية عن بعض البحور العظام من حيث هيجانها وركودها ، والأوقات المناسبة لركوبها ، وما يوجد فيه من نباتات وحيوانات ، كما أشار إلى كثرة اللؤلؤ والأحجار الكريمة في بعضها [٤١] .

وكان شمس الدين أبو عبد الله أحمد المقدسي البشاري [٤٢] ، من أبرز جغرافيي ورحالة القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، فذكر أن البحار المعروفة في عصره بحران هما : ما يمتد بين بلد الصين وبلد السودان ، وما يأتي من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس ، أما البحار والأنهار الأخرى في العالم الإسلامي ، فهي في نظره عبارة عن خلجان وتفرعات لهذين البحرين [٤٣] . وقد عاصر أخوان

---

(٣٩) أبو الحسن علي بن الحسن المسعودي ، اخبار الزمان (بيروت : منشورات دار الأندلس، ١٩٦٦م) ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤٠) ابو الحسن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر (بيروت : دار الأندلس ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) مج ١ ص ١٦٧ - ١٩٧ .

(٤١) المصدر نفسه ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٩١ وما بعدها .

(٤٢) ولد المقدسي في حوالي عام (٣٣٥هـ / ٩٤٦م) . ويعتبر أحد الرواد العظام في الجغرافية العربية ، فقد أمضى سنوات طويلة من عمره يتجول في أنحاء العالم الإسلامي ويجمع المعلومات لكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عن طريق المشاهدة والإستقصاء ، وقد توفي في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) للمزيد من التفصيل ، انظر أحمد رمضان أحمد ، ص ١٢٩ - ١٣٧ .

(٤٣) شمس الدين أحمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق آم، دي ، غوي (ليدن : مطبعة بريل ١٨٧٦م) ص ١٠-٣٠ .

الصفا [٤٤] المقدسي فذكروا ملاحظات طيبة في رسالتهم الخامسة عن (الجسمانيات الطبيعيات)وذكروا اتصال البحار بعضها ببعض ، وبينوا أسباب حدوث التيارات والأعاصير فيها ، وقالوا عن الهيجان والمد والجزر في البحار أن « ... علة هيجان البحار وارتفاع مياهها وبروزها على سواحلها وشدة تلاطم أمواجها وهبوب الرياح في وقت هياجها إلى الجهات الخمس في أوقات مختلفة من الشتاء والصيف والربيع والخريف ، وأوائل الشهور وأواخرها ، وساعات الليل والنهار فهي من أجل أن مياهها إذا حميت في قرارها وسخنت لطفت وتحللت وطلبت مكاناً أوسع مما كانت فيه قبل فيتدافع فيه بعض أجزائها إلى الجهات الخمس فوقاً وشرقاً وجنوباً شمالاً وغرباً للإتساع فيكون في الوقت الواحد على سواحلها رياحاً مختلفة في جهات مختلفة . وأما علة هيجانها في وقت دون وقت بحسب شكل الفلك ومطارح شعاعاته على سطوح تلك البحار من الأفاق والأوتاد الأربعة [٤٥].

---

(٤٤) اخوان الصفا جماعة من المفكرين المختصين في الدين والفلسفة كانوا يجتمعون في البصرة (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و العاشر الميلادي) ، وقد اتخذوا لأنفسهم اسم (اخوان الصفا وخلان الوفا) اشارة إلى إحدى حكايات كليلة و دمنة وقاموا بوضع احدى وخمسين رسالة في مختلف حقول المعرفة من دون الإشارة إلى اسماء المؤلفين ، وكان الغرض منها تقديم اساس عقلي للعقيدة الدينية ، وقد تضمنت تلك الرسائل اشارات متعددة إلى المفاهيم اليونانية والرومانية ، ولا سيما بآراء ارسطو وبطليموس ، وقد عنوا عناية خاصة بالجغرافية الطبيعية وقدموا شروحاً على جانب كبير من الأهمية لبعض الظواهر الطبيعية والمترولوجية كالخسوف والكسوف والرياح والأمطار والبحار الزلازل والبراكين والحركات الجيولوجية . غير أن تلك الشروح والآراء لا تنطوي على أية اصالة ، بل هي مجرد نقل مباشر للفكر اليوناني والروماني ، وللمزيد من التفصيل ، انظر محمد محمود محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون (الكويت : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ١٦٢- ١٦٣، ١٦٧ - ١٦٨، الموسوعة الميسرة (١٩٥٩م) اشراف محمد شفيق غربال ، ص ٦٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية (١٩٣٣م) جـ ١ ، ص ٥٢٧-٥٢٩ .

(٤٥) انظر . اخوان الصفا ، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا (القاهرة : منشورات المكتبة التجارية ، ١٩٢٨م) جـ ٢ ، ص ٨٢-٨٣ .

أما محمد بن سنان البتاني في كتابه (الزيج الصابي) وسهراب في كتابه (عجائب الأقاليم السبعة) [٤٦] فقد أشارا إلى بعض بحار الأرض وحددا مواقعها ، مع ذكر خطوط الطول والعرض وحركة المد والجزر في بعضها [٤٧] ، وقد أورد سهراب معلومات واسعة عن الأنهار والبحار والبحيرات المشهورة حسب مواقعها من الأقاليم السبعة ، وأهتم اهتماماً خاصاً بأنهار العراق وبشبكة قنوات الري فيه مما يعتبر سجلاً جيداً لنظام الري العراقي خلال القرون الإسلامية الوسيطة [٤٨] ، كذلك ذكر أن البحار خمسة هي : البحر المغربي الخارجي من الشمال ، وبحر افريقية وبرقة ومصر والشام والروم ، وبحر القلزم والسند والهند والصين وفارس ، والبحر المظلم وهو خلف خط الإستواء ، وبحر جرجان وطبرستان والديلم[٤٩].

ومع أن أبا الريحان محمد بن أحمد البيروني [٥٠] ، اشتهر في علوم الرياضيات والفيزياء والفلك ، إلا أنه كتب عدة كتب في التاريخ والجغرافيا منها كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) وقد عرف باسم (كتاب الهند) ، وكتابان آخران هما : (الآثار

---

(٤٦) وللمزيد من التوضيحات عن كل من البتاني وسهراب انظر ، محمد محمود محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١٥٢ وما بعدها ، شاكر خصباك ، تطور الفكر الجغرافي (الكويت: مكتبة الفلاح ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م) ص ٨٠ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه ، في الجغرافيا العربية ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٤٧) محمد بن سنان البتاني ، كتاب الزيج الصابي (روما ، ١٨٩٩م) ، ص ٢٦-٢٧، سهراب ، عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة (فيينا : نشرة هانس فون مجيك ، ١٩٢٩م) ص ٥٤-٦٨ .

(٤٨) سهراب ، ص ٥٤ - ٦٨ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٥٠) وللمزيد من التفصيلات عن حياة البيروني ومساهماته في علوم الجغرافيا ، انظر ، أحمد رمضان أحمد . ص ١٣٧-١٢٥ .

الباقية من القرون الخالية) و (القانون المسعودي) وقد اشار البيروني إلى توزيع البحار واحاطتها بالأرض ، كما اعتقد أن المحيط الهندي يتصل بالمحيط الأطلسي في جنوبي القارة الأفريقية ، كذلك تعرض بمعلومات وافية لبعض السواحل البحرية في أوروبا الشمالية وكذلك آسيا الشمالية والشرقية (٥١) .

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) برز الجغرافي والرحالة المسلم أبو عبد الله محمد المعروف بالأدريسي ، الذي اهتم بعلوم التاريخ والجغرافيا منذ سن طفولته، بل وبدأ أسفاره وترحاله منذ فترة مبكرة في عمره ، فطاف في الأندلس وسواحل أوروبا الغربية بما فيها سواحل بريطانيا وفرنسا وشبه جزيرة أيبريا ، ويعتبر أول جغرافي عربي تنقل على نطاق واسع في القارة الأوروبية ، وقد دون كتابه المعروف بـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أو ما سمي بـ (كتاب رجار) نسبة إلى ملك صقلية روجر الثاني ، أو ما يعرف أيضاً بـ (الملك رجار) الذي استدعى الأدريسي وطلب منه أن يكتب له كتاباً يصف له فيه مملكته وسائر أصقاع العالم ويضع خارطة لأقطار الأرض ، فرحب الأدريسي بهذه الفكرة وانجز كتاب نزهة المشتاق ، وقد بقي هذا الكتاب وما أورده فيه الأدريسي من خرائط معتمداً ، يدرس ضمن الدراسات الجغرافية في الجامعات الأوروبية لفترة غير قصيرة(٥٢) .

وقد اتبع الأدريسي في كتابه المذكور المنهج البطليموسي في تقسيم

---

(٥١) أبو الريحان محمد البيروني . القانون للمسعودي (حيدر آباد : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م) ، ص ٥٨ وما بعدها ، حوراني . العرب والملاحة ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٥٢) محمد بن محمد الأدريسي . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م) . انظر في الجزئين معاً ، أحمد رمضان أحمد ، المرجع السابق ، ص ١٦١-١٧٧ .

الأرض إلى سبعة أقاليم وتحدث عن بلدان كل إقليم على حده مع رسم خارطة لها كذلك تميز هذا الكتاب عن غيره من المؤلفات الجغرافية العربية السابقة بمعلومات عن منابع نهر النيل وعن السودان الغربي وعن نهر النيجر ، كما انفرد أيضاً بغزارة معلوماته عن القارة الأوروبية (٥٣).

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)(٥٤) ، ظهر أبو الفداء فكتب في التاريخ والجغرافيا ، ومن أشهر كتبه في العلوم الجغرافية (كتاب تقويم البلدان) الذي فصل فيه كثير من المعارف ، وتكلم عن البحار ببعض التفصيل ، وذكر أن البحار العظيمة المشهورة خمسة وهي : البحر المحيط وبحر الصين وبحر الروم وبحر نيطش وبحر الخزر)(٥٥) كما سجل حقيقة جغرافية هامة عند حديثه عن توزيع البحار والمحيطات ، وهي أن الماء يغمر ثلاثة أرباع مساحة الأرض ، وهذه أحدى الحقائق الهامة التي اثبتتها الجغرافية الحديثة بعد أن توفرت لها الوسائل العلمية وبعد أن تم الكشف عن جميع جهات الأرض (٥٦).

ويعاصر أبو الفداء جغرافي ومؤرخ آخر هو شمس الدين محمد بن ابي طالب الأنصاري المعروف بالدمشقي أو باسم (شيخ الربوة) فألف عدة كتب اشتهر من بينها كتابه الجغرافي (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) وشمل هذا الكتاب أبواباً عديدة في شكل الأرض ، ووصف الأقاليم السبعة ، وإهتمامه بالبحار وخاصة البحر الأبيض المتوسط ، والمحيط الهندي ، وغرائب الحياة في البحر إلى جانب فصول ممتعة عن

---

(٥٣) الأدريسي ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٢ وما بعدها .

(٥٤) انظر معلومات أكثر عن أبي الفداء . أحمد رمضان أحمد ، ص ١٩٧-٢٠٩ .

(٥٥) عماد الدين اسماعيل أبو الفداء . كتاب تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص ١٧ وما بعدها .

(٥٦) يقول أبو الفداء « والقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها ، أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية بالتقريب فمعمورة البحار » . انظر تقويم البلدان ، ص ١٨-١٩ .

المعادن والأحجار الكريمة ، كما أشار إلى بعض التفصيلات عن مسميات البحار الكبرى وامتداداتها ، فأوردها على النحو التالي ، قال أهل العلم تعريفاً بذلك أن الماء المحيط بالأرض هو جرم بسيط مشف جرمه طبعه أن يكون بارداً رطباً متحركاً إلى المكان الذي تحت كرة الهواء وفوق الأرض ، وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار ، ولا يعرف له ساحل ، وله أسماء في الجهات سماه بها اليونان ومن قبلهم . فاسمه في الجهة المغربية أوقيانوس والبحر الأخضر ، وفي جهة جنوب الأرض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد ، وفي جهة محض جنوب البحر الأحمر ، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة والمحيط الشمالي ، وفي شمال الأندلس اللبلاية وبحر قادس . وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الأرض مالح ، وسائر البحار التي بوجه الأرض غيره فإنها خلجان منه متصلة به فائضة عنه [٥٧] .

ولم يكتف الدمشقي بشرح البحار ومساحاتها وامتداداتها ، بل شرح جانباً هاماً من جيومورفولوجيتها ، وهو تحدب سطح المحيطات حسب كروية الأرض ، وهذه الناحية قلما تعرض لذكرها الجغرافيون الأوائل . قال الدمشقي : وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها في بقاعها ووحدات الأرض المغمورة بمياهها . ومعنى الأنسجار منها أنها كروية الشكل في دورانها وكروية مع الأرض في تحدبها الكروي . فكل جزء منها مكفوف الأطراف كصورة نصف سدس دائرة . وهذا في صورته الخاصة ، فالبحار مستديرة باستدارة كرة الأرض وكهيئاتها في التدوير والإنكفاف . ولذلك الراكب في البحر إذا توغل فيه غابت عنه الأرض ، وإذا ما استشرف على السواحل فأول ما

(٥٧) شمس الدين محمد الأنصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بغداد : منشورات مكتبة المثنى ، د.ت) ص ١٢٧ .

يظهر له رؤوس الجبال العالية [٥٨] .

وناقش الدمشقي أيضاً الآراء المختلفة في أسباب ملوحة مياه البحار فقال : « وتكلم العلماء بعلمهم في الشيء الذي كان عنه الماء . فمنهم من زعم أن المياه من الإستحالة ، فطعم كل ماء على قدر تربته ، ومنهم من يزعم أن البحر بقية الرطوبة التي جفت أكثرها جوهر النار وباحراقه لهذه البقية استحالت إلى الملوحة . ومنهم من زعم أن أصل الماء العذوبة واللطافة ، وإنما لطول مكثه جذبت الأرض ما فيها من العذوبة لملوحتها وجذبت الشمس ما فيه من اللطافة بحرارتها فاستحال إلى الغلظ والملوحة[٥٩] .

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) عاش عبد الرحمن بن خلدون الذي لم يكن جغرافياً في الأساس ، وإنما كان مؤرخاً ومفكراً قبل كل شيء . لكنه كتب عدة مؤلفات من أشهرها الكتاب المعروف بـ(مقدمة إبن خلدون) ، وهي مقدمة كتبها لمؤلفه التاريخي المعنون بـ(ديوان المبتدأ والخبر ...) ، وهذه المقدمة قد بوأت ابن خلدون مركزاً سامياً في الدراسات الإجتماعية والتاريخية والسياسية والجغرافية . وقد اشتملت على عناوين عديدة في علوم الجغرافيا ، منها عنوان سماه (في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم) وأفضل ما أورد لنا في هذا الجزء ، أن قدم تلخيصاً جيداً لمعلومات الجغرافيين السابقين عن توزيع البحار ، وأوردها على النحو التالي « وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في

---

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
(٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

الأقليم الرابع البحر الرومي يبدأ في خليج متضايق في عرض أثنى عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق (٦٠) ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الأقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه ، وعليه هناك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية ، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج . ثم البنادقة ثم رومة ثم الأفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية . قالوا ويخرج منه من جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم يمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ، ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ، ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة وينتهي في بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل في فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس ، والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة (٦١) ، يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة . قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الأستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الأقليم الأول ثم يمر فيه مغرباً إلى أن

---

(٦٠) يقصد بكلمة (الزقاق) أي مضيق جبل طارق .

(٦١) بحر البنادقة : أي البحر الأدرياتيك .

ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي ، وعليه ومن جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر (٦٢) وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب . ثم بلد مقديشو ثم بلد سفالة وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء ، وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف ، وزبيد وغيرها ، ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة ، قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقاً ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال و مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الأقليم الثاني على ألف واربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وأبله ، ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل ، ومازال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك ، والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الأبلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الأقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والأبلة ، وعند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف عند مبدئه ، وفيما بين بحر فارس

---

(٦٢) والمقصود ببلاد البربر هنا ، أي الصومال .

والقلزم وجزيرة العرب كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق ، وتفضى إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما .

وهنالك الكوفة والقادسية وايوان كسرى وبغداد والحيرة ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم ،. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة المغرب منها ، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منه ، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها ، وسواحله على البحر الحبشي (٦٣) .

ولم يكن كل من سبقه في الإشارة إليهم ، هم فقط الذين تعرضوا لذكر البحر في مؤلفاتهم الجغرافية أو كتب الرحلات ، وإنما هناك جغرافيون ورحالة آخرون ، ذكروا البحر مع التفاوت في كل ما دونوا ، ففي أوائل العصر الإسلامي أشارت كتب التراث الإسلامي إلى العديد من الرحالة الذين لم تصلنا مؤلفاتهم ، أو وصل أجزاء من بعضها وقد سلكوا طرق البر والبحر ودونوا بعض المعلومات والمشاهدات عما شاهدوا في البحار والأنهار التي مروا عليها . ومن أمثلة أولئك الرحالة ابن وهب القرشي ، وسلميان التاجر ، وابن فضلان ، وأبو دلف الخزرجي وغيرهم كثير .

هذا ، وهناك مؤلفات أخرى وصلنا البعض منها جمع أصحابها بين التاريخ والجغرافيا ، ولم تتعرض لذكر البحار بنوع من التفصيل وإنما أشارت إلى بعض البحار فذكرت الطرق التجارية التي تمر بها ، وأحياناً ذكرت بعض الموانىء الهامة على سواحل بعض البحار ، ومن أمثلة تلك المؤلفات (كتاب صفة جزيرة العرب) للهمذاني و (تاريخ المستبصر) ، لابن المجاور ، و (كتاب اسماء جبال تهامة و سكانها وما فيها من القرى

---

(٦٣) عبد الرحمن ابن خلدون . المقدمة (بيروت : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، ١٩٨٢م) ، ص ٧٦ - ٨٠ .

وما بنيت عليها من الأشجار وما فيها من المياه) لعرام بن الأصبغ السلمي . وجميع هذه المؤلفات تدور حول تاريخ شبه الجزيرة العربية ، لكنها تعرضت لذكر الطرق التجارية البحرية في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، كما نوهت إلى نشاط بعض الموانيء التجارية الواقعة على سواحل تلك البحار .

وهناك بعض المعاجم الجغرافية ، أمثال (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، و (معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع) لعبد الله بن عبد العزيز البكري ، و كتاب (عجائب المخلوقات) و (اثار البلاد وأخبار العباد) لجمال الدين أبو يحيى زكريا المقلب بالقزويني ، وكتاب (الروض المعطار في أخبار الاقطار) لمحمد بن عبد المنعم الحميري وغيرها ، أشارت إلى أسماء أماكن عديدة ، وذكرت معلومات عن الجوانب الطبيعية والإقتصادية والبشرية ، ومن تلك الأسماء والمعلومات ما يكون له علاقة ببعض الجزر البحرية ، أو الخلجان ، أو الأنهار ، أو الموانيء أو المواقع البحرية المختلفة .

ومنذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ظهر جغرافيون ورحالة غير الذين سبقت الإشارة إليهم بعضهم قدم من النواحي الشرقية للعالم الإسلامي حتى صار يطلق عليهم في المراجع اسم (الرحالة المشارقة) أمثال ناصر خسرو الفارسي والهروي واسامة بن منقذ ، وعبد الكريم السمعاني وعمارة اليمني وغيرهم ، والبعض الآخر قدموا من النواحي الغربية للعالم الإسلامي ، كبلاد المغرب والأندلس وما حولها ، فعرفوا باسم (الرحالة المغاربة) كابن جبير ، والعبدري ، والسبتي التجيبي ، وابن بطوطة ، وغيرهم كثير . ومعظم هؤلاء وصلتنا مؤلفاتهم التي سجلوها أثناء تنقلهم وترحالهم ، فكان لذكر البحر نصيب كبير عند بعضهم ، أمثال ناصر خسرو ، وابن جبير وابن بطوطة ، حيث دونوا ما

شاهدوه في البحار التي ركبوها ، وبينوا حركة المد والجزر في بعض البحار ، كالبحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي والبحر الأحمر ، ما نوهوا إلى نوعية السفن التي كانت تستخدم في بعض البحار مع ذكر المواد التي كانت تصنع منها ، وأشار البعض منهم إلى الحركة التجارية التي كانت في بعض الموانىء على تلك البحار ، إلى غير ذلك من المعلومات الهامة في البحر وعلومه (٦٤) .

ثالثاً: البحر في كتب التاريخ :

ابرزت كتب التاريخ ، وخاصة الإسلامية المبكرة منها ، عناية فائقة بالبحر ، لا تقل عن العناية والرعاية التي أولاها الجغرافيون والرحالة بالبحر التي سبقت الإشارة إليها فيما دونوه وما شاهدوه في كتبهم وأسفارهم . وربما أمتازت كتب التاريخ عن غيرها بتنوع مناهجها ، وتعدد أساليبها وهي تعالج موضوع اهتمامها بالبحر في نواح مختلفة جيدة ومتميزة عن غيرها ، فيشمل موضوع إهتمامها جوانب أخرى لم نلحظها من قبل ، كالإهتمام بالجوانب السياسية والعسكرية والإستراتيجية وهي الجوانب التي يحظى بها علم التاريخ دائما ، ويمتاز بها عن غيره من العلوم .

فإذا فحصنا المصادر التاريخية الحولية ، كتاريخ الأمم والملوك للطبري ، والكامل في التاريخ لأبن الأثير ، والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير وغيرها ، فإننا نلحظ ذلك الإهتمام المشار إليه علاوة على ما

(٦٤) وللمزيد من التفصيلات ، انظر في المصادر التالية : الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ، أبو معين الدين ناصر خسرو . سفرنامة ، رحلة ناصر خسرو القبادياني ، ترجمه من الفارسية وحققه أحمد خالد البدلي (الرياض : عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، د. ت

تحتويه هذه المصادر من معلومات أخرى متنوعة [٦٥] .

ومن الكتب الأولى التي اتبع أصحابها منهج الموضوعية ، وسلكوا فيها أساليب مختلفة ، وناقشوا فيها عناصر عديدة على هيئة موضوعات أو أسر في التاريخ ، نذكر على سبيل المثال :

مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ، وكتاب التاريخ لليعقوبي ، أو أنساب الأشراف وفتوح البلدان للبلاذري ، وهذه الكتب الأخيرة اختلفت اختلافاً يسيراً عن كتب الحوليات في طريقة التدوين ، لكنها لا تختلف كثيراً عنها فيما أوردت من موضوعات ، وخاصة فيما يتعلق بالبحار ، حيث أشارت إلى بداية العرب المسلمين في ركوب البحر وخاصة في المجال العسكري [٦٦] ، وناقش العديد من هذه المصادر الصدام العسكري بين المسلمين والدولة البيزنطية وكذلك الفرنجة ابان الحروب الصليبية ، وخاصة في المعارك الحربية ، كما تعرضت مثل هذه الكتب لإهتمام المسلمين ببناء الأساطيل البحرية وصناعة السفن المتنوعة الأحجام والأهداف [٦٧] .

---

(٦٥) وللمزيد من التوضيحات ، انظر ، تاريخ الأمم والملوك ، للطبري ، والكامل في التاريخ، لأبن الأثير ، والبداية والنهاية ، لأبن كثير ، أيضاً انظر ، العماد مصطفى طلاس ، الحرب عند العرب (بيروت : دار الكلمة للنشر ، ١٩٨١م) ص ٢٦ وما بعدها ، حسين مؤنس . تاريخ المسلمين في البحر المتوسط (الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية) (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١م) ص ٣٠ وما بعدها .

(٦٦) احمد بن يحي البلاذري . فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ١٦٨ وما بعدها ، أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) جـ ٢ ص ١٣٩ وما بعدها ، أحمد بن أعثم . كتاب الفتوح (بيروت : دار الندوة الجديدة ، د.ت) جـ ٣ ، ٤ ، المسعودي ، مروج الذهب ، مج ٢ ، جـ ٣ ، ٤ .

(٦٧) انظر ، حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٣١ وما بعدها ، محمد ضيف الله بطاينة «الأسطول الإسلامي ، نشأته وتطوره » ص ١٨-٣٣ .

ومن كتب التاريخ ما عرف عند اصحاب التراث (بكتب التراجم) مثل: طبقات ابن سعد ، وطبقات ابن خياط ، وصفة الصفوة لإبن الجوزي، وكتاب الوفيات لابن خلكان ، وسير أعلام النبلاء للذهبي وغيرها كثير ، فمثل هذا النوع من المصادر أهتم بذكر سير الرجال ، لكنها لا تخلو من معلومات جيدة عن بعض القادة الرجال الذين شاركوا في الحروب البحرية عند المسلمين ، كما أشارت إلى بعض الأسماء التي عملت في بعض السواحل البحرية ، أو إلى تلك التي كان لها شأن وصلة بغزوات البحر ضد أعداء الإسلام [(٦٨)] .

ومع تقديرنا لهؤلاء جميعاً ، إلا أننا ندين بالكثير لذلك الرعيل الأول من المؤرخين والرحالة العرب من أمثال المسعودي وابن بطوطة وياقوت وأبو الفداء وغيرهم .

وأشهر هؤلاء الرواد العرب والمسلمين الذين تحدثوا عن بعض بحار العالم من النواحي العلمية والنظرية ، وغطت كتاباتهم بعض الجوانب الهامة في المجالات الإقتصادية والإجتماعية ، ولذلك نعتبرها مفيدة ومراجع أصيلة ومنهم :

١- المسعودي :

مؤرخ وجغرافي كما مر معنا ، توفى في ٣٤٦هـ (٩٥٧م) في الفسطاط بمصر وهو من مواليد بغداد وله ولع بالرحلات ، زار الهند وسيلان وبحر الصين وزنجبار ومدغشقر والصومال ، وقد وصف رحلاته وتجاربه ومشاهداته في ثلاثين جزءاً وسمى كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)

---

(٦٨) امثال عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وغيرهم كثير ، حيث كانوا من أوائل من ركب البحر من المسلمين ، وخاصة في حروبهم مع الروم في البحر الأبيض المتوسط .

... وهو كتاب سياحة ومعرفة وتاريخ وجغرافيا وعمران وعلم وأساطير ، والمعروف أن البحار الجنوبية صارت مألوفة ومعروفة عند العرب ، وقد وصفها المسعودي أدق وصف ، كما وصف نشاط العرب البحري والتجاري.

وكان المسعودي يذرع البحر إلى شرق أفريقية من عمان ، وكانت آخر رحلة له عام ٣٠٤هـ (٩١٧م) من قنبلو إلى عمان ، ووصف الملاحة العربية فقال : « وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون في البحر [٦٩] ... » .

ويستطرد المسعودي في وصف المحيط الهندي والبحار الجنوبية للجزرية العربية ويقول : « قدروا بحر الهند وهو الحبش إلى أقصى الهند والصين ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألف وسبعمائة ميل ، وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل ، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع ، ويكثر كذلك ، وليس في المعمورة أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة ، يمتد إلى ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربري ، طوله خمسمائة ميل وعرض طرفيه مائة ميل وليست هذه بربر التي ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض أفريقية ، لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الأسم « ... وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري وهم يعرفونه ببحر بربري ، وبلاد جفوني أكثر مسافة مما ذكرنا ، وموجه عظيم كالجبال الشواهق ، فإنه موج أعمى ، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية ، لا

---

(٦٩) المسعودي ، مروج الذهب ، مج ١ جـ ١ ، ص ١٢٣ .

ينكسر موجه ، ولا يظهر من ذلك زبد ، كتكسر أمواج سائر البحار ، ويزعمون أنه موج مجنون . وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد ، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا ما ذكرنا من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون (٧٠) .

ويضيف المسعودي عن الملاحة العربية قوله : « ... وسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة وهي أقصى بلاد الزنج (في روديسيا حالياً) وإليها تقصد مراكب العمانين وهي غاية مقصدهم في (أسافل) بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصى بلاد الواق واق ، وهي أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، خصبة حارة ، اتخذها الزنج دار مملكة ، وملكوا عليها ملكاً سموه وقليمي (٧١) يملك ملوك سائر الزنوج (٧٢).

٢ - ابن بطوطة :

يعتبر ما كتبه هذا الرحالة العربي المشهور الذي ولد في طنجة (٧٠٢هـ) (١٣٠٤م) من أهم مصادر المعرفة عن أحوال بحر الزنج وبلدان شرق أفريقية في العصر الوسيط. لقد قام ابن بطوطة برحلة بحرية من طنجة لتأدية فريضة الحج وزار مقديشو وقابل سلطانها ، كما زار كلوة (عاصمة إمبراطورية الزنج ٩٧٥هـ - ١٤٩٧م) وقد دونت معلوماته في كتابه المشهور باسم (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد وصف ابن بطوطة بحر الزنج وسواحله والمدن الهامة التي تطل عليه بقوله:

---

(٧٠) المصدر نفسه ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، وكانوا يرتجزون قائلين :

بربري وجنوني   و موجك المجنون

جنوني وبربري   وموجها كما ترى

(٧١) وقليمي أو واكليمي (Waglimi) أو افليمي (Waflimi)والتي ربما تعني الكلمة السواحلية وافليم (Wafalame) مفردها مفلم (Maflme) ومعناها زعيم . انظر :
S. Trimingham , Islam in East Africa (London , 1964) PP. 4-5 .

(٧٢) المسعودي ، مروج الذهب ، مج ـ ، جـ ١ ، ص ١٢٢ وما بعدها .

(ركبنا البحر إلى مدينة كلوه وهي مدينة ساحلية عظيمة أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم . ومدينة كلوة أحسن المدن ، واتقنها عمارة وكلها بالخشب ، وسقف بيوتها الديس ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل بالكفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب [٧٣] .

ويضاف بالطبع لذلك الرعيل الأول والذين سبقت الإشارة إليهم في موضوع « البحر في كتب الجغرافيا »:

(أ) ابن الوردي:

في كتابه (فريدة العجائب وفريدة الغرايب) ، تعرض ابن الوردي إلى البحار العربية الجنوبية وتجارتها الزاهرة ، وجاء بمعلومات هامة عن السواحل العربية الأفريقية وحضارتها الشامخة في خلال العصور الوسطى ، وتحدث عن أثر البحر ودور العرب في الملاحة والتجارة العربية المزدهرة بين سواحل أفريقية الشرقية من جهة وبلاد الهند والصين من جهة أخرى .

(ب) ياقوت الحموي:

هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، من أشهر الجغرافيين والمؤرخين ، وله قاموس جغرافي سماه (معجم البلدان) وقد سبقت الإشارة إليه ، وهو يتحدث عن البحار العربية وبحر الروم والهند والصين . وهذا المعجم غني بالمعرفة ، وأشار ياقوت إلى النشاط العربي في البحار وتقدم فنون الملاحة وبراعة العرب في هذا المجال . وقد جاء في وصفه لبحر الزنج قوله :

---

(٧٣) انظر، ابو عبد الله اللواتي الطنجي بن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) ص ١٩٣ .

« وهو بحر الهند بعينه وبلاد الزنج منه نحو الجنوب » (٧٤) .

ويمكن القول أن جميع الكتب التاريخية التي سبقت الإشارة إليها وغيرها تعتبر من أهم المراجع في جغرافية وتاريخ سواحل البحار المختلفة، فقد جاءت بمعلومات هامة عن بعض بحار العالم الهامة ومدنها وسواحلها وأحوالها الإجتماعية والإقتصادية ، كما أشارت إلى نشاط الحركة التجارية وازدهارها فيها ، وهذا يدل دلالة واضحة أن البحار والأنهار لها دور كبير وعظيم في ازدهار الحياة والنشاط بكافة نواحيه سواء أكان في مجال الزراعة أو الصناعة أو نشأة المدن ، نموها وتطورها وازدهارها . والمعروف أن بناء المدن وتأسيسها يراعي فيه قربها من البحار أو الأنهار . فعلى سبيل المثال يذكر أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور عندما أراد تأسيس مدينة تكون عاصمة لدولة الخلافة كان حريصاً أن تكون هذه المدينة على ضفاف نهر دجلة لأسباب إستراتيجية وسياسية وإقتصادية وتجارية بحيث لا تبعد كثيراً عن الخليج الفارسي الذي اشتهر بموقعه الإستراتيجي والتجاري الهام إذ أن كل سفن أوروبا والشرق الأقصى ترسو في هذا الخليج (٧٥) .

---

(٧٤) شهاب الدين ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤هـ / ص ١٩٨٤م) جـ ١ ، ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٧٥) وللمزيد من التفصيل عن مدينة بغداد ، ومكانتها التجارية والسياسية ، انظر ، كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٤٠ وما بعدها ، السيدر محمد يوسف ، « علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري » مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ١ ، جـ ١ (١٩٥٣م) ص ٢٥-٢٦ .

M. Lombard. The Golden Age of Islam , tr. J. Spencer (Amsterdam , (1975) p. 16-17. Ghithan Jrais . The Social , Industrial and Commercial History of the Hejaz Under the Early Abbassids (132-232/749 - 847) Unpublished Thesis , University of Manchester (1989) PP. 220 ff .

ولابد من الإشارة أيضاً إلى كتب التاريخ التي حفلت بنشاط العرب البحري قبل الإسلام بقرون عديدة ، فإنها رصدت كذلك تفوق المسلمين وبراعتهم في فنون الملاحة وركوب البحر بعد انتشار الإسلام وذلك لأسباب دينية وسياسية واستراتيجية فضلاً عن العامل الإقتصادي واهتمام العرب بتطور التجارة وازدهارها ، الأمر الذي جعل المسلمين يحتكرون السيادة البحرية في معظم بحار العالم لدرجة أن البحر المتوسط الذي كان فيما مضى يعرف بالبحيرة الرومانية ، أو بحر الروم ، أصبح يطلق عليه البحيرة الإسلامية (٧٦) . وهذا يعني أن العرب والمسلمين تفوقوا تفوقاً واضحاً على غيرهم من أصحاب الحضارات القديمة من اليونان والرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم . يضاف إلى ذلك إلى أن العرب ما عادوا يهابون ركوب البحر ، بل أن حروب الجهاد في سبيل الله ، وكسر شوكة أعداء الإسلام والمسلمين الذين كانوا يتربصون بها ، الدوائر دفعتهم إلى بذل المزيد من الجهد لتطوير فنون الملاحة وتطوير وصناعة السفن ، فأصبحوا بذلك اساتذة مهرة في علوم البحار وفنونها المختلفة .

فلما ظهر الإسلام ، وبدأت حركة الفتوح الإسلامية على أثر ذلك لإعلاء كلمة الحق والجهاد في سبيل الله ، نجح المسلمون في التغلب على أعتى الجيوش براً ، واحتلوا بلاد الفرس والعراق والشام ومصر ، فأصبحت لهم سواحل طويلة ، إلا أن هذه السواحل كانت تقف دائماً عقبة أمام تقدم جيوشهم ، وكانت هذه السواحل هي المكان الملائم لهجوم أعدائهم عليهم

(٧٦) انظر لمزيد من التفصيلات ، حسين مؤنس « اثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية في البحر المتوسط » مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مج ١ ، ج ١ (١٩٥١م) ص ٨٨-٨٩ ، علي محمد فهمي . « البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى العاشر الميلادي » تاريخ البحرية المصرية (الأسكندرية : جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣م) ص ٢٦١ وما بعدها .

فالعرب الذين قهروا وانتصروا على أكبر الجيوش في العالم رأوا إن عدوهم أصبح يتحداهم من ناحية البحر ، ومثلما سبق القول أن عرب الجزيرة عند ظهور الإسلام كانوا بدواً ولا خبرة لهم بالبحر وركوبه ، لذلك عملوا على إصلاح الحصون الساحلية القديمة التي تركها العدو ، وأطلقوا عليها « أخائذ » ، كما أنشأوا « مناظر » أي اماكن يراقب منها العدو كانت تتخذ « المواقيد » لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجىء . فكانت العقبة الأساسية حينئذ هي أن العدو كان يتحدي العرب المسلمين من ناحية البحر، وهم مازالوا يهابون ركوبه وتنقصهم السفن اللازمة لمواجهة الأعداء في ذلك المجال . وكان الخليفة عمر بن الخطاب يخاف على المسلمين من ركوب البحر ، ويحذرهم من ركوبه خوفاً على حياتهم وأرواحهم .

وأشارت بعض المصادر في هذا الجانب أن أول من ركب البحر في حملة عسكرية من المسلمين هو العلاء بن الحضرمي والي البحرين لغزو بلاد الفرس في أثنى عشر ألفاً من المسلمين من غير أذن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، فلحقت الهزيمة بجيشه ، ولما علم الخليفة بأمر هذه الحادثة عزل هذا الوالي من منصبه .

كانت السيادة الحربية البيزنطية ، وتهديدها المستمر للسواحل الإسلامية في الشام ومصر ، وإغاراتهم المتكررة عليها ، جعل ولاة الشام ومصر يفكرون في بناء قوة بحرية ، وانشاء أسطول قوي يتحدون به سيادة الروم في البحر ، فكتب معاوية بن أبي سفيان يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب السماح لهم ببناء هذه القوة حتى يضعوا حداً لهجمات الروم المتكررة وغاراتهم المستمرة على السواحل الإسلامية ، إلا أن الخليفة

عمر بن الخطاب امتنع عن ذلك (٧٧) . لعدة أسباب منها :

١ - خوفه المستمر على حياة المسلمين وذلك في قوله : « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبدا » .

٢ - كان الخليفة عمر بن الخطاب يعتقد أن المسلمين تنقصهم الخبرة الكافية التي تمكنهم من منازلة الروم في البحر في هذه المرحلة المبكرة .

٣ - أن الخليفة عمر بن الخطاب يخشى أن يحدث للمسلمين ما حدث لحملة العلاء بن الحضرمي في بلاد الفرس ، لذلك كان يرى أن الإمتداد البري في هذه المرحلة مع الرباط هو خير بديل لركوب البحر.

على ذلك امتنع ولاة الشام ومصر ، فانتهجوا سياسة جديدة هي المرابطة على شواطىء البحر ، وذلك لمراقبة المواقع الساحلية ورصد تحركات الروم (٧٨) .

سار الخليفة عثمان بن عفان في بداية خلافته على نهج الخليفة عمر بن الخطاب في تقوية المواقف الدفاعية على السواحل ، ولكن عندما اشتدت

---

(٧٧) الخليفة عمر بن الخطاب ، لم يتسرع في الإجابة على معاوية بن أبي سفيان وإنما ارسل إلى عمرو بن العاص ويطلب منه وصفا للبحر ، فأرسل له عمرو وصفاً قائلا : يا امير المؤمنين أني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، ان ركد خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، بزداد فيه اليقبن قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق » وعندما قرأ عمر بن الخطاب ما كتب له عمرو بن العاص ، وتذكر ما حدث للعلاء بن المغيث الحضرمي ، ارسل عدم الموافقة لمعاوية بن أبي سفيان ، انظر ، محمد ضيف الله بطانية ، ص ١٨ - ١٩ ، أنور عبد العليم ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، حسن وعلى ابراهيم حسن ، النظم الإسلامية (القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٧٠م) ص ٢١٦-٢١٧، أحمد أمين مصطفى. الرسائل في مصر الإسلامية (القاهرة : مطبعة السعادة . ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ص ٧٧ .

(٧٨) انظر ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ - ١٧٦، سالم والعبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ١٦ وما بعدها .

هجمات الروم والبيزنطيين علي المسلمين ، عهد الخليفة عثمان إلى معاوية ببناء أسطول يردع الروم ويضع حداً لهجماتهم على سواحل المسلمين ، فنجح المسلمون في بناء بحريةٍ قوية تحدت السيطرة البيزنطية وكسرت احتكار سيادتها للبحر بعد الإنتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون في موقعة ذات الصواري عام ٣٤هـ (٦٥٤م) (٧٩) .

لقد استفاد المسلمون استفادة تامة من خيرات أهالي البلاد المفتوحة خاصة بعد انتشار الإسلام بينهم ، ومعظمهم من القبط المصريين ونصارى الشام ، فأصبحت بذلك صناعة السفن إسلامية ، وقامت دور الصناعة البحرية ، فأنشأوا السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وتطورت هذه الصناعة بحيث أن العبارة التي تعني المكان الذي تصنع فيه السفن ، وهي الصناعة ، انتقلت إلى لغات العرب باسم « ارسنال » « Arsenal » ولازالت إلى وقتنا الحاضر ، تدل على المكان الذي تصنع فيه السفن . وقد أوجد الإهتمام بالاسطول ظهور « دواوين خاصة به للإشراف عليه - يذكر منها في العصر الفاطمي « ديوان الجهاد » وفي العصر الأيوبي « ديوان الأسطول » فكان هذا الديوان يقوم بالصرف على رجال الأسطول ، وهو ما عرف بالنفقة .

ويعتبر معاوية بن أبي سفيان ، أول من عن بإنشاء السفن الحربية ، ورتب لغزو الدولة البيزنطية والإستيلاء على عاصمتها القسطنطينية وهو الحلم الذي كان يراود أي حاكم مسلم على مر الأزمان ، وكانت الخطط التي وضعها معاوية لغزو بلاد الروم قد عرفت باسم « الشواتي » و «الصوائف » ومعنى ذلك أن معاوية وضع نظاماً يكفل استمرار الحرب

---

(٧٩) حسين مؤنس ، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ، ص ٣١ وما بعدها ، سالم والعبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦ وما بعدها .

بين المسلمين والروم شتاءً وصيفاً . وسار خلفاؤه من بعده على ذلك النهج من حيث الإهتمام ببناء الأساطيل وتجهيزها ، حتى قهروا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وجزره المختلفة ، كما هددوا العاصمة القسطنطينية عدة مرات (٨٠) .

كان اهتمام الخلفاء العباسيين بالبحرية الإسلامية كبيراً ، فكلفوا ولاتهم بتطوير الأسطول وبناء السفن ، كما بذل الطولونيون في مصر والشام جهوداً لتقوية القواعد والحصون الساحلية واعتنوا بدور الصناعة ، وخاصة دار جزيرة مصر التي تعرف « بالروضة » والتي ظلت دار صناعة للسفن إلى أيام محمد بن طغج الأخشيدي الذي أمر بنقلها إلى ساحل مصر عام ٣٢٥هـ (٩٣٦م) (٨١) .

وتزايد اهتمام الفاطميين بالنشاط البحري وتطوير الأسطول في البحر الأبيض المتوسط ، حيث أمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ابنه العزيز بالله بتأسيس دار للصناعة البحرية في (المقس) ، فتم انشاء ستمائة مركب لم يرفي البحر مثلها كبراً ووثاقة ، كما أنشئت المراكب البحرية بمدينة القاهرة والإسكندرية ودمياط ، وصارت تنقل إلى مدن الشام الساحلية ، مثل صور وعكا وعسقلان (٨٢) .

وقامت الإمارة الأموية في الأندلس على أثر غزو النورمان للسواحل الأندلسية عام (٢٢٩هـ / ٨٤٣م) في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط

---

(٨٠) للمزيد من التفصيلات عن تفوق المسلمين على الروم ، انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ وما بعدها ، سالم والعبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦١ وما بعدها ، حسين مؤنس «اثر ظهور الإسلام في أوضاع البحر المتوسط ، ص ٨٨-٩٠ ، علي محمد فهمي « البحرية الإسلامية ... » ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٨١) محمد ضيف الله بطانية ، المرجع السابق ، ص ٢٣.

(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣ وما بعدها .

بإنشاء دار للصناعة البحرية في أشبيليه عام (٢٣٠هـ / ٨٤٤م) ، وبناء دار لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن في قرمونة ، واستعانوا بالطوائف البحرية التي كانت تشتغل بالغزو البحري فيما مضى لحسابها الخاص ، في إدارة الأسطول الأندلسي وتسييره [٨٣] وتابع محمد بن عبد الرحمن الأوسط جهود أبيه في مجال الإهتمام بالأسطول ، وبلغ مجموع ما أنشأه عام (٢٤٥هـ / ٨٥٩م) من المراكب البحرية سبعمائة من النوع الذي يطلق على القطعة البحرية منها (غراب) ، وكانت عناية عبد الرحمن الناصر بالبحرية كبيرة جداً حتى عد المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي فأنشأ دوراً كثيرة للصناعة البحرية التي كانت تنتشر في مواقع مختلفة من السواحل الأندلسية ، ومنها ما كان مختصاً بصناعة السفن الصغيرة ، وأخرى بصناعة السفن الكبيرة والأسلحة الحربية ، وتركزت الأساطيل الأندلسية الهامة في قاعدتين هما : أشبيليه التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على المحيط الأطلسي ، ومرية بجانة التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على البحر المتوسط [٨٤] .

كذلك كان الإهتمام كبيراً ببناء دور للصناعة في بعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت وغيرها ، وبالتالي صارت الأساطيل الإسلامية تنطلق من القواعد البحرية فيها صوب إيطاليا وفرنسا وسواحل البحر التيراني وغيرها . وقد أدى الإهتمام بدور الصناعة البحرية والعناية بالأساطيل إلى علو يد المسلمين على غيرهم من اسم البحر المتوسط

---

(٨٣) انظر ، سالم والعبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٨٤) نقولا زيادة . الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م) ص ١١٢ - ١١٣ ، صلاح الدين الشامي ، الفكر الجغرافي ، سيرة ومسيرة (الاسكندرية : المعارف ، د. ت) ص ٢٢١ وما بعدها ، سالم والعبادي ، المرجع السابق . ص ١٨٣ .

وسيطرتهم على مسالكه ، وفي ذلك يقول ابن خلدون « .. وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الأجزاء المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانيا وصقلية ومالطة واقريطش وقبرص (٨٥) .

وفي عهد المرابطين والموحدين تفوقت قوتهم البحرية ، وكانت لهم سفن على نوعين : احدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية والأخرى تتألف من السفن الحربية المقاتلة . ومن الطريف في عهد الموحدين انهم كانوا يدرجون ضمن مناهجهم التعليمية التدريب على استعمال الأسلحة البرية والبحرية ، وأساليب الحصار براً وبحراً ، كما يذكر أنهم أنشأوا بركاً بالقرب من مدينة مراكش ، ووضعوا فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة (سفن التدريب) ليتدرب عليها الطلاب القيادة والتجديف وكل ما يتصل بالفنون البحرية الحربية (٨٦) .

ولم تقتصر كتب التراث بسرد التطور التاريخي للجيوش البحرية عند المسلمين ، أو مراحل بناء الأساطيل فيها ، لكنها تعرضت أيضاً لأنواع الأخشاب والمسامير والألياف والأشرعة التي استخدمها الصناع في صناعة السفن ، كما أشارت المراجع إلى الأماكن التي كان يجلب منها الأخشاب المفضلة في بناء السفن بأنواعها ، وتعرضت أيضاً لعملية بناء السفن مع

---

(٨٥) ابن خلدون ، المقدمة . ص ١٨٩، ٢٢٠ . محمد ضيف الله بطاينة ، المرجع السابق ، ص ١٩ وما بعدها .

(٨٦) محمد بن إبراهيم الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور (تونس : المكتبة العتيقة ، ١٩٦٦م) ص ٤ وما بعدها وحسن علي إبراهيم ، النظم الإسلامية ، ص ٢٢٤-٢٢٥ .

الإشارة إلى أنواعها وأحجامها ، وكذلك اسمائها المتعددة (٨٧) .

أيضاً لم تغفل المصادر الإسلامية التكتيك الحربي في البحر واساليبه ، بل أشارت إلى أسلحة الأسطول التي يشبه بعضها اسلحة الجيوش البرية مثل القوس والمنجنيقات والكلاليب وهي التي تلقى على مراكب العدو وتجذب ويرمى عليها الألواح التي يمر الجند عليها إلى سفن الأعداء لقتال من فيها . وتحمل مراكب الأسطول أيضاً أدوات الحصار مثل الأبراج والدبابات والمدافع والسلالم ، واستعمل الأسطول الإسلامي النار الإغريقية منذ القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) (٨٨) .

ومن المؤكد أن العرب ساعدوا على تقدم الملاحة في البحار ، فيشير المقدسي اثناء حديثه عن المحيط الهندي إلى سعة مدارك الملاحين العرب به ، بل ويذكر أنهم أبصر الناس بطرق ذلك البحر ومراسيه وحدوده وجزائره (٨٩) . ويشير المسعودي أيضاً إلى العلوم البحرية التي يتوارثها الملاحون ويسترشدون بأحكامها (٩٠) ، وألف بعضهم الكتب المفيدة في

(٨٧) لمزيد من التوضيحات . انظر . سالم والعبادي ، تاريخ البحرية . ص ٦٠ ، ٧٥ ، درويش النخيلي ، ص ٧ وما بعدها ، آدم متز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٠هـ/١٩٤١م) جـ ٢ ، ص ٣٣١ وما بعدها ، سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ١٦٩-١٧٠ .

(٨٨) والنار الأغريقية : عبارة عن مزيج من كبريت أو بعض الأدهان في شكل سائل يطلق من اسطوانة نحاسية مستطيلة تشد في مقدمة السفينة ويقذف منها السائل مشتعلاً ، أو يطلق بشكل كرات مشتعلة ، أو قطع من الكتان الملوث . وهذه النار كانت تستعمل في الماء والهواء، وهي في الأصل من اختراع السوريين ، تعلمها البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه كالينكوس في القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) اثناء محاولات العرب المسلمين فتح القسطنطينية، ثم استخدمها المسلمون وأساطيلهم ، انظر سعاد ماهر ، البحرية في مصر ، ص ٢١٣، ٢٣٢، ٢٣٥، ٣٢٨، ٣٧٣، حسن وعلي ابراهيم ، النظم الإسلامية ، ص ٢١٦ وما بعدها ، أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٨٩) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٠-١١ .

(٩٠) المسعودي ، مروج الذهب ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٦٧ وما بعدها .

فن الملاحة مثل أحمد بن ماجد في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وهور الذي وصف بالمعلم ، وكتابه بعنوان « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » .

كما اشارت كثير من المصادر التاريخية والجغرافية والرحلات إلى الطرق التجارية البحرية في البحار العظمى الممتدة إلى الهند والصين وإلى اطراف أوروبا وروسيا وغيرها ، مع ذكر الإيجابيات والسلبيات لتلك الطرق، والموانىء التي تقع عليها ، ومستوى كل ميناء في عملية النشاط التجاري ، وما يتميز به من سلع وبضائع وسفن ترد إليه من أجزاء متعددة في العالم ، ونوعية التجار الذين يرتادون تلك الطرق والموانىء التجارية، كما تعرضت بعض الروايات إلى التعاون والتبادل التجاري الذي كان بين المسلمين وغيرهم من خلال بعض الطرق والموانىء في المحيط الهندي أو المحيط الأطلسي أو بحر الخزر أو البحر المتوسط وغيرها من البحار الأخرى (٩١) .

رابعاً: ذكر البحر في الموسوعات:

يمكن تقسيم الموسوعات إلى نوعين ،ظهر النوع الأول منها في العصر

(٩١) لمزيد من التفصيلات ، انظر جورج حوراني . العرب والملاحة ، ص ٢٣ وما بعدها ، السيد محمد يوسف « علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري ص ٩ وما بعدها ، ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . مبشر الطرازي «العلاقات التجارية بين البلاد العربية وبلاد شبه القارة الهندية قبل الإسلام وبعده حتي العصر العباسي » مجلة الفيصل ، عدد (٦٩) (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٤٠-٤٢ .
Eliyaha Ashtor . A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages (London , 1976) PP. 21 ff , S.M. Imamuddin . " Commercial Relation of Spain with Iraq , Persia , Khurasan , China, India in the tenth Century . A.D. " Islamic Culture, Vol. XXX VII (1963) P. 177, Magbul-S- Ahmad . " Commercial Relations of India with the Arab world 1000 B.C. Up to Modern Times : Islamic Culture Vol. XXX VIII (1964) PP. 141-155 .

الإسلامي الوسيط ، وأبرز ما فيه تلك الموسوعات التي ظهرت في عصر دولة المماليك ، التي ستأتي الإشارة إليها .

وأما النوع الثاني ، فهي موسوعات العصر الحديث التي بدأت في الظهور منذ القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) .

كانت موسوعات العصر الإسلامي الوسيط أشبه بدائرة معارف ، ذكر العلماء أن بداية ظهورها منذ العصر العباسي وأطلق عليه حركة « التأليف الموسوعي » ... ذلك أن تلك الفترة هي فترة امتزاج الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، كانت كل واحدة منها تمثل عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الإسلامية ، ونذكر من بين هذه الثقافات الثقافة الفارسية التي انتشرت في الدولة العباسية ، وذلك بسبب انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد واعتماد العباسيين على الوزراء من الفرس ، ثم الثقافة اليونانية التي انتشرت بسبب الترجمة ، وكان من أهم مدارسها حران والإسكندرية وجند يسابور . كذلك تعتبر الثقافة الهندية الينبوع الأول الذي ارتوت منه الحضارة الإسلامية وخاصة في الفلك والرياضيات . أما الثقافة العربية فقوامها القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والخطب ونحو ذلك . وهناك الثقافة الدينية بوجه عام ونعني بها اليهودية والنصرانية ، وتعتبر هذه من المؤشرات الثقافية وتحمل معنى من معاني أصول الحضارة الإسلامية . ومن الكتب التي صنفت كموسوعات في العصر العباسي ، وخاصة في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، يمكن أن نشير إلى مؤلفات الجاحظ في كتبه « البيان والتبيين والحيوان وغيرها »، وكابن قتيبة في عيون الأخبار والمعارف ، وأدب الكاتب وغيرها ، وأبي الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ، وابن سعيد المغربي « المغرب في حلى المغرب » .

إلا أن الموسوعات التاريخية بالمعنى الصحيح ، لم تظهر إلا في العصر المملوكي ، وقد دعت عوامل كثيرة لظهورها من أهمها سقوط بغداد (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) في أيدي التتار ، ثم مجيء تيمور لنك قائد المغول في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، أدى ذلك كله إلى ظهور نهضة أدبية وحركة علمية زاهرة إبان ازدهار عصور دولة المماليك التي ظهر خلالها أدباء وعلماء أثروا الحياة العلمية والفكرية والأدبية بكتاباتهم إنقاذاً للثقافة الإسلامية التي هزتها أحداث المغول والصليبيين وغيرهم [(٩٢)] .

وكان الإنتاج الفكري والعلمي الذي ظهر في خلال فترة النهضة المملوكية قد تمثل في كتب كبيرة على شكل (موسوعات) أو دوائر معارف لم تدع صغيرة أو كبيرة من تلك المواد إلا احصتها ونقبت فيها وكان نصيب البحر فيها جزيلاً وافراً إذ غطت هذه الموسوعات جوانب كثيرة من البحر ومختلف أوجه النشاط فيه .

فمن أشهر تلك الموسوعات نذكر على سبيل المثال « نهاية الأرب في فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المعروف «بالنويري » من أهل القرن الرابع عشر ، ولد في سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م، وتوفى في سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م [(٩٣)] .

---

(٩٢) وللمزيد من التفصيلات ، انظر ، أحمد رمضان أحمد ، تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م) ص ٢١٩ - ٢٢٣، نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص ٨٩ - ١١٥ ، صلاح الدين السامي ، المرجع السابق ، ص ٢٥١-٢٥٣ .

(٩٣) لقد أورد النويري كلاماً مفصلاً عن البحار ومواضيعها ومساحاتها وامتداداتها واشهر جزرها ، واعتبر اعظم البحار المعمورة ثلاثة هي : البحر المحيط وبحر مانيطس المعروف أيضاً ببحر آزوف ، وبحر الخزر ، انظر شهاب الدين أحمد النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب . (القاهرة : منشورات دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩م) جـ ١ ص ٢١٩ - ٢٣٨ .

ومن مؤرخي الموسوعات التاريخية في ذلك العصر نذكر ابن فضل الله العمري ومؤلفه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) الذي يقع في أربعة عشر جزءاً ، وشمل معلومات جغرافية وفلكية هامة ، وفيها وصف دقيق للبحار وما يتعلق بها .

ولعل من أشهر تلك الموسوعات التاريخية خلال تلك الفترة بصفة خاصة هي موسوعة أبي العباس القلقشندي الذي اشتهر بها وهي « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » التي تقع في أربعة عشر مجلداً في فنون كثيرة من التاريخ والأدب ووصف البلدان والممالك ، ويحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب ، وهو يسميه مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له « بحر الروم » الذي يطلق عليه اسماً آخر هو « البحر الشامي » ويذكر القلقشندي كل المدن المطلة عليه ، ويعين أعراضها وأطوالها ، ويبين المسافات التي تتصل بينها ، ويتناول أيضاً شرح البحر المتوسط وما يخرج منه وما يتصل به من بحار أخرى غير بحر الروم مثل بحر الصين وبحر الهند وبحر فارس وبحر القلزم والخليج البربري ، وبحر برديل (بحر بريطانية) (٩٤) .

أما النوع الثاني من الموسوعات ، فهو ذلك النوع الذي ظهر في العصر الحديث ، وأطلق عليه « دائرة المعارف » أو الأنسايكلوبيديا (Encyclopedea) وقد بدأ ظهور هذه الموسوعات منذ القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ، وكلها هام واسهمت كثيراً ، وقدمت خدمات جليلة لطلاب العلم والمعرفة بتعريف وشرح أشياء كثيرة ، وابرزت معلومات هامة كثيرة كانت تحتاج للإيضاح ،

---

(٩٤) انظر ، ابو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى (القاهرة : المطبعة الأميرية ، منشوات دار الكتب الخديوية ، ١٩١٤ م) جـ ٣ ، ص ٢٣٣ - ٢٤٩ .

رغم أنها لجأت في كثير من الأحيان إلى الإقتباس من موسوعات العصر الإسلامي التي سبقت الإشارة إليها .

ومن موسوعات العصر الحديث نذكر على سبيل المثال أنواعاً هامة منها : دائرة المعارف الإسلامية (Encyc. of Islam) ، ودائرة المعارف البريطانية (Ency, Brittannica) ، ودائرة المعارف الأمريكية ، وهذا بالإضافة إلى موسوعة البحار والمحيطات ، فلقد احتوت كل هذه الموسوعات على معلومات وافية عن البحر قديماً وحديثاً ، إلا أن معظم هذه المعلومات مأخوذ من كتب التراث الإسلامي مع إضافة محدودة كما سبق القول . فالموسوعة الإسلامية مثلاً لم تخرج عما جاء في كتب التراث التاريخية والجغرافية والأدبية ، فجاءت بتعريف كلمة « بحر » ثم أشارت إلى ذكر البحار كما وصفها الجغرافيون الأوائل كالإشارة إلى البحر الأبيض المتوسط المعروف ببحر المغرب أو بحر الروم ، وبحيرة خوارزم...إلخ [٩٥] .

وخلاصة القول ، أنه يمكن أن نخلص إلى أن البحر في كتب التراث الإسلامي قد حظى بإهتمام بالغ وكبير ، فلم يرد ذكره فقط في القران الكريم وكتب السنة ، وإنما تعرض له أصحاب المؤلفات اللغوية وخاصة مؤلفو المعاجم العربية ، الذين أوردوا كلمة (بحر) ثم بينوا معناها مع التقصي لجذورها التاريخية ، ومرادفاتها اللغوية ، وكذلك أضفى أرباب الأدب والشعر على البحر (أو ما يستخدم فيه من سفن ، أو يدور في عالمه) أحاسيسهم وتصوراتهم ، فذكروه في مقالاتهم وأشعارهم في صور شعرية رائعة تحمل تشبيهات ومعاني قيمة تدل على أهميته في حياة الإنسان .

---

(٩٥) انظر الموسوعة الإسلامية المترجمة إلى العربية ، جـ ٣ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٩(بحر) .

أما كتب الجغرافية والرحلات فقد تناولت ذكر البحر بشكل ممتاز . فتعرضت لذكر البحار وتوزيعها على الكرة الأرضية ، وأشار بعضها إلى اهمية الرياح في هدوء البحر وهيجانه ، وإلى حدوث عملية المد والجزر وتسمياته بأسماء مختلفة ، كما نوه بعض الجغرافيين والرحالة الأوائل إلى بعض الإختلافات الطبيعية والمناخية بين البحار والمحيطات بعضها مع بعض ، مع العلم أن كتب الجغرافية والرحلات تعتبر أفضل كتب التراث الإسلامي من حيث مناقشتها لطبيعة البحار ، وتعرضها لذكر الجبهات الهوائية والأمواج والتيارات البحرية ، وموارد الثروة في البحار والمحيطات والأنهار ، وغير ذلك فيما يتعلق بجغرافية البحار وعلومها .

والمؤرخون المسلمون الأوائل لم يكونوا أقل شأناً من الجغرافيين والرحالة أو من أصحاب اللغة والأدب ، وإنما أشادوا بالبحر وأهميته الحضارية في المجالات العسكرية والإقتصادية ، وفي صناعة السفن والأدوات الحربية بما فيها النار الأغريقية ، وفي بناء الأساطيل الإسلامية مع توفير الأيدي العاملة والخبراء إلى جانب المواد الخام اللازمة لبناء وتطوير صناعة القطع البحرية المختلفة .

والموسوعات الإسلامية المبكرة ، أمثال كتب الجاحظ ، وابن قتيبة ، ثم موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري ، و (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري ، و (صبح الأعشى) للقلقشندي ، ثم الموسوعات الحديثة ، كالموسوعة الإسلامية ، والموسوعتان الأمريكية والبريطانية ، فجميعها قد احتوت على معلومات لا بأس بها عن البحار ، ولكن هذه المعلومات عبارة عن تلخيصات إقتباسات لما أورده الجغرافيون والرحالة الأوائل ، والذين تعرضنا لأغلبهم في الصفحات السابقة من هذا البحث .

والحق أن كل واحد من أولئك الرعيل الأول (سواء كان لغوياً أو أديباً أو شاعراً أو جغرافياً أو رحالة أو مؤرخاً أو صاحب موسوعة) يمثل بفكره وثقافته وبلاغته ونصاعة بيانه ووفرة عطائه وتصرفه في المعرفة بالبحر وما يحيط به ونفاسة تأليفه ، صفحة مشرقة من صفحات الفكر الإسلامي . لذلك فنحن نعتبر أن كتب التراث التي تناولت موضوع البحر ، وما حفل به من نشاط ، واحدة مع ألمع ثمرات الفكر الإسلامي وأكثرها نضوجاً ، ومؤلفوها من أكثر العقليات الإسلامية خصوبة وعطاء وتفجراً بالنفيس من القول والسديد من الفكر والراجح من الرأي ، والوفير من الإنتاج ، والسخي من العطاء . كما أننا نجد أن كل واحد من هؤلاء الذين اثروا بإنتاجهم كان متفننا في جميع العلوم من اللغة والشعر والأدب والفلك والجغرافيا والرياضيات والتاريخ ، وكل واحد من أولئك الأدباء والعلماء يستحق الإشادة بفضله الكثير ، وعلمه الوفير ، وهمته العالية في ساحة المعرفة المتنوعة الأشكال ، وبحره الدافق في ميادين العلوم المتعددة الألوان ولذلك بنحن لا نستطيع أن نغفل دورهم لأنهم من صفوة العقول الإسلامية المفكرة والمستنيرة ، وتعتبر مؤلفاتهم إضافة أساسية للمعرفة والعلم والقيم الإنسانية بشكل عام ، وفي هذا البحث بشكل خاص .

المبحث الثالث عشر

زي الطيلسان
دراسة تاريخية حضارية (*)

(*) هذا البحث نشر في ملف بيادر الصادر من نادي أبها الأدبي عدد (١٨) ربيع الثاني ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م) ص ٦٥ - ٧٤.

زي الطيلسان
(دراسة تاريخية حضارية)

إن البحث عن الطيلسان - شأن البحث عن الملابس العربية القديمة بصورة عامة . ليس بالأمر اليسير [١] . وقد حاولنا أن نرسم له صورة مقربة على قدر توفر المادة الموجودة لدينا . وكان أول رجوعنا إلى المعاجم وكتب اللغة التي لم تفدنا كثيراً . حيث وصف الطيلسان في بعضها بأنه كساء معروف ، وفي بعضها الآخر أنه ضرب من الأكسية [٢] ، وفي طائفة ثالثة جاء وصفه مضطرباً لا يفهم منه وجه معين [٣] .

وقد وردت عنه الأخبار أنه كان من ملابس العرب في الجاهلية . حيث كان فرسانهم يلبسونه في المناسبات مثل مواسم الحج ، وعند انعقاد الأسواق كسوق عكاظ وذي المجاز [٤] . وانهم ذكروه في أشعارهم ،

---

(١) وللمزيد من التفصيلات عن الملابس العربية انظر ، رينهارت دوزي . المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة ، أكرم فاضل (بغداد ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ، صلاح حسين العبيدي ، تاريخ اللباس العربي في العصر العباسي الثاني من المصادر التاريخية والأثرية (رسالة دكتوراة مقدمة إلى قسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) ، صالح أحمد العلي . « الأنسجة في القرنين الأول والثاني » مجلة الأبحاث ، جـ ٤ ، لسنة (١٤) (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦١م) . وللمؤلف نفسه . « الألبسة العربية في القرن الأول الهجري » مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ١ (بغداد ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م) ، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة الاستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ، رئيس اتحاد المؤرخين العرب ، (الاسكندرية : دار المعرفة ، ١٩٩٤ م ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٢٩ وللمؤلف نفسه « أهم الملابس العربية خلال العهود الإسلامية الأولى » مجلة المنهل ، العدد (٤٩٨) مج ٥٤ (صفر ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ٧٨ ، ٩٥ .

(٢) انظر المعاجم اللغوية العربية المشهورة ، (مادة طلس) في معجم لسان العرب لابن منظور ، والإشتقاق لابن دريد ، وتاج العروس للزبيدي .

(٣) انظر كتاب المخصص لابن سيدة (منشوات المكتب التجاري ببيروت) مج ٤،ص ٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ، وللمزيد من التفصيل انظر ، غيثان بن علي بن جريس بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

وتأييداً لذلك أورد الجواليقي (٤٥٠هـ) هذه الأبيات عن ثعلب :

كلهم مبتكر لشـــانه ... كاعم لحييه بطيلســـــانـــــه
وآخر يزف في أعوانه ... مثل زفيف الهيق في حفانـــه
فإن تلقاك بقيروانـــه ... أو خفت بعض الجور من سلطانه

وذكر الثعالبي (٤٣٠هـ) الطيلسان في جملة أنواع من الثياب التي يكثر ذكرها في أشعار العرب [(٥)] إلا أنه لم يذكر شيئاً عن كيفية صنعه أو لبسه في العصر الجاهلي .

أما ما وصلنا عن الطيلسان في العهد الإسلامي الأول فيظهر لنا كثرة لبسهم له ، فجاء عن العسكري في كتاب الأوائل أن أول من لبس الطيلسان في الإسلام من العرب عبد الله بن عامر بن كريز (٥٩هـ) أو جبير بن مطعم (٥٤ أو ٥٩) [(٦)] . وذكر أبن رستة أن أول من لبس الطيلسان بالمدينة جبير بن مطعم [(٧)] . وقيل أيضاً أنه أول من لبس الطيلسان المقور [(٨)] .

---

(٥) انظر لتفصيلات أكثر ، الجواليقي : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم . تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار الكتب العربية ، ١٣٦١هـ) ص ٢٢٧ - ٢٢٨

(٦) ابن رستة ، الأعلاق النفيسة ، تحقيق أم. دي. غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٩١م) ص ١٩٢ والطيلسان ضرب من الأكسية . انظر بن منظور . اللسان (مادة طلس) . ويقول دوزي : الطيلسان نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الرأس والكتفين ، أو يلقى أحياناً على الكتفين فقط ، انظر : دوزي . المعجم المفصل ، ص ٢٢٩ .

(٧) انظر ابن رستة ، الأعلاق النفيسة ، ص ١٩٢ . وللمزيد من التوضيحات انظر . عبد الله السيف . الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي . (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٨) المصدران نفسهما .

وقد وردت أسماء عدد غير قليل ممن لبس الطيلسان في هذه الفترة ، إلا أن طريقة لبسهم له مضطربة غير واضحة فقد جاء عن « ابراهيم بن زيد الأسود النخعي أنه كان يضع قلنسوة من طيالسة في مقدمها جلد ثعلب »[٩] وذكر أنه كان للنبي ﷺ « جبة طيالسة لبنتها ديباج كسرواني »[١٠] . وأن أعرابياً أتي النبي ﷺ وعليه « جبة من طيالسة »[١١] . ونص آخر عن عمر بن عبد العزيز أنه « يصلي في جبة طيالسة ليس عليه إزار »[١٢] ، ونص آخر مشابه لهذا عن عبد الرحن بن الأسود « أنه كان يسجد في برنس طيالسة ويداه فيه أو في ثيابه »[١٣] . فكان القلنسوة والجبة والبرنس المذكورة في هذه النصوص ، مصنوعة من قماش الطيلسان ، أو أن الطيلسان جعل بشكلها . وأظن أن المعنى الثاني هو الصحيح بدليل ورود خبر عن النبي ﷺ أنه كان يلبس في الحرب من القلانس ما يكون من السيجان (جمع ساج) وهو الطيلسان الأخضر[١٤] . وورد خبر آخر عن الحسن أنه كان « يضع طيلسانه على شقه الأيمن »[١٥] . فلولا ورود أنواع من أقمشة الطيالسة ، كما سنأتي على ذكرها ، لقلنا بأن المقصود من الطيالسة هنا نوع معين من القماش

(٩) محمد بن سعد . الطبقات الكبرى (اعتناء سخو ، بمطابع بريل في مدينة ليدن بهولندا) جـ ٥ ، ١٣٥ . جـ ٦ ، ص ١٩٦ .

(١٠) انظر ابن منظور . لسان العرب (مطبعة بولاق بالقاهرة ، ١٣٠٧هـ) جـ ٣ ، ص ١٢٦-١٢٧ .

(١١) وللمزيد من التفصيلات . انظر أحمد بن حنبل . المسند شرح أحمد شاكر (القاهرة : دار المعارف . ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) . تصوير دار صادر ببيروت (القاهرة ، ١٣١٣هـ) جـ ٦ ، ص ٣٤٨ ، ٣٥٤ .

(١٢) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٣) وللمزيد انظر ، ابن سعد ، كتاب الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٢٩٨ .

(١٤) المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٤٩-٥٠ وللمزيد انظر ، عبد الله السيف ، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ، ص ٢٨٠-٢٨١ . غيثان بن علي بن جريس . « أهم الملابس العربية خلال العهود الإسلامية الأولى » ص ٨٠ وما بعدها .

(١٥) المرجع نفسه .

وهو الذي تصنع منه الطيالسة . لذا فالراجح أن الطيلسان كان يلبس بأشكال مختلفة حسب رغبة الشخص ، فقد يجعل بشكل قلنسوة (١٦) على الرأس أو يتلفع به بشكل من الأشكال ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ورود خبر عن أزواج النبي ص أنهن حججن في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكان « على هوادجهن الطيالسة الخضر » (١٧) . فالطيلسان إذن لم يكن نوعاً معيناً من القماش إنما ثوب معين يتخذ بأشكال مختلفة . وبهذا المعنى شرحه صاحب المعيار بقوله « أنه ثوب يلبس على الكتف أو ثوب يحيط بالبدن ، ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة » (١٨) .

ويبدو أن الأشراف كانوا لا يكتفون بوضع طيلسان واحد ، بل قد يحملون معهم طيلساناً آخر خاصة عند ذهابهم إلى المسجد حيث يطوونه ويتكئون عليه ، يرون بأن عملهم ذلك من فعل الأشراف وأهل المروءة (١٩) . وقد يرتدونه مع الإزار (٢٠) . أو مع الجبة (٢١) .

ولم تكن الطيالسة متشابهة في أطوالها فبعضها طويل والآخر قصير ، تبعاً لرغبة الفرد أو شكل جسمه أو ربما لحالته المالية ، فقد ورد عن كريب بن أبي مسلم (مولى عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) أنه وأصحابه يلبسون طيالسة طوالاً أزرارها من ديباج (٢٢) . وانهم كانوا

---

(١٦) المرجع نفسه ، للمزيد من التفصيلات انظر المقالتين الخاصتين بالدكتور / صالح أحمد العلي والتي ورد ذكرهما في الملاحظة رقم (١) من حواشي هذا البحث .

(١٧) انظر ابن سعد ، كتاب الطبقات ، جـ ٨ ص ١٥١ .

(١٨) وللمزيد من التفصيلات ، انظر ، كتاب البيان والتبيين ، للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

(١٩) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٣٧ .

(٢٠) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٠٢ .

(٢١) انظر أحمد اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢٢) ابن سعد ، كتاب الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٢١٦ ، جـ ٦ ، ص ٨١ . .

يجعلونها من الديباج لكي تبقى مدة طويلة [٢٣] . ولبس بعضهم طيالس من الخز ، وكانت تسمى البت (وبائعه يسمى البتي) [٢٤] . أما بالنسبة لمن لبس طيالسة الديباج فإنهم اختلفوا في شكل أزرار الديباج ، فجعلها قوم طويلة وجعلها آخرون قصيرة [٢٥] . كما أنهم اختلفوا في كيفية ارتدائها فكان فريق منهم يزررها ، وفريق يتركها من دون تزرير حتى في الإحرام . [٢٦]

أما أنواع الطيالسة التي ورد ذكرها فمنها الطيالسة الكردية [٢٧] . ويبدو أن هذا النوع من الطيالسة كان جيداً . وغالي الثمن فقد بيع واحد منها بمائة درهم ، وقيل عنها إنها تدوم مدة طويلة من الزمن تبلغ الثلاثين سنة [٢٨] . ووصف نوع آخر بأنه نصيبي أي من نصيبين كما جاء في شعر الأعشى همدان في خالد بن عتاب والي الحجاج على الري حيث قال [٢٩] :

تمنيني إمارتها تميم ... وما أمي بأم بني تميم

وكان أبو سليمان خليلي ... ولكن الشراك من الأديم

ثم يقول :

وليس عليك إلا طيلسان ... نصيبي وإلا سحق نيم

---

(٢٣) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ .

(٢٤) الفيروزابادي ، القاموس المحيط (القاهرة : مطبعة شركة فن الطباعة ، ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) جـ ١ ، ص ١٤٢ .

(٢٥) ابن سعد ، كتاب الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٧٢ .

(٢٦) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٣٤ ، انظر ايضاً ، جـ ٦ ، ص ١٨٧ .

(٢٧) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٦١ .

(٢٨) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٢١ .

(٢٩) انظر كتاب البغال ضمن رسائل الجاحظ ، نشر عبد السلام هارون (القاهرة ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م) جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

أما ألوان الطيلسان فكانت مختلفة ، فمنها الأخضر ، وكان يسمى ساجا [٣٠] . وقيل الساج الطيلسان الأسود [٣١] ، ومنها الأبيض كان من ملابس الأحداث ، وأنه لم يكن يستحسن لبسه عند الدخول على كبار الناس كالخلفاء [٣٢] . ومنها الأزرق [٣٣] .

وقد انتسب إلى الطيلسان جماعة من أهل الحديث منهم أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي « أصله من فارس » سكن البصرة وتوفى سنة ٢٠٣ هـ ، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي « مولى بأهلة من أهل البصرة ، توفي سنة ٢٢٧ هـ » وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن زياد بن عبد الله الطيالسي « وكان جوالاً ببغداد ومصر وطرسوس » ، وأبو بشر حوشب بن مسلم الثقفي الطيالسي « من أهل البصرة » [٣٤] . ولكننا لا نعلم إن كانت هذه النسبة إلى الطيلسان متأتية من صنعه أو من لبسه . وفي الحالين فإنها تدل على استعماله في مدينة البصرة في ذلك الوقت .

ثم شاع لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس فلبسه الأدباء [٣٥] الولاة [٣٦] ، والكتاب [٣٧] ، والخطباء [٣٨] ، والمدرسون ،

---

(٣٠) لمزيد انظر ، ابن سيدة كتاب المخصص ، جـ ٤ ، ص ٧٩ .
(٣١) لسان العرب لابن منظور (مطبعة بولاق ، ١٣٠٧ هـ) جـ ٣ ، ص ١٢٦ .
(٣٢) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .
(٣٣) وللمزيد من التفصيلات انظر ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (القاهرة ، ١٩٢١م) جـ ١ ، ص ١٠٢ .
(٣٤) كتاب الأنساب ، للسمعاني ، تحقيق مارجيلوث (لندن ، ١٩١٢م) ص ٣٧٥ .
(٣٥) انظر كتاب التحف والهدايا ، للخالديان . تحقيق سامي الدهان (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٦م) ص ١٣٤ .
(٣٦) الجاحظ ، كتاب البغال ، جـ ١ ص ٢٩٤
(٣٧) المصدر السابق ، ص ١١٨ . وللمزيد انظر ، ياقوت الحموي ، معجم الأدباء (القاهرة، ١٩٢٣م) جـ ١ ، ص ٢٣٤
(٣٨) المصدر نفسه .

والأشراف [٣٩] ، والعلماء والقضاة [٤٠] ، وطلبة العلم . فقد جاء عن أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني (٢٩٠هـ) وكان زاهداً عالماً ، انتهت إليه رياسة العلم ببغداد ، أنه كان في مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر [٤١] . ولبسه الوعاظ [٤٢] ، والفقهاء ، جاء عن مدينة قرطبة في عهد الملثمين [٤٣] ، أنه كان فيها أثنا عشر ألف مفت [٤٤] وأنه حصر عددهم بلبس الطيلسان ، إذ كان لا يلبس الطيلسان إلا مفت ، كما لبس الطيلسان بعض شيوخ الصوفية كالشيخ عبد القادر الجيلي (٥٦١هـ) [٤٥] .

وقد وصف المقدسي (٣٥٠هـ) أهل العراق في عهده بأن من رسومهم التجمل والتطيلس إلا أنه لم يحدد الناس الذي كانوا يتجملون ويتطيلسون ،بل جاء كلامه عاماً [٤٦] . ثم وردنا قول لإمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (٤٧٨هـ) عن السوقة ببغداد أنهم اعتادوا التحنك والتطيلس كالفقهاء ، وأن ذلك في رأيه خرم للمروءة [٤٧]

وقول إمام الحرمين يؤكد وصف المقدسي عن شيوع لبس الطيلسان في

---

(٣٩) للمزيد ن التفصيلات ، انظر الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد أو مدينة السلام (القاهرة: مطبعة السعادة ، ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م) جـ ١٣ ، ص ١٤٦ .

(٤٠) المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص ٢٦٩ .

(٤١) المصدر نفسه .

(٤٢) انظر كتاب الرحلة لابن جبير (بيروت ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) ص ١٩٨ .

(٤٣) الملثمون : هم المرابطون . اصحاب دولة يوسف بن تاشفين الذي توفي سنة (٥٠٠هـ / ١١٠٦م) مخلفاً بعده امبراطورية هائلة في المغرب والأندلس . انظر ليفي بروفنسال . الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤١ .

(٤٤) المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٤٥) المرجع نفسه ، وللمزيد انظر ، غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . جـ ١ ، ص ٢٠٩ وما بعدها

(٤٦) انظر ، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي . (ليدن مطبعة بريل ، ١٩٠٦م) ، ص ١٢٩ .

(٤٧) المصدر نفسه

العراق والإهتمام به ، ولعل لبس العوام للطيلسان كان بداعي التقليد للعلماء والفقهاء والقضاة ، وطلبة العلم . الذين كانوا أكثر شهرة بلبس الطيلسان [٤٨] . حتى أصبح صفة لهم ، فيكفي أن يقال أصحاب الطيالس فيعرف الناس أنهم هم المقصودون بذلك [٤٩] .

ولعل شيوع القول « جمال الرجل في طيلسانه ، وفي طي لسانه » [٥٠] ، كان من العراق ، نتيجة لشيوع استعمال الطيلسان .

ولم يكن للطيلسان نفس الأهمية في بعض البلاد الإسلامية ، فنرى المقدسي نفسه الذي مر وصفه لأهل العراق يقول في مدينة شيراز « لا مقدار لأهل الطيالسة بها وذلك لأنه لباس الشريف والوضيع والعالم والجاهل ، وكم قد رأيت بها من سكارى قد بعثروا بطيالسهم وسحبوها ، وكنت إذا استأذنت على الوزير وأنا مطيلس حجبت إلا إذا عرفت ، وإذا أتيت بدراعة أذن لي » [٥١] . مما يدلنا على أن الطيلسان قد لبس في هذا البلد من قبل معظم الناس على إختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الإجتماعية والإقتصادية .

ونظراً لاتخاذ العلماء والفقهاء الطيلسان ، اصبحوا لا يرتاحون لتقليد العامة لهم في ارتدائه ، وعدوا لبس العامة كالحمالين والشرطة والكناسين للطيلسان خرماً للمروءة [٥٢] .

ثم كان من نتيجة تمسك أصحاب الطيلسان بلبسهم ، أن تميزوا عن

---

(٤٨) انظر كتاب نشوار المحاضرة ، للتنوخي ، جـ ١ ، ص ١٠٢ ، ١١٦ .

(٤٩) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٦ - ١٧ وللمزيد انظر ، كتاب الوزراء للصابي ، (القاهرة، ١٩٥٨م) ص ٣٤٨، ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ ٢ ، ص ٣١٢ .

(٥٠) المصدر نفسه .

(٥١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٠ .

(٥٢) المصدر نفسه .

رجال الحكم كالكتاب والوزراء ، الذين استعاضوا عن الطيلسان بالدراعة[٥٣] . فقد جاء عن الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) أنه اقترح عليه تقليد أبي عمر محمد بن يوسف القاضي (٣٢٠هـ) الوزارة فقال « لعمري إنه عالم ثقة ، إلا أنني لو فعلت ذاك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر به لأنني كنت بين أمرين إما أن تتصور مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر في نفسهم ، أو أنني عدلت عن الوزارة إلى أصحاب الطيالس ، فأنسب إلى سوء الأختيار »[٥٤] . وجاء عن أحمد بن علي أبي الحسن البتي (٤٠٣ هـ) « أنه كان في بدء أمره يلبس الطيلسان ويسمع الحديث ويقرأ القرآن على شيوخ عصره . ثم لبس من بعد الدراعة ، وسلك في لبسه مذاهب الكتاب القدماء ، وكان يلبس الخفين والمبطنة ويتعمم العمة الثغرية ... وذلك عندما أصبح كاتباً للخليفة القادر بالله ثم صاحب الخبر والبريد في الديوان القادري »[٥٥] .

ويبدو أن ابتعاد رجال الحكم عن لبس الطيلسان لم يكن مقصوراً على العراق بل شاركه غيره من الأقطار . فقد جاء عن الوزير الأديب المعروف الصاحب ابن عباد (٣٨٥هـ) أنه عزم على إملاء الحديث وهو وزير «فخرج يوماً متطلساً متحنكاً بزي أهل العلم ، فقال : قد علمتم قدمي في العلم ، فأقروا له بذلك ... ثم اتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التوبة . ولبث أسبوعاً على ذلك ، ثم أخذ الفقهاء بصحة توبته ، ثم خرج وقعد للإملاء ، وحضر له خلق كثير »[٥٦] .

---

(٥٣) الدراعة : ويقال المدرعة ايضاً وهي نوع من أنواع الجبب تكون من الصوف بصورة خاصة. انظر ، ابن سيدة ، كتاب المخصص ، جـ ٤ ، ص ٣٦ ، الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، جـ ٣ ، ص ٢٠ .

(٥٤) الصابي ، الوزراء ، ص ٣٤٨ .

(٥٥) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

(٥٦) المصدر نفسه . ج ٢ ، ص ٣١٢ .

وكان الناس يتهادون بالطيالس [٥٧] وهذا هو الذي يفسر لنا اعطاءه خلعة من دار الخلافة [٥٨] ، فعن الخليفة المقتدر بالله أنه خلع على رسولين لملك الدولة البيزنطية جاءا إلى بغداد سنة ٣٠٥ هـ جملة خلع كان فيها طيالسة [٥٩] ، ولأهميته هذه كهدية تعطى للأصدقاء أو الغرباء ، إضافة إلى اقتنائه للبس رأينا بعضهم يحتفظ بأعداد كبيرة منه. فقد جاء عن الرشيد أنه خلف بعده في الخزائن أموالاً كثيرة كان فيها ألف طيلسان [٦٠] .

وورد عن الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات أنه بعد صرفه عن الوزارة الأولى في سنة ٢٩٩ هـ وجد في خزائنه ألف ومائة طيلسان [٦١] . وعن القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي (٤١٥ هـ) أنه صودرت أمواله فبيع من جملة أثاثه ألف طيلسان [٦٢] .

ونظراً لشيوع لبس الطيلسان واهتمام الناس به فقد عنى به الفقهاء ، فقسمه بعضهم إلى قسمين ، الأول الطيلسان المحنك ، وهو ثوب طويل عريض قريب من طول الرداء ، مربع يجعل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ويغطي به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الحنك إلى أن يحيط بالرقبة جميعاً ثم يلقيان على الكتفين ، أما طرفاه الآخران فإنهما يدليان على الظهر [٦٣] . وأن هذا النوع هو المسموح به في حضور الجمعة ، ومجامع الناس ، وهو الذي قال به غير واحد من أئمة الشافعية والحنابلة وغيرهما .

---

(٥٧) الخالديان ، كتاب التحف والهدايا ، ص ١١٨ .
(٥٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ص ٣١٢ .
(٥٩) انظر ، كتاب الذخائر والتحف ، للقاضي الرشيد (الكويت ، ١٩٥٩م) ص ١٣٩ .
(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .
(٦١) المصدر نفسه
(٦٢) المصدر نفسه ، انظر أيضاً ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٤١ .
(٦٣) المصدر نفسه

أما الثاني فهو الطيلسان المقور ، الذي اعتبر لبسه مكروهاً . وكان على أشكال منها المدور ، والمثلث ، والمربع المسدول . ويختلف هذا الطيلسان عن سابقه في كونه يوضع على الرأس ويرسل طرفاه على الصدر من دون أن يدرارا من تحت الحنك ويلفا حول الرقبة ، كما أن طرفيه المكفوفين يرسلان من وراء الظهر (٦٤) .

وتكمن كراهة لبس هذا النوع من الطيلسان (في رأي بعض الفقهاء) في كونه من شعار اليهود ، ولأنه فيه السدل المكروه في الصلاة . علماً بأن بعض فقهاء الشافعية والحنفية لم يجيزوا لليهود أصلاً لبس الطيلسان، إذا عدوه من أجل لباس المسلمين ، إلا أن أبا يعلي الحنبلي (٤٥٨هـ) جوز لأهل الذمة لبس هذا النوع من الطيلسان (٦٥) .

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض الأتقياء لم يضعوا الطيلسان على رؤوسهم لمجرد إضفاء الهيبة على أنفسهم أو الظهور بمظهر حسن بل تواضعاً وتديناً في اعتقادهم . حيث كانوا يسبلونه على جباههم ويغطون شطراً من وجوههم (٦٦) . ويبدو أن طريقة الأتقياء هذه كانت شائعة لذا رأينا السمعاني (٥٦٢هـ) يصف الطيالسة بأنها « هي التي تكون فوق العمامة » (٦٧) واكتفاؤه بهذا الوصف يعكس لنا شيوع استعمالها بهذا الشكل ، اتباعاً للسنة حيث ورد عن النبي ﷺ أنه كان يرخي الثوب على رأسه أو يقنع رأسه في بعض الأحيان . وكذلك ورد عن أبي بكر أنه شوهد يتلفع حياء من الله . وقد استفاد رجال السياسة من طريقة الأتقياء هذه في لبس الطيلسان ، في تخفيهم ومؤامراتهم فعن الوزير ابن مقلة أنه اتفق مع

---

(٦٤) القاضي الرشيد ، الذخائر والتحف ، ص ١٤١ ، غيشان بن علي بن جريس ، « أهم الملابس العربية خلال العهود الإسلامية الأولى ، ص ٨٣ وما بعدها .

(٦٥) المصادر نفسها .

(٦٦) رحلة ابن جبير ، ص ١٩٨ .

(٦٧) كتاب الأنساب ، للسمعاني ، ص ٣٧٥ .

الخليفة الراضي علي تولى الوزارة له سنة ٣٢٦ هـ ، ومن ثم التنكيل بأمير الأمراء ابن رائق وأن الخليفة أخبره بأن يأتيه سرا ، ليدبر الأمر معه ، لذلك وضع على رأسه طيلساناً ثم خرج من داره وذهب إلى الخليفة [٦٨] .

وأظن أن الطيلسان قد استمر عبر العصور حتى وقتنا الحاضر ، وأنه هو الذي يضعه العلماء والقراء وبعض وجوه الناس على رؤوسهم أو أكتافهم ، ويسمونه في مصر والعراق بالشال ، وربما في السعودية ودول الخليج الآخرى بالمشلح أو (البشت) .

---

(٦٨) الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ص ١٠٩ .

المبحث الرابع عشر

الدور الحضاري لنشاط التجارة
بين شمال وغرب أفريقيا
في العصور الإسلامية الوسيطة (*)

(*) نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية المجلد (٤٥)
(العام الجامعي ١٤١٧ هـ / ٩٦ / ١٩٩٧م) ص ١٣١-١٦١

الدور الحضاري لنشاط التجارة بين
شمال وغرب أفريقيا في العصور الإسلامية الوسيطة

الثابت أن أعظم الثقافات وأقواها تأثيراً في حضارة شمالي وغربي أفريقية هي التي تعود إلى عصر الإسلام ، حتى أن العالم الأوروبي ، ظل لبضعة قرون ، يعتقد أن بلاد السودان عامة والصحراء في شمالها ليست سوى جزء من العالم الإسلامي (١) ، لقد حدث أن اعتنق معظم سكان الحزام السوداني الإسلام بحماس (٢) ، وعن طريق الإسلام دخل قدر كبير من مظاهر الحضارة الإسلامية البلاد ، وبرز في رحاب الإسلام ، بتلك البلاد ،

---

(١) للمزيد من التوضيحات ، انظر . محمد محمد زيتون . « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري » مجلة كلية العلوم الإجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، العدد (٣) (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ص ٢١١ وما بعدها .

H.H. Johnston . A History of the Colonization of Africa by An Alien Race (Cambridge , 1913) PP. 15-20 ; B-Davidson Old African Re-Discovered (London , 1959) PP. 70-73 .

(٢) ويقال إن بلاد السودان ، تعني بلاد السود ، ومن ثم فإن كلمة السودان المأخوذة من هذا اللفظ تدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة أفريقية . وقد جرى العرب وكذلك الأوربيون على قصر هذه التسمية على الجزء الشمالي من تلك الأقطار ، أو إطلاقها بصفة أعم على تلك المنطقة شبه الصحراوية من أفريقية التي تغلغل فيها الإسلام ، وتقسم المنطقة من الناحية العملية إلى ثلاثة أقسام وهي : -

١ - السودان الغربي ، ويشمل حوض نهر السنغال ونهر غمبيا والمجرى الأعلى لنهر فولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر .

٢ - السودان الأوسط ، ويشمل حوض بحيرة تشاد .

٣ - السودان الشرقي ، وهناك تعريف آخر لبلاد السودان في العصور الوسطى ، حيث إنها المنطقة الممتدة من حوض السنغال في المحيط الأطلسي غرباً إلى ساحل الصومال في المحيط الهندي شرقاً ، وهي كذلك بلاد غربي أفريقية .

للمزيد من التفصيلات انظر ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدي ، تاريخ السودان . تحقيق هوداس (Houdas) (باريس . ١٩٦٤م) ص ٩ وما بعدها . دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى اللغة العربية ، مادة « السودان » مج ١٢ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ، السر سيد أحمد العراقي . « ملامح تطور الحضارة الإسلامية في بلاد السودان الأوسط والغربي » مجلة التاريخ والمستقبل ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، المجلد الثالث ، العدد الثاني (١٩٩٣م) ص ٥٦٩

عدد كبير من العلماء الأفريقيين السود الذي كتبوا باللغة العربية في شتى فنون المعرفة ، ومن بينها التاريخ الوطني لبلادهم [٣] ، ثم بالإسلام ظهرت الدول الإسلامية في أفريقية ، التي ناضلت ضد الإستعمار الأوروبي، إذن لم يخطىء المؤرخون حين قالوا : - إن بالإسلام يبدأ العصر التاريخي لأفريقية السوداء والمقصود بالعصر التاريخي هنا ، ازدهار الحضارة الأفريقية الوطنية الإسلامية ، والحق أن العصر الذهبي في تاريخ البلاد الإسلامية الأفريقية ، أو تاريخ السودان الأوسط والغربي ، بمعنى آخر ، هو العصر الوسيط .

ففي ذلك العصر ، برزت الخصائص المميزة للحياة الإنسانية في تلك البلاد ، وقامت حكومات ونظم إدارية متقدمة ، ويمثل الإسلام القوة الدافعة المحركة ، التي خطت بالحياة في أفريقية الإسلامية تلك الخطوات الحضارية القوية [٤] .

ففي الحقبة التي تمتد من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) إلى حوالي منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، حفلت بلاد غرب أفريقية بالآلاف من العلماء والرحالة والتجار المسلمين من شتى أصقاع العالم الإسلامي ، من المشرق ، ووادي النيل بصفة خاصة ، ومن

(٣) للمزيد انظر . ابراهيم علي طرخان . « قيام إمبراطورية مالي الإسلامية » دراسات في التاريخ القومي الأفريقي . مستخرج من مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد الأول سنة (١٩٧٠م) مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٠م، ص ٤-٦ . محمد محمد زيتون « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب ... » ص ٢١٩-٢٢١

(٤) انظر معلومات أكثر في : عماد الدين اسماعيل أبو الفداء . تقويم البلدان . تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان (باريس : دار الطباعة السلطانية . ١٨٤٠م) ص ١٥١ وما بعدها ، محمد بن عبد الله اللواتي ابن بطوطة . رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق على المنتصر الكتاني ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) جـ ٢ ص ٧٨١ - ٧٩٨، ابراهيم علي طرخان ، « الإسلام واللغة العربية في السودان الأوسط والغربي » مجلة جامعة أم درمان الإسلامية ، العدد (٢) (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) (القاهرة : دار النهضة للطباعة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م) ص ٩ .

بلاد المغرب العربي في شمال أفريقية بصفة عامة ، كما سافر عدد كبير من مسلمي غرب أفريقية لأداء فريضة الحج وطلب العلم في الأزهر ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، وشمال أفريقية ، ونهضت تلك البلاد التي أمها المسلمون الأفريقيون لشتى الأغراض ، بما ينبغي عليها من الوفاء ، الذي سجله التاريخ ، من تيسير الرحلة وحسن الإستقبال وتذليل سبل العلم ، بجانب تبادل المنافع التجارية ، بل اختلطت دماء أهل البلاد بغيرهم من المسلمين ، مما زاد الرابطة ووثق العلاقة . وأدى هذا كله إلى تجاوز شهرة المدن الأفريقية الزاهرة ، حدود القارة ، أمثال : كومبي صالح في غانه ، ومالي وجني ، وتنبكت (تمبكتو) ، وولاته ، وتكده ونقاره ، وكنو ، وكاتسينا ، وصكت وغيرها (٥) .

لقد تطلعت بلاد السودان الأوسط والغربي إلى البلاد الإسلامية في الشمال والشمال الشرقي من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل وعورة الصحراء دون اجتيازها ، فطرق القوافل - التي تعد بالعشرات - تخترقها منذ أقدم العصور .

---

(٥) عبد الرحمن السعدي . تاريخ السودان ، ص ٢٥ وما بعدها ، أمين محمود . « طرق الحج والتجارة العربية في العصر الإسلامي » مجلة الفيصل ، العدد (١٨) (١٣٩٨هـ / ١٩٦٨م) ص ١٩-٢٢ . وللمزيد من التفصيلات عن الصلات بين الجزء الغربي من العالم الإسلامي وحواضر العالم الإسلامي الشرقية في الحجاز والشام والعراق وفارس ، انظر ، محمد بن أحمد بن جبير : رحلة ابن جبير (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، د. ت) ص ٤١ وما بعدها . غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، تقديم ومراجعة أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) جـ ١ ، ص ٤١ - ٥٨ ، محمد محمد ابراهيم زغروت . « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين » ، مجلة الدارة ، العدد (١) سنة (١١) (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ١١٥ وما بعدها ، السر سيد أحمد العراقي ، « انتشار اللغة العربية في بلاد غربي أفريقية عبر التاريخ » ، مجلة دراسات أفريقية . المركز الإسلامي بالخرطوم ، العدد (١) رجب (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ، ص ١٠٢-١٠٣ .

S.M. Imamuddin
" Relation of Spain with Ifriqiyah and Egypt in the tenth Century A.C. " Islamic Culture Vol. (38) (1964) . PP. 9-14.

ويمكن التماس ثلاثة منابع رئيسية للتأثير الإسلامي في أفريقية السوداء عامة ، وهي : -

١ - من شمال أفريقية عبر الصحراء إلى حوض النيجر الأوسط والأعلى.

٢ - المنبع المصري عن طريق النوبة وطرق القوافل الشرقية إلى برنو فبلاد الهوسا .

٣ - من بلاد العرب عبر البحر الأحمر إلى الحبشة ثم بلاد اليوروبا والأشانتي .

وعن هذه المنابع الثلاثة ، وصلت الثقافة العربية والإسلامية إلى العناصر السوداء ، وساعد على ذلك وقوع مصر والسودان في طريق الحج، واهتمام أولي الأمر فيها بتيسير أمور السفر إلى الأراضي المقدسة منذ فجر الإسلام ، بل أن شمال أفريقيا ووادي النيل عامة ، كانا من أهم المراكز والمنابع التي زحفت منها الدعوة الإسلامية ، وكانت مصر ، ثم المغرب ، أسبق الأقطار إلى اعتناق الإسلام ، ثم زحف الإسلام جنوباً مخترقاً الصحراء إلى بلاد النوبة وبلاد غربي أفريقية [(٦)] .

وقد انتشر الإسلام مبكراً في بلاد غرب أفريقية ، ومن الأدلة التاريخية على ذلك ، ما ذكره البكري ، من أنه حوالي عام (٦٠هـ / ٩٧٩م) ، كان

---

(٦) للمزيد من التوضيحات انظر . عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم .، كتاب فتوح مصر وأخبارها (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٢٠م) ص ١٧٠ وما بعدها ، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري . فتوح البلدان (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٢١٤ وما بعدها ، محمد محمد زيتون . " العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب ... " ص ٢١٢ وما بعدها ، غيشان بن علي بن جريس « الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة " مجلة العرب . جـ ٧ - ٨ سنة (٢٦) (١٤١٢ هـ / ١٩٩١م) ص ٤٤٧ وما بعدها . غيشان بن علي بن جريس « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . العدد (٨) رجب (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) ص ٤١٢ وما بعدها .

يوجد بالحي الإسلامي بمدينة غانه أو كومبي صالح ، عاصمة إمبراطورية غانه ، اثنا عشر مسجداً ، وقد زار البكري غانه عام (٤٥٩هـ / ١٠٦٦م) وذلك قبل سقوطها بقليل ، وأدرك فيها هذا العدد من المساجد ، بجانب عدد من المدارس القرآنية والإسلامية بالقسم الإسلامي [(٧)] ، وأورد البكري ، كذلك ، أن بني أمية أرسلوا جيشاً في صدر الإسلام لفتح بلاد السودان ، وأن ذرية هذا الجيش استقرت في بلاد غانه ، وأن حملة إسلامية كانت موجهة لمطاردة البربر ، وصلت في حركتها إلى بلاد السنغال حوالي عام (١٠٢ هـ / ٧٢٠م) وعادت بكميات كبيرة من الذهب [(٨)] ، وعن القلقشندي ، أن أهل غانه أسلموا أول الفتح [(٩)] وقد اسلم أحد ملوك غانه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وهو تلوتان بن تكلان، ويقال إنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين [(١٠)] ، ويقال - كذلك إن أربعة من جيش عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) (٧١٧-٧٢٠م) هاجروا إلى كانم ، وأن بعض بني أمية توجهوا إلى كانم عند محنتهم مع بني العباس [(١١)] ، ولا شك أن لهذه التحركات الإسلامية تأثيراً جزئياً

---

(٧) أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري . « المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب » وهو جزء من كتاب المسالك والممالك . نشره راندون (Randon) (الجزائر . د.ت) ، ١٨٥٧م) ص ١٧٤-١٧٥ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ . وللمزيد من التفصيلات انظر أيضاً . آدم عبد الله الألوري . موجز تاريخ نيجيريا (بيروت : د. ت ، ١٩٦٥م) .

(٩) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا. (القاهرة : طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ٢٨٤ .

(١٠) عبد الرحمن السعدي . تاريخ السودان ، ص ٤٣ وما بعدها ، دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى اللغة العربية ، مادة « السودان » مج ١٢ ، ص ٣٢٨ وما بعدها .
R. Palmer . The Bornu.
Sahara and Sudan (London , 1936) PP. 6-7, 149 .

(١١) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) جـ ٤ ، ص ٤٣٢ ، ابراهيم علي طرخان ، « غانة في العصور الوسطى » المجلة التاريخية المصرية (التي تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) مج ١٣ ، (١٩٦٧م) ص ٥١ - ٥٤ .

في التعريف بالإسلام في تلك البلاد منذ زمن مبكر ، وهي خلاصة لأدلة تاريخية على قدم الإسلام في غرب أفريقية ، توضح أن العلاقات بين هذه البلاد وشمال أفريقيا بل وآسيا وأوروبا ترجع إلى زمن سحيق ، وهي علاقات كما بدأت تجارية تبودلت فيها منتجات وسط أفريقية وغربها بالسلع الخارجية عن طريق القوافل ، ثم نشطت حركة التبادل التجاري والمواصلات بعد دخول الجمل أفريقية حوالي القرن الأول قبل الميلاد ، كما أن الفتوح الإسلامية لمصر وشمال أفريقية ، قد أدت إلى دفع المسلمين شمالاً حتى الأندلس وفرنسا (١٢) .

لذلك يمكن القول ، إن أفريقية ، وعلى الأخص غربها ووسطها ، لم تنعزل تجارياً وحضارياً عن شمالها ، وعن أوروبا وآسيا في أي فترة من فترات التاريخ ، وكان لهذا الإتصال المستمر اثره البشري في حياة الزنوج في تلك البلاد ، فضلاً عن الآثار الإقتصادية والحضارية والثقافية ، ومن بينها عقيدة الإسلام بدرجة ما ، هناك الأثر الجنسي الذي أدي إلى ضغط العناصر البيضاء من البربر والعرب على تلك البلاد منذ أزمنة موغلة في القدم ، واختلاطهم بأهلها ، وقد أدى هذا إلى امتزاج دمائهم بالدماء الزنجية حتى تغيرت ألوان أهل غرب أفريقية، مما يصعب معه وصفهم بالزنوج . ومن أجل هذا الإندماج ، جاء وصف المؤرخين والجغرافيين العرب لبلاد السودان دقيقاً ، فيقول الأصطخري مثلاً عن السودان : «إنهم ليسو بنوبة ولا بزنج ولا من البجة ، إلا أنهم جنس أشد سواداً من الجميع

---

(١٢) عمرو بن بحر الجاحظ . كتاب التبصر بالتجارة . تحقيق حسن حسني عبد الوهاب . (بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٦م) ص ٣٤، آدم الألوري ، موجز تاريخ نيجيريا، ص ٣٥ .

J. Fage. An Introduction to the History of west Africa (Combridge , 1959) PP. 21-22, Nehemiah Levizion .
" The Long March of Islam in the western Sudan " In the Middle Ages of African History . ed. by . Roland Oliver (London , 1967) PP. 13-14 .

وأصفى » [١٣] .

بعبارة أخرى : لقد وجد الإسلام طريقه من شمال أفريقيا إلى بلاد السودان الأوسط والغربي منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ، لا عن طريق الفتح الحربي والضغط والقهر ، ولكن عن طريق التجارة والمصاهرة والإندماج والكتب والمدارس والمساجد ، لأنه يصعب اخضاع وقيادة القبائل الكبيرة القوية عن طريق الحرب ، بدليل أن الإسلام ، في تلك البلاد ، ظفر بأقوى القبائل واشجعها وأكثرها عدداً وليس بالمستضعفة منها ، ثم نما وترعرع في المدن الكبرى التي أقامها المسلمون واستقروا فيها ، فنمت وكبرت واشتهرت ، وأدى ذلك إلى قيام الدول التاريخية الإسلامية الأفريقية الكبرى خلال فترة العصور الوسطى (القرن الثاني إلى العاشر للهجرة / الثامن إلى السادس عشر الميلادي) ، وهي ممالك إسلامية سادت ردحا من الزمن ، وأسهمت إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي والعربي إلى تلك المناطق ، كما ساعدت على نشر التراث الإسلامي . هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته تلك الممالك في تاريخ المنطقة اقتصادياً وسياسياً وإجتماعياً ، فاستمر دفع الحضارة الإسلامية في أفريقيا في الإنتشار والإزدهار حتى بلغ مداه

(١٣) أبو اسحاق ابراهيم الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي . كتاب مسالك الممالك . تحقيق إم. دي. غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٢٧م) ص ٢٩-٣٠ . وللمزيد من التفصيلات عن اختلاط أهل غرب ووسط أفريقية بمن حولهم من الشعوب انظر . أبو القاسم ابن حوقل النصيبي . كتاب صورة الأرض . تحقيق إم . دي. غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٣٩م) ص ١٠٤ وما بعدها ، أبو علي احمد بن رستة . كتاب الأعلاق النفيسة . تحقيق ام . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٩١م) ص ٣٤٧ وما بعدها ، محمد زغروت « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها ... » ص ١١٨ وما بعدها ، محمد زيتون « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب ... » ص ٢١١ وما بعدها ،
S.M. Imamudin . " Commercial Relation of Spain with Ifriqiyah .." PP. 12 ff .

وانتشاره في القرن الرابع عشر للهجرة (القرن التاسع عشر الميلادي)[١٤].

لقد كان للنشاط التجاري العربي والإسلامي عبر الطريق الصحراوي الغربي منذ القرن الأول الهجري وحتى نهاية القرن الخامس منه ، الأثر الكبير في تلك النقلة الحضارية الهائلة التي حظيت بها بلاد غرب أفريقية خلال فترة العصور الوسطى ، لأن التجار العرب قد تمكنوا مع بداية الفتوحات الإسلامية من التوغل في مدن بلاد المغرب المختلفة ، ومن ثم في المراكز التجارية السودانية [١٥]. ومن الجدير بالذكر أن التجار البربر كانوا قد سبقوا العرب في نشاطاتهم التجارية مع بلاد السودان الغربي ، كما استقروا مع العرب في ممارسة أعمالهم التجارية بتلك المناطق ، وفي خلال هذا التقدم كانت الصحراء هي الطريق الرئيسي لعملية التوغل العربي التجاري إلى الجنوب ، ويبدو أن هذا التوغل هو الذي هيأ المجال للعرب

---

(١٤) للمزيد من التفصيلات انظر : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . تحقيق إم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٧٦م) ، ص ٢١٥، وما بعدها ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي . كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م) جـ ١ ، ص ٢٢ وما بعدها ،
E.W. Bovil The Golden Trade of the moors (London , 1961) PP. 42-3 , S.J. Hogben . The Muhammadan Emirates of Nigeria (London , 1930) PP. 4-26, M. Shinnie An Ancient African Kingdom (London , 1965) PP. 86 - 88 , H. Johnston . a history of Colonization PP. 49-50, R.J. H. Church . West Africa (London, 1961) PP. XXIV .

(١٥) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت : د. ن ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨م) جـ ٦ ، ص ٧ ، ٤١١-٤١٢ . ولمزيد من التوضيحات انظر عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك تحقيق إم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩م) ص ٩٢ - ٩٤ ، ١٥٣ وما بعدها ، وأبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ، المعروف بابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق إم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م) ص ٧٨ وما بعدها ، محمد زغروت . « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها ... » ، ص ١٢١ وما بعدها ،

ليس فقط لممارسة تجارة الصحراء ، بل للإلتقاء والإختلاط مع بربر الصحراء والتأثير عليهم ، وحدث الأمر نفسه بالنسبة للأفريقيين في بلاد السودان الأوسط والغربي .

لذلك لعبت تجارة القوافل دوراً بارزاً في التفاعل الحضاري بين مراكز الحضارات القديمة ، مثلما عملت على توسيع الإتصالات بين شمال القارة ووسطها وغربها . كما عملت هذه التجارة على تنشيط حركة المواصلات والتبادل التجاري ، فازدادت المعرفة بثروات تلك البلاد وازدادت النقلة من وإلى بلاد السودان الغربي والأوسط على أثر دخول الجمل أفريقية - كما سبق القول - وقلت الأخطار والمخاوف التي تكتنف السفر داخل الصحراء، ولوحظ هذا الإزدياد وهذا النشاط منذ القرن الرابع الميلادي تقريباً [(١٦)] . وكان سكان شمال أفريقية من فينقيين ويهود وإغريق ورومان وبربر وعرب يشجعون تجارهم على تنمية علاقاتهم التجارية وغيرها مع غرب أفريقية ، وعقد هؤلاء التجار معاهدات تجارية مع مواطني غرب أفريقيا في العصور الوسطى[(١٧)] .

وبزيادة الإتصالات وسهولتها ، كثرت هجرات عربية من الشرق وشمال أفريقية إلى بلاد السودان جنوبي الصحراء ولا سيما بعد ظهور الإسلام .. فبعد الفتح العربي الإسلامي لمصر عام (٢٠هـ - ٦٤١م) ، وما تلاه من فتح شمال أفريقية ، وصلت حملات إسلامية إلى منطقة كاوار (Kawar) قرب بحيرة تشاد حوالي عام (٤٦هـ - ٦٦٦م) ، وإلى السنغال عام

---

(١٦) محمد زغروت « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها ... » ص ١٢٠ وما بعدها ، إبراهيم علي طرخان « البرتغاليون في غرب أفريقيا » حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة . (مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٧م) مج ٢٥ ، جـ ١ (مايو ١٩٦٣م) ص ١٢-٢٧ .

H. Johnston . a History of the Colonization PP. 15-20, 24.

(١٧) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص ١١ وما بعدها ، دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى اللغة العربية ، مادة « السودان » مج ١٢ ، ص ٣٢٦ وما بعدها .

(١٠٢هـ-٧٢٠م) ، وأدت إلى استقرار أعداد كبيرة منهم في بلاد السودان على حافة الصحراء ، وإلى اختلاط هؤلاء بالسكان الأصليين ، مما كان له أكبر الأثر في تغيير ألوان الزنوج - عبر القرون - في تلك المناطق ، حتى كان استخدام كلمة « أسود » للدلالة على سكان مناطق السافانا جنوبي الصحراء أدق من كلمة زنجي [١٨] . ولكثرة الأثار الشرقية والإسلامية وتنوعها في العصر الإسلامي ، ظل العالم الأوروبي لبضعة قرون ، يعتقد أن بلاد السودان والصحراء في شمالها ، ليست سوى جزء من البلاد الداخلة في نطاق العالم الإسلامي [١٩] .

تمكن المسلمون في شمال أفريقية - بعد ذلك - أن يحتكروا تجارة القوافل عبر الصحراء ، بل وتمكنوا من أن يتصلوا بقلب أفريقيا اتصالاً مباشراً . ولأسباب دينية وتجارية أصر المسلمون في شمال أفريقية على احتكارهم المطلق للقيام بدور الوسيط مع الأقاليم الداخلية في أفريقية عبر الصحراء ، ولذلك اقتصر نشاط التجار المسيحيين على المناطق الساحلية من بلاد شمال أفريقية [٢٠] . لهذا كله يمكن القول : إن هناك علاقة تجارية قديمة بين البلاد التي كان العرب يطلقون عليها اسم المغرب . ، وبين البلاد الواقعة جنوب الصحراء ، وكان ذلك قبل القرن السابع

---

(١٨) الإصطخري ، مسالك الممالك ، ص ٣٤ - ٣٥ ، ابن حوقل . صورة الأرض ، ص ١٠٤ وما بعدها ، ياقوت الحموي . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، جـ ٤ ص ٤٣١-٤٣٢ .

(١٩) محمد زيتون . « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب » ، ص ٢١١ وما بعدها .

H. Johnston .
A History of the Colonization , PP. 15-20 , B. Davidson .
Old Africa . PP. 70-73 .

(٢٠) وللمزيد من التفصيلات انظر . السر سيد أحمد العراقي . « تجارة القوافل بين شمال وغرب أفريقيا وأثرها الحضاري » (مجلة تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد البحوث والدراسات العربية . (بغداد ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

S.M. Imamuddin " commercial Relation of Spain with Ifriqiyah ..." PP. 10 ff .

الميلادي ، وازداد بعد ذلك بدخول الإسلام في القارة الأفريقية .

ومن المعروف ان هناك ثلاثة طرق رئيسية صحراوية تربط بلاد المغرب في الشمال ببلاد السودان في الجنوب عبر الصحراء ، وهي :-

١ - الطريق الشرقي : الذي يربط المغرب الأدنى (ليبيا وتونس) بالسودان الغربي (كوار وكانم) عبر صحراء فزان .

٢ - الطريق الأوسط : يربط المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) بالسودان الأوسط (كوكو) عبر الصحراء الوسطى .

٣ - الطريق الغربي : يربط المغرب الأقصى (المملكة المغربية حالياً) بالسودان الغربي (غانة والتكرور ومناجم الذهب) عبر الصحراء الغربية[٢١] .

لقد كانت هذه الطرق تبدأ من مصر وطرابلس وتونس وتلمسان ومراكش متجهة إلى الجنوب ، فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز الرئيسية في غربي أفريقية ، مثل غانة القديمة ، وإلى تنبكت (تمبكتو) وولايات الهوسا وكانم - برنو . وقد تتصل بعض هذه الطرق في الصحراء ثم تتفرع إلى جهات مختلفة . فمثلاً القافلة التي تبدأ من القاهرة تتجه أولاً صوب المغرب إلى أوجله ومرزوق ، وهناك تتصل بقافلة أخرى من طرابلس فيتجه بعضها نحو الجنوب إلى كانم - برنو بواسطة بلما ، في حين أن بعض القوافل تستمر جنوباً إلى أن تصل إلى غاط (Gatt) حيث تلتقي بقافلة أخرى من تونس ، ثم تتجه صوب الجنوب إلى ولايات الهوسا

---

(٢١) محمد زغروت « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها » ص ١١٥ وما بعدها ، أمين محمود عبد الله « طرق الحج والتجارة العربية في العصر الإسلامي » ص ١٩-٢١ ؛ غيشان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، ص ٤٤ وما بعدها .

عن طريق أهير (Ahir) ، ووصف لنا المؤرخ فاجي (Fage) تلك الصلة التجارية التي كانت قائمة بين المغرب وغربي أفريقية فيما بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر الميلادي ، حيث ذكر عدة طرق تجارية في تلك الفترة [٢٢] . ويذكرالمؤرخ بوفيل (Bovil) أربعة طرق رئيسية كانت تربط بين الشمال والجنوب وهي [٢٣] : -

١ - من سجلماسة إلى ولاته ، ثم تتجه إلى بلاد السنغال وأعالي نهر النيجر حيث الذهب .

٢ - ومن غدامس إلى بلاد الهوسا الغنية عن طريق غاط وأهير .

٣ - من طرابلس إلى البرنو ونهر تشاد ماراً بفزان وكوار .

٤ - ومن قونيه (Cyrenaica) إلى وداي عن طريق كفرة .

وقد أصبحت كل هذه المراكز تجارية وثقافية مشهورة ، وكان فيها أسواق مشهورة يؤمها كثير من التجار من شتى البلاد المغربية ، وقد قام كل منهما بنشاط في نشر الإسلام والثقافة العربية في مختلفة الأمان . وكان أولئك التجار يجلبون معهم إلى غربي أفريقية تلك البضائع المطلوبة كالحرير والسروج والنحاس والملح وأدوات شتى من منسوجات ، فيبيعونها ، ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد [٢٤] .

لقد كانت هذه العلاقة التجارية بين العرب وغربي أفريقيا التي بدأت

---

(٢٢) J. Fage. An Atlas of African History (Cambridge, 1958) PP. 17.18

(٢٣) E.W. Bovil The Golden Trade of the Moors, PP. 52-53 .

(٢٤) للمزيد من التفصيلات ، انظر : الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٣٤ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢١٥ وما بعدها ، السر سيد أحمد العراقي : « تجارة القوافل وأثرها الحضاري » ، ص ١٥١ - ١٥٢ .
S.M. Imamuddin " Commercial Relation of Spain with Ifriqiyah " PP. 11 ff.

في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وازدهرت بعد القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) هي بداية انتشار الإسلام واللغة العربية في أفريقيا بصفة عامة . ولقد استمرت هذه العلاقة بطريقة سلمية طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام في القارة الأفريقية، فالتجارة بطبيعة الحال ، تلزم ايجاد لغة للتخاطب بين البائع والمشتري ، كما تولد الصلة الحميمة بينهما ، وبما أن اللغة العربية كانت أرقى من اللغات المحلية ، فمن الطبيعي أيضاً أن يلتقطها التجار الأهالي من إخوانهم العرب وينشرونها فيما بينهم ، فوضعت هذه العلاقة التجارية الحجر الأساس للعربية في أفريقية ، وبدأ أولئك التجار يدخلون كلمات وتعابير في تلك المناطق ، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجياً حتى توغلت في تلك الربوع الأفريقية ، واندمج بعضها في اللغات المحلية وخاصة بعد انتشار الإسلام ، ومما يؤكد هذا ، وجود كلمات عربية كثيرة في بعض اللغات الأفريقية مثل لغتي الهوسا والفلاني ، (٢٥) وخاصة اسماء تلك البضائع التي كانت تصدر إليها من المغرب في تلك القرون الغابرة ، وهذا فضلاً عن الكلمات والتعابير الإسلامية التي دخلت مع دخول الإسلام ، ثم بالإسلام ظهرت الممالك الإسلامية الكبرى مثل غانا ومالي وصنغي وكانم ، وهي ممالك أفريقية ، والراجح أن يكون الإسلام قد دخل غانا عن طريق السلم وانتشر بالطريقة نفسها ، فيكون التجار والدعاة الذين دخلوها أفراداً ووفوداً هم الذين قاموا بنشره ثم اتسعت رقعته كثيراً بعد حركة المرابطين ، وتوغل في غرب أفريقية ووسطها ، ومما يذكر أن

(٢٥) ولغة الفلاني تعرف باسم لغة الفولي أو الفلدي ، وهي اللغة التي تتحدث بها قبيلة الفلاني أو الفلانيون المنتشرون في بلاد غربي أفريقيا حتى غرب بلاد السودان الحالية (جمهورية السودان) .

المرابطين كانوا يرسلون العلماء بين القبائل السودانية لبث العقيدة الصحيحة ، وبفضل هذه الحركة نشطت الإتصالات التجارية والثقافية بين بلاد السودان وبين العالم الإسلامي (٢٦) ، ولقد كان للثقافة الإسلامية العربية أثر واضح في حكومة غانا القديمة قبل دخول المرابطين ، فالمسلمون هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، فلذلك كانوا هم الذين يتولون ادارة الدواوين ، ومنهم الوزراء الذين كانوا يساعدون الملوك الوثنيين ، وقد ذكر البكري « أن تراجمة الملك من المسلمين ، وكذلك صاحب بيت ماله ، وأكثر وزرائه » (٢٧) . ثم اخذت مملكة مالي دور غانا بعد اختفائها من المسرح التاريخي السياسي (٢٨) ، فواصلت عملية نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية التي بلغت أوجها بين القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) واصبحت من كبرى الدول الإسلامية التي قامت في غربي أفريقية في تلك العصور ، وكان أهلها متمسكين بالإسلام ومتحمسين له وخاصة قبيلة الماندنجو ، وقد أعطى ابن بطوطة صورة واضحة لهذه المملكة عند زيارته لعاصمتها مالي في سنة (٧٥٣هـ / ١٣٥٢م) ، وقد أعجب بشدة عنايتهم بحفظ القرآن الكريم حيث قال : « وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ، ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون ، فقلت له : ألا تسرحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا

---

(٢٦) البكري ، من كتاب المسالك والممالك ، ص ١٧٥ - ١٧٧ ، محمد زيتون « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب .. » ، ص ٢١٢ وما بعدها .
E.W. Bovil . The Golden Trade, PP. 61-62, J.S. Trimingham . Islam in West Africa (Oxford , 1959) PP. 13-15.

(٢٧) البكري ، من كتاب المسالك والممالك ، ص ١٧٨ وما بعدها .

(٢٨) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ ٢ ، ٧٨١ وما بعدها
E.W. Bovil . The Golden Trade . PP. 90-92 , Encyclopodia of islam, Vol. 4 . PP. 489-491 .

القران » . قال أيضاً : « مررت يوماً بشاب من أهل مالي حسن الصورة ، عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معي : - ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عني الشاب وضحك ، وقيل لي : - إنما قيد حتى يحفظ القرآن » (٢٩) .

هذا ، ويتضح مما سبق أن الإسلام قد دخل غربي أفريقيا ووسطها أولاً بطريقة سلمية، وهي طريقة التجارة والدعوة . وبما أن دولة غانا كانت أقوم دولة أفريقية في تلك المنطقة ، فمن الطبيعى أن يدخل الإسلام ثم ينتشر منها إلى البلاد المجاورة . وبعد سيطرة المرابطين على دولة غانا ، وسيطرة المسلمين التامة على طرق القوافل التجارية منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، أخذ الإسلام ينتشر بسرعة فائقة عن طريق الفتح والتجارة والدعوة ، وبهذا اتسع نطاق الإسلام إلى البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . وفي ظل هذا الإزدهار وتلك الحماية التي وجدتها تجارة القوافل ، تسربت الثقافة العربية الإسلامية إلى بلاد جديدة لم تطأها أقدام المسلمين ،فوصلوا أراضي دندي ويوري ونوبي ، ثم توغلوا جنوباً حتى بلاد الأشانتي وداهومي (٣٠) .

تلا انتشار الإسلام ، أن انتشرت اللغة العربية ، وقد ساعد على انتشارها والتمسك بها فضلاً عن الجانب الديني المرتبط بها ، أن الكثير

---

(٢٩) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ ٢ ، ص ٧٩٠-٧٩١ .

(٣٠) عبد الرحمن السعدي ،تاريخ السودان ، ص ٩ وما بعدها . وللمزيد من التفصيلات ، انظر ، محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور . تحقيق وتنج (Whiting) (لندن ، ١٩٥١م) ، وحققه أيضا أبو بكر قمي في القاهرة (١٩٦٤م) ،حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة : د. ن، ١٩٦٣م) ص ٩٩ ، السر سيد أحمد العراقي . نظام الحكم في الخلافة الصكتية (١٨٠٤-١٩٠٣م) (الخرطوم : د. ن ، ١٩٨٣م) ص ٧ - ١٥ .
H.A.S. Johnston . The Fulani Empire of Sokoto (London , 1967) PP. 17-19, Murray Last . The Sokoto Caliphate (London , 1967) PP. 46-7 .

من الشعوب الأفريقية في السودان الأوسط والغربي قد ادعت الأصول الشرقية . لقد أدعى ملوك مالي والتكرور وصنغي وبرنو والهوسا والفلانيين وغيرهم ، أنهم انحدروا أصلاً من العرب ، وأن أسلافهم الأوائل جاءوا من الشرق ، ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في أفريقيا الإسلامية هجرة القبائل إلى تلك البلاد واستقرارها فيها ، وهذه الهجرات قديمة وسابقة على دخول الإسلام ، وازدادت بانتشار الإسلام ، ثم أن مصاهرة العرب والبربر مع القبائل الأفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام مثل قبائل شوا (في تشاد) والفلاني والماندنجو[٣١] . وظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير في هذه البلاد ، فأدى ذلك إلى تقدمها وتطورها ، فتطلعت إلى البلاد الإسلامية في الشمال والشمال الشرقي من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل وعورة الصحراء دون اجتيازها[٣٢] .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في غربي أفريقية بعهود الممالك الإسلامية الأفريقية الكبرى في غانا ومالي وصنغي ثم برنو وممالك الهوسا والتكاررة والفلانيين ، فقد كانت اللغة العربية اللغة الرسمية السائدة فيها واستخدمت في شتى الأغراض وأوفت بها .

---

(٣١) قبائل الماندنجو أكبر القبائل الأفريقية في غربي أفريقية في العصور الوسطى ، ومن أول من أعتنق الإسلام ، وهم مؤسسو مملكة (مالي) الإسلامية . أما الفلاني فقد سبقت الإشارة اليهم ، وهم الذين أسسوا الخلافة الصكتية بقيادة المجاهد الأكبر عثمان بن فودي ، ولهم دور كبير في نشر الإسلام ، في بلاد السودان الأوسط والغربي منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) .

(٣٢) للمزيد من التفصيلات ، انظر ، محمد زغروت . « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها ... » ص ١١٨ وما بعدها .
E.W. Bovil . The Golden Trade . PP. 44 ff , S.M. Imamuddin . " Commercial Relation of Spain with Ifriqiyah .. " PP. 12 ff.

لقد استخدمت في مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم هي لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول وبين العالم الإسلامي الخارجي . ووجد في الدواوين الرسمية زمن دولة المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة ملوك تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها (٣٣) .

لذلك يتضح من هذا العرض السريع ، أن اللغة العربية كانت اللغة الأم في العصور الوسطى في جميع البلاد الإسلامية ، واستمرت كذلك حتى قيام الخلافة الصكتية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي في بداية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) في شمال نيجيريا وعاشت حتى مطلع القرن العشرين . فكانت اللغة العربية طيلة هذه القرون هي لغة الدين والثقافة والتجارة ، ثم هي لغة الحكومة ، كما اصبحت لغة تخاطب في كثير من بلاد نجرتيا ، (٣٤) مع وجود اللغات المحلية كلغة الهوسا والفالني والبرنو وغيرها ، ثم هي من بعد ، لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات ، وبمعنى آخر : - كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة (Lingua Franca) . وقد تفاني ملوك تلك البلاد في نشر الإسلام واللغة العربية بين الزنوج . وذكر ابن حوقل أن ملك أودغست (تيبوتان) كان شديد الحماس لنشر الإسلام واللغة العربية بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب (٣٥) ، وكانت اللغة العربية في غانه وولاته

---

(٣٣) ابراهيم طرخان . « الإسلام واللغة العربية في السودان الأوسط والغربي .. » ص ٣٦ . ولمزيد من التفصيلات ، انظر : دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى اللغة العربية : مادة «السودان » مج ١٢ ، ص ٣٢٨ وما بعدها . غيثان بن علي بن جريس . « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » مجلة المؤرخ العربي ، العدد (١) . مج (١) (القاهرة ، ١٩٩٣م) ص ١٣٣ وما بعدها .

(٣٤) نجرتيا ، تسمية أطلقها المؤرخ الروماني بليني (Plinus) نسبة إلى نهر النيجر . وبليني (مات حوالي ١١٥ م) هو الذي أطلق علي نهر النيجر اسمه الذي اشتهر به (Nigris) ومعناه نيل الأجناس السوداء ، انظر ، ابراهيم طرخان ، « الإسلام واللغة العربية » ، ص ٨ وما بعدها .

(٣٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٨-١٠١ ، ١٠٤ وما بعدها .

ونيمة (Nima) هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد ، وهذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات ، واحتلت هذه اللغة في غانه وفي غيرها من بلاد السودان الغربي والأوسط المكانة التي احتلتها اللغة اللاتينية في أوروبا في العصور الوسطى ، بل زادت عليها ، اذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة الدين والثقافة حتى في العهد الإستعماري ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجياً أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا في تلك العصور ، أكثر من هذا ، شهد بعض المستكشفين والمستعمرين في مطلع العصور الحديثة بأن إلمام سكان غربي أفريقية باللغة العربية ، يفوق إلمام أوروبا باللغة اللاتينية في العصر الوسيط (٣٦) .

وكما سبق ، فإن المرابطين كانوا يرسلون العلماء بين القبائل الأفريقية لبث العقيدة الصحيحة ، وأقبل الأفريقيون المسلمون على مناهل العلم العربية في حماس تلقائي ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام ولغته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما أمتاز به المسلمون من العرب والبربر الذين استقروا في غانه وغيرها من بلاد السودان ، والذين اتصلوا بتلك البلاد ، من كفاءة وخبرة في شتى الميادين الإقتصادية والإدارية فضلاً عن الجانب الثقافي ، إذ كان المسلمون يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية ، بدليل استعانة ملوك غانة بهم في أجل أعمالهم .

وبالإضافة إلى الدور الذي قام به التجار والدعاة في نشر الإسلام في غانه ، فهناك عامل آخر ساعد على نشره في الممالك المجاورة لها وذلك

---

(٣٦) ابراهيم طرخان . دولة مالي الإسلامية (القاهرة : د. ن ، ١٩٧٣م) ص ١٥٤-١٥٧ .
E.W. Bovil .
The Golden Trade , PP. 42 ff, S.M. Imamuddin .
"Commercial Relation of Spain " PP. 12 ff .

هو الهجرة التي قام بها التجار المسلمون من شانه إلى المدن الأخرى ، وخاصة إثر غزو قبائل الصوصو الوثنية لغانا والإستيلاء عليها (٣٧) ، فانتشروا في البلاد وأقاموا مراكز تجارية أصبح لبعضها أهمية عظيمة وأثر كبير في نشر الدين والثقافة العربية في أفريقية .

وتعد مرحلة انتشار الإسلام والعلوم الإسلامية على أيدي ملوك مالي أيضاً من المراحل الهامة في تاريخ تطور وانتشار اللغة العربية على نطاق واسع في بلاد السودان الأوسط والغربي ، ففي هذه المرحلة ازدهرت الحركة العلمية ، وعرف عن السلطان كنكن موسى أنه استقدم عدداً كبيراً من العلماء ولا سيما من الحجاز ومصر والمغرب والأندلس (٣٨) ، فامتلأت بلاده بالعلماء من السود والبيض على السواء ، وكان ازدهار حركة التبادل التجاري بين مالي والخوارج ، من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية في مالي (٣٩) . ومن المدن التي اشتهرت بكثرة علمائها : تنبكت (تمبكتو) ومالي وجني وجاو (٤٠) ، حتى إنه عندما تدهورت دولة مالي سياسياً ، بقيت هذه المدن محتفظة بمكانتها العلمية كمراكز كبرى للثقافة الإسلامية في قلب أفريقية . وأهم مركز ثقافي في تنبكت (تمبكتو) : مسجد سنكري أو جامعة سنكري ، ففيها كان العلماء من كل فنون العلوم الإسلامية ، وأكثر العلماء من البيض من قبيلة جدالة بصفة خاصة . ومن أعظم علمائها المؤرخ الفقيه أحمد بابا الذي نقل عنه

---

(٣٧) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ ٢ ، ص ٧٨٦ وما بعدها ،
E.W. Bovil . The Golden Trade, PP. 90-100

(٣٨) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، جـ ٢ ، ص ٧٨٥ وما بعدها ، ابراهيم طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، ص ١٥١ ، محمد محمد زيتون ، « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب ... » ص ٢١١ وما بعدها .

(٣٩) الإدريسي ، كتاب نزهة المشتاق ، جـ ١ ، ص ٢٢ وما بعدها . ابن بطوطة ، تحفة النظار ، جـ ٢ ، ص ٧٨٥ ، ابراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية ، ص ١٥١ - ١٥٢

(٤٠) ابراهيم طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، ص ١٥٢ ، وما بعدها .

السعدي الكثير مما أورده في كتبه «تاريخ السودان»[٤١].

وقد وجدت المدارس الكثيرة في جميع المدن المشهورة بجوار المساجد، مثل مدارس غانه ومالي، ويقول ابن بطوطة عن أهل مدينة مالي: - إنهم قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب علم[٤٢]، وبجانب الإهتمام بالقرآن، كما ذكر إبن بطوطة هناك الأهتمام بلغة القرآن، وهي لغة العربية التي اكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمي غربي أفريقية عامة، وكانت جميع الوثائق الهامة تكتب باللغة العربية، ويقول توماس أرنولد «غدت اللغة العربية لغة تخاطب بين قبائل نصف القارة»[٤٣]. ويقول ديشان (Deschan): «ولم تكتف قبائل الممالك الأفريقية بدخول الإسلام، بل طبعت بطابع عربي بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد»[٤٤].

وهناك خصائص معينة في نطق الحروف العربية بين مسلمي غربي أفريقية. وأما طريقة الكتابة فهي طريقة المغاربة، ومما يوضح أثر شمالي أفريقية في ذلك، قول القلقشندي: «وكتاباتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب من موسى (سلطان مالي) بالخط المغربي»[٤٥].

---

(٤١) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص ١٤ وما بعدها. إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية ص ١٥٥ وما بعدها، وأحمد بابا يلقب بالتنبكتي من (تنبكت أو تمبكتو) في (جمهورية مالي حاليا)، وهو من أشهر علماء غرب أفريقية في العصور الوسطى، وكذلك السعدي من علماء أفريقية المشاهير وله مصدر تاريخي جيد عن بلاد السودان تحت عنوان: (تاريخ السودان).

(٤٢) ابن بطوطة ابن بطوطة، تحفة النظار، جـ ٢ ص ٧٨١.

(٤٣) توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة، حسن ابراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين (القاهرة: د.ن، ١٩٥٧م) ص ٣٤٩.

(٤٤) ديشان (H. Deschan). الديانات في أفريقية السوداء، ترجمة: أحمد صادق (القاهرة: د.ن.، ١٩٦٩م) ص ١٣٢-١٣٣.

(٤٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٢٩٨. ولمزيد من التفصيلات انظر: محمد زيتون: «العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب»، ص ٢١٦ وما بعدها.

ساعد ازدهار إمبراطورية مالي الإسلامية واتساع رقعتها وعظمة ملوك المسلمين وتفانيهم من أجل خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية على أن تترك اللغة العربية أثرها القوى في اللغات المحلية ، ولا سيما لغات الهوسا وصنغى والفلاني ، فاستخدمت اللغة العربية منذ ذلك التاريخ في كتابة اللغة الفلانية ولاتزال إلى اليوم .

كذلك يضم إلى هذا الدور ما قامت به مملكة كانم - برنو من جهود كبيرة لنشر الإسلام ولغته العربية ، تلك المملكة ، التي تأسست قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، ثم دخل إليها الإسلام عن طريق التجار أولاً ثم انتشر تدريجياً ، كما دخلت اللغة العربية وانتشرت ، ولقد ساعد في انتشارها وجود عدد كبير من العرب فيها ، ووجود صلة تجارية وثقافية وسياسية مع البلاد العربية الإسلامية .

والمشهور أن الإسلام وصل إلى كانم من مصر مباشرة (٤٦) ، ومن أشهر دعاة الإسلام في كانم محمد بن ماني في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . واشتهر حكام برنو بحماستهم للدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية ، حتى إن الماي عثمان بن زينب (ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) أدعى أنه من نسل عثمان بن عفان (٤٧) .

كان العامل التجاري من عوامل ازدهار اللغة العربية وانتشارها على نطاق واسع حول بحيرة تشاد وما جاورها ، وكانت طرق القوافل التجارية تبدأ من طرابلس وتتجه إلى الجنوب عن طريق فزان وبلما إلى أن تصل إلى

---

(٤٦) ابراهيم طرخان : امبراطورية البرنو الإسلامية (القاهرة : د.ن ، ١٩٧٥م) ص ١١٢ - ١١٣ ، محمد زغروت . العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها ... » ص ١١٩ وما بعدها
S.M. Imamuddin " Commercial Relation of Spain with Ifriqiyqh " PP. 13 - 14 .

(٤٧) ابراهيم طرخان . امبراطورية البرنو الإسلامية ، ص ١١٣ وما بعدها .

كانم ، وهذا مما سهل وصول التجار المسلمين إليها ، وبالتالي دخول الإسلام ، فلا شك أن التجار هم الذين أدخلوا الإسلام إلى تلك المنطقة . وقد ذكر محمد بلو ابن الشيخ عثمان بن فودي في كتابه إنفاق الميسور:- أن الإسلام دخل كانم عن طريق التجار والمسافرين ، وأضاف محمد بلو أن أهل هذه البلاد يهتمون بقراءة القرآن وتجويده وحفظه ، والكتابة باللغة العربية منذ وقت بعيد (٤٨) .

وفي خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، شهدت مملكة برنو عصراً مزدهراً بالفتوحات والتقدم السياسي والثقافي ، ذلك هو عصر الملك إدريس ألوما (٩٧٩ - ١٠١٢هـ / ١٥٧١ - ١٦٠٣م) ، وهو الملك العادل الشجاع التقي ، حسب ما يصفه لنا مؤرخه أحمد بن فرطوا (Fartuwa) ، فقد قام هذا الملك بعدة غزوات ، واستولى على المناطق الواقعة في غربي كنو كلها حتى وصل إلى كنو (في شمال نيجيريا) ، وهكذا وصلت مملكة برنو إلى أوجها (٤٩) وكانت كذلك إلى أن ظهرت الثورة الإصلاحية التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) .

لقد استطاع ملوك كانم و ملوك برنو في أيام ازدهار دولتهم ايجاد علاقة سياسية وتجارية بين دولتهم والبلاد العربية الإسلامية وخاصة مصر وطرابلس وتونس ومراكش ، وكذلك الحجاز بسبب الحج (٥٠) . وقد أورد لنا المؤرخون بعض المراسلات التي جرت بين هذه المملكة وتلك البلاد

---

(٤٨) محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي . اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، ص ١٠-١١ .

(٤٩) أحمد بن فرطوا . تاريخ ابن ادريس وغزواته (كنو : د. ن ، ١٩٣٢م) ص ١٣٦- , ١٣٧

(٥٠) محمد زيتون : « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب » ، ص ٢٢٢ وما بعدها ، غيشان بن علي بن جريس : بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ٢٣-٢٥ ، ٤٢ - ٥٠ . ٢٥٩ وما بعدها

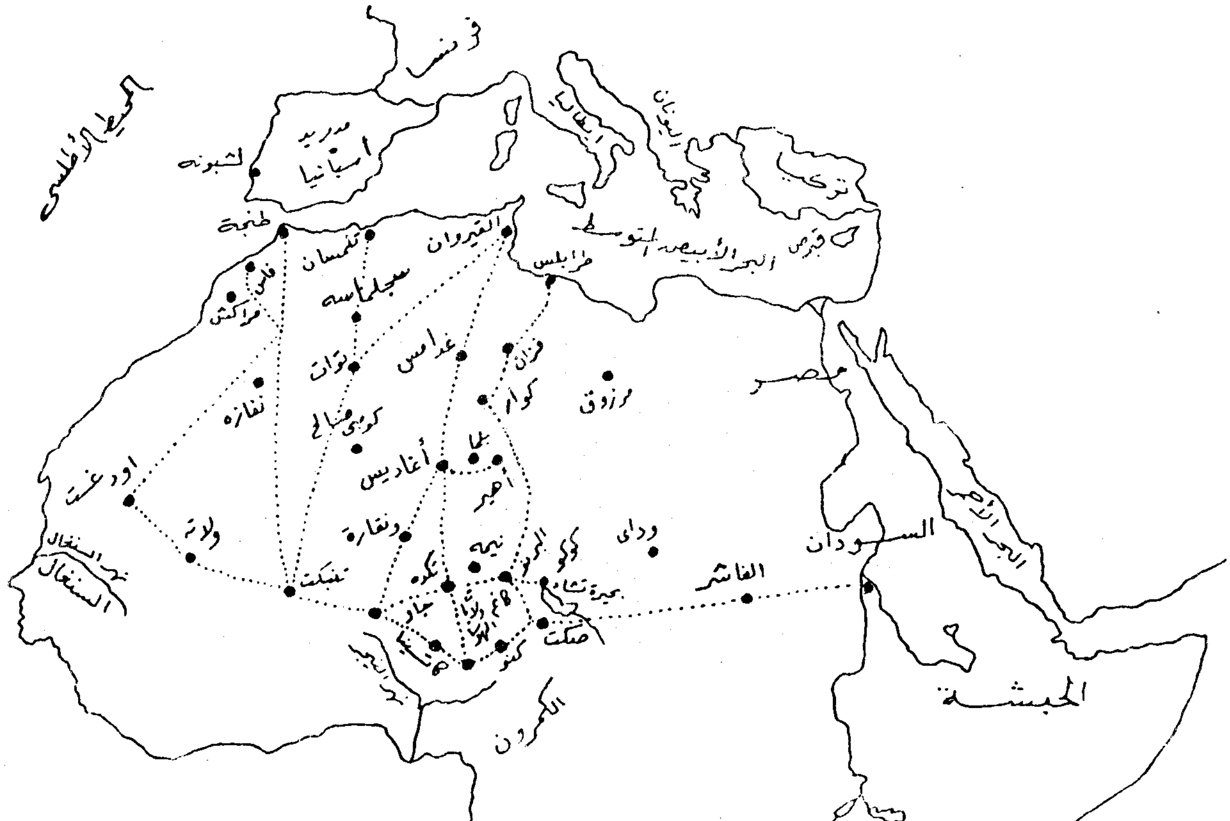
S.M. Imamuddin “ Commercial Relation of Spain with Ifriqiyqh “ PP. 12 - 14 .

العربيـة ، والظاهر أن هذه العلاقة بدأت بسبب الحج ، إذ إنه من المعروف : أن كثيراً من ملوك كانم - برنو كانوا يؤدون تلك الفريضة ، ويذكر لنا ابن خلدون وصول رسول من كانم في سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) إلى أبي عبد الله محمد (المستنصر الأول) أحد خلفاء بني حفص بتونس ، وكان الرسول يحمل معه هدايا ثمينة إلى الخليفة [٥١] . وقد أورد أيضاً القلقشندي نص الرسالة التي كتبها ملك برنو عثمان بري بن إدريس (٧٩٤-٧٩٦هـ / ١٣٩١-١٣٩٣م) إلى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بمصر يستنجد به ضد أعدائه [٥٢] .

---

(٥١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، جـ ٣ ، ص ١٣٦ - ١٣٧, (ويذكر الناصري أيضاً في كتابه: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ وما بعدها « أن رسول ملك برنو قدم إلى المنصور في سنة (٩٩٠هـ) ومعه هدية إليه من العبيد والإماء والكساء فقوبل بحفاوة عظيمة وكان ملك البرنو يطلب من أمير المؤمنين المنصور المدد من العساكر والبنادق ومدافع النار ، فاشترط عليه أن يدخل في بيعته أولاً ، فقبل الرسول ذلك ، وكتب صورة البيعة التي أخذها الرسول إلى ملك برنو .

(٥٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ١١٦ وما بعدها .



خريطة
توضح أهم المدن
والمراكز التجارية
في
شمال وغرب أفريقية
في العصور الإسلامية
الوسيطة

●	المدن
....	الطرق

ولا شك أن العلاقة التي كانت موجودة في تلك القرون الغابرة قد ساعدت كثيراً في نشر الثقافة العربية الإسلامية في تلك المنطقة ، فقد انتشر فيها التعليم ، وكثر من يتكلم باللغة العربية ، وكثر العلماء ، ومما ساعد في نشر اللغة العربية : وجود عدد كبير من العرب الوافدين إليها الذين اشتهروا باسم قبيلة شوا (Shawa) ، وهذه القبيلة - التي سبقت الإشارة إليها - تسكن الحدود الشرقية للبرنو بجوار نهر تشاد (٥٣) .

مما تقدم ، نستطيع أن نقول : أن حركة التبادل التجاري بين شمالي وغرب أفريقية ، ونشاطها المستمر ، وازدهار التجارة واستمرارها على مر الأزمان والأجيال ، قد ساعد إلى حد كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في القارة الأفريقية جنوب الصحراء ، والفضل يرجع إلى التجار والدعاة الذين قاموا بالمخاطرة واجتازوا الصعاب . ويعتبر ذلك من أهم الإيجابيات لدخول الإسلام وانتشار الثقافة الإسلامية في المغرب وأفريقيا ، فساعد كذلك على توسيع شبكة الإتصالات الإنسانية والإقتصادية داخل القارة السمراء ، فأتيحت - بفعل ذلك - لبقية العالم ، شرقاً وغرباً ، فرصة الإستفادة منها ، وتنمية ثروته وموارده . وإن استقرار العرب في المدن والمراكز الأفريقية ببلاد السودان ، كان بدون شك عاملاً كبيراً في أن تصبح هذه المدن مركز لقاء واختلاط بين العرب وغيرهم من الشعوب الأفريقية في شمالي وغربي الصحراء . وبرزت أولى نتائج هذا التواجد بإيجاد مؤسسات إسلامية ثابتة في المدن الأفريقية التي ازدهرت في العصور الوسطى بالتجارة والثقافة وعامل الدين ، وهذه المؤسسات تتمثل

---

(٥٣) هاجرت قبيلة شوا إلى البرنو في أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، ويقال أنهم كانوا من قبيلة بني هلال التي طردت من مصر في العهد الفاطمي طردهم الخليفة الفاطمي المستنصر . واشتهرت هذه القبيلة بالشجاعة والبطش ، ولذلك استفاد منهم ملوك البرنو في الجيش . انظر ،

Akin mabogunje . The land and the peaple of West Africa (Ibadan , 1972) PP. 27 - 9 .

في المساجد ومراكز التعليم ، وقد وصلت قمة ازدهارها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، كما قامت هذه المؤسسات - بدورها - في تعزيز علاقات الإختلاط بين المجموعات السكانية المختلفة في داخل هذه المدن التجارية والثقافية . وبازدياد توغل وانتشار التجار العرب في المراكز التجارية المختلفة في بلاد غربي أفريقية ، نتج عن ذلك نشوء عدة مناطق استقرار ثابتة ، تجارية وإسلامية . فمن بين تلك المراكز التجارية الناشئة في السودان الغربي - على سبيل المثال - كان هناك الحي الإسلامي في مدنية غانة ، تلك المدينة التي شهدت نشاط التجار العرب كالمغاربة والمصريين والحجازيين والعراقيين وأهل الشام واليمانيين [٥٤] ، الذين استقروا وانتشروا في تلك البلاد ، لا سيما أن مدينة غانة كانت المدخل الوحيد للوصول إلى مناجم الذهب الواقعة جنوبها. وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) استمر الوجود التجاري في مدينة غانة وغيرها في الإزدياد [٥٥] ولعل من أوضح نتائج هذا التواجد هو ازدياد قيمة التجارة في غانة ، إضافة إلى نمو الإتصالات التجارية ما بين غانة من جهة وما بين مناطق المغرب الأوسط والأقصى من جهة أخرى . وقد ساعد وجود التجار العرب في المراكز التجارية في السودان الغربي ، بل توغلهم المكثف فيه ، على حدوث

---

(٥٤) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٦ ص ٢٢ ، ٤١ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٦٠ ، والبكري ، كتاب المسالك والممالك ، ١٥٨ ، ياقوت الحموي . معجم البلدان ، طبعة مصر (١٩٠٦م) جـ ٤ ، ص ١٨٢ ، محمد زيتون « العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب » ، ص ٢١٦ وما بعدها ، محمد إبراهيم زغروت . « العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها » ص ١٢٣ وما بعدها .

S.M. Imamuddin . " Commercial Relation of Spain with Ifriqiyah and Egypt " PP. 9-14 .

(٥٥) البكري ، كتاب المسالك والممالك ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

عمليات الإختلاط والتزاوج بين العرب والزنوج في مراكز التجارة السودانية الأفريقية في بلاد غربي أفريقية ، كما أدى إلى قيام النشاطات التجارية الواسعة بين المراكز التجارية في الشمال والمراكز التجارية في الجنوب ، وأصبحت تلك المراكز بدورها مراكز لقاء بين العرب والأفريقيين في جنوبي الصحراء ، ويظهر اثر ذلك واضحاً في التأثير الإسلامي الحضاري في تلك المنطقة منذ دخول الإسلام فيها في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) إلى أن ازدهر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) [٥٦] .

(٥٦) صباح إبراهيم الشيخلي . « النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري » مجلة تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) ص ٢٩-٤٤، محمد زغروت «العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامي فيها ، ص ١١٦ وما بعدها .

المبحث الخامس عشر

جدة في مواجهة الخطر البرتغالي
خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجري
(السادس عشر الميلادي) (*)

(*) نشر هذا البحث ضمن أعمال مؤتمر « الصراع بين العرب والإستعمار في عصر التوسع الأوروبي الأول» الذي عقد في القاهرة في الفترة من (٢٥-٢٧ جمادي الثانية ١٤١٥ هـ / ٢٨-٣٠ نوفمبر ١٩٩٤م) ص ٢٢٧ - ٢٧١ .

جدة في مواجهة الخطر البرتغالي

خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجري

(السادس عشر الميلادي)

تميزت جدة ، منذ صدر الإسلام ، بأنها ثغر مكة المكرمة المطل على البحر الأحمر ، كما أنها معبر للمسلمين الذين يفدون بحراً إلى الحجاز لآداء مناسك الحج والعمرة ، وأدى هذا وذاك إلى إزدهار النشاط التجاري لهذا الميناء طيلة العصور الإسلامية (١) .

ونظراً لهذه الأهمية على مدار تاريخها الإسلامي ، خاصة منذ القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري (القرن التاسع الميلادي

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن اهمية ميناء جدة منذ صدر الإسلام ، انظر محمد عبد الله الأزرقي ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي ملحس (مكة المكرمة :مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ ٢ ، ص ٧٦، ٨٠، ٢٩٨، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء (بيروت : دار الكتب العلمية . د. ت) جـ ١ ، ص ٨٦ - ٨٨ ، عبد القادر بن أحمد بن فرج ، رسالة في تاريخ مدينة جدة ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، تحقيق محمد عيسى الصالحية (بيروت : دار الحداثة للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م) ص ٤٠ وما بعدها ، عبد القدوس الأنصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة (القاهرة : دار مصر للطباعة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) ، ص ٧٥ وما بعدها ، علي بن حسين السليمان . « ميناء جدة في القرن التاسع » مجلة العرب . (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) جـ ١٢ ص ٩٣٥ , ٩٤٩ .
G.R. Hawting " The Origin of jeddah and the Problem of Al - Shuayba " Arabica Vol. XXXI (1984) PP. 318 - 326 .

وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي) ، فإن هذا الميناء في حاجة إلى مزيد من عناية الباحثين بقدر من الإفاضة والتفصيل (٢) .

أما سبب اختيار الباحث أن يلقي الضوء على أهمية جدة ، في أواخر العصر المملوكي ، فيرجع إلى أن هذه الفترة يواكبها التهديد الأوروبي للمسلمين وهو التهديد الذي استهله البرتغاليون الذين تصاعدت أطماعهم بدءاً بالسعي إلى إكتشاف طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح فيما بعد) وحتى محاولتهم تطويق العالم الإسلامي وخنقه اقتصادياً والقضاء

---

(٢) وللإطلاع على معلومات أكثر عن أهمية ميناء جدة في البحر الأحمر خلال القرون الإسلامية الوسيطة ، وكيف كانت تجد الإهتمام والرعاية من خلفاء وسلاطين وأمراء المسلمين في كل من الحجاز ، والشام ، ومصر ، والعراق ، انظر .، الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٧٦ ، ٨٠، ٣٢٣، ٣٢٧ ، محمد بن محمد بن عبد الله الأدريسي ، كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م) جـ ١ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، جمال الدين يوسف بن المجاور ، بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمي : - تاريخ المستبصر. تحقيق أوسكر لوفغرين (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٥١م) جـ ١ ، ص ٤٠ - ٤٨ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٨٧ وما بعدها ، قطب الدين المكي النهروالي . كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام (بيروت : مكتبة خياط ، ١٩٦٤م) ص ٧٩ ، أحمد عمر الزيلعي مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧هـ) (الرياض : عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض ، ١٩٨١م) ص ١٧٧ - ١٨١ ، حسنين محمد ربيع . « وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لمواني الحجاز واليمن في العصور الوسطى) الندوة العالمية الأولى لدراسة ==== === / تاريخ الجزيرة العربية . (الرياض ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٣٥ ، الأنصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة ، ص ٧٧ وما بعدها .
A. Pesce: Jiddah : Portrait of an Arabian City (London, 1974) P. 17; S. D. Goitein A: Mediterranean Society Encyclopaedia of Islam , New ed. Vol. 2, p. 572. mann (Rev-P.A. Marr) " Djudda " .

على هويته من حيث الدين واللغة والحضارة [٣] .

وقد حاول الغرب الأوروبي ذلك عن طريق السيطرة على تجارة الشرق الأقصى واحتكارها ومنع وصولها إلى بلاد المسلمين ، ثم محاولة الوصول إلى قلب القارة الأفريقية عن طريق البحر ، وتحويل التجارة عن طريق البحر الأحمر وطريق القوافل إلى الطريق البحري حول أفريقية ، وإلى موانى المحيط الأطلسي .

وجاء هذا النشاط مصحوباً بالرغبة في أحياء الروح الصليبية والإنتقام من المسلمين [٤] لذلك حرصوا على الإتصال بالمسيحيين في الشرق

(٣) ولمعرفة الطرق والأساليب التي قام بها البرتغاليون للإلتفاف حول أفريقيا والوصول إلى شواطىء الهند ، ثم مهاجمة المسلمين في كل من الخليج العربي والبحر الأحمر ، انظر يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) جـ ٢ ، ص ٦٢٩ وما بعدها ، عفيف الدين أبو محمد عبد الله بامخرمة ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه : - نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات بامخرمة كما سجلها في مخطوط قلادة النحر » دراسة وتحقيق محمد عبد العال أحمد (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ، ١٩٨٠م) ص ٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول عبد ربه . « البرتغاليون والبحر الأحمر » سمنار للدراسات العليا للتاريخ الحديث ، جامعة عين شمس ، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (القاهرة ، ١٩٨٠ م) ، ص ٢٠٥ - ٢٢٢ ، ويوجد ضمن هذا السمنار دراسات جديدة تفيد القارىء في معرفة ما بذله البرتغاليون من جهود عدائية تجاه المسلمين، وفي الجزء الثاني من أبحاث : - ندوة رأس الخيمة التاريخية ، والمنعقدة في (٥-٧محرم ١٤٠٨ هـ / ٢٩-٣١ أغسطس ١٩٧٨م) العديد من الأبحاث القيمة التي تصور هجمات البرتغاليين على الخليج العربي والسواحل الأفريقية .

(٤) وللإطلاع على تفصيلات أكثر عن الحروب الصليبية في الشرق الأدني انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦م) جـ ١ ، ص ٤٣٦ - ٤٦٤ ، وللمؤلف نفسه ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٥م) جزءان .

وخاصة الأحباش النصارى ، وإماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا Prester John [٥] وتحويل العناصر الوثنية في الشرق إلى المسيحية[٦] ولذلك خططوا للتعاون مع مسيحي الحبشة لمحاربة المسلمين في منطقة القرن الأفريقي (دول الطراز الإسلامي السبع وعلى

---

(٥) كلمة (Prester) بمعني القس ، والقديس يوحنا شخصية خرافية ، كان أهل أوروبا يعتقدون بوجودها وأنه يحكم إمبراطورية واسعة في آسيا . غير أن أهل أوروبا في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وجدوا أن المقصود بهذه الشخصية ملك الحبشة المسيحي. وللمزيد من التفصيلات ، انظر ، شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، نشره مع مقدمة بالفرنسية رينيه باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٤٠ وما بعدها ، ابراهيم علي طرخان : البرتغاليون في غرب أفريقيا (القاهرة : مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٤١

S. Bovil : The Golden Trade of the Moors (London , 1962) PP. 92 ff.

(٦) المعروف أن دولة أكسوم (الحبشة) اعتنقت المسيحية منذ القرن الأول الميلادي ، وعملت جاهدة على نشر المسيحية بين الوثنيين في أفريقيا منذ ذلك التاريخ وإزداد نشاطها بعد ذلك بدعم من بيزنطة ، فظلت الحبشة من ذلك الوقت على تعصبها الشديد لمسيحيتها ، ويقول المقريزي : - والحبشة يتشددون في ديانتهم تشدداً زائداً ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكانية من النصارى . ،ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام بالحبشة من جميع الجهات تقريباً ، كما كان من أهداف المسلمين نشر الإسلام في تلك الرقعة بين الوثنيين مما شكل الباعث الأكبر على الحروب التي نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التي جاورتها . وجاء البرتغاليون بعد ذلك وظهرت أهدافهم الصليبية عندما وقفوا مع الحبشة في هذا الصراع ، انظر المقريزي الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (مصورة من نسخة بالاسكوريال ، ص ٣ ، عبد المجيد عابدين . بين العرب والحبشة (القاهرة . د. ن ، ١٩٥٩م) ص ١٤ .

رأسها مملكة أوفات الإسلامية) [٧] ، ثم التوصل إلى سواحل البحر الأحمر الشرقية ، وخاصة ثغر جدة الذي يقودهم إلى مقدسات المسلمين في الحجاز ليتمكنوا من تدميرها والثأر من المسلمين [٨] .

(٧) وقد وصف القلقشندي هذه البلاد الأفريقية بقوله : « ... البلاد المقابلة لبر اليمن على بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها بالطراز الإسلامي لأنها على جانب البحر كالطرازله » . وقد تكونت إمارات الطراز الإسلامي هذه نتيجة زيادة عدد المسلمين في هذه المنطقة ذات الأهمية البالغة في تجارة البحر الأحمر . وقد تبلور الوجود الإسلامي بهذه المنطقة من الناحية السياسية في سبع إمارات ظهرت مع بداية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وهذه الإمارات هي : - أوفات ، ودواردو ، وارابيني ، وهديا وشرخا ، وبالي ، وداره ، وقد تأرجحت ما بين التبعية السياسية لملك الحبشة والإستقلال عنه ، بل ومحاربته أحياناً . وكانت إمارة أوفات هي أقواها جميعاً . وقد شهدت القرون الثامن ، والتاسع ، والعاشر الهجرية (الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر الميلادية) سلسلة من المعارك بين الحبشة ودول الطراز الإسلامي بسبب التنافس للسيطرة على المراكز التجارية في داخل الحبشة وميناء زيلع على الساحل الصومالي . واستعان مسلمو الحبشة بدولة المماليك ، ولكن بعد المسافة ووعورة الطريق لم يتح لمصر أن تقدم أي مساعدة فعالة لهم ، كما إستعان الأحباش النصارى بالأوروبين ، لمزيد من التفصيلات . انظر أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة . د . ت) جـ ٥ ، ص ٣٢٤- ٣٣٠، تقي الدين أحمد المقريزي . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . (القاهرة: د. ن ، ١٩٧٢م) ص ١٢٥ وما بعدها .

(٨) كانت البابوية قد حرصت منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) على تقوية صلتها بدولة الحبشة المسيحية فقام وليم آدم ، الراهب الدومينيكاني الذي اختاره البابا نيقولا الرابع عام ١٣٠٥م للتبشير في الشرق برحلة طويلة زار أثناءها الحبشة ، ثم عاد إلى أوروبا في عام ١٣١٦ هـ ، بعد ما نجح في تحقيق أهدافه ومنها تدعيم علاقات التعاون بينهما ، مثلما نجح في استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين ، وبالتالي جذب هؤلاء الملوك إلى داخل دائرة الحرب الصليبية . وقد قويت الإتصالات الحبشية البرتغالية ضد العالم الإسلامي ممثلاً في دولة المماليك في مصر بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وبعد هزيمة الأسطول المصري في ديو عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) ، أرسلت هيلانه ملكة الحبشة رجلاً أرمينياً يدعى ماثيو على رأس سفارة عام (٩١٦ هـ / ١٥٠٩م) إلى إمانويل (عمانويل) ملك البرتغال لمفاوضته من أجل التحالف ضد المسلمين . وقد لقبته في رسالتها بلقب (قاهر المسلمين) واظهرت في رسالتها الرغبة الملحة من أجل التعاون لكي تصل جنودها مع الأحباش إلى الحجاز لغزو مكة المكرمة ، وتحطيم الكعبة ، وإغلاق البحر الأحمر من الطور شمالاً ، ومن باب المندب جنوباً . وللمزيد من التفصيلات عن العلاقة بين الأحباش والقوى الأوروبية ، انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه (بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، عدد (١٤) (١٩٦٨م) ،

F.F. Alvarez , (A Portuguese) Narrative of the Portuguse Embassy to Abyssinia During . The Year 1520 - 1527 Translated by Lord Stanley (London , 1881) PP. 311 - 313 ff , A.S. Atiya The Crusade in the Later Middle Agrs (London , 1938) PP. 161-162 .

وهكذا نجح البرتغاليون في النزول على شواطىء بلاد الهند في مطلع القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر الميلادي) ، وبالتالي أخذوا في تذليل الصعاب التي تعترض وصولهم إلى البحر الأحمر ، ثم الأماكن المقدسة في الحجاز عن طريق ثغر جدة . وسوف نركز حديثنا في هذا البحث على الحملات التي قادها نواب ملك البرتغال في الهند على ميناء جدة في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) مع العناية بايضاح الأساليب العدوانية الصليبية التي اتبعوها في مواجهة المسلمين ومحاربتهم ، هذا مع العناية بإبراز رد فعل المسلمين على تلك الهجمات البرتغالية ، وخاصة من جانب سلاطين المماليك في عهد آخر سلاطينهم قانصوه الغوري (٩٠٦هـ / ١٥٠١م - ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) هذا بالإضافة إلى دور بعض مسلمي الهند واليمن والحجاز والعثمانيين في الأستانة ، على أن ننهي البحث بإبراز بعض الآثار السلبية على ثغر جدة من خلال الصراع الإسلامي البرتغالي في تلك الحقبة .

سعى البرتغاليون في إكتشاف طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح)(٩) تحت تأثير العامل الإقتصادي والرغبة في الوصول عن طريق - غير طريق المسلمين - إلى ثروات الشرق ، لكن العامل الديني

---

(٩) بار ثلميوديار الذي وصل عام (٨٩٢هـ / ١٤٨٦م) إلى خليج الجو (Algoa) على الشاطىء الجنوبي الشرقي لأفريقيا بعد أن دار حول القارة ، هو الذي أطلق على رأس القارة من الجنوب اسم رأس العواصف (Cabo Termentoso) . وجاءت تسميته هذه نتيجة لأن العواصف الرعدية الشديدة التي تهب على هذه المنطقة تحدث أصواتاً عنيفة ، ولكن ملك البرتغال حنا الثاني غير الاسم إلى (رأس الرجاء الصالح) وذلك تفاؤلاً بقرب الوصول إلى الهند، وللمزيد انظر :
J/ Fage , An Atlas of African History (Cambridge , 1958) PP. 26-27. H.H. Johnston , A History of the Colonization of Africa by Allien Races (Cambridge , 1913) PP. 80-81 , 99 .

وراء هذه الحركة كان لا يقل أهمية عن الدافع الإقتصادي . وقد ظهر ذلك جلياً في تشجيع بابا روما لملك البرتغال إمانويل (Emmanuel) (٩٠١هـ / ١٤٩٥م - ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) الذي أطلق عليه اسم « سيد الملاحة والفتح والتجارة في أثيوبيا وبلاد العرب وفارس والهند »(١٠) بل أن ملك البرتغال نفسه أشار في بعض خطاباته أثناء إرسال البعثات الكشفية الأولى إلى الهند ، إلى أن الهدف الأساسي من إرسالها هو نشر المسيحية والحصول على الثروات (١١) .

وقد وجه البرتغاليون في بادىء أمرهم حملاتهم الكشفية إلى بلاد الهند، وبعد أن دانت لهم السيطرة البحرية على أجزاء هامة في المحيط الهندي ، كشفوا عن وجههم فقاموا بإعتداءات على مسلمي الهند انتهكوا فيها أعراضهم ومنعوهم من الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ودمروا مساجدهم وأحرقوا مصاحفهم (١٢) . وقد أشار صاحب تحفة المجاهدين إلى أنهم أثاروا الرعب في قلوب الناس ، ونشروا الخراب والدمار في أنحاء البلاد (١٣) . وأضاف النهرواني (من مؤرخي القرن

(١٠) وقد استمر هذا اللقب يطلق على ملك البرتغال فترة من الزمن بعد ذلك ، وهو يعكس الدوافع الحقيقية للنشاط البرتغالي ، الذي حظى بمباركة وتشجيع هذا البابا ، الذي حاول أن يقوم بدور مشابه للدور الذي قام به البابا أوربان الثاني إبان الإعداد للحملة الصليبية الأولى . انظر سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٦١.
T.F. Tout. The Empire and the Papacy (London , 1942) PP. 137-139 .

(١١) انظر السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥م (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤م) ص ٤٦ ، وما بعدها .
R.B. Serjeant : The Portuguese of the South Arabian Coast (Oxford, 1963) PP. 2-3, Pestage . The Portuguese Pioneers (London , 1933) PP. 267-268 .

(١٢) انظر ، زين الدين المليباري ، تحفة المجاهدين في بعض أحوال المجاهدين (لشبونة: د. ن ، ١٨٩٨م) ص ٤٤ - ٤٥ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ - ٤٦ . انظر أيضاً محمود سمره (الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق أفريقية) مجلة العرب ، العدد (٥٩) (الكويت ، ١٩٦٣م) ، ص ١٣٢ .

العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي) أنهم كانوا « يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين » (١٤) .

وهكذا واصل البرتغاليون تغلغلهم البحري ، لإحكام الحصار على العالم الإسلامي من ناحية ، والسيطرة على التجارة الشرقية ، من ناحية أخرى ، كما سعوا إلى تنفيذ أطماعهم ، فأسندوا إلى القائد البرتغالي الفونسو البو كيرك (Alfanso D'Albuquerque) (١٥) مهمة السيطرة على مدخل البحر الأحمر . واستطاع دالبوكيرك اعداد حملة عسكرية سيطرت على جزيرة سقطرى (Socotra) في عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م، (١٦) مما جعلهم على مقربة من ميناء عدن الذي يفتح الطريق

---

(١٤) قطب الدين النهرواني ، البرق اليماني في الفتح العثماني (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) ص ١٨ - ١٩ .

(١٥) الفونسو دالبو كيرك استهل حياته العسكرية البحرية في الهجمات البرتغالية على سواحل المغرب ، ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في بحار الشرق ، كلفه ملك البرتغال إمانويل الثاني بإعداد مشروع يهدف إلى إنشاء إمبراطورية برتغالية كبيرة في الشرق ، فعلق البو كيرك أهمية كبيرة على بناء القلاع العسكرية الحصينة وقام ببناء حصون في هرمز ومسقط والبحرين ، وقد انيط إليه قيادة الأسطول البرتغالي في بحار الهند ، ثم قاد أول حملة في الخليج العربي على هرمز في عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) حتى تولى منصب نائب الملك في الهند خلفاً لفرانسيسكو دي الميدا (Francisco De Almeda) . وفي عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) توفي في مقره في جوا الواقعة على ساحل ملبار والمطلة على بحر العرب) انظر جمال زكريا قاسم . الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الحديث) (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٨٥م) ص ٥٢ - ٧٢ .

Serjent . The Portuguese , P. 43. T. Wilson Arnold : The Persian Gulf : An Historical Sketch from the Earliest times to the beginning of the Twentieth Century (London , 1945) PP. 125 ff .

(١٦) انظر السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٥٤ وما بعدها .

Serjeant , The Portuguese . P. 136 .

وجزيرة سقطري تقع بالقرب من جنوب الجزيرة العربية وإلى الشرق من عدن ، وهي جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ، ولكن لها أهمية إستراتيجية لمن يريد التحكم في مدخل البحر الأحمر .

أمامهم إلى مدخل البحر الأحمر ، وبالتالي يشقون طريقهم إلى ثغر جدة (١٧) .

وفي تلك المرحلة ، كانت الأوضاع مضطربة في جنوب شبه الجزيرة العربية ، مفتاح الطريق إلى البحر الأحمر ، إذ اشتد الصراع بين عدة قوى متصارعة كانت في غفلة عن الخطر البرتغالي الذي ألم بالمنطقة ، وغلبوا مصالحهم العائلية الوراثية على الصالح العام للأمة الإسلامية .

فكانت هناك سلطنة الطاهريين السنية الشافعية وعاصمتها زبيد ، وقد بسطت سلطتها على المناطق الزراعية وأكثر المدن الكبيرة في اليمن بما فيها تعز وصنعاء وعدن ومخا . أما في حضرموت إلى الشرق من دولة الطاهريين فقامت سلطنتان أخريان كبيرتان نسبياً هما : سلطنة اليمنيين وعاصمتها تريم ، وسلطنة الكواسر وعاصمتها الشحر . هذا بالإضافة إلى عدد من الحكام المحليين وأمراء القبائل الذين استقلوا تمام الإستقلال ، مثل حكام لحج ومهرة وظفار ، فضلاً عن الزيود والإسماعيليين في المناطق الجبلية الشمالية في اليمن (١٨) .

وبذلك لم يبق في الشرق الأدنى سوى دولة المماليك كقوة إسلامية تتحمل وحدها عبء الحفاظ على سلامة البحر الأحمر وحمايته كبحيرة

---

(١٧) بامخرمة : البحر الأحمر و المحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه. تحقيق محمد عبد العال ، ص ٩٧ وما بعدها ، سعد زغلول (البرتغاليون والبحر الأحمر) ، ص ٢٠٧ وما بعدها . بشير حمود كاظم : التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر ، ابحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ٥-٧ محرم (١٤٠٨ هـ / ٢٩-٣١ أغسطس ١٩٨٧م) العلاقة بين الخليج العربي وشرق أفريقيا . جـ ٢ (رأس الخيمة : مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م) ص ١٠٣ - ١٢٣ .

(١٨) وللمزيد من التفصيل انظر النهرواني . البرق اليماني ، ص ١٦ وما بعدها ، نيقولاي أيفانوف ، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤ . ترجمة يوسف عطا الله (بيروت : الفارابي ، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث ، ١٩٨٨م) ص ١٢٠-١٢١ ، بشير حمود كاظم (التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر) ص ١١٦ - ١١٨ .

إسلامية من أي خطر صليبي جديد . وكان إن إرتفعت صيحات المسلمين من كل جانب تطلب النجدة من السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، وعلى الأخص الصيحات التي انبعثت من مسلمي الهند وبعض أهالي بلاد اليمن (١٩) .

ولم يكن السلطان الغوري أقل إحساساً بالخطر الجديد ، وبخاصة بعد ما انكمشت ايرادات دولته من تجارة الشرق التي أخذت تتحول عن طريق مصر والبحر الأحمر إلى طريق المحيط ورأس الرجاء الصالح . لذلك أرسل الغوري تهديده وتحذيره إلى ملوك أوروبا يطلب منهم العمل على إيقاف الأعمال الوحشية والتوسعية التي يقوم بها البرتغاليون في البلاد الإسلامية وبحارها . بل لقد حذرهم في بعض رسائله ، بأنه سيقوم بعمل مماثل نحو رعاياهم من النصارى القاطنين في الديار المصرية والشامية وغيرهما من أملاك الدولة المملوكية على أن تهديدات الغوري لم تجد آذاناً صاغية من ملوك أوروبا ولم يأبهوا لها (٢٠) . كذلك اتصل السلطان الغوري بالبنادقة فطلب منهم تزويده بالأخشاب والمؤن اللازمة لبناء أسطول يواجه به البرتغاليين ، لكنهم امتنعوا عن مساعدته خوفاً من غضب البابوية

---

(١٩) مما لا شك فيه أن الموقف كان صعباً على دولة المماليك في مصر ، لما كانت تعانيه عندئذ من ضعف وتمزق في آخر عهدها ، لكنها لم تعتذر عن مواجهة البرتغاليين لأنها حتى ذلك الحين لازالت تدعي حمايتها للحرمين الشريفين في الحجاز ، كما أن مسلمي الهند وغيرهم وجهوا إليها الإستغاثة وطلب النجدة والحماية من البرتغاليين . كذلك كان المماليك أكثر من سيقع عليهم الضرر من جراء هذا الزحف البرتغالي بسبب التهديد التجاري لهم ، وبسبب سيطرتهم على الموانىء الرئيسية في البحر الأحمر ، لذلك وجب أن يكون رد فعلهم أسرع من أي قوة إسلامية أخرى .

(٢٠) انظر المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٤٠ ، النهرواني ، البرق اليماني ، ص ١٩ ، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى (القاهرة : عيسى الحلبي ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣م) جـ ٤ ، ص ١٨٢ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٦١ .
Duarto Barbosa . A.Description of the Coast of East Africa and Malabar in the Beginning of the Sixteeth Century . Tr. By Henry Stanley (London . 1866) PP. 50-51.

عليهم [٢١] . ويثبت إمتناعهم هذا أن الحرب التي قامت بها البرتغال في الشرق كانت حرباً صليبية جديدة ضد المسلمين تدعمها البابوية وملوك أوروبا ومدن إيطاليا البحرية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو تباطؤ المماليك الذين لم يبدأوا الإستعداد لمواجهة البرتغاليين إلا في عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م . مع العلم بأن القوات البرتغالية وصلت إلى الهند ، وشرعت في تهديد المسلمين وتجارتهم هناك منذ مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . وربما لم يدرك المماليك حقيقة الخطر البرتغالي إلا بعد أن أخذ هذا الخطر يتغلغل في البلاد ، أو أنهم أعتقدوا بأنه لن يكون هناك تهديد لهم أو لتجارتهم مادام الطريق البحري عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندي في مأمن من التهديد البرتغالي . هذا إلى أن المماليك كانوا غارقين في مشاكلهم الداخلية بعد أن دخلت دولتهم دور الإحتضار . ومن يتتبع الأوضاع السياسية في ذلك الدور يلمس عدم الإستقرار في سياسة الدولة لكثرة الفتن والثورات الأهلية ، إلى جانب الفوضى والفساد الإداري الذي عم دولة سلاطين المماليك في تلك المرحلة [٢٢] .

وكان أن اشتد تخوف المماليك من دخول البرتغاليين البحر الأحمر ومهاجمتهم موانيه ، وعلى الأخص ميناء جدة الذي يفتح الطريق أمامهم إلى الأماكن المقدسة . لذلك عزم السلطان قانصوة الغوري على ارسال

---

(٢١) للمزيد من التفصيلات عن دور البنادقة في الصراع الإسلامي الأوروبي في عهد دولة المماليك ، انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢٢) وللمزيد من التفصيلات عن تدهور الأوضاع السياسية والإقتصادية في العقود الأخيرة من عصر الدولة المملوكية ، انظر ، ابراهيم على طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م) ، نعيم زكي فهمي . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م) ص ١٣٠ وما بعدها ، على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) .

حملة بحرية إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردي (٢٣) . ويذكر إبن إياس في هذا الشأن أن السلطان الغوري أطلق على هذه الحملة اسم «التجريدة المعنية إلى بلاد الهند » وأطلق على قائدها « باشا تجريدة الهند » (٢٤) ويفهم من عنوان الحملة ومن لقب قائدها أنها تستهدف حماية المياه الهندية ، ولكنها رابطت في جدة لفترة تزيد عن العام لإحكام تحصيناتها ضد البرتغاليين الذين كانوا يتطلعون للوصول إليها وإلى مقدسات المسلمين في الحجاز .

وهكذا أقلع الأسطول المملوكي من ميناء السويس في ٦ جمادي الآخر من سنة ٩١١ هـ الموافق الرابع عشر من نوفمبر لسنة ١٥٠٥م (٢٥) ، وكان هذا الأسطول مؤلفاً من ثلاث عشرة سفينة . ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة عدد جنود الحملة ، وإنما أشارت إلى أنهم كانوا من المماليك السلطانية ، وعدد من أولاد الناس (٢٦) الذين يجيدون إستخدام

---

(٢٣) الأمير حسين الكردي الذي تولى الإمارة للسلطان الغوري في جدة ، وعهد إليه طرد البرتغاليين من البحر الأحمر والمحيط الهندي حين كثرت تعدياتهم على المسلمين (وللمزيد من التفصيلات عنه ، انظر النهرواني ، البرق اليماني ، ص ١٩ ، وللمؤلف نفسه : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٣٤٥ ، وعبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥٣ .

(٢٤) انظر ابن إياس بدائع الزهور ، جـ ٥ ص ٢٠٣ ، وللمزيد من التفصيلات عن هذه الحملة انظر بامخرمة . البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٩٧٠ وما بعدها ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأماني ، جـ ٢ ، ص ٦٣٤ وما بعدها ، النهرواني . البرق اليماني ، ص ١٩ وما بعدها.

(٢٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢٦) والمقصود بأولاد الناس فرقة خاصة من أبناء الأمراء المماليك المترفين حيث جرت العادة أن يعطي للواحد منهم إقطاع متناسب مع مرتبة أمير خمسة في النظام الحربي المملوكي بشرط أن يندرج في الرديف السلطاني ويكون صالحاً للخدمة في الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم ، انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٥ ، محمد مصطفى زيادة . المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (القاهرة : د، ن ، ١٩٥٤م) ص ٢٤ ، ٤٧ .

الأسلحة النارية ، كما كان المغاربة يؤلفون أغلب أفراد تلك الحملة لأنهم كانوا ذوي خبرة في القتال البحري وإستخدام المدافع فضلاً عن كونهم بحارة ماهرين (٢٧) .

ويذكر ابن إياس أن حملة الأمير حسين الكردي التي ودعها السلطان الغوري من القاهرة إتجهت إلى السويس في طريقها إلى جدة وأنها اصطدمت ببعض أعراب بني إبراهيم حول ينبع فقتلت عدداً كبيراً منهم ، وأحرق رجال الحملة بعض الدور التي تقع على ساحل البحر الأحمر في ميناء ينبع وخربوا الدكاكين وشتتوا عربان قبائل بني إبراهيم (٢٨) . ودفع هذا الشيخ عبد القادر بن فرج ، من سكان جدة ، إلى الإعتقاد بأن السبب الرئيسي من وراء حملة الكردي إلى جدة وتحصينها هو حمايتها من أعراب بني إبراهيم الذين أقلقوا حياة الناس في هذا الثغر الحيوي بغاراتهم المتكررة عليه من عام (٩٠٧ - ٩١١هـ / ١٥٠١- ١٥٠٥م) (٢٩) .

---

(٢٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٨٤- ، ٨٥ ٩٦ ، السيد مصطفي سالم ، الفتح العثماني ، ص ٦١ .

(٢٨) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٩٥ وما بعدها . ويذكر أن بني إبراهيم من أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة المكرمة ، وكانت السلطات المملوكية في مصر توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق بين ينبع ومكة . وفيما بين سنة ٩٠٧ هـ وسنة ٩١١هـ قام هؤلاء الأعراب بكثير من السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام . بل تكررت هجماتهم على التجار في كل من ثغر جدة ومكة المكرمة . وقد استفحل أمرهم في سنة ٩١١ هـ لدرجة أن السلطان الغوري أمر بإيقاف التوجه إلى الحج في هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار حتى يقوم بتأمين طريق القوافل من شر هؤلاء المفسدين ، وللمزيد من التفصيلات ، انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٩٥ وما بعدها ، عبد القادر بن محمد القادر الأنصاري الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) جـ ٢ ، ص ٧٨١ - ٧٩٣ .

(٢٩) انظر ، عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥٠-٥٤ ، وللمزيد من التفصيلات عن بني ابراهيم وما قاموا به من خراب في بلاد الحجاز ، انظر الجزيري ، الدرر الفرائد ، جـ ٢ ، ص ٧٨١ وما بعدها .

وما أن وصل الأمير حسين الكردي إلى جدة حتى شرع في بناء سور ضخم ذي أبراج عالية حول مينائها [٣٠] . ويبدو أنه بالغ في بناء ذلك السور حيث أنه هدم كثيراً من بيوت الناس التي تقع بالقرب من موضع السور واستخدام عامة الناس في البناء زيادة على الأعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذين جلبهم معه إلى جدة حتى استطاع أن يتم بناء السور في أقل من عام [٣١] .

وقد بذل الأمير حسين الكردي جهداً كبيراً من أجل إحكام بناء هذا السور حول ثغر جدة ، حتى صار حاجزاً منيعاً في وجه البرتغاليين في محاولاتهم العديدة لإختراقه والسيطرة على جدة . لذا نرى أن نتوقف قليلاً لنتناول بإيجاز وصفاً لهذا السور وكيفية وطريقة بنائه حتى نقف على مدى قوته وضخامته ومنعته ، والدور الذي قام به في حماية جدة .

يذكر عبد القادر بن فرج في مؤلفه ، (السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة [٣٢] وصفاً للسور فيقول : « وكان طول أساس السور في الأرض إثنى عشر ذراعاً ، وطول المحيط بالبلد من جهة القبلة واليمن والشام ثلاثة آلاف ذراع من غير الأبراج ، وهي ستة أبراج ، دور كل برج فيها ستة عشر ذراعاً بجدارة ، وعرض جدار السور أربعة أذرع . وأما الأبراج فطول الشامي واليماني من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعاً ، والبرجان القبليان الملاصقان لباب البلد المسمى أحدهما بباب الفتوح وهو الأيمن والآخر بباب النصر وهو الأيسر ، وطولهما من على وجه الأرض أيضاً كذلك

---

(٣٠) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٨٤ وما بعدها ، النهرواني ، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣١) وذكر أن الأمير حسين الكردي كان عقابه شديداً على من يتهاون ويتقاعس في عمله أثناء بناء السور ، سواء كان من العمال الذين جلبهم معه من مصر ، أو من سكان جدة القادرين على العمل والمساهمة في البناء . انظر ، النهرواني ، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٣٢) انظر ، ص ٥٥ .

، أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر أثنى عشر ذراعاً... » (٣٣).

ومن باب استكمال التحصينات حول ميناء جدة بدأ الأمير حسين الكردي في حفر خندق يحيط بالمدينة من جميع جهات البر ، وبعد إتمام البناء وحفر الخندق زود المماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربي .

ويذكر ابن فرج أن السلطان الغوري صرف على عمارة السور وملحقاته- من أبراج وجسور وجامع ومصلى للعيد وحفر الخندق - مبلغ مائة ألف دينار (٣٤).

وبعد انتهاء الأمير الكردي من استكمال التحصينات التي عملها حول جدة اتجه بحملته نحو الجنوب ، فسيطر على عدد من الثغور الهامة على

---

(٣٣) وقد اشار عبد القادر بن فرج بأن المقصود بالأذرعة المذكورة هو ذراع العمل ويساوي ذراعاً ونصف بذراع النجار ، انظر ، ص ٥٥٠ والمقصود بالذراع النجاري حسب ما عرفه الملك المظفر الرسولي في مخطوطه المخترع في فنون من الصنع هو ، ثلاثة أشبار باليد ويساوي ٢٤ الأصبع ، والصبع عقد أنملة السبابة من الظاهر ، وكل ٨ أصابع من هذا القياس شبراً ، انظر المظفر الرسولي ، المخترع في فنون من الصنع مخطوط الاصفية (٢٢١) متفرقات ، ورقة ٦٩ وفي كتاب الإيضاح والتباين في معرفة المكيال والميزان لأبي العباس نجم الدين بن الرفعة الأنصاري ، ص ٧٧ ، أن الذراع هو مسافة ما بين طرفي المرفق إلى نهاية طرف الأصبع الوسطى من اليد ، وفيه أن ذراع الفقهاء هو ست قبضات معتدلات من كل قبضة أربعة أصابع ، وكل أصبع بعرض ست حبات من الشعير ، وكل شعيرة بعضر ست شعران من شعر البغل ، ومن اسمائه ، ذراع اليد ، والغزل ، والعامة والعتيق والعادلة والمرسلة والقائمة والكرباس وذراع اليد، انظر على بن محمد الماوردي . الأحكام السلطانية في الولايات الدينية (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) ص ١٩٤-١٩٥ ، تقي الدين أحمد المقريزي ، كتاب الخطط (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، د. ت) جـ ١ ، ص ٥٩ .

(٣٤) انظر عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥٧٠ ، ويعتبر كتاب ابن فرج المصدر الوحيد الذي ذكر لنا وصف السور الذي بناه الكردي حول مدينة جدة ، وإقامة المؤلف في جدة ربما ساعدته على أن يدون لنا هذه المعلومات عن السور ، بالإضافة إلى أنه من معاصري القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

الساحل الشرقي للبحر الأحمر [٣٥] ، ثم واصل الإبحار في المياه الهندية لمواجهة الأسطول البرتغالي . وسرعان ما تلقى المساعدة من مسلمي الهند الذين إنضموا تحت قيادته . وأخيراً اشتبك الأسطولان (المصري والبرتغالي) في معركة بحرية تمكن الأمير حسين الكردي من تحقيق انتصار رائـــــع فيها على البرتغاليين في موقعة (شول (Chaul) [٣٦] ، سنة (٩١٤هـ / ١٥٠٨م) . وكان قائد الأسطول البرتغالي لورنز (Lorence) ، من بين القتلى في تلك المعركة ، الأمر الذي أثار غضب والده فرانسيسكو دي الميدا الذي قرر الإنتقام لولده ، فأعد أسطولاً مكوناً من تسع عشرة سفينة . وخرج بها للإشتباك مع الأسطول المصري في موقعة ديو (Diu) البحرية في عام (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) . وفي تلك الموقعة هزم المسلمون ودمرت معظم السفن المملوكية [٣٧] . ويذكر زين الدين المليباري تفاصيل هامة عن هذه المعركة . فيشير إلى أن الأسطول البرتغالي إنتهز فرصة لجوء الأسطول المملوكي ومن كان معه من مسلمي الهند إلى جزيرة ديو للتموين والإصلاح، وانقض البرتغاليون على أعدائهم من الخلف فدارت معركة

---

(٣٥) ويذكر أن الأمير حسين الكردي توجه من جدة إلى سواكن فأستولي على مينائها ، وأقام بعض الإستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الأحمر ، ثم واصل سيره إلى الموانىء في الجنوب مثل جازان ، وكمران ، والمخا ، وأخيراً عدن ، انظر ابن اياس ، بدائع الزهور، ج ٤ ص ٩٦ ، بامخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٠٢-١٠٣ ، عبد الرحمن بن علي بن البديع . قرة العيون في أخبار اليمن الميمون . تحقيق محمد بن علي الخوالي (القاهرة : د . ن ، ١٩٧٧م) ص ٢١١ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٣٦) شول : ميناء يقع على الشاطىء الغربي للهند ويتبع مملكة الدكن الإسلامية ، انظر ، السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني ، ص ٦٢٠ .

(٣٧) وللمزيد من التفصيلات ، انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٦ وما بعدها ، بامخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٠٣ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٦٣ وما بعدها ، أحمد دراج ، المماليك والفرنجة (القاهرة : د، ن ، ١٩٦١م) ص ١٣٧-١٣٨ .

H. Morse Stephens . Portugal (London , 1891) PP. 196 ff .

بحرية ضخمة انتصر فيها البرتغاليون على المسلمين ، وقتلوا كثيراً من بحارة الأمير حسين الكردي، وأرغموه على الإنسحاب بما تبقى من سفنه ، والعودة إلى جدة لتقوية تحصيناتها [(٣٨)] .

وعلى أثر الهزيمة التي لحقت بالأسطول الإسلامي في الهند تقدم البرتغاليون إلى مياه البحر الأحمر وهددوا بلاد اليمن والحجاز ومصر ، وخاصة بعد أن صار البو كيرك نائباً لملك البرتغال في الهند خلفاً لفرانسيسكو دي الميدا . وكان أن وصلت القوات البرتغالية إلى ميناء عدن في المحرم من سنة (٩١٩هـ / ١٥١٣م) [(٣٩)] . وفي أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة كمران [(٤٠)] . فدمروها وقتلوا كثيراً من أهلها . ثم تركوها متجهين شمالا نحو ميناء جدة [(٤١)] .

وكان دالبو كيرك يسعى للتقدم نحو ميناء مصوع التابع لمملكة الحبشة، لكي يتمكن من الإستيلاء على جزر دهلك المواجهة لثغر جدة ، ومنها يتقدم نحو مهاجمة جدة ، وإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع

---

(٣٨) انظر ، المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٤٠ وما بعدها .

(٣٩) وكانت قوات دالبو كيرك مكونة من عشرين سفينة ومن ألف وسبعمائة جندي برتغالي وحوالي ثلاثمائة من نصارى الهند ، وقد وصل إلى ميناء عدن وهاجمه لكنه لم يستطع إختراقه لوعورة تضاريس عدن وعظم تحصينها واستبسال رجالها في رد الهجوم البرتغالي ، فرجع عنها دون فائدة وللمزيد من التفصيل ، انظر يحيى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأماني ،جـ ٢ ، ص ٦٤٠ وما بعدها ، بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة و،تحقيق محمد عبد العال ، ص ١١١ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧٠ - ٧٣ ،
Stephens , Portugal , PP. 190-200. Wilson, The Persian Gulf, PP. 117-119.

(٤٠) كمران ، جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني تجاه وادي سردد ، انظر بامخرمة ، البحر الأحمر ، ص ١٢٢ ، أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي ، طبقات الخواص أهل الصدق والأخلاص (د.ن ، ١٣٢١ هـ ، ص ١٢١-١٢٢) .

(٤١) انظر ، بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه ، تاريخ ثغر عدن (ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٣٦م) جـ ١ ، ص ١٥-١٦ .

دولة الحبشة لتدمير قوات المماليك في البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة في الحجاز (٤٢) .

وسعى دالبو كيرك إلى تحقيق مشروعه الكبير عن طريق التطلع إلى جدة، فسار نحوها صوب الشمال ، لكن الرياح المعاكسة أعاقت تقدمه واضطرته للرجوع إلى جزيرة كمران فبقي بها أكثر من شهرين يمارس أنواع القرصنة والتخريب في البحر الأحمر ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند(٤٣).

على أن هزيمة المماليك أمام الأسطول البرتغالي بالهند في معركة ديو، لا تعني أن القوى الإسلامية متمثلة في دولة سلاطين المماليك في مصر وغيرها وقفت مكتوفة الأيدي أمام ذلك الغزو الصليبي الذي استهدف السيطرة علي ثروات المسلمين ومقدساتهم . وكان السلطان الغوري على علم بحجم الأسطول البرتغالي ، فعزم على إنشاء قوة بحرية جديدة تستطيع أن تقف في وجه البرتغاليين . لكن الغوري كان يعاني نقصاً في الأخشاب والعمال والمواد اللازمة لبناء أسطول بحري قوي ، فقرر الإتصال بأطراف مختلفة لإعانته في إعداد حملة ثانية ضد البرتغاليين . وذكر ابن إياس (٤٤) أنه أعاد الكرة، فاتصل بالبنادقة لمباحثتهم حول إمداده ببعض الأخشاب والأسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن الأسطول المصري الجديد . وفي تلك المرة تجاوبوا معه لما لحقهم من أضرار إقتصادية نجمت عن سيطرة البرتغاليين على تجارة الشرق ، بعد أن كانت البندقية

---

(٤٢) انظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٥٣ ، وللمؤلف نفسه (بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عدد (١٤)(١٩٦٨م) ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠٨ وما بعدها ،

(٤٣) انظر بامخرمة ، البحر الأحمر ، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٢٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧١ - ٧٤ ،
Serjeant The Portuguese , PP. 169 - 170 .

(٤٤) إبن إياس ، بدائع الزهور . جـ ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

هي الممسكة بزمامها . لذلك أرسلوا عدة سفن تحمل بعض الأخشاب والمعدات الحربية ، إلا أن فرسان القديس يوحنا اعترضوا سبيلها في رودس (٤٥) فأحرقوا بعضها واستولوا على البعض الآخر ، بحيث لم تصل إلى مصر سفينة واحدة من هذه السفن (٤٦) . ونلاحظ ازاء موقف البنادقة ، أنهم غيروا موقفهم ، مما يعكس الدافع الحقيقي لدورهم في تلك المرحلة التاريخية ، بمعنى أنهم عندما تظاهروا بالإستجابة للبابوية في المرة الأولى كانوا متظاهرين بطاعة البابوية ، ولكن مصالحهم الإقتصادية تغلبت في المرة الثانية على ذلك الموقف الديني . وهذا يؤكد حقيقة الدافع الإقتصادي في توجيه العلاقات بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي في تلك الحقبة التي تعتبر ذيلاً للحروب الصليبية .

ثم كان أن أتصل السلطان قانصوه الغوري بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦هـ / ١٤٨١م - ٩١٧هـ / ١٥١٢م) ، الذي عرف بورعه وتدينه ، وطلب منه المساعدة ، وأوضح له خطورة نشاط البرتغليين الذين يسعون للسيطرة على موانيء البحر الأحمر ، وخاصة ثغر جدة ، مما

---

(٤٥) فرسان القديس يوحنا كانوا يسيطرون علي جزر في شرق البحر المتوسط متخذين من جزيرة رودس مقراً رئيسياً لهم ومنها يسعون إلى مهاجمة الموانيء الإسلامية وقاموا بكثير من أعمال القرصنة البحرية في مواجهة السفن الإسلامية ، معتقدين أن هذه الأعمال العدوانية ضد المسلمين من قبيل الجهاد الديني ، وقد بقوا في جزيرة رودس حتى طردهم منها السلطان العثماني ، سليمان القانوني إلى جزيرة مالطة في قلب البحر المتوسط ، وبقوا بها إلى أن قضى عليهم نابليون بونابرت وهو في طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨م .

(٤٦) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

يمكنهم من الوصول إلى مقدسات المسلمين في الحجاز للنيل منها (٤٧).

وفي شوال من عام (٩١٦هـ / ١٥١١م) إستجاب السلطان العثماني لطلب السلطان الغوري ، ووصلت إلى مصر سفن عثمانية عديدة، تحمل ثلاثمائة مدفع ، وثلاثين ألف سهم ، وأربعين قنطاراً من البارود ، وألفي مقذاف من الخشب ، وبنادق ، وغير ذلك من عتاد الحرب ، هدية إلى سلطان مصر بدون مقابل ليواجه البرتغاليين . ومع هذه المساعدات جاء نحو ألفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس للمساعدة في إعداد الأسطول الجديد في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة إلى الهند (٤٨).

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن المماليك كانوا على صلة دائمة بأمراء الممالك الإسلامية في الهند ، وكانوا يثيرون حماسهم الديني من أجل التعاون معهم ومساعدتهم في تحصين مدينة جدة وحماية المقدسات

---

(٤٧) لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الإنعزال عن الحجاز ، فإن حجاجها كانوا يأتون كل عام في موسم الحج وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا إلى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على إبلاغ أمراء مكة المكرمة بانتصاراتهم في أوروبا ، وعندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م أرسل إلى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء ، كما أرسل إليه بعض الهدايا من غنائم الفتح ، وكان العثمانيون يطمحون في مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى أن ينعتوا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذي إعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم ، وللمزيد من التفصيلات ، انظر ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية (القاهرة : معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٧م) ص ٢٦ وما بعدها .

(٤٨) انظر ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٩٦، ٢١٠ ويشير ابن اياس في حديثه عن حملة السويس إلى إهتمام السلطان الغوري بسلمان الريس وجماعته عندما ذهب إلى السويس بنفسه للإحتفال بإنزال سفن الأسطول البحري ، فقال : « .. وكان هناك الريس سلمان العثماني وجماعة من العثمانية البحارة فقصد السلطان إظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان ، حتى قيل دخل العسكر إلى السويس وهو لابس آلة الحرب ، وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو ألفين ... » انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ١٩٦، ٣٦٥، بامخرمة ، البحر الأحمر، تحقيق محمد عبد العال ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

الإسلامية التي كان البرتغاليون يلوحون باستمرار بالوصول إليها وتدميرها واسفرت هذه المشاعر والمساعي عن قيام سلاطين الممالك الإسلامية في الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والأقمشة وغيرها . وشحنت هذه المساعدات بعد عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) على متن ثلاثة مراكب من الهند إلى جدة مساهمة منهم في تقوية سور جدة وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالي [٤٩] .

وفي أثناء إنشغال المماليك في بناء قوة بحرية في السويس وصلت أنباء إلى الحجاز وإلى مصر تفيد بأن البرتغاليين غادروا بلاد الهند بقيادة دالبو كيرك في عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) على رأس حملة مكونة من ست وعشرين سفينة وألف وخمسمائة برتغالي وسبعمائة من نصارى الهند متوجهين إلى البحر الأحمر بهدف الوصول إلى جدة ومكة المكرمة وتخريبهما . ولم يكن أمام السلطان الغوري إلا أن أرسل على الفور قوة إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردي ، الذي عاد بعد معركة ديو للإشراف على بناء الأسطول المصري الجديد في السويس [٥٠] ، وعندما وصل الأمير الكردي إلى ميناء جدة لتقوية أسوارها ودفاعاتها مرة ثانية ، بالغ في تحصينها إلى الحد الذي أثار سخط بعض معاصريه من التجار ، ولم يسلم من انتقاد بعض المؤرخين المعاصرين [٥١] . ويذكر أنه اعتمد في نفقات التحصين وبناء السور والقلاع على مصادرة أموال التجار ، كما

---

(٤٩) انظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، بشير حمود كاظم (التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر) ص ١١٣ ..

(٥٠) انظر إبن إياس ، بدائع الزهور . جـ ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها .

(٥١) انظر إبن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها . النهرواني ، البرق اليماني، ص ١٩ ، وللمؤلف نفسه ، كتاب الإعلام ، ص ١٦٥ - ١٦٧ ، ٢٤٥ ، بامخرمة : البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٣٠ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧٩ - ٨٠ .

أجبر كثيراً من أهالي جدة على العمل في البناء والدفاع [٥٢] . ودفع الأمير الكردي إلى إتخاذ هذه السياسة القاسية خطورة الموقف ، وما قد ينتج من أخطار على المسلمين لو وقعت جدة في أيدي الغزاة من البرتغاليين . هذا فضلاً عن تدهور الأحوال الإقتصادية في دولة سلاطين المماليك ، وفي البحر الأحمر ، بسبب هجمات البرتغاليين ، مما كان ذا أثر كبير على تصرفات الأمير الكردي تجاه أهل جدة أو من كان يفد إليها من التجار .

أما الحملة البرتغالية فقد غادرت الهند بقيادة دالبو كيرك في طريقها إلى البحر الأحمر لتحقيق أهدافها العدوانية . وبينما هو في طريقه وصله خبر أن ملك هرمز أصبح صنيعة في يد شاه فارس ، وأنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز . لذلك غير القائد البرتغالي خط سيره وقام بزيارة عسكرية إلى هرمز واحكم سيطرته عليها . وفي تلك المرحلة أصابه المرض واشتد به فعاد إلي الهند حيث توفي هناك عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) ، وبذلك سلمت جدة والأماكن المقدسة من نوايا دالبو كيرك [٥٣]

أما عن الأمير حسين الكردي فقد تتابعت الإمدادات العسكرية إلى قواته ، وأرسل له السلطان الغوري قوة عسكرية أخرى لكي تسانده في إحكام التحصينات حول ثغر جدة . وأخيراً تم الإنتهاء من إعداد الحملة البحرية الجديدة في السويس وهي التي اشتهرت حينئذ باسم « حملة الهند » ، وصارت على أهبة الخروج للجهاد في بداية عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) . وكانت تتألف من عشرين سفينة حربية [٥٤] ، أما عدد أفرادها

---

(٥٢) المصادر نفسها .

(٥٣) وللمزيد من التفصيلات ، انظر :

A. Wilson , The Persian Gulf , PP. 121 ff.

(٥٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٩٥ ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأماني ، جـ ٢ ، ص ٦٤١ - ٦٤٣ .

فكانوا حوالي ستة آلاف ، أغلبهم من البحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان ، والباقي من البيوت والفرق المملوكية المختلفة .

ويستطرد ابن إياس في حديثه عن جهود السلطان الغوري ، فيذكر أنه توجه بنفسه إلى ميناء السويس لإستعراض جنود الحملة في إحتفال كبير في ١٠ رجب سنة ٩٢١هـ (٢٠ أغسطس سنة ١٥١٥م) (٥٥) وعين سلمان الريس قائداً للأسطول ، على أن يتولى قيادة الحملة الأمير حسين الكردي عند وصولها إلى مقره في جدة . ويذكر أن السلطان الغوري أنفق حوالي أربعمائة ألف دينار على بناء الأسطول ، كما أنعم على سلمان الريس ببعض الهدايا والعطيات . ولم ينس النجارين والبنائين والحدادين الذين عملوا في بناء الأسطول وإعداده فأنعم عليهم أيضاً ببعض المنح المختلفة (٥٦) .

وعندما استكملت القوات المصرية إستعدادها غادرت السويس إلى ميناء جدة حيث بقيت فيه طوال شهر رمضان . ثم أبحرت نحو الجنوب بقيادة الأمير حسين الكردي ويساعده الأمير سلمان الريس (٥٧) . وبدأ قادة الحملة يخططون لإقامة بعض التحصينات في موانيء البحر الأحمر ، وخاصة في الثغور اليمنية التي كانت في حاجة إلى جبهات دفاع على غرار التحصينات التي أقامها الأمير حسين الكردي في جدة ، وذلك بهدف إغلاق البحر الأحمر من الجنوب أمام البرتغاليين .ولكن لم يتم لهذه الحملة النجاح لأنها اشتبكت مع أمراء اليمن الذين امتنعوا عن مساعدتها ، بل رفضوا إقامة تحصينات في بلادهم (٥٨) . وبسبب ذلك

---

(٥٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .
(٥٦) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .
(٥٧) انظر السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧٩ وما بعدها .
(٥٨) انظر ، النهرواني ، البرق اليماني ، ص ٢٠ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٨٠ وما بعدها .

تأجل إبحار الحملة إلى الهند ، وظل أسطول المماليك راسياً عند شواطىء جزيرة كمران ثمانية أشهر منصرفاً لبناء التحصينات فيها . واضطر الكردي بتأييد من إمام الزيديين في صعده وفقيه لحج وشريف جازان إلى الهجوم على السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي لقى مصرعه وسقطت عاصمته زبيد . وبذلك إنتقلت تهامة ومخا وتعز إلى أيدي المماليك . ثم كان أن أحكم الكردي الحصار على عدن براً وبحراً إلا أنها استعصت عليه مما أضطر المماليك إلى رفع الحصار عنها والعودة ثانية إلى القواعد التي إنطلقوا منها [٥٩] .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة واجهت حملة المماليك وغيرت من سياستها وأهدافها ، وجعلتها تتوقف عند أطراف اليمن الجنوبية دون أن تواصل تقدمها نحو الهند ، وبالتالي فقد تغيرت سياستها العسكرية من سياسة هجومية إلى سياسة دفاعية . وقد عبرت بعض المصادر التاريخية عن هذه الحملة وذكرت الأسباب والعوامل التي أدت إلى تلك النتيجة ، ونلخص أهمها فيما يلي :

أولاً : تؤكد بعض المصادر التاريخية أن السبب الرئيسي في عدم تحقيق الأمير حسين الكردي هدفه بالوصول إلى الهند هو خلاف وقع بينه وبين سلمان الريس ، الأمر الذي أدى إلى حدوث إنقسام بين أفراد الأسطول المملوكي ، فتوجه سلمان الريس إلى ميناء زيلع ومنها إلى جدة ، بينما عاد الأمير الكردي إلى جدة بعد مروره بالموانىء اليمنية الواقعة على ساحل البحر الأحمر . وجاء تمرد سلمان الريس وإنفراده بقيادة الأسطول المرابط في جدة تنفيذاً لأوامر السلطان سليم العثماني بالقبض على الأمير حسين الكردي وإغراقه في البحر الأحمر . وقد حدث ذلك بعد إستيلاء

(٥٩) انظر نيقولاي ، الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص ١٢٠ وما بعدها ..

العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة المماليك الجراكسة [٦٠] .

ثانياً : عدم تعاون أمراء اليمن ، كما أشرنا ، وخاصة السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب الطاهري ، الذي سبق أن طلب النجدة من سلطان المماليك في بداية الأمر ، وخاصة بعد وصول البرتغاليين إلى جنوب البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة على ميناء عدن . ولهذا لم يكن أمام القوات المصرية إلا مهاجمة أمراء اليمن ، وبالأخص أمراء الدولة الطاهرية، من أجل إخضاعهم ثم مواصلة السير لمواجهة البرتغاليين ، ولكن حدث عندما بدأ الصراع بين الطرفين أن تطور الأمر إلى معارك وحروب أخرجت الحملة عن هدفها الأساسي .

وفي ظل الظروف التي مات فيها دالبو كيرك البرتغالي ، وفشل قوات المماليك في مواصلة سيرها نحو بلاد الهند ، كان البرتغاليون يعدون حملة أخرى تحت قيادة لوبو سوريز (Lopo Soares) خليفة دالبو كيرك ، بهدف اقتحام البحر الأحمر ومهاجمة ميناء جدة . وقد غادرت تلك الحملة الهند في عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧ م) . وكانت تتكون من أربعين سفينة ونحو ألفين من الرجال المسلحين .

وعند وصولها إلى عدن لم يهاجمها لوبو سوريز بل تقدم إليها في سلام، وطلب من واليها مرجان الظافري أن يمده بالمؤن اللازمة ، وبعض المرشدين البحريين لإرشاد الحملة إلى ثغر جدة . فأجاب الأمير مرجان هذه المطالب . على أن هذه الحملة البرتغالية فشلت أمام ميناء جدة ، وذلك بفضل التحصينات التي كان قد أجراها الأمير حسين الكردي من قبل ، فاضطر لوبو سوريز إلى أن يتقهقر بحملته . وقام الأمير سلمان الريس ، الذي تحمل مسئولية صد هذا الهجوم ، بمطاردة السفن البرتغالية حتى

---

(٦٠) النهرواني ، البرق اليماني ، ص ٢٦ - ٢٧ .

غادرت ميناء جدة والموانىء القريبة منها (٦١) .

وتثير هذه الحملة التي قادها لوبو سوريز إلى البحر الأحمر عدة نقاط تحتاج إلى توضيح ، إذ نتساءل لماذا قدم أمير عدن المساعدة للنصارى ضد المسلمين ، وخاصة أنهم يسعون إلى مهاجمة ثغر جدة ، والأماكن المقدسة في الحجاز ؟ ولماذا تقاعست دولة المماليك عن مساعدة القوات الإسلامية في جدة خلافاً لما كانت تفعل سابقاً ؟ وأخيرا كيف استطاع سلمان الريس وأهل جدة التصدى لتلك الحملة البرتغالية الكبيرة ؟ .

وفي اعتقادنا أن لوبو سوريز مر بميناء عدن دون السيطرة عليه لأنه كان يعتبره هدفاً ثانوياً بالنسبة لميناء جدة ، وفي رأيه أنه إذا سيطر على ثغر جدة فلن يصعب عليه الرجوع إلى عدن وإحتلالها بعد أن يكون قد أمسك في قبضته بواسطة العقدة « جدة » . هذا إلى أنه وجد التعاون من أمير عدن ، مرجان الظافري ، وهذه فرصة ، حيث أن هذا الأمير المسلم لم يقتصر في مساعدته على تقديم المؤن والمعدات وإنما أرسل معه مرشدين بحريين يدلونه على الطريق إلى جدة . وربما كان القائد البرتغالي قد أدرك صعوبة الملاحة في البحر الأحمر ، وأنها من أسباب فشل بعض حملات البرتغاليين السابقة .

على أن هذا التصرف من قائد الحملة (لوبو سوريز) جعل بعض الكتاب الغربيين يهاجمونه بسبب إضاعته هذه الفرصة الثمينة في السيطرة على ميناء عدن ، بل أن ملك البرتغال غضب هو الآخر من لوبو سوريز

---

(٦١) بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٩٨ - ٢٠٠ ، السيد مصطفي سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠١ - ١٠٣ ،
Serjeant , the Portuguese , PP. 170-172 .

فعزله من منصبه كنائب للملك في الهند [٦٢] .

أما تقديم أمير عدن المساعدة للبرتغاليين ضد المماليك المسلمين فيرجع ذلك إلى عدة أسباب ، ومنها :

١ - ذكرت المصادر ما قام به الأمير حسين الكردي وسلمان الريس من حروب ضد أمراء اليمن ، مما أدى إلى قتل سلطانهم عامر عبد الوهاب الطاهري ، وربما كان قيام مرجان بمساعدة البرتغاليين بالمؤن والعتاد والمراقبين البحريين بهدف الإنتقام من المماليك ، وخاصة أن قائد الحملة البرتغالية ذكر للعدنيين عندما وصل بلادهم بأنه لن يؤذيهم ولا يرغب في السيطرة على عدن وإنما يريد الذهاب إلى جدة للسيطرة عليها [٦٣] .

٢ - إن مساعدة مرجان الظافري للبرتغاليين ضد المسلمين يعتبر في حد ذاته خيانة ، وهذه ظاهرة فردية لها ما يشبهها في تصرفات بعض أمراء وأعيان المسلمين في كل من العراق وفارس ، وشرق أفريقية والأندلس ، وبلاد الشام وغيرها في العصور الوسطى ، حيث يتردد ذكر تعاون بعض المسلمين مع المسيحيين ضد أخوانهم في الإسلام [٦٤] .

---

(٦٢) انظر :

Wilson , The Persian Gulf , PP. 123-124 , M. Longworth Dames , " The potuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century " Journal of the Royal Asiatic Society . Part: 1 (January , London , 1921) PP. 12-13 .

(٦٣) بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ١٩٨ وما بعدها ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، غاية الأماني ، جـ ٢ ، ص ٦٥٨-٦٥٩ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٨٥ وما بعدها .

(٦٤) ولعل حوادث خيانة بعض المسلمين لصالح المسيحيين كثيرة على مدار التاريخ الإسلامي ، وبالتالي لا يمكن حصرها في هذا المقام ، ولكن نشير إلى أقرب مثال من هذا النوع لهذا البحث ، وأقصد بذلك أن الرسول الذي أرسله ملك الحبشة (إسحق) إلى ملوك غرب أوروبا عام ١٤٢٨ م من أجل دعوتهم للمشاركة في حرب صليبية كبرى ضد المماليك في مصر، كان تاجراً فارسياً مسلماً اسمه على نور الدين التبريزي . انظر جمال الدين يوسف أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم بير ، عام ١٩٣١م ، جـ ٦ ، ص ٦٣٧ - ٦٤٠ .

وكان الدافع غالباً وراء تلك الظاهرة المصلحة أو الإنتقام كما حدث من مرجان الظافري ، وربما تناسى أمير عدن أن حملة لوبو سوريز متجهة نحو جدة والأماكن المقدسة في الحجاز . ولا ندري هل أدرك ما سيترتب على دخول البرتغاليين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لو نجحوا في السيطرة على ميناء جدة ؟ وإن قلنا أن مرجان تجاوب مع البرتغاليين من باب الخوف على نفسه وعلى عدن من خطرهم فإن هذا لا يبرر موقفه ، وخاصة أن مساعدته لم تقتصر على المؤن والعتاد وإنما أرسل مرشدين مع البرتغاليين في البحر الأحمر .

٣ - وإذا ما استبعدنا عنصر الخيانة عند الأمير مرجان الظافري ، فربما كان سبب تعاونه مع البرتغاليين أنهم وصلوا إلى بلاده فجأة ، وكان يحتاج إلى بعض الوقت ليعزز فيه التحصينات حول عدن ، وعندئذ رأي أفضل السبل في أن يسلك جانب اللين مع لوبو سوريز ، فيقدم له المساعدات لكي يبعده عن طريقه نحو ميناء جدة في الشمال مدركاً بأن قوات المماليك سوف تتصدى له ، وعند عودته عن طريق عدن يكون هو الآخر قد إستعد لمواجهتهم . والسبب الذي يجعلنا نأخذ بهذا الرأي إننا نجد الأمير مرجان الظافري يغير رأيه تجاه البرتغاليين بعد أن فشل لوبو سوريز في الدخول إلى جدة ، فيتصدى له ولحملته ويحاربهم وتستمر سياسته لهم في الحملات التي قادوها بعد لوبوسوريز (٦٥) .

أما عن موقف المماليك السلبي تجاه الدفاع عن ميناء جدة والتصدي للبرتغاليين فكان ناتجاً كما سبق أن ذكرنا عن الضعف الذي كانت تعانيه الدولة المملوكية في آخر أيامها . وقد أحس العثمانيون بذلك الضعف فلم يتركوا المجال للبرتغاليين ليجهزوا على المماليك ، وإنما أخذوا قصب

---

(٦٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، جـ ٢ ، ص ٦٥٩ وما بعدها ، بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

السبق فقضوا على السلطان قانصوه الغوري (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وبالتالي أسدلوا الستار على دولة سلاطين المماليك وتولوا عبء الدفاع عن بلاد المسلمين والوقوف في وجه البرتغاليين [٦٦] . وفي الوقت الذي كانت دولة المماليك تحتضر في كل من بلاد مصر والشام لتحل الدولة العثمانية محلها ، كان لوبو سوريز يسعى للسيطرة على ميناء جدة والدخول إلى الأماكن المقدسة لتدميرها . ولا تشير المصادر التاريخية إلى أية مساعدة أو استعدادات أرسلت من دولة المماليك إلى ثغر جدة لمواجهة الغزو البرتغالي الأخير ، حيث كانت دولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد السلطان سليم العثماني [٦٧] . ثم أن العثمانيين أنفسهم قابلوا بعض المشاكل أثناء دخولهم بلاد الشام ومصر للقضاء على دولة سلاطين المماليك ، فلم يتمكنوا هم الآخرون من إرسال قوة تدافع عن جدة والمقدسات الإسلامية ، وخاصة أن دخولهم مصر والسيطرة عليها تزامن مع الحملة البرتغالية التي دخلت البحر الأحمر بقيادة لوبو سوريز في عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧ م) [٦٨] .

أما كيف تقهقرت الحملة البرتغالية من أمام ميناء جدة ، وخاصة أنها أول حملة استطاعت الوصول إلى جدة ،فلا نجد في المصادر التاريخية تفصيلات عن الصدام الذي حدث بين البرتغاليين والمسلمين المرابطين في جدة . وكل ما أشارت إليه هو تصدي سلمان الريس بمن كان معه في الميناء لتلك الحملة الكبيرة حتى استطاعوا هزيمة البرتغاليين ومطاردتهم

---

(٦٦) وللمزيد من التفصيلات ، انظر النهرواني ، البرق اليماني ، ص ٤٢ وما بعدها ، بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، على حسون، تاريخ الدولة العثمانية (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) ص ٤٥-٥٢ .

(٦٧) المصادر نفسها .

(٦٨) بامخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ وما بعدها ، النهرواني ، البرق اليماني ، ص ٣٥ وما بعدها .

في مياه البحر الأحمر (٦٩) . ويبدو أن هناك ظروفاً عدة ساعدت على إنهزام البرتغاليين ورجوعهم عن جدة ، وخاصة أن القوى الإسلامية في كل من مصر والشام كانت تمر بمرحلة عصيبة فلم تتمكن من التصدي للبرتغاليين كما فعل المماليك في الأعوام السابقة لحملة لوبو سوريز .

وهذه الظروف يمكن إجمالها فيما يأتي :

١ - مناعة السور والتحصينات التي كان قد أقامها الأمير حسين الكردي حول جدة ، وقد اعترف البرتغاليون أنفسهم بتلك التحصينات عندما حاولوا إختراقها في تلك الحملة الأخيرة (٧٠) .

٢ - ربما ساعدت الشعب المرجانية التي يزخر بها البحر الأحمر في إعاقة الحركة عند البرتغاليين ، خاصة وأنهم كانوا يجهلون ممرات ذلك البحر . ولعل حرصهم على أخذ مرشدين بحارة من العدنيين ليعينوهم في رسم الطريق لهم في هذا البحر أكبر دليل على عدم درايتهم بدروبه ونظام الملاحة فيه .

٣ - لا نستبعد أن يكون أولئك الملاحين الذين أرسلهم أمير عدن قد أحسوا بعظم الجريمة التي يقومون بها في مساعدة الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين ، وأدركوا ما يحل بالمسلمين من مصائب لو تمكن النصارى من السيطرة على الحرمين الشريفين ، لهذا فإنهم لم يخلصوا في أرشادهم للبرتغاليين ، وربما زودهم بمعلومات غير صحيحة أدت إلى فشلهم ضد القوات الإسلامية المدافعة عن جدة .

---

(٦٩) بامخرمة و المرجع السابق ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .
(٧٠) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠١ - ١٠٣ ،
Serjcant , The Portuguese , PP. 170 ff .

٤ - عظم الأمر على المسلمين بوصول البرتغاليين إلى جدة التي هي بوابة مكة المكرمة ، ولا نستبعد أن يكون جميع من في جدة ، بل من في الحجاز ، قد عملوا ما في جهدهم للدفاع عن جدة ضد هذا العدو الصلبي الجديد . والسبب الذي يجعلنا نجزم بهذا القول ، هو أن جدة صارت رباطاً للمجاهدين ، بل ظهرت فتاوى من علماء المسلمين في الحرمين وغيرهما بأن ميناء جدة أهم رباط في الإسلام ، فينبغي لمن دخله أو أقام فيه أن ينوي المرابطة والجهاد والدفاع عن بيت الله الحرام ، ويحمل ما يستطيع حمله من السلاح لدفع أهل الشرك والعناد . وهناك من العلماء من أفتى بأن ثغر جدة أفضل الثغور لقربه إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة الذي يكون من دخله آمناً ، وأن فضل من رابط فيه على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان في سائر الأزمان والدهور . وذكروا عن رسول الله ﷺ قوله « يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة »(٧١) .

هذه هي نظرة الإسلام والمسلمين إلى جدة درع الحرمين . وعندما يصل الأمر إلى ما وصل إليه في حملة لوبو سوريز البرتغالي من خطر على جدة والحرمين ، لابد وأن يكون صدى ذلك عند المسلمين ، وخاصة المواجهين للخطر المباشر مثل سكان الحرمين ، قوياً وعنيفاً ، يبذلون فيه الغالي والرخيص من أجل الدفاع عن الكعبة المشرقة ، وقبر الرسول الكريم ﷺ وهذا بالفعل ما حدث من أهل الحجاز عندما دهمهم الخطر البرتغالي عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) .

(٧١) انظر ، الفاسي ، شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٤٠-٤٢ ، حسن أحمد محمود ، انتشار الإسلام في أفريقية . (القاهرة ، د.ن ، ١٩٦٣م) ص ١٩-٢١ .

وبعد أن قضت الدولة العثمانية على دولة سلاطين المماليك في مصر عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) انتقلت أمانة حماية الحرمين إلى العثمانيين الذين ورثوا مهمة الدفاع عن البحر الأحمر ضد هجمات البرتغاليين . وقد بقيت جدة في حسبان سلاطين بني عثمان لأهميتها بالنسبة لمسيرة التجارة في البحر الأحمر ، ولقربها من الحرم الشريف في مكة المكرمة . ولهذا حافظوا على صلاتهم الوطيدة بأمراء مكة من الأشراف ، وسعوا إلى أحكام التحصينات على جدة والتصدي للقوات البرتغالية التي لم تكتف بحملة لوبو سوريز .

ذلك أن البرتغاليين لم يكفوا عن مهاجمة البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جدة ، وإنما أعدوا حملة بحرية كبيرة بقيادة نائب الملك البرتغالي لوبر سكويرا الذي خلف لوبو سوريز ، فخرجت هذه الحملة من الهند حتى وصلت إلى مدخل البحر الأحمر في أوائل سنة (٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) . وكان هدف لوبر سكويرا ، مثل من سبقه ، هو التركيز على مهاجمة جدة بصفة خاصة ، فلم يتوقف في عدن وإنما سارع بالتقدم إلى ميناء جدة قبل أن يفوته موسم الرياح . ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى جدة لمعاكسة الرياح لسفن حملته ، ولأنه علم أن بها حشوداً عسكرية كبيرة تعمل على التصدي له (٧٢) . وعندئذ إنحرف لوبو سكويرا إلى ميناء مصوع بهدف الإتصال بالأحباش لعقد تحالف مشترك ضد القوى الإسلامية (٧٣) ، ثم عاد أدراجه إلى بلاد الهند .

---

(٧٢) انظر النهرواني ، البرق اليماني ، ص ٧٠ وما بعدها ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠٥-١٠٦ .
Serjeant , The Portuguese , PP. 171-172 .

(٧٣) وللمزيد من التفصيلات عن العلاقات مع الأحباش : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٥٣ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ١٠٨ وما بعدها .
Alvarez (A Portuguese) PP. 311-321. 393 ff .

وفي السنوات الأخيرة من العقد الثالث في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) حاول البرتغاليون مرة أخرى مد نفوذهم على البحر الأحمر ، وخاصة على الموانىء الرئيسية فيه ، مثل مينائي جدة وعدن ،لكنهم لم يستطيعوا السيطرة عليهما لتصدي القوى المحلية لهم في كل من اليمن والحجاز ، فضلاً عن أن الدولة العثمانية التي كانت قد ورثت مسؤليات سلاطين المماليك في الدفاع عن البحر الأحمر وحماية المقدسات الإسلامية ، دأبت على تعزيز سواحل البحر الأحمر المطلة على الحجاز ببعض القوات العسكرية (٧٤) . ولم ينبر العثمانيون بشكل جاد في العمل على طرد البرتغاليين من البحر الأحمر وإغلاقه أمام قواتهم إلا في منتصف القرن العاشر الهجري . والسبب في تأخرهم أكثر من عشرين سنة بعد دخولهم مصر وقضائهم على دولة المماليك عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) ، هو انشغالهم بالعديد من الفتن والثورات في بلاد فارس والعراق وغيرهما من بلدان الشرق الأدنى (٧٥) .

وفي تتبعنا لتلك الحملات البرتغالية على ميناء جدة في أواخر عصر دولة سلاطين المماليك حتى قضى العثمانيون على هذه الدولة عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) لابد من إلقاء نظرة على الجبهة الداخلية في الحجاز - جدة ومكة المكرمة - وموقف هذه الجبهة من العدوان الصليبي ، وما ترتب على كل ذلك من آثار سلبية .

ولشرح ذلك نقول إنه من المعلوم أن أهل الحجاز كانوا في خوف مما دهم بلادهم ، وخاصة إن هذا الخطر المتمثل في البرتغاليين لم يكن كأي

---

(٧٤) انظر بامخرمة ، البحر الأحمر ، دراسة وتحقيق محمد عبد العال، ص ٢١٠ وما بعدها ، النهراواني ، البرق اليماني ، ص ٧٨ وما بعدها .

(٧٥) وللمزيد من التفصيلات انظر : علي حسون ، تاريخ الدولة العثمانية ص ٤٢-٦٦ .

خطر آخر ، لأنهم أدركوا أن البرتغاليين يسعون للسيطرة على جدة لكي يتمكنوا من الدخول إلي مكة لتدميرها ، ولذا فإن الصراع كان عقائدياً بين النصاري والمسلمين قبل أن يكون صراعاً إقليمياً على أرض أو ما شابهها. ومن واقع هذا الإحساس أخذ علماء الحجاز يصدرون الفتاوي لكل الناس يحثونهم على الجهاد ويبينون عظم الأجر والمثوبة لمن يحمل سلاحه وعتاده ويذهب في سبيل الله إلى جدة للمرابطة فيها ضد البرتغاليين (٧٦) . وكان أن تجاوب أناس كثيرون مع هذه الدعوة ، على رأسهم أميرمكة في عهد السلطان قانصوه الغوري الشريف بركات (٧٧) الذي ذهب في جمع كبير من مكة إلى جدة أثناء عمل الأمير حسين الكردي في بناء سور جدة ، فعملوا جميعاً في تشييد السور وملحقاته . كذلك ساعد الأمير الشريف بركات في نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور ، وبقى إلى جانب الأمير حسين الكردي يشرف على عملية البناء ، وأشارت إحدى الروايات إلى أنه كان يقف على العمارة راكباً فرسه ليحضر بحضوره جميع من بالبلد ويعينون في حمل المؤن ، الكبير والصغير والغني والفقير ، المأمور والأمير (٧٨) ، وظل أهل الحجاز ، وخاصة أمراء مكة ، متيقظين لتحركات البرتغاليين في المياه الهندية ومحاولة دخولهم إلى البحر الأحمر ، فتجدهم على إتصال دائم بحاميات المسلمين ، التي تركها حسين الكردي في جدة ، بعد رجوعه إلى السويس للإشراف على الأسطول المصري الجديد الذي كان يعده الغوري بعد هزيمة جيشه في معركة ديو ،

---

(٧٦) انظر عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٤٠ وما بعدها .

(٧٧) هو بركات بن محمد بن حسن بن عجلان ، تولى إمارة مكة المكرمة بعد وفاة أبيه ، وكانت له وقائع مع اخوانه هزاع وحميضة والجازاني ، وتوفي بمصر عام ٩٣١هـ / ١٥٢٥م ، انظر عبد القادر بن شيخ العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر (بغداد : د. ن. ، ١٣٥٣هـ) ص ١٥٢، أحمد دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام (القاهرة : د. ن. ، ١٣٠٥هـ) ص ٤٦-٥٢ .

(٧٨) انظر عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥٨ .

فيساعدونهم ويمدونهم ببعض السلاح والعتاد ، إلى جانب رفع روحهم المعنوية بوصفهم يدافعون عن مقدسات المسلمين . كذلك ظل أمراء الحجاز على صلة مستمرة بالسلطان قانصوه الغوري يطلعونه على ما يبدر من البرتغاليين في الشرق ، ويطلبون منه سرعة النجدة ضد الغزو الصليبي مرة بعد أخرى . أما الشريف بركات من أمراء الحجاز فكان حريصاً على تعزيز التحصينات في جدة وإطلاع السلطان الغوري بكل جديد . ومن ذلك أنه حدث في عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) أن ساد أهل الحجاز خوف شديد عندما سمعوا بخروج حملة برتغالية من الهند في طريقها إلى جدة ، الأمر الذي دفع الشريف بركات للتوجه مع بعض رجاله من مكة إلى جدة لكي يتصدى لهذه الحملة المنتظرة ، كما أسرع في مخاطبة السلطان الغوري وبين له خطورة الموقف وطلب منه المدد والنجدة، فأرسل إليه السلطان قوة عسكرية بقيادة حسين الكردي لتدافع عن ثغر جدة حتى يتم تجهيز الأسطول الجديد الذي كان السلطان الغوري يعده في السويس [(٧٩)] .

وقد سبق أن أشرنا إلى حملة البرتغال بقيادة لوبو سوريز ضد جدة ومكة في عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وكيف انها منيت بالهزيمة من الحامية المحلية التي كانت مقيمة في رباط جدة ، ونضيف هنا أن النصر الذي أحرزه المسلمون ضد تلك الحملة الصليبية لم يحدث من فراغ ، مع ملاحظة أنه لم يأتهم أي مدد أو نجده من المماليك أو غيرهم ، وإنما تم النصر بفضل تماسك وتعاون الجبهة الداخلية في الحجاز مما مكن المسلمين المرابطين في جدة من رد هجمات البرتغاليين .

وكانت جدة في أواخر العصر المملوكي تتبع إدارياً بشكل مباشر سلطان المماليك في القاهرة ، فهو الذي يعين مشرفاً يتولى إدارة جدة ، ويطلق

---

(٧٩) إبن إياس ، بدائع الزهور ،. جـ ٤ ، ص ٣٠٧ وما بعدها

على هذا الموظف لقب « نائب جدة » أو « ناظر جدة » [80] . وكانت مهمته إدارة الأمور السياسية والتجارية والنظر في أمور التجار في الميناء. ثم جمع الضرائب المفروضة على التجارة القادمة إلى جدة ، وخاصة من بلاد الهند . وهذا النظام السياسي الجديد لم تعرفه جدة إلا في أواخر العصر المملوكي ، في حين كانت إدارتها وجباية الضرائب فيها من قبل من مسؤليات أمراء مكة من الأشراف [81] .

وهناك أسباب جعلت سلاطين المماليك الأواخر يتولون الإدارة المباشرة لسيناء جدة وتتمثل هذه العوامل فيما يلي :

١ - تدهور الأوضاع السياسية والإقتصادية في دولة سلاطين المماليك، وإحتياجهم إلى الأموال التي تغطي نفقاتهم ، مع إدراكهم أهمية ميناء جدة الذي ترتاده السفن التجارية من شتى بلاد المشرق ، فضلاً عن كثرة الضرائب التي تجمع من التجار الذين يرتادون هذا الميناء . ولهذا رأي السلاطين أهمية إستئثارهم بهذه الضرائب بدلاً من أن ينفرد بها أمراء مكة ، مبررين عملهم ذلك بدفاعهم عن ميناء جدة وعن المقدسات الإسلامية في الحجاز [82] .

---

(٨٠) أن أهمية جدة الإقتصادية وما يفد إليها من تجارات العالم وما يؤخذ من ضرائب جعلت سلاطين المماليك الأواخر يستأثرون بتلك الضرائب عن طريق السيطرة إدارياً وبشكل مباشر على ثغر جدة ، بعد أن كانت من قبل تابعة لأمير مكة المكرمة ، وهذا التصرف من المماليك يؤكد لنا تدهور أحوالهم الإقتصادية ، حتى أصبحنا نراهم يلجأون إلى جمع المال بأي طريقة كانت . وللمزيد من التفصيلات عن أحوال جدة الإدارية والإقتصادية في أواخر عهد المماليك ، انظر: تقي الدين أحمد المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٣م) جـ ٤ ص ٧٠٧ وما بعدها ، ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي (الرياض : عمادة شؤون المكتبات . جامعة الملك سعود ، ١٩٨٥م) ص ١٧٣ وما بعدها

(٨١) المصادر نفسها .

(٨٢) المصادر نفسها

٢ - لم يحسن أمراء مكة المكرمة جمع الضرائب من تجار جدة ، وإنما بالغ بعضهم في جمعها حتى إرتفعت الشكاوي من بعض التجار الذين كانوا يرتادون الميناء ، وبالتالي صار بعضهم يغير إتجاه تجارته إلى بعض المواني الأخرى على سواحل البحر الأحمر كزيلع ، أو عدن ، أو ينبع وغيرها [٨٣] . وهذا الوضع في جدة ساعد سلاطين المماليك في التحكم في تجارها وتجارتها ، ظناً منهم أن الأحوال الأمنية والإدارية ، وخاصة فيما يمس الناحية التجارية ، ستكون في حالة أفضل من ذي قبل ، ولكن سرعان ما سارت الأمور إلى الجانب المعاكس .

أما عن الجوانب السلبية التي عانت منها جدة في تلك الحقبة فيمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - تدهور الأحوال الإقتصادية ، وخاصة التجارية منها ، في ميناء جدة وفي الطريق المؤدي إلى مواني مصر الرئيسية ، وكان ذلك مظهراً من مظاهر الخلل الذي أصاب الأوضاع في الدولة المملوكية بوجه عام ، ويظهر الحال واضحاً في حديث ابن إياس عن حوادث (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) عندما قال : « .. وكان في تلك الأيام ديوان الفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الإنشجاب والتعطيل ، فإن بندر الإسكندرية خراب لم تدخل إليها القطائع (السفن الكبيرة) في السنة الخالية ، وبندر جدة خراب نحواً من ست سنين .. [٨٤] ، وحديث ابن إياس يصور لنا سوء الحال الذي لحق بميناء جدة في السنوات التي كان دالبو كيرك البرتغالي متزعماً مطاردة المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهم .

---

(٨٣) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي ص ١٨٣ ومابعدها .

(٨٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٥٩ .

٢ - قسوة بعض الأمراء الذين كانوا يعينون من قبل السلطان الغوري علي ميناء جدة ، حتى قيل إن بعضهم كان لا يتهاون في أخذ الناس بالقوة، وخاصة التجار منهم ، فكانوا يجمعون منهم الضرائب الباهظة . ومن لا يتجاوب مع رجال المماليك يتعرض لعقوبة قاسية قد تودى بحياة البعض منهم . وكان الأمير حسين الكردي ، الذي اشرف على بناء سور جدة وتحصيناتها أعظم مثال لقسوة أمراء المماليك على التجار في جدة ، إذ ذكرت بعض المصادر التاريخية أنه كان يأخذ العشر من تجار الهند ، المثل عشرة أمثال (٨٥) . وعمله هذا كان من الأسباب التي دفعت التجار الهنود إلى الإنصراف عن النزول في ثغر جدة ، وبذلك آل أمر الميناء إلى التدهور والخراب .

وقد ذكرت الروايات التاريخية ما قام به الأمير الكردي من بطش عندما كان في جدة يشرف على تحصينها ، فكان يجبر الناس على تقديم أموالهم والمشاركة بأرواحهم وأجسادهم في تعزيز التحصينات حول جدة ، ومن يتكاسل أو يتهاون فيما أوكل إليه كان يتعرض للعقوبات الصارمة من الأمير الكردي .

وكثيراً ما لجأ إلى عقوبة القتل أو الشنق لمن يبدو منه أي إمتناع أو مراوغة (٨٦) . وهذه السياسة التي سلكها الكردي انتقده فيها بعض المؤرخين ، حتي وصفوه بالقسوة والوحشية (٨٧) . ولو أن البعض

---

(٨٥) انظر إبن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٩٠ ، النهرواني ، البرق اليماني ، ص ١٩ وما بعدها ، أحمد دراج ، المماليك والفرنجة ، ص ٥٧ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٨٦) النهرواني ، كتاب الأعلام ، ص ٢٤٥ ، عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥٥ - ٥٨ .

(٨٧) النهرواني ، البرق اليماني ، ص ١٩ ، وللمؤلف نفسه ، كتاب الأعلام . ص ٢٤٥ .

إلتمس له العذر لإحساسه بفداحة الخطر البرتغالي وإدراكه أن دولة المماليك كانت تعاني في آخر عهدها من أزمات مالية كبيرة .

وإذا كانت سفن البرتغال قد نجحت في مياه بحر العرب والمناطق القريبة من باب المندب ، إلا أن التحصينات البحرية في ميناء جدة لم يقدر للبرتغاليين النيل منها على الإطلاق ، سواء في نهاية العصر المملوكي أو مع بدايات العصر العثماني ، مما يعني أن تكاليف إنشائها مهما فاقت حدود وإمكانات الدولة والأهالي فإنها كانت في النهاية واقياً منيعاً ، أسهم في سلامة البحر الأحمر ، وبالأخص ثغر جدة ، من السفن البرتغالية التي كانت ترفع راية الصليب على أشرعتها .

وإذا نظرنا إلى عامة موظفي الدولة المملوكية ، أو موظفي الإدارة العثمانية في جدة بعد سقوط دولة المماليك نراهم أشد قسوة على أهل جدة وتجارها لما قاموا به من سلب ونهب في أسواقها ، بل ما صدر منهم من فساد وخراب حتى إنقطعت الميرة عن جدة ومكة المكرمة ، وارتفعت الأسعار وانتشرت الأمراض ووقع القحط الشديد [٨٨] .

٣ - زادت إغارة بعض القبائل العربية على ميناء جدة ، وخاصة عشائر بني إبراهيم الذين كانوا يسعون إلى قطع الطريق على الحجاج ، بل وصل بهم الأمر في بعض الأحيان إلى تهديد التجار في ثغر جدة ، وسلب ما لديهم من أموال وسلع مختلفة . وقد بادر السلطان الغوري بإرسال قوات عسكرية أكثر من مرة لكي تردعهم وتفرقهم ، ومن أعظم تلك القوات تلك الحملة التي قادها الأمير حسين الكردي في طريقه إلى جدة إذ إصطدم بهم وهزمهم وأخذ على زعمائهم المواثيق بعدم مهاجمتهم التجار في جدة .

---

(٨٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، جـ ٢ ، ص ٦٢٦-٦٢٧ ، ٦٦٧ .

وخلاصة القول أن العداء بين الشرق والغرب في تلك الحقبة يمثل صراعاً بين اتباع عقيدتين هما الإسلام والمسيحية .. بمعنى أنه كان مظهراً من ذيول الحروب الصليبة ، وما لمسناه في هذا البحث من خروج البرتغاليين من بلاد غرب أوروبا نحو الهند ثم عملهم باستمرار للدخول إلى البحر الأحمر لكي يسيطروا على موانيه ، وخاصة ميناء جدة الذي يوصلهم إلى مقدسات المسلمين في الحجاز ، ليس إلا أسلوباً جديداً من أساليب الصليبيين التي استهدفوا من ورائها السيطرة على ثروات المسلمين ، ثم نشر معتقداتهم في أراضي المسلمين ، وأخيراً السيطرة على مقدسات المسلمين لإذلالهم ، وهذه محاولات ليست جديدة على المسلمين فقد رأينا الصليبيين الأوائل يأتون إلى بلاد الشرق الأدنى منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر للميلاد وهم يحملون نفس المبادىء التي جاء بها البرتغاليون ، لكنهم عادوا مدحورين دون أن يتحقق لهم ما كانوا يتطلعون إليه .

وهكذا غدا البحر الأحمر ميداناً واسعاً من ميادين الحروب الصليبية في عصرها الأخير . وفي هذا الميدان برزت أهمية جدة الدينية والإقتصادية لتكون قاعدة كبرى ، بل القاعدة البحرية الأولى التي صمدت أمام غزوات البرتغاليين دفاعاً عن الحرمين الشريفين .

﴿ النتاج العلمي للمؤلف ﴾

النتاج العلمي

« كتب وبحوث للمؤلف »

أ - الكتب :

١ - افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية (جدة - دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ،) ثلاث طبعات أولى وثانية وثالثة (والطبعة الأولى من منشورات نادي أبها الأدبي عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) .

٢ - بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (أبها : مطابع مازن ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) .

٣ - صفحات من تاريخ عسير ، الجزء الأول (جدة - دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) طبعتان أولى وثانية .

٤ - بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، الجزء الأول ، تقديم ومراجعة الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ، رئيس اتحاد المؤرخين العرب (الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) .

٥- عسير : دراسة تاريخية في الحياة الإجتماعية والاقتصادية (١١٠٠ - ١٤٠٠ هـ / ١٦٨٨ - ١٩٨٠م) (جدة - دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م) .

٦ - تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤-١٣٨٦هـ / ١٩٣٤ -

١٩٦٦م) الجزء الأول . (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م).

٧ - الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري . دراسة نشرت في هيئة كتيب بمركز بحوث كلية التربية بأبها ، وتم تصويره وتجليده في مطابع جامعة الملك سعود بالرياض (عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) .

٨ - أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) . (الرياض : مطابع الفرزدق ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م) .

٩ - الأقليات الإسلامية في العالم (١) أفريقيا ، الجزء الأول (أبها : نادي أبها الأدبي ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م) (بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور / السر سيد أحمد العراقي) .

١٠- بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، الجزء الثاني (تحت الطبع) .

١١ - تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة . الجزء الأول (تحت الطبع) .

ب - البحوث :

١ - « بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني » مجلة الدارة ، ربيع الآخر والجماديان (١٤١٤هـ) - العدد الثالث ، السنة (١٩) ، ص ٧٦-١١١ .

٢ - بلاد بني شهر وبني عمرو خلال العصر الإسلامي الوسيط » مجلة

العرب » (جـ ٩ - ١٠) سنة (٢٧) (الربيعان) (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م) ص ٦٠٧-٦٢٤ .

٣ - بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثاني ، المجلد الأول - مارس (١٩٩٤م) ص ٧٣-١٠٠ .

٤ - تاريخ مخلاف جرش خلال القرون الإسلامية الأولى مجلة العصور ، مج ٩ ، جـ ١ (رجب ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ص ٧٣-٧٨ .

٥ - بلاد تهامة والسراة منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى عهد حروب الردة بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد (٣٨) لعام ١٩٩١-١٩٩٥م ، ص ٤١-٦٥ .

٦ - أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز (١٥٨هـ ٧٧٤م - ١٦٩هـ / ٧٨٥م) مجلة الدارة (رجب ، وشعبان ورمضان ، ١٤١١هـ) العدد الرابع سنة (١٦) ص ١١٣-١٢٩ .

٧ - الأوضاع السياسية والحضارة في الحجاز خلال عهد الخليفة العباسي أبى جعفر المنصور (١٣٦هـ / ٧٥٣م - ١٥٨هـ - ٧٧٤م) ، منشور ضمن سلسلة دراسات مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، القاهرة ، رقم السلسلة (٩٦) (١٤١١هـ / ١٩٩١م) ، ثم أعيد نشر هذه المقالة في مجلة العرب ، وعلى جزئين في العددين المتتالين (رجب وشعبان) ، و(رمضان وشوال) ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م ، سنة (٢٩) من ص ٥١-٦٣ ثم في الجزء الآخر من ١٧٥ - ١٨٤) .

٨ - « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام » مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية العدد الثامن (رجب ١٤١٣ هـ / ١٩٩٤م) ص ٤١٢-٤٣٣ ، ثم أعيد نشر هذه المقالة في مجلة العرب ، وعلى جزئين في العددين المتاليين (ذو القعدة والحجة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) ومحرم وصفر ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م) سنة (٢٩) .

٩ - « تاريخ عقوبة النفي منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بني العباس» مجلة جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد السادس (المحرم ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ٥٨٨-٦٠٩، وقد أعيد نشرها في مجلة المنهل،العدد (٥١٢) شعبان ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) ص ٨٢-٩٠ .

١٠- « صور من تطور نظام العيون (الاستخبارات) خلال القرون الإسلامية المبكرة » منشورة ضمن سلسلة دراسات مركز بحوث الشرق الأوسط بالقاهرة ، ورقم السلسلة (٨٩) (١٤١١هـ / ١٩٩١م) ثم أعيد نشر هذه المقالة مع بعض الإضافات في مجلة المنهل العدد (٥١٦) عام (٦٠) المحرم ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م) ص ٦٦- ٧٥ .

١١ - « صور من تاريخ المثلة منذ فجر الإسلام حتى قيام دولة بني عباس» مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة (١٨) (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٢ هـ) ص ٨٤-١٠١ .

١٢ - « الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز » مجلة العرب ، جـ ٧و٨ سنة (٢٦) (محرم وصفر ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م) ص ٤٤٧-٤٦٢ .

١٣- « أهم الحرف والصناعات في الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة » مجلة المنهل ، العدد (٤٩٢) مج ٥٣ جمادي الأولى

والآخر ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م ص ٨٣-٩٦ .

١٤ - « مواقف خلفاء بني العباس الخيرية تجاه أهل الحجاز » (١٣٢-٢٣٢هـ ، مجلة المنهل ، العدد (٤٩٧) مج ٥٤ (المحرم ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ٨٢-٨٨ .

١٥- « علماء الحجاز وعلاقتهم بخلفاء بني العباس (١٣٢-٢٣٢ هـ / ٧٤٩-٨٤٦م) » مجلة المنهل ، العدد (٥١٠) مج ٥٥ جمادي الآخر (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م) ص ٥٠-٥٦ . وسبق أن نشرت في نفس مجلة المنهل العدد (٥٠٢) مج ٥٤ ، شعبان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) ص ٢٥-٣٠ .

١٦- « أهم الملابس العربية خلال العهود الإسلامية الأولى » مجلة المنهل،العدد(٤٩٨) مج ٥٤(صفر١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م) ص ٧٨-٩٥ .

١٧- « العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام » مجلة المؤرخ العربي ، العدد الأول ، المجلد الأول ، مارس (١٩٩٣م) ص ١٢٨-١٥٨ ، ثم أعيد نشرها مع التطوير والإضافة في مجلة المنهل عدد (٥١٤) مج ٥٥ ، شوال ، ذو القعدة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ص ٤٨-٥٩ ، كما اضيف عليها بعض التفصيلات والتعديلات ونشرت في مجلة العرب ، جـ ٣ , ٤ سنة (٣٠) (رمضان ، شوال ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) ص ١٨٥-٢٠٥

١٨ - « البحر في كتب التراث الإسلامي (اللغوية والأدبية والجغرافية والرحلات والتاريخية والموسوعات) بحث قدم ضمن الندوة التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة الممتدة من ٢٢-٢٤ جمادي الأولى ١٤١٤هـ / ٦-٨ نوفمبر ١٩٩٣م ،

ونشرت ضمن بحوث الندوة في كتاب « الحضارة الإسلامية وعالم البحـــار (بحوث ودراسات) » (منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) ، ص ٩١- ١٣٤ .

١٩ - « المدينة المنورة ...... ورقات من ذاكرة التاريخ ١٣٢-١٦٩هـ» مجلة المنهل (العدد السنوي الخاص) عدد (٤٩٩) مج٥٥ (الربيعان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ١١٢- ١٢٠ .

٢٠ - « القدس الشريف خلال القرون الإسلامية المبكرة » مجلة المنهل (العدد السنوي الخاص) عدد (٥٠٨) مج ٥٥ (الربيعان ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م) ص ٤٠- ٤٥ .

٢١ - « الامارات في الحجاز خلال العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٤٩-٨٤٦م) » مقالة نشرت باللغة الأنجليزية ، في مجلة العصور، المجلد الســـــــــابع ، الجزء الأول ، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) PP. 13 - 21 .

٢٢ - « العمائم تيجان العرب » مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي ، العدد (٨) ،محرم ١٤١٣ هـ ص ٦٦-٧١ .

٢٣ - « المستشرقون ونشاطهم تجاه دراسة التراث الإسلامي ، مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي ، العدد (٦) (محرم ، ١٤١٢هـ) ص٦٢-٧٧ .

٢٤ - « الدونمة بين اليهودية والإسلام » مجلة المنهل ، العدد (٤٩٦) مج ٥٣ ، ذو الحجة (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٩٠-٩٦ .

٢٥ - « يهود الدونمة في الميزان » مجلة التضامن الإسلامي السنة (٤٧) ، الجزء الثامن (صفر ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ص ٢٤ - ٣٠

٢٦ « اراء حول التاريخ وكيفية تدريسه في الجامعة » مجلة المنهل العدد (٥٠٧) مج ٥٥ (صفر ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) ص ١٢-١٧ . ثم أجرى عليه بعض التعديلات ونشر في مجلة القافلة العدد (١١) مج ٤٢ (ذو القعدة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) ص ٤٤-٤٧ .

٢٧ - « كيف نبني ثقافتنا » مجلة المنهل العدد (٥٠٦) مج ٥٥ (المحرم ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م) ص ٣٠- ٣٦ .

٢٨- « المخطوطات العربية بمكتبة كلية التربية بأبها (فرع جامعة الملك سعود) » مجلة المنهل ، العدد (٤٨٧) مج ٥٢ ، (رمضان وشوال ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ١٩٠-١٩٣ .

٢٩- « صور من التنظيمات العرفية الحديثة ببلاد عسير في ضوء بعض الوثائق المحلية ، مجلة العرب ، جـ ٧,٨ سنة (٢٧) محرم وصفر (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ص ٤٤٥-٤٦١ .

٣٠- « من رسائل الملك عبد العزيز آل سعود ورجال حكومته إلى بعض الشيوخ والعشائر العسيرية ، مجلة العرب ، جـ ١١و١٢ سنة (٢٧) (الجماديان ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ٧٣٥-٧٥١ .

٣١ - « ملامح من حياة الأمن والاستقرار في عسير في عهد الملك عبد العزيز ، مجلة العرب ، جـ ١, ٢ سنة (٢٧) (رجب وشعبان ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ٢٧- ٤٤ .

٣٢ - «أسر الفقهاء ببلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرون المتأخرة الماضية ، مجلة العرب ، جـ ٩, ١٠ سنة (٢٦) (الربيعان ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١م) ص ٥٩٤-٦١١ .

٣٣- « وثائق من عسير خلال الحكم العثماني (١٢٨٩-١٣٣٧هـ) » مجلة العرب ، جـ ٣ . ٤ سنة (٢٨) (رمضان وشوال ، ١٤١٣ هـ /

١٩٩٣م) ص ١٥٤-١٧٠ .

٣٤- « من رسائل الملك عبد العزيز آل سعود إلى الشيخ عبد الوهاب أبو ملحة » مجلة العرب ، جـ ٥ . ٦ سنة (٢٨) (ذو القعدة والحجة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) ص ٣٤١-٣٥٩ .

٣٥ - « العادات والتقاليد في عسير من خلال الوثائق » مجلة العرب، جـ ٧ ، ٨ ، سنة (٢٨) (محرم وصفر ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م) ص ٤٨٦- ٤٩٨ .

٣٦ - « صور من الاحتفالات الرمضانية عبر العصور الإسلامية ، مجلة المنهل (ضمن العدد (٥١٣) مج ٥٥ ، رمضان ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) ص ١١٣-١١٧ .

٣٧- « دور أهل تهامة والسراة في ميادين الفتوحات الإسلامية المبكرة » مجلة الدارة ، العدد (٤) سنة (٢٠) رجب وشعبان ورمضان ١٤١٥ هـ ، ص ٤٠-٧٠ .

٣٨ - « الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى » مجلة المؤرخ العربي ، العدد (٣) مجلد رقم (١) مارس ١٩٩٥م ، ص ٦٧- ٨٥ .

٣٩ - « جدة في مواجهة الخطر البرتغالي خلال الثلث الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي » بحث قدم ضمن الندوة التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة الممتدة من (٢٥-٢٧جمادي الآخر) ١٤١٥ هـ / ٢٨- ١٩٩٤/١١/٣٠ م) ونشرت ضمن بحوث الندوة في كتاب « الصراع بين العرب والاستعمار في عصر التوسع الأوروبي الأول » (منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (القاهرة : المطبعة الإسلامية الحديثة ،

١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م) ص ٢٢٧- ٢٧١ .

٤٠- « مـهنة الطب في ضـوء شـريعـة الإسـلام » مـجلة المنهل العـدد (٥٢٣) المجلد (٥٧) العام (٦١) المحرم ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ٤٦-٥١ .

٤١ - « مكانة شعر اللحيـة والرأس عند سكان المجتـمعات العربيـة القـديمـة. مـجلة الحرس الوطني ، عـدد (١٣٧) سنة (١٥) رجب ١٤١٤ هـ (١٩٩٤م) ص ١٠٨-١٠٩ .

٤٢- « ملامح الحيـاة الإجتماعيـة في العراق خلال عـصر بن العباس » مجلة المنهل العدد (٥٢٥) مج ٥٧ عـام (٦١) الربيعان ١٤١٦ هـ (١٩٥٥م) ص ١٦٨-١٧٤ .

٤٣ - « زي الطيلسان : دراسة تاريخية حضارية » ملف بيادر الصادر من نادي أبهـا الأدبي ، عـدد (١٨) ربيع ثاني ١٤١٧ هـ (١٩٩٦م) ص ٦٥-٧٤ .

٤٤- « سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى » (٦٠٠-٩٠٠هـ/ ١٢٠٠-١٥٠٠م) في مجلة المؤرخ المصري العدد السادس عشر) يوليو ١٩٩٦م (الصادرة من قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م) ص ١٥٣-١٨٩ .

٤٥- « ظاهرة السـمل بين التشريع والتسـييس في العـصور الوسطى » نشر في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، مسلسل رقم (١٨٦) (القـــــاهـرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م) ص ١-٣٧ .

٤٦ - الدور الحضاري لنشاط التجارة بين شمالي وغربي أفريقيا في العصور الوسطى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد (٤٥) (العـــام الجـــامـــعي ١٤١٧ هـ / ٩٦/١٩٩٧ م) ص

١٣١-١٦١

٤٧ - « سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقاتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط » مجلة كلية البنات بجامعة عين شمس ، عدد (١٩) (١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م) .

٤٨ - التعليم وحركة التحول التاريخي في منطقة عسير خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ، مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي ، عدد (٢٠) محرم (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م) ص ٢٦-٢٩ .

٤٩ - الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي خلال العصور الوسطى ، (مجلة المؤرخ العربي بالقاهرة) مجلد (١) العدد (٥) (مارس ١٩٩٧م) ص ١٦٥-١٩١ .

٥٠ - الحياة الإجتماعية والاقتصادية في بلاد السراة خلال العصور الإسلامية الوسيطة(بحث في طريقه للنشر بمركز البحوث في كلية التربية، جامعة الملك سعود ، فرع أبها) .

٥١ - تاريخ بيشة خلال القرون الإسلامية الأولى (بحث في طريقه للنشر).

٥٢ - تاريخ نجران خلال العهود الإسلامية الأولى (بحث تحت الطبع).

٥٣- تاريخ الطائف خلال العصر الإسلامي المبكر (بحث في طريقه للنشر).

٥٤ - تاريخ حائل عسير خلال القرون المتأخرة الماضية (بحث تحت الطبع) .